١٧

صفحات من تاريخ مصر

المقالات الأدبية : ٥





مؤلفات يحيى حقي

اهداءات ٢٠٠٢

ا.د/ يوسف زيدان

مدير المخطوطات و الاهداءات

يحيى حقي

صفحات من تاريخ مصر

المقالات الأدبية : ٥

إعداد ومراجعة
فـؤاد دوارة



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٩

بلاغ عن جريمة قتل

بلاغ بأن إنسانا قيل إنه مات ميتة ربه هو فى حقيقة الأمر مقتول بيد آثمة ماكرة : عرفت كيف تنفذ جريمتها فى السر : وتضفى عليها غطاء من الكتمان ـــ مثل هذا البلاغ ، حتى ولو كان غفلا من الامضاء ، أو بإمضاء مصطنع ، هو فى أغلب الأحوال (عليم بما هناك) أو (عليم ببواطن الأمور) ، تتحرك له النيابة العامة فورا ، وتأمر باجراء التحقيق ، وتجرى وراء القاتل حتى تضبطه .

فما بالك إذا كان البلاغ مقدما من اثنين من كبار العلماء ، هما البروفيسر هاريسون والدكتور كوننلى من أساتذة التشريح من جامعة ليفربول ، عن جريمة قتل وقعت فى بلدنا ، وجثة القتيل لا تزال محفوظة عندنا كأنما لم يمسها البلى .

وقد مر على هذا البلاغ أكثر من أسبوع ، ومع ذلك فإلى الآن لم أسمع أن النيابة العامة أمرت بإجراء التحقيق وندب الخبراء لفحص الجثة توطئة لمعرفة سبب الوفاة والتأكد من صحة البلاغ ، كما تفعل فى كل جريمة قتل .

ولهفتنا على ضبط القاتل فى هذه القضية الجديدة أشد من كل لهفة لنا سابقة لأن الضحية فيها فتى غرر به : لم يكد يطر شاربه ، ورغم أنه قارب العشرين فإننا لا نزال نتصوره من رسومه وتماثيله ــ صبيا يمضى أغلب وقته بين لعبه ، ويبلغ من إلحاح هذا التصور أننا نحسب زوجته أختاله ، هى أيضا طفلة تلعب معه !

فتى فوق ذلك عليل ، ضئيل الجسم : هش ! لو نفخته لوقع . وأهم من ذلك كله عندى أنه فتى وسيم . يالعينيه الكحيلتين الواسعتين ، تأكلان خده ، تشعان بالبراءة والجمال . يا لبطنه الضامر ، ويديه الرخصتين !

ما أبشع قتل مثل هذا الفتى . وحتى لو لم يؤخذ على غرة ، فمحال أن يكون قاتله قد شق عليه قتله . إنها منازلة من جانب واحد ، خبطة واحدة بعصا على رأس هذا الكتكوت كافية للقضاء عليه . فإذا رأيناه قد وضعت فى يديه عدة الحرب وصولجان الملك ، فإنما كانت للزينة والدلالة على منصبه ، لا على قدرته هو على البطش والقتال . عبثا تبحث عنه مرسوما وهو يقود جيشا فى معركة ، بل تجده أينما رأيته يعيش على كف النعيم والرفاهية والترف والبذخ لا تمس يده شيئا إلا كان تحفه فنية صنعة وزخرفة : عرشه وتاجه وكرسيه وعصاه وكساؤه ، وصندله فى قدميه . صناديقه وعلبه ، قماقم عطوره ودهونه . ومن حوله إماؤه ينشدن له ويرقصن . على رأس الصف عازفة (الهارب) ممشوقة القوام ، لها عينا غزال وأنف أقنى ، وشفتان دسمتان ! ومن عجب أن الفنان الذى رسمها عرف كيف ينطق الحجر ، فينم عن شفافية ثوبها القصير فتكاد ترى لحمها

من تحته ! إن اهتززت لجمالها وعشقتها من كل قلبى وفضلتها على نساء العالمين ، فإن هذا لا يطمس فى روحى إحساسا بأنها ــ مثل بقية الصنف ــ تبلع دموعها سرا من ذل الرق . من أجلها أيضا جعلت إذا دخلت (الكونسير) أول شيء أبحث عنه هو عازفة (الهارب) ، إذ لا آلة فيه غيرها يشتد بها اعتزازى لأنها منحدرة عن جدران مقابرنا الغابرة .

لا شك أنك أدركت الآن عمن أتحدث ، عن توت عنخ آمون . كنا نطوف بمومياه ونظن أنه مات ميتة ربه : عن مرض لأنه كان عليلا كما رأيت ؛ حتى جاء أخيرا بلاغ من هذين العالمين الإنجليزيين بأنهما فحصا جمجمته بالأشعة السينية ــ وهذا هو التشريح فى عصر العلم الحديث ، لا مشرط ولا تمزيقَ لحم ، ولا يسيح دم ، ولا هتك للأحشاء ــ فتبين لهما أن بها آثار نزيف بالمخ نتيجة لضربة على الرأس ، ووجدا كذلك أثر جرح طويل بالقرب من الأذن اليسرى يحتمل أن يكون سببه تلك الضربة التى أحدثت النزيف . أقول لا شك أن الضربة كانت من (شومة) لا تزال إلى اليوم هى التى تفتح النافوخ «بهبدة» واحدة : إنها المدفع الرشاش الذى اختصت به بلادنا .

هذا هو البلاغ الذى ننتظر من النيابة تحقيقه على الفور . أريد أن أخدمها وأحاول أن أجد من عندى جوابا ــ افتراضيا طبعا ــ عن السؤال الهام : من القاتل ؟ تتجه الشبهة ولا مفر للمنتفع من القتل ، إلى من خلفه فى الحكم ، الذى لم يؤمن بقول القائل : لو صبر القاتل على المقتول ! إنه الكاهن (اى) كبير كهنة آمون ، وحامل لقب الأب الإلهى ولكن كل

الدلائل تبعد الشبهة عنه . فهو الذى ربى توت عنخ على حجره ، وكأنه يتولى الحكم فعلا أثناء حياة الفرعون الصغير .

أيكون القاتل إذن هو القائد حور محب الذى خلف (اى) فى الحكم ؟ وأنه أرهب (اى) لكتمان السر ، متوقعا لهذا الشيخ أن يموت عن قريب ويخلى له العرش ؟ قاصدا بذلك أيضا إبعاد الشبهة عنه ، لأنه ليس هو الذى قفز مكان القتيل فورا ، وربما سار وراء نعش توت عنخ آمون وهويذرف الدمع مدرارا ويلطم الخدين من فرط حزنه فيما زعم . إن كان هذا هو الذى حدث فهو أخبث قاتل عرفته بلادنا وأشدهم لؤما . لابد أن أعترف أننى منذ وقعت على ذكره وأنا أقرأ تاريخ تلك الفترة واسمه لا يوحى لى إلا بالشر .

ربما تعللت النيابة فى تخلفها عن إجراء التحقيق بأن الجناية قد وقعت منذ أكثر من ٢٣ قرنا ، وأن القاتل قد أفلت من يدها ، وغاص هو والضحية فى أعماق بئر الموت ، ولكنها كأنها لم تسمع بالحكمة القائلة : « ربك يمهل ولا يهمل » .

ها هو قد انكشف سر الجريمة التى طواها النسيان وأصبحت رائحتها الآن تملأ الخياشيم فلابد أن تبدأ النيابة فى تحقيق هذه الجريمة فورا ، إن لم تدفع بالقاتل إلى محكمة الجنايات فلتقدمه إلى محكمة التاريخ وهى الأعلى والأبقى . وعساها أن لا تعطى للملف الجديد رقمه المسلسل بل فيلكن رقمه عندها هو رقم (١) ــ فهذه أقدم جناية قتل فى تاريخنا بقيت تنتظر التحقيق .

(« التعاون » ، العدد ٣٥٠ ، ١٩٦٩/١١/٢ ، ص ٩)

ارجع لنا بالسلامة . .

كأن هوجة السياحة أقلقت أيضا توت عنخ آمون . كان ثاويا فى أمان الله فى المتحف،إليه يحج الناس وهو لا يتحرك ، الظاهر أنه ضاق ذرعا بجموده ، وخشى على مفاصله أن تتصلب وربما زهق أيضا من سماع نص واحد يتكرر كل يوم من الصباح للمساء، ينطق به الأدلاء كالببغاوات وهم يحكون بكل لسان حكايته ــ وأكثر من نصفها كذب فى كذب ــ ولعل عينه لمحت من خلال النوافذ أنوار النيون فى الميدان تعلن عن شركات الطيران والسياحة وتبشر بمتع لا حد لها .

لم يقاوم الإغراء،تنازل عن أبهة العرش وقرر أن يسافر ويضرب فى أرض الله كبقية خلق الله ، بلد يشيله وبلد يحطه . . وكانت أول رحلة له على ظهر سفينة رحلت به إلى أمريكا . . كأن ابن أقدم الأمم اشتهى أن يكون أول لقاء له مع أحدث الأمم حتى تختصر رحلته التاريخ كله .

ولم يكد يعود حتى شد الرحال من جديد ــ بالطائرة هـذه المرة ــ إلى

باريس . . لقد استحلى التجول . وعما قليل سيطلب ولا ريب تجديد جواز سفره بسبب امتلاء صفحاته .

أعتقد أن توت عنخ آمون حين سافر لأمريكا رتل صلاة خافتة على روح « برستد » . . العالم الأثرى الأمريكى . . إنه نشأ فى أسرة فقيرة ، لم يتعلم إلا بفضل إحسان بعض ذوى الخير من أثرياء أقربائه الأبعدين لا تدرى أى سر دفعه لدراسة الحضارة الفرعونية ، وهبها كل حياته وكل قطرة من دمه ، ليتك تقرأ فى الكتاب الذى ألفه ابنه عنه (رواد إلى الماضى) لتعلم كيف أعد نفسه للقاء معشوقته . . درس جميع اللغات القديمة المرتبطة بالهيروغليفية ، درس الأديان جميعها ، درس الرياضة والتاريخ والعمارة وعلم مساحة الأرض ، ثم نزل بمصر فلم يترك من شمالها إلى جنوبها أثرا فرعونيا واحدا إلانقل بخط يده على الورق ما رآه عليه من نقوش ورسوم ولو اقتضاه الأمر أن يرقى إلى قمم الجدران الشاهقة . . إنه صاحب الفضل الأكبر فى التعريف بالحضارة المصرية القديمة لعامة القراء . . بفضل سهولة أسلوبه ، وما يشيع فيه من تعاطف إنسانى جميل ، ولكن فضله الذى لا أنساه له هو تقريره للملأ كافة بأن الضمير الإنسانى استيقظ أول ما استيقظ فى أرض مصر .

أما فى باريس فإن توت عنخ آمون سيقرأوردا كاملا ــ لا صلاة واحدة ــ على روح رجل فرنسى هو «شامبليون» . . إنه أيضا تعذب فى مطلع حياته كثيرا ولكن كتب له أن يكون القمة العليا والمورد الأوحد الذى تنبع منه كل الأنهار . . لولاه لما قام علم الآثار الفرعونية ولظلت رموزها مستغلقة . . لولاه لما نشأ عالم أثرى بعده .

علـى جدران المعـابد والمقـابر ، وعـلى ورق البردى خط يعتمـد على التصوير ، يحكى حكاية مصر من بدايتها . . إنه طلاسم مستعصية على الحل . . عكف عليه علماء كثيرون يستنطقـونه فـلا يفلحون . . وظلت حضارة مصر الأولى خرساء لا تتكلم .

وفجأة فى لحظة إلهام ، ولكنها أتت بعد جهد تنهـد له الجبـال ، عثر شامبليون على المفتاح فإذا بكتاب مصر مقروء ومفهوم . .

وكأنما إرادة المولى سبحانه وتعالى اقتضت أن تؤخر الكشف عن حجر رشيد إلى أن يبزغ فى الأرض نور « شامبليون » . . ولأننى مصرى فـإنى أعتقـد أن كشف شـامبليـون لمفتـاح الخط الهيـروغليفى هـو من أعـظم الانتصارات الإنسانية وأنه أروع مثل على العبقرية . .

دعنى أقـل لك أيضا إن اليونان حينما هبت تطالب بالاستقلال عن تركيا ، لتنعم بحريتها وجدت تأييدا كبيرا من أغلب مثقفى أوروبا . . بل إن «بيرون» الشاعر أراد أن يقاتل مع أبناء اليونان . . قد يقال إنها حلقة من الحروب الصليبية ولكن الإحساس الغالب هـو الوفـاء لجميل الحضـارة الإغريقية التى ورثها هؤلاء المثقفون .

إن جامعات إنجلترا ظلت أجيالا وعمـاد الدراسـة فيها هـو تعليم الإغريقية واللاتينية من أجل هذا سلطت أبهر الأضواء على حضارة اليونان وعلى فنونها . . من عمارة ونحت ومسرح . . مع إهمال الفن الفـرعونى واتهامه . . تارة بأنه فن جامد ، وتارة بأنه فن جنائزى .

وإنى أؤمل فى رحلات توت عنخ آمون أن تسلط الأضواء على حضارة

مصر ، وأن تجذب لها قلوب المثقفين فيكون لهم تعاطف مع بلادنا فى جهادها اليوم من أجل استعادة أمجادها . . من أجل أن تحيا فى عزة وكرامة . .

وأتمنى أيضا أن يسأل هؤلاء المثقفون أنفسهم ـ وهم يستعرضون أيام توت عنخ آمون ويتصورون عدد المعابد والمقابر ـ ترى كم كان عدد الفنانين فى مصر ؟ . . إنه يفوق ألف ألف مرة عدد الفنانين فى حضارة اليونان . . حتى كأنك لو قبضت ـ أينما كنت فى مصر ـ على حفنة من تراب لأحسست على الفور أنها من ذوب فن دفين فى ثراها .

(« التعاون » ، العدد ١٩٨ ، ١٩٦٦/١٢/٤ ، ص ١٠ ، ٩)

صندوق عبوة سكر
وربما
« سنترافيش » أيضاً

أيا كان البيت الذى ضم طفولته فلاشك ترددت فيه ولو لمرة واحدة كلمة « عيب » فأدرك منها معنى « الخجل » وأشرق فى ذهنه معنى « الضمير » .

وأيا كانت المدرسة الابتدائية التى دخلها وهو صبى فلا شك قابل فيها ولو أستاذاً واحداً ضرب له المثل فى استقامة الخلق وصبر الشريف على الشدائد لايذل ولا يخون .

وأيا كانت الجامعة التى التحق بها وهو فتى فلا شك أنه رأى فيها ــ ولو على وجه واحد ــ معنى التبتل للعلم والإخلاص له وكراهية الجشع والدناءة .

وأيا كانت الفتاة التى خطبها حين نماريشه فلا شك أنها رأت فى عينيه ــ فى لحظة من اللحظات ــ بريقا ينبىء بالشهامة والقدرة على حمايتها : برقة القلب والقدرة على الحنان والحب . . هذه هى اللحظة التى قالت له فيها « نعم » وهى لا تدرى أى رجل تتزوج . .

وحين أصبح أبا لا شك منح أولاده وجها يقرأون عليه معنى الرجولة والشهامة والشرف . وحين واتته الشهرة وتخاطفته سيدات الصالونات فلا شك أنه لبس رداء التواضع وأكثر فى إشارته من مد كفيه مفتوحتين دلالة على أن يده نظيفة وأنه كرّس كل حياته لوْجه العلم وحده . . . هكذا حسبناه ــ أفليس هو معدودا بين العلماء ؟ــ ولكن ، مع الأسف الشديد ، تكشّف لنا أخيرا ــ وفجأة ــ بفضل عالم من جنسه وملته أيضا ، وهذا من أعجب العجب ، أننا كنا نخطىء أشد الخطأ فى حسن الظن بـه ، كنا مغشوشين ومغفلين ونحن لا ندرى لم نر إلا الطلاء ، لم نر ما تحته من معدن خسيس منحط ، أصبحت الآن لا أدرى كيف أخاطبه ، إن أبذأ لغة أقدر عليها مُكرهاً ستصبح ناعمة كالحرير إذا قيست إلى خشونة فعلته . ولـو سبته بائعات السمك فى نابولى (وهن أساتذة الردح والتشليق) لما غرق فى سبهن بل خاضه بقدميـه لأنه بلغ فى الحقـارة أعلى القمم . هـو المستر كارتر ، العالم « ! » الأثرى الإنجليـزى الذى جـاء لبلادنـا فاحتفينـا به ورخّصنا له بالتنقيب عن آثارنا . ظنناه ــ كما يقول هو فى نفسه ــ رجلا شريفاً ــ وها هو الحظ يواتيه ــ وربما ستروبيا ــ فكيتشف مقبرة توت عنخ آمون .

تعال معى ، واصحبه ساعة أن انفلت خلسة من الجميع ودخل وحده كاللص ــ إلى المقبرة ، آه ! آه ! هذا هو القناع الذهبى على وجه المومياء ينطق بالسكينة فى يد الخلود ، لابد له أن يخلعه ليأخذه ــ مال على المومياء بوجه اندلق عليه الجشع ، تقلصت شفتاه وبرزت عروق رقبته وجفّ ريقه من شدة الميل للخطف . برقت عيناه ببريق مخيف يدل على خراب الذمة

والنهم ورغبة الخطف والسرقة ، بسرعة بسرعة ، ليس للميت عنده حرمة ، حتى لو كان من عامة الناس ، فما بالك بفرعون مصر ! ما بالك بالرجل الذى سيمنح هذا الخسيس شهرة لم يبلغها عالم آخر فى بلده ؟ لا لا . . هيا هيا ، أنه يمد للجثة يدين ترتعشان باللهفة ، ها هما تنحطان على القناع كما تنحط الحدأة على كتكوت ، فإذا بهما بسبب العجلة تفصلان رأس توت عن جسمه ، فلا يبالى ، ويلقى به جانبا كأنه كرة ، وما الذى حدث ؟ لا شىء ؟؟

ها هو - أيضا فى عجلته وخشونته يكسر ذراعى توت وساقيه ها هو ينتزع عن الأصابع ــ وهو يكاد يكسرها كسرا ــ كل ما عليها من خواتم ، ينبغى أن نرجع القهقرى فنبلغ أيام هولاكو ، وتيمور لنك لنرى آخر مثيل لهذا الأستاذ العظيم ، حين كانت تبتر ذراع الفتاة الصريعة ــ وربما قبل موتها ــ لخلع أساورها ، وتقطم أصابعها لخلع خواتمها ، وتصلم أذناها لخلع قرطها . هذا هو ما فعله كارتر ، وأقسم لك أن الأمر لو اقتصر على هذا لغفرناله ، ولكن انظر إلى هذا النمط السافل الدنىء كيف سوغ له ضميره ، كيف رضيت له إنسانيته ، أن يجمع أشلاء توت المتناثرة ثم يضعها فى صندوق خشبى للسكر وربما « سنترفيش » أيضا كأن هذه الأشلاء بقايا خردة أو روبابيكيا أو نفاية حمامة . لم يكن مضطراً إلى هذا الامتهان فقد كان يستطيع أن يضع الأشلاء وهى مكسورة فى التابوت ويغلقه ، ولكنه كان متطوعا ــ بل نكاد نقول إنه كان متعجلا . إن لصوص المقابر أشرف منه لأنهم سرقوا ولم يعبثوا بالجثث كما فعل هو ، وبقيت فعلته كارثة مجهولة لدينا فلم نعلمها إلا حين أعيد فتح التابوت أخيرا للكشف بالأشعة على توت عنخ آمون . حقا إنه وقع فى يد العلماء كما

طلب الرحمة من ربه فى حياته فهو يطلبها منه فى مماته فقد أصبحت جثته المحنطة فرجة لمن يريد أن يتفرج . هذا هو رأسه المبتور تتبادله الأيدى كأنه بطيخة . .

والآن أسأل نفسى : وأين كان مندوب مصلحة الآثار . . ومعه على الأقل مائة خفير بشوارب كالصقر ـ حين تسلل كارتر إلى المقبرة وارتكب فعلته ؟ . . ما فات فات ولكنى أقترح الآن على مصلحة الآثار أن تعلّق على بابها لوحتين ، لوحة شرف على يمينه تسجل فيها أسماء العلماء الذين عاملونا بشرف وأمانة ، وقائمة سوداء على اليسار تسجل بها أسماء من غشّنا من أمثال كارتر والأثرى الألمانى الذى قام بتهريب رأس نفرتيتى . .

لا شىء يطفىء الغضب مثل اليأس وها أنذا أشعر به فى ختام مقالى فأقول إن أمة ترضى بالقعود وتترك للأجنبى الكشف عن آثارها ، عن بترولها ، تترك له كتابة تاريخها تستحق كل ما يجرى عليها .

(« المساء » ، ١٦/١٢/١٩٦٨ ، ص ٦)

المنبع

إذا سألتنى عن أهم تطور لحق مجتمعنا بفضل ثورة ٢٣ يوليو لما اكتفيت بتغليب التطور الجسيم الأخير الذى ينعقد القمة ويتمثل فى تطبيق نظام اشتراكى خاص بنا فى بلدنا ، مع أن الاشتراكية ـ مهما اختلفت أشكالها ـ تحوُّل جذرى شامل يمتد إلى جميع مجالات الحياة فيقلبها من وضع إلى وضع حتى ليصح القول بأن لا شبه بين وجه المجتمع بعدها ووجهه قبلها ، لن أكتفى بذكرها ، بل سأنفذ منها ومن كافة صور تطبيقها عندنا لأصل إلى شىء آخر هو الذى يصح ـ فى اعتقادى ـ وصفه بأنه أبلغ تطور لحق حياتنا بفضل الثورة ، إنه المنبع الخفى الذى تصدر عنه كافة التيارات الظاهرة ، هذا المنبع هو تطورنا من حال كنا نحتقر فيه قدرتنا بتقليد الغرب وتتبع خطوه والمشى على هديه إلى حال أصبحنا نملك فيها النظرة المستقلة والثقة بالنفس ولا نخاف من الاعتماد عليها . فكففنا عن تقليد الغرب تقليداً أعمى ، وأخذنا نفصل جميع ملابسنا على قدِّنا من قماش من صنع بلدنا .

ويخطىء من يحسب أننا نفعل هذا بسبب ازدرائنا بالغرب أو حكمنا

القاطع بإفلاسه ، حقا إننا نقول هذا الكلام أحيانا بلا تجن عليه ، فالغرب نفسه لا ينكر أن بعض أنظمته قد أفلست ، وأن قياد الحضارة يوشك أن يفلت من يده ، ولكنى لا أحب الغلو فى هذا الاعتقاد حتى يحجب عن عينك ما لأهم تطور فى مجتمعنا ــ وهو كما قلت الكف عن تقليد الغرب تقليدا أعمى ــ من عماد رئيسى ــ بل من عماد وحيد ــ وأعنى به تملكنا للثقة بالنفس والاعتماد عليها . فإن مثل هذه النظرة تستبقى لنا اعتدال الحكم ، وليس من نيتنا ولا من شأننا أن نحاكم الغرب ونقيم من أنفسنا قضاة يفصلون فى قضاياه ، بل نحن أصحاب قضية يجرى وراءها ملايين من أهلنا ، نحاول كسبها فى محاكم بلدنا ومن الخير أن نركز عليها اهتمامنا .

كان يصلنا بالأمس القريب من الصناعة فتات على سبيل العارية بحيث لا نحس أننا نملكه ، الدور الذى رسمه لنا صاحبها وقصرنا عليه هو دور الخفير الواقف على باب المصنع ، وفى يده بندقية لا تقتل عصفورا ، لا يحسن إلا دق الأرض برجله وضرب السلام لجناب الخواجة الباشمهندس الذى يعرف وحده أسرار المصنع .

حدث هذا أيضا فى المعاهدات المعقودة مع حكومة لندن أثناء الاحتلال ، تترك بأرضنا قاعدة بريطانية بأسلحة حديثة لا نملك مثلها ، وكل الذى تطلبه منا أن نقف على باب القاعدة كهذا الخفير وعلى كتفنا بندقية مثل بندقيته .

وكنا نستورد العلم وهو عارية أيضا لا نملك فيه حق التصرف فلا عجب أن عجزنا عن أن نحدث فيه جديدا من ابتكارنا .

أما اليوم فنحس أننا أصحاب الصناعة القائمة فى بلدنا ، حقا إننا لا نزال نستورد من الغرب أدوات كثيرة ولكننا كففنا عن التسليم بأنها عارية ، بل نشعر أنها ملك لنا وأننا مسئولون عن صيانتها وتجديدها والنهوض بها .

ونحس كذلك بأننا أصبحنا نملك العلم الذى لا نقول إننا نستورده ، بل نقول إننا نشارك فى تملكه لأنه حق شائع للناس جميعا ، وحين ملكناه أحسسنا أننا مطالبون ــ بل وقادرون على أن نساهم فى تقدمه ودفع عجلته إلى الأمام .

وهذا التطور خطير كما قلت ، فإن مسئولية النجاح أو الإخفاق لم تكن فى عنقنا ، لا ضير علينا أن نقف موقف الأغا على باب الحريم أو موقف المتفرج من بعيد لبعيد ، شرف النجاح وعار الهزيمة لغيره ، أما هو فصفر اليدين ، سعادته فى غفلته ، هو والبهم السائمة سواء .

وأكبر دليل على حقيقة هذا التطور البليغ أن الغير أقدر منا على رؤيته وتقدير نتائجه القريبة والبعيدة ، فقد لا نحس به لأننا منغمسون فيه ، ومن حسن الحظ أننى أكتب هذا المقال فى اليوم الذى نشرت فيه الصحف تصريحا للرئيس الباكستانى « أيوب خان » يؤكد فيه بأننا سيكون لنا دور قيادى رئيسى فى المجتمع العالمى ، ربما وصل إلى هذا الاعتقاد عن طريق أسباب لا نقرها ولأغراض لا نرضاها ، وعمد إلى مبالغة يحسن بنا أن نقبلها بحساب ، ولكن أساس تصريحه على كل حال هو إيمانه بتقدمنا أو قل بمقدرتنا على التقدم أفتظن بعد ذلك أن يصدر منه هذا التصريح إلا إذا

أحس هو من بعيد بهذا التطور البليغ الذى لحق حياتنا . إنه قادر على الرؤ ية لأنه يعيش وسط شعوب آسيوية تتشابه ظروفها مع ظروفنا ، فهل عليه أن يوازن بيننا وبينها ، هذا هو تفسير تكالب الاستعمار على محاربتنا وتقويض صلاتنا بالدول الإفريقية ، أولا بالدس والخديعة والأكاذيب ، لأنه يعلم أننا قلب إفريقيا وأن الصوت الذى يرتفع من القاهرة يدوى فى أرجائها .

يخطىء كذلك من يحسب أن تملكنا للصناعة والعلم سيجعلنا نشم بأنوفنا ونمد يدنا من أعلى إلى أسفل ، إذا أخذنا فبحذر ومقدار ، وإذا أعطينا فبمن واستعلاء . كلا ، فإنى أعتقد أن طلبنا للعلم والصناعة سيزداد عما كان من قبل بكثير ، لقد اختفى مركب النقص ، والعبد المقلّد لسيده مهما بلغ شبهه بالقرود محدود القدرة بسبب عجزه وقلة حيلته وجهله بما ينفعه ، هو أسرع إلى تقليد القشور دون اللباب لأنه أميل إلى الراحة وفراغ البال ، أما الرجل الحر الواثق بنفسه فلا ترضى له كرامته إلا أن يمتحن همته ويرى فى تأخره عارا عليه ولا يمنعه طلب العلم من صاحبه أن يقف منه موقف الند للند ، فيسهل بينهما الأخذ والإعطاء .

لم نكن بالأمس نحمل المسئولية ، أما الآن فهى فى أعناقنا ، لا مهرب لنا منها فإذا أدركنا هذا وجب علينا حشد كل الجهود من أجل أن ننتصر . . ننتصر لأنفسنا أولا ، ولأن العالم يرقبنا . . لم يبدأ الشرق يقلد الغرب إلا بعد صدام عنيف بينهما خرج منه الشرق فى النهاية مغلوبا على أمره ، ولكنه لم يفقد فى يومه أمله فى النهوض ، سأحدثك فى مقال قادم عن تاريخ هذا الصدام ، لن أعود به إلى الحروب الصليبية لا لأن الشرق قد خرج منها

منتصرا بل لأن الفروق من الجانبين لم تكن حينئذ جسيمة ، سأكتفى بالبدء بعصر الجبرتى وأروى لك ما حدث له يوم الأربعاء ٥ ديسمبر سنة ١٧٩٨ ، ثم أروى لك كيف تبينت هذا الصدام منذ مطلع حياتى ، فأقص لك ذكرياتى عن سقوط أدرنة ، وطرابلس الغرب ، وحرب اليابان وروسيا ، وهزها لقلوبنا فى مصر ، وكيف أخطأنا فى فهم حرب « البوير » حباً فى عداوة انجلترا ، كيف استقبلنا فى مصر أول طيارة يقودها أجنبى ، وكيف استقبلنا بعد ذلك أول طيارة يقودها مصرى ، ماذا كان موقفنا فى الحرب العالمية الأولى ، والهزة العنيفة التى أحدثتها فى قلوبنا حروب مصطفى كمال ، ثم خيبة الأمل فيه ، ثم تراجع أهميته إلى الصفر ، ما أعجبه من تاريخ . .

(« المساء » ، ١٩٦١/١٢/١١ ، ص ٨)

٥ ديسمبر سنة ١٧٩٨

لم نصل إلى تملك الثقة بالنفس والاعتماد عليها إلا بعد أن مر الشرق بتجارب طويلة تمثلت فى تطور شعور أهله إزاء تفوق الغرب عليهم . وخير وسيلة فى نظرى لفهم الشرق فى العصر الحديث هى التى تتتبع المظاهر التى تنم عن تطور هذا الشعور الداخلى ، ولا تكتفى بدارسة مراحل الجهاد من أجل التحرر السياسى فإنها سافرة مكشوفة وكتابتها سهلة ، بل تدرس أيضا تيارات أشد خفاء وأشق تبينا كان هدفها هو التحرر الفكرى . سأحاول أن أمسك الخيط من أوله ، فأرجع إلى كتب التاريخ ، ثم أدلى لك بشهادتى حين نصل إلى العشرينيات الأولى من هذا القرن .

بدأ عندنا لقاء الشرق والغرب بصدمة عنيفة تلاها انبهار فتقليد أعمى للتوافه من المظاهر المادية ، ثم يقظة وفرز واقتباس عن فهم ، وليس بين الفهم وتملك الثقة بالنفس إلا خطوة هينة . على هذا الخط البيانى يمكننا أن نرسم أيضا تطور بلدنا من مستعمرة زراعية اقطاعية إلى مجتمع زراعى صناعى اشتراكى مستقل ، وأن نرسم كذلك تطور الوعى القومى .

استسلم الشرق بعد انتصاره فى الحروب الصليبية إلى الوهم بأن عالمه المقفل مستوف لأسباب البقاء . الدفاع موكول إلى فرسان ، كل واحد منهم يرى نفسه عنترة بن شداد ، إذا امتشق الحسام صنع سوق السلاح ، وركب جواده المطهم ، مهمازه من ذهب أو فضة ، وسرجه تحفة فنية ، وخرج للقتال وهو مكشر عن أنيابه ، أو بارم ذيله ، يصرخ ليلقى الرعب فى القلوب : هل من مبارز ؟ هل من مقاتل ؟ فهيهات أن يصمد له خصم ولو كان أشجع الشجعان . إنهم جربوا سهولة الانتصار فى محاربة بعضهم البعض ، فلم يكن تاريخ مصر حينئذ إلا « كرشة » عظيمة من القلعة للصليبية إثر « كرشة » أعظم من الصليبية للقلعة .

الزراعة والحرف شغلة شعب صبور يحب النكتة ، ولاينكسر ظهره مهما ثقلت المظالم ، ثم لم الخوف ؟ . . أليس الأزهر وبقية المساجد عامرة بالعلماء حفظة الشرع الشريف ، يموج فيها طنين يسمع عن بعد وينزل بردا وسلاما على قلوب العباد فيثقون بأن الدنيا بخير كأنما أخذوا على ربهم ميثاقا بنصرهم على كل معتد ، لأنهم فى إيمانهم على نور ، وعدوهم من كفره فى ظلام حالك .

فإذا بمصر تخبطها صدمة عنيفة ، تمثلت فى حملة نابليون سنة ١٧٩٨ ، جاءها بفكرة مبتكرة بسيطة فى فن الحرب : جنود منتظمون تحت قيادة ضباط مدربين يصطفون فى المعركة على هيئة مربعات ، والمدافع مقامة على الزوايا . فإذا بهذه الفكرة البسيطة تحرق فرسان الشرق كالهشيم . لم تطل معركة شبرا خيت أكثر من ربع ساعة ، وموقعة الأهرام أكثر من ثلاثة

أرباع الساعة ، وانهزمت شجاعة الشجعان أمام تفوق الآلة والتكنيك الحربى الحديث . فطويت إلى الأبد صفحة فنون الشرق فى الحرب .

وجاء نابليون أيضا بأفكار علمية كثيرة متمثلة فى جيش لجب من العلماء ، فى الرياضة والفلك والميكانيكا والطبيعة والكيمياء ، وطبقات الأرض والمعادن ، والنبات والحيوان ، والطب والجراحة والصيدلة ، والاقتصاد السياسى ، والعاديات والآثار ، وهندسة المعمار ، والتصوير والرسم ، وهندسة الرى والقناطر والطرق ، والهندسة الجغرافية والبحرية ، وهندسة الآلات الرياضية وصناعة الساعات ، والنقش والحفر ، والآداب والموسيقى ، والترجمة والطباعة ، فكان لامفر من أن تستيقظ مصر وتتأمل هذا العلم الحديث الذى جاءها به الغاصب وتغلب بفضله عليه .

من حسن الحظ أن كان يعيش فى مصر حينئذ رجل ، لاأعرف من أجدادنا أحدا يفوقه فى قدرته على تملك حبى وإعجابى وعلى تثبيت الاعتزاز ببلدى فى قلبى . هذا هو الجبرتى مؤرخ مصر العظيم . ومن حسن الحظ أيضا أنه كان يمثل أرقى ما وصلت إليه الحضارة الشرقية ، وكان أبوه الشيخ حسن قد مضى بعلوم الأزهر إلى أقصى حد عرفته مصر . ليس المهم أنه وقف بعد أن وصل إلى شاطىء العلوم الحديثة ، بل إن المهم أن ذهنه كان متفتحا ، لايشله الغرور أو التعصب . فنحن إذن بإزاء شهادة رجل مثقف متزن حكيم نشأ فى بيت من أرقى بيوت القاهرة فى ذلك العهد .

إننى أعتبر يوم ٥ ديسمبر سنة ١٧٩٨ من أهم أيام مصر الحديثة ،

ولهذا اتخذته عنوانا لهذه الكلمة . ففى ذلك اليوم خرج الجبرتى من داره ليتفرج على ما يفعله الفرنسيون فى هدم المبانى لشق طرق حديثة فى قلب العاصمة ، تستهدف ــ كطرق معاهدة سنة ١٩٣٦ ـ أغراضا حربية تحت ستار من أغراض عمرانية . فلما رجع لداره كتب لنا مايلى :

« فعلوا هذا الشغل الكبير والفعل العظيم فى أقرب زمن . كانوا يصرفون الرجال من بعد الظهيرة ، ويستعينون فى الأشغال وسرعة العمل بالآلات القريبة المأخذ السهلة التناول المساعدة فى العمل وقلة الكلفة . كانوا يجعلون بدل الغلقان والقصاع عربات صغيرة ويداها ممتدتان من خلف ، يملأها الفاعل ترابا أو طينا أو حجارة من مقدمها بسهولة ، بحيث تسع مقدار خمسة غلقان ، ثم يقبض بيديه على خشبتيها المذكورتين ويدفعها أمامه فتجرى على عجلتها بأدنى مساعدة إلى محل العمل فيميلها بإحدى يديه ، ويفرغ ما فيها من غير تعب ولامشقة ، وكذلك لهم فؤوس وقزم محكمة الصنعة متقنة الوضع ، وغالب الصناع من جنسهم ولايقطعون الأحجار والأخشاب إلا بالطرق الهندسية على الزوايا القائمة والخطوط المستقيمة » .

هكذا كانت تعيش مصر فى عالمها المقفل إلى حد أن عربة نقل صغيرة بعجلة أمامية واحدة بدت للجبرتى كأنها معجزة شيطانية . ينبغى أن لانقتصر على الابتسام بمحبة لسذاجة الجبرتى ، بل نتأمل قوله بإمعان ففى وصفه دلالة بينة على الفروق العميقة بين عقلية الشرقى وعقلية الغربى ، فلو كان محله رجل أوربى وشاهد مثلا على تفوق فى الانتاج لما انشغل حتى ذلك الوقت إلا بحساب الفرق بين أجر العمل اليدوى والعمل

الآلى ، وقاس هذا الفرق بمقياس الفائدة المئوية لقرض يستدينه من ممول لشراء الآلة الحديثة ، وفرح لقدرته على الانتصار على منافسيه ولو خربت بيوتهم

ولا يعكر مزاجه فى التفكير فى مصير العامل الذى ستوفره الآلة . هذه هى العقلية التى قامت عليها عظمة النظام الرأسمالى . وأما الجبرتى ، فإن أورد لفظ الكلفة فى كلامه ، فمن الواضح أنه لم يكن معنيا إلا بأثر الآلة فى التخفيف من سخرة الإنسان فى العمل الجسمانى . إنه يتحسر على قومه ، لا لأنهم يصرفون مالا أكثر ، بل لأنهم يعملون كالحيوان . وبقيت هذه العقلية غالبة على أهل الشرق زمنا طويلا ، وظل نجاحهم فى التملص منها موضع شك دائم .

لم يكتف الجبرتى بالفرجة على شق الطرق يوم ٥ ديسمبر سنة ١٧٩٨ فهو قد ذهب أيضا فى اليوم ذاته ـ ياله من يوم عظيم ـ إلى المجمع العلمى الفرنسى ، وشاهد مكتبته ووسائل تيسيرها للعلم على طلابه ، وحضر بعض التجارب الكيميائية والطبيعية التى هى أشبه بألعاب السحرة فى السيرك . ثم عاد لداره ووصف لنا ما شاهده بدهشة طفل ساذج كما سنرى .

فهل أنا مبالغ إذا قلت إن الصدمة العقلية العنيفة بين الشرق والغرب حدثت يوم ٥ ديسمبر ١٧٩٨ ؟ . . استيقظت مصر وأدركت أن هناك علما حديثا غير علمها القديم وأن هذا العلم الحديث ـ لا المربعات العسكرية ومدافع الزوايا وحدها ـ هو سر غلبة الغرب على الشرق مصر فى ذلك

اليوم هى الجبرتى ، هى التى وقفت أمام هذا العلم الحديث موقف المنبهر المتقطع الأنفاس .

لن يكون لها بعد ذلك سؤال لنفسها إلا قولها : هل أستطيع أن أملك هذا العلم ؟ وكيف أستطيع أن ألحق من سبقنى ، ولا أقول أتقدمه ؟ أم ترانى لن ألحقه أبدا لأنه يزداد ابتعادا عنى كلما جريت وراءه ؟

وطال عهد الانبهار ، لأن الغرب انتقل فى فتوحاته العلمية انطلاقا سريعا مذهلا ، ومن السهل أن يختلط الانبهار باليأس والحسرة والقنوط ، وقد شهدت بنفسى مظاهر هذا الانبهار وهذه الحسرة حين رأت مصر أول طائرة تصل إلى سمائها فى مطلع هذا القرن كما سأرويه لك فى مقالى التالى .

والآن تعال معى نستمع لوصف الجبرتى لما شاهده فى اليوم العظيم يوم ٥ ديسمبر سنة ١٧٩٨ :

« ومن أغرب ما رأيته فى ذلك المكان أن بعض المقيمين به أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة ، فصب منها شيئا فى كأس ، ثم صب عليها شيئا من زجاجة أخرى فغلى الماءان وصعد منهما دخان ملون حتى انقطع وجف ما فى الكأس وصار حجرا أصفر فقلبه على البرجات حجرا يابسا أخذناه بأيدينا ونظرناه ، ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجرا أزرق ، وبأخرى فجمد حجرا أحمر ياقوتيا . وأخذ مرة شيئا قليلا جدا من غبار أبيض ووضعه على السندان وضربه بمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كصوت القرابانة (البندقية) انزعجوا فضحكوا

منا ، وأخذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة فى مقدار الشبر ضيقة الفم فغمسها فى ماء قراح موضوع فى صندوق من الخشب مصفح الداخل بالرصاص وأدخل معها أخرى على غير هيئتها وأنزلها فى الماء وصعدهما بحركة انحبس بها الهواء فى إحداهما ، وأتى آخر بفتيلة مشتعلة وأبرز ذلك فم الزجاجة من الماء وقرب الآخر الشعلة إليها فى الحال فخرج ما فيها من الهواء المحبوس وفرقع بصوت هائل أيضا . وغير ذلك أمور كثيرة وبراهين حكمية تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع ، ومثل الفلكة المستديرة التى يديرون بها الزجاجة فيتولد من حركتها شرر يطير لملاقاة أدنى شىء كثيف ، ويظهر له صوت وطقطقة ، ولو لمس علاقتها شخص ولو خيطا لطيفا متصلا بها ولمس آخر الزجاجة الدائرة أو ما قرب منها بيده الأخرى ارتد بدنه وارتعد جسده وطقطقت عظام أكتافه وسواعده فى الحال برجة سريعة ، ومن لمس هذا اللامس أو شيئا من ثيابه أو شيئا متصلا به حصل له فى ذلك ولو كانوا ألفا أو أكثر ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لاتسعها عقول أمثالنا . . »

حبذا لو قرأت كلام الجبرتى كله ، فإنك لو فعلت لأحببته كثيرا وأحببت بلدك أكثر وأكثر .

(« المساء » ، ١٩٦١/١٢/١٨ ، ص ٨)

حوت وهدهد وغراب
وحدأة وطاووس ونحلة
وفوق البيعة بساط الريح والجن الأزرق

غرق الجبرتى فى الذهول حين شهد بعض ألاعيب الكيمياء فى المعهد الفرنسى يوم ٥ ديسمبر سنة ١٧٩٨ ، وله العذر ولكن لاشىء يدل على خمول بلاد الشرق وتخلفها حينئذ أكثر من ذهوله أيضا لأنه رأى الفرنسيين وهم يشقون الطرق يستعينون فى نقل الأتربة بعربة يد صغيرة لها عجلة واحدة حملها خمسة غلقان ـ وعدها من العجائب

وظل الغرب بعد ذلك ـ بفضل تملكه للعلوم الحديثة ـ يقف من الشرق وهو يذله ويستعبده موقف المستعلى المتحدى ، موقف الرجل الواعى الأزرق الناب من طفل ساذج غرير ، وحرص على أن يبقى هذه العلوم احتكارا فى يده ، بل أن يشع من حوله جوا من الإرهاب كما يكشر القط عن أنيابه وينفخ . له اسطوانة واحدة يديرها على سمعنا : «إن شاء الله » فى دينكم ، وعجز عقولكم عن المنطق التركيبى ، وعجز لغتكم القديمة عن مسايرة الزمن وطبيعة جوكم وبلادكم . عوائق هيهات لكم أن

تتغلبوا عليها ، فاقنعوا بحالكم ، وبحفظ القرآن فى كتاتيبكم ، وقراءة كتبكم الصفراء فى المساجد وانشاد « دلائل الخيرات » فى التكايا ، واتركونا ندبر أموركم ونستخرج كنوز أرضكم ، ثم نجود عليكم تكرما وإن شئنا بثمار هذا العلم الحديث ، كل عملكم هو الانتفاع بها لا صنعها . لم تتورع بجاحتهم الصفيقة من ترديد هذا الكلام فى كتب المطالعة التى كنا نقرأها فى مدارسنا الابتدائية

وقد نشأت وآثار هذا الذهول مخيمة على بلدنا ، سمعت من أمى - رحمها الله أن أهل قريتها ضربوا كفا بكف من شدة العجب حين علموا أن بالعاصمة عربة مسحورة بلا خيول على قضبان اسمها الترماى . . ياحلاوة ياأولاد ! . .

بل نشأت فى عهد كان الناس يتندرون فيه بأهل مديرية الشرقية الكرماء ، لأنهم حين رأوا القطار يمر بأراضيهم ويزعق وقر فى أذهانهم أنه مخلوق له عقل وإرادة وصوت ، وإلا كيف يجرى وحده ويزعق ، وقرروا أن يقيموا له « عزومة » كبيرة ليتغدى أو يتعشى عندهم بجلالة قدره .

وسمعت بأذنى وأنا صبى أناسا يرون من الإنصاف أن يمدحوا الاحتلال البريطانى لأنه جاءهم بالترام والكهرباء ، كما سمعت أكثر من مرة تأكيدات بأننا نعجز عن صنع إبرة .

هذا هو الجو الذى نشأت فيه .

وتوالت فتوحات شياطين الغرب . وكما كانت بعض الشعوب تتلهف على ظهور المسيح المنتظر كذلك كنا نتلهف على أن يخرج من بيننا رجال

يبطلون استعلاء الغرب وتحديه . لم نكن فى مصر نصر على أن يخرج هؤلاء الرجال من بلدنا ، بل كنا على استعداد أن نطير فرحا لو خرجوا من أى بلد شرقى ، من تركيا مثلا ، أو حتى من اليابان وبيننا وبينها آلاف الأميال ، لا لشىء إلا أنها من بلاد الشرق وإن كانت فى أقصاه .

حقا لقد أنبت ثرى مصر فى تلك الحقبة نفرا قليلا من العلماء الأفذاذ ، يضارعون بل يفوقون أندادهم فى الغرب ، كالمرحومين عثمان غالب ومحمود الفلكى . أما الأول فقد برع فى علوم النبات ، وهاجر من مصر أنفا أن يعيش تحت ظل العلم البريطانى ، وأما الثانى فاقرأ ما يقوله عبد الرحمن الرافعى عن جانب ضئيل من مواهبه المتعددة :

« له رسالة بديعة باللغة الفرنسية عن الاسكندرية القديمة طبعها سنة ١٨٦٦ ، وهى رسالة تتضمن نتائج مكتشفاته ، وما قام به من النقب والحفر ، وما وصل إليه من كشف معالمها القديمة كأسوارها وشوارعها وأفنيتها ومسارحها ومتحفها ومكتبتها الشهيرة وقصورها ومبانيها وضواحيها . ولم يسبقه إلى هذه المكتشفات المؤسسة على عمليات الحفر عالم عصرى من الإفرنج » .

ولكن تفوق هؤلاء الأبطال الذين ينبغى أن نذكرهم بإجلال على الدوام كان مع الأسف فى علوم لاتتصل بحياة الشعب ولاتبهر أبصاره .

* * *

لم يحدث إدخال القطار والترام والكهرباء فى بلدنا صدمة مذهلة ، بل كانت هذه المخترعات بمثابة خبطات هينة متتالية على رأس دائخ ، ولكن

الصدمة المنتجة للذهول والتى تذكرنا بصدمة الجبرتى تمثلت فى اختراع الطائرة وقدومها أول مرة لسماء مصر إنها معجزة المعجزات ، كيف يمكن للعقول أن تدرك ارتفاع جسم ثقيل فى الهواء ليسبح فى السماء كالحوت فى البحر . .

إن صانعى هذه الطائرة هم من الجن لامن الإنس ، أوهم من طينة غير طينتنا . وقال الشرق لنفسه : كيف نلحقهم فى الأرض وقدسبقونا إلى السماء . . وبلغ بنا السخف أشده حين حاولنا أن نعزى أنفسنا بتذكر رجل عربى اسمه من قبيل السجع : عباس بن فرناس . لاأزال أذكر إلى اليوم مدرس اللغة العربية فى المدرسة الابتدائية يملى علينا قصته ، كيف صنع له جناحين من الريش ، ثم ألقى بنفسه من مئذنة ونسى أن يجعل له ذنبا فوقع على زمله ومات . كان المدرس منتفش الصدر مزهوا بأن أحد رجال الشرق هو أول من حاول الطيران ، وكنا نحن التلاميذ أشد منه زهوا : مرة من أجل عباس بن فرناس ، ومرة لأن كلمة « زمله » هذه كانت جديدة علينا ، وكانت تبعث فينا طربا عجيبا لاندرى سببه .

كنت صبيا فى سن السابعة ، ولكنى لاأزال أذكر إلى اليوم بوضوح كيف خفقت قلوبنا سنة ١٩١٢ انتظارا لمقدم اثنين من الضباط الأتراك هما : نورى بك وفتحى بك فى رحلة لهما بالطائرة من تركيا إلى مصر . كنا نريد أن نستقبلهم بالأعناق والورود والرياحين لالشىء إلا لرد الاعتبار ومسح الكسوف . ولكن مع الأسف ، حتى تباهى القرعاء بشعر بنت أختها لم يكن من نصيبنا ، فلم تكد الطائرة التركية تجتاز جبال الطوروس حتى هوت إلى الأرض ومات الاثنان ، وعدهما الشرق من الشهداء ودفنهما

فى مدخل قبر صلاح الدين بدمشق ، لايزال قبرهما قائما هناك إلى اليوم ، وحين زرته أحزننى أن يدا لاأعرفها انتهزت فرصة تجديد القبر بعد الانقلاب الكمالى فى تركيا كما يبدو وكتبت على رخام القبر سيرة البطلين بالأحرف اللاتينية ، وخيل إلى أن فتحى بك ونورى بك يضجعان فى مرقدهما من هذه الفعلة الشنيعة . . ولعل صلاح الدين نفسه متململ مثلهما .

من الذى يتصدى لرثائهما فى مصر غير أحمد شوقى رحمه الله ؟ . . رغم كل ما يقال عن تبعيته للسراى فى القاهرة واستانبول واتهامه بأنه كان ندابة تعدد بلا دموع فى كل المآتم ، ورغم تعودنا الآن الإزراء بشعر المناسبات ، فإننى حين أقرأ ديوانه اليوم أعجب له كيف استطاع أن يجعل شعره سجلا حافلا بتاريخ مصر الحديث .

لاأزال أذكر تهدج صوت أبى وهو يتلو علينا هذه القصيدة يوم ظهورها ، وبقى مطلعها عالقا بذهنى بفضل رنته الموسيقية :

انظر إلى الأقمار كيف تزول
وإلى وجوه السعد كيف تحول

الشطرة الأولى جميلة والثانية ركيكة ، ثم عقدت الصدمة لسان شوقى ، إنه وإن أشاد بالفداء وبمن يبذل من ماله وجهده وعلمه لنفع الناس إلا أنه لم يأت بإشارة تدل على مغزى هذه الرحلة فى نظر أهل الشرق ، بل اندفع بعقلية الشرقى إلى التفلسف السطحى كعادته كلما جاء ذكر الموت . ولكن ينبغى أن لاأنسى له تنبؤه فى هذه القصيدة حين عبر عن

خشيته من أن تصبح السماء مسرحا للحروب والفتك والدمار . وأحب أن تعلم أن أول قنبلة سقطت على أم رأسنا فى الشرق ، ألقت بها طائرة حربية إيطالية على الجيوش المدافعة عن ليبيا وقت غزوها سنة ١٩١٢ ، لاتزيد عن حجم برتقالة محشوة بارودا ، هكذا قرأنا وصفها فى « الأهرام » ، ولكنها كانت فاتحة الغارات الجوية التى دمرت وارسو وبرلين ونورمبرج وهامبورج ، ولاأقول لندن أيضا ، لأن الإنجليز غالوا كثيرا فى وصف الدمار الذى لحقها . وكانت هذه البرتقالة إيذانا بمولد القنبلة الذرية من قوة ١٠٠ مليون طن ديناميت . ولست أدرى هل كتب شوقى قصيدته سنة ١٩١٢ قبل أو بعد سقوط هذه القنبلة ، ولعل أستاذنا الجليل صبرى السوربونى يأتينا بالخبر اليقين . قال شوقى :

« إنى أخاف على السماء من الأذى
فى يوم يفسد فى السماء الجيل
كانت مطهرة الأديم نقية
لا أدم فيها ولاقابيل
يتوجه العانى إلى رحباتها
ويرى بها برق الرجاء عليل
ويشير بالرأس المكلل نحوها
شيخ وباللحظ البرىء بتول
واليوم للشهوات فيها والهوى
سيل وللدم والدموع مسيل
أضحت ومن سفن الجواء طوائف
فيها ومن خيل الهواء رعيل

وأزيـل هـيـكـلها المصـون وسـره

والـدهـر لـلسـر المصـون مـذيـل

انتبه لركاكة هذا الشعر فإن لها دلالة عميقة .

* * *

نسى شوقى مصرع فتحى بك ونورى بك ثم استيقظ معنا من جديد بعد سنتين حين قدم لمصر طيار فرنسى اسمه « فيدرين » ليدور فى سماء بلدنا ويذهل أهلها مرة أخرى (كأنما كان مكتوبا علينا فى هذا العهد ألا نصاب بالذهول إلا على يد الفرنسيين » وأذكر الى اليوم كيف صحب أبى أسرته كلها رجالا ونساء وصبيانا من حينا القديم إلى مصرالجديدة لنتعجب برؤ ية الطائرة .

وسجل شوقى فى قصيدة له قدوم هذا الفرنسى ، ولكنه أصر هذه المرة على أن يصف الطائرة بالشعر الذى طالما وصف الإبل ، فقال بعنوان « آية العصر فى سماء مصر » ، وهو عنوان سخيف السجع :

مـركـب لـو سـلف الـدهـر بـه

كـان إحـدى مـعـجـزات الـقـدمـاء

نـصـفـه طـير ونـصـف بـشـر

يـالهـا إحـدى أعـاجـيـب الـقـضـاء

رائـع ، مـرتـفـعـا أو واقـعـا

أنـفس الـشـجـعـان قـبـل الجـبـنـاء

مـسـرح فى كـل حـين مـلجـم

كـامـل الـعـدة مـرمـوق الـرواء

كبساط الريح فى القدرة أو
هدهد السيرة فى صدق البلاء

أوكحوت يرتمى الموج به
سابح بين ظهور وخفاء

علا الجو فعالا وغدا
عجب الغربان فيه والحداء

وجناح غير ذى قائمة
كجناح النحل مصقول سواء

فإذا جاز الثريا للثرى
جر كالطاووس ذيل الخيلاء

يملأ الآفاق صوتا وصدى
كعزيف الجن فى الأرض العراء

فى ركاكة قصيدته الثانية التى فاقت ركاكة القصيدة الأولى شاهد على أن شوقى أصيب بالذهول أمام الطائرة ، وإنعقد لسانه فلم يعد يعرف ما يقول ، ودلق علينا جميع الحيوانات من حوت وهدهد وغراب وحدأة ونحلة وطاووس ، وفوق البيعة بساط الريح والجن الأزرق . . الطائرة فى نظر شوقى هى عربة نقل الأتربة فى نظر الجبرتى .

لن نستطيع بغير هذا أن نفهم الهبة العجيبة التى حركت مصر كلها وهى تستقبل أول طائر مصرى يصل إليها من أوربا عبر الجبال والبحار . . وهذا ما سأرويه لك فى مقالى التالى .

(المساء ، ١٩٦١/١٢/٢٥ ، ص٨)

هذا العيد

فى ندوة عقدها لنا أخيراً الشاعر الفرنسى بيير برنار وهو يختتم زيارته الأولى للقاهرة قال إنه لم يحس ــ على نقيض ما كان يتوقع ــ بانتقاله من الغرب إلى الشرق . فالفندق الذى نزل فيه هو نسخة مكررة لأمثاله فى بلده . والأدهى من ذلك أن الأثاث المعروض فى متاجرنا هـو من طراز أوروبى مجه الآن ذوق الأوروبيـين أنفسهم، نبذوه ونحن نتعلق به . ومضى خيال الشاعر إلى أبعد من ذلك فقال : إن صورة الحرب التى رسخت فى ذهنه إلى النصر هى تسلل قوات قليلة فى ستر الليل إلى مواقع العدو، تباغته مع الفجر ــ فكأنما انشقت الأرض عنها ــ وتضربه ضربة واحدة سريعة ثم تكر راجعة . فما بالنا فى حرب يونيو حشدنا الجيش كله وصففناه على الحدود وفقاً لتكتيك مستورد قد لا نحسنه .

وحرص الشاعر ــ وهو شاب رقيق شديد الحياء ــ على القول فى نهاية الندوة بأن آخر شىء كان يتوقعه هـو التصدى للتحـدث أمام جمـع من

الناس ، تتعلق به نظراتهم ولا تتحول عنه . إنه حمل هم هذه الندوة وأرق له فهو شاعر وليس محاضراً . ولكن برنامج زيارته كان يقتضيه أن يرقى هذا المركب الصعب . وأبعد شيء عن ذهنه إذن هو النقد ، أو حتى التطوع بالنصيحة واقتراح علاج ، إنما يحدثنا من قلبه حديث صديق لصديق ، غاية مقصده أن يفصح لنا عن خواطره ، أن يسألنا لمجرد العلم : من نحن ؟ أليس لنا كيان متوارث نتميز به ويدل علينا ؟ لماذا نكف عن أن نكون شهداء على حضارتنا ، حضارة العرب ، وهي سند تاريخنا ، ونصر على الذوبان في حضارة أخرى ، منبثقة عن منابع غير منابعنا ، كثير من ملامحها لا يحمدها أهلها هم أنفسهم ، ثم لا نقتبس منها إلا القشور لا اللب .

وقد لحظت شيئاً من التململ والحرج ينتاب بعض الحاضرين من أهل بلدي . ليس فيهم إلا من هو مجيد للفرنسية متبحر في آدابها . حدست أنهم يخشون (لا أن الشاعر لم يأخذهم بعين الاعتبار الذي كانوا يأملون ، أي يلقاهم لقاء الأشباه . دع عنك لقاء الأنداد) بل أن يكون مقتضى النطق الذي سمعوه إذا ذهبوا به إلى آخر المطاف أنهم مطالبون إذا انصرفوا أن يخلعوا البدلة على باب الندوة ليلبسوا العباءة أو القفطان . ثم يمضوا إلى بيوت فسيحة لها حوش تتوسطه فسقية ، من طابق واحد أو اثنين على الأكثر ، وعلى النوافذ مشربيات ، وأن يعدوا لضيوفهم الأجانب فنادق على هيئة الربع أو الوكالة التي كانت تحط عندها القوافل . فإذا خرجوا منها ساروا تحت البواكي لا يخلو منها شارع في قلب المدينة . وكل هذا عند المتململين الضجرين هو التخلف بعينه . وحتى أذا أرادوا العدول لما

استطاعوا فقد يمضى بهم الزمن إلى طريق لا عودة منه . هم على يقين أن العودة مستحيلة . وهم أيضاً غير رافضين كل الرفض وجاهة المنطق الذى سمعوه . فهم حيارى لا يدرون ما هو البديل . حتى المحاضر نفسه لم يرشدهم إليه . ولعلهم وجدوا أسهل مخرج لهم أن يقولوا : ما هو إلا قادم آخر من الغرب يريد من القاهرة ــ لمتعته قبل كل شىء ــ أن تكون بغداد ألف ليلة . أن تكون لها طرافة تجذب السياح كما يجذب عجائب الحيوان زائرى السيرك ، شرط اعتبارها أن تكون فرجة .

وقد ابتسمتُ فى سرى ــ والقلب عليل ــ مرتين . مرة حين تحقق توقعى . فما حضرت من قبل نقاشاً يدور حول هذه القضية إلا رأيت من يتمثل باليابان . وهذا ما حدث فى الندوة . إذ ظن أحد السامعين أنه قادر على حل العقدة ، فهى عنده سهلة . فوقف وطلب منا ــ مزهوا بثاقب فكره ــ أن نحذو حذو اليابان ، فالرجل اليابانى فى مكتبه وعمله لا يفترق عن الأوروبى ، فإذا عاد فإلى بيت يابانى ، طرازا وأثاثاً وملبساً ، وعلاقات الأسرة ترسمها تقاليد موروثة لا تتغير .

شبعت من هذا الكلام . وطهقت من سيرة اليابان . وابتسمت ثانية حين وهمت أن المحاضر ربما بدا له أنه يثير لنا هذه القضية لأول مرة . مع أنها قضية قديمة جداً ، هلكت تقليباً وجسا ، بدأت فاترة فى أعقاب الحملة الفرنسية ، ثم دخلت مرحلة الدفء بعد عودة رفاعة من أوروبا ، ثم إلى مرحلة الغليان بعد هزيمة عرابى واحتلال إنجلترا لمصر ، إذ لم يعد الغربى أجنبياً فحسب ، بل عدوا أيضاً . من قائل لا رفض له إلا برفض حضارته . ومن قائل لا نصرة عليه إلا بسلاح كسلاحه . فينبغى أن نكون

مثله ، والجيل الذى أنتمى إليه (مواليد مطلع هذا القرن) كان معجونا فى قضيتين ملتحمتين أشد الالتحام . القضية الوطنية وقضية الجواب على سؤال : من نحن ؟

فما كان المطلب إلا استرداد الكرامة ولا كرامة لعبيد أو أمساخ . وتمزقنا بين من ينادى بالاقتباس بغير حدود ، ومن ينادى برفضه كل الرفض ، ومن يحاول التوفيق فينادى بأنه لا يتنكر للتراث ولكن يشترط انبعاث حركة تجدد فكرى وعقائدى ليتحول من الجمود والتخلف إلى الحركة والمسايرة وهى شىء آخر غير التقليد . وكان الصراع بين الأطراف يعكس فى آن واحد وبالتبادل اختلافهم فى القضية الوطنية وقضية الحضارة .

ولعل هذه القضية لم تضغط على بلد عربى ضغطها على مصر . إذ كانت ــ بسبب موقعها الجغرافى ــ أبعدها يدا ممدودة إلى أوروبا ، ولأن تراثها ينفرد بأنه قد انصبت فيه حضارات متعددة .

وإذا صدقت شهادتى فإن قضية الحضارة تحولت بعد ذلك من درجة الغليان إلى درجة الفتور . خف إلحاحها وربما تنوسيت . حقاً إننا نهتم الآن بالفولكلور ، ونسأل أين طابعنا فى فنوننا التشكيلية ، فى العمارة ، فى المسرح ، فى القصة إلخ إلخ ، ولكن كل هذا تفاصيل مفتتة للقضية ، وربما طمستها مع أنها تاركة ولا ريب شيئاً من الحيرة فى ضمير الأمة ، وربما كانت هذه الحيرة من أكبر أسباب تشتت جهودها وعقمها أحياناً ، فلا تتآزر هذه الجهود وتثمر إلا إذا تجمعت على نهج واضح نعرف منه من أين وإلى

أين نسير ، أى ينبغى أن تبقى هذه القضية فى درجة الغليان إلى أن نهتدى إلى حل . وبخاصة بعد غرز إسرائيل فى قلب الأمة العربية لا تقصد احتلال أراضيها فحسب بل تقويض تراثها .

هذا هو أملى فى العيد الألفى للقاهرة . أن لا نكتفى فيه بإصدار كتب وإلقاء محاضرات عن الآثار والخطط وتراجم الأعيان ، بل ينبغى أن يكون حاثاً لنا على أن ننفذ من كل هذه المظاهر إلى لب القضية ، لا أقول هذا عن ترف فكرى ، أو تلذذا بجدل يبدو أنه يدور فى فراغ ، بل لأنى واثق أن القضية لا تزال كامنة فى ضمير الأمة ، يجيئنى شبان كثيرون يقولون لى « من نحن ؟ » فأجيبهم مع الأسف : لست أدرى ، أنا مثلكم أردد الأغنية الشعبية « دلونى ع السبيل » .

(مجلة « المجلة » العدد ١٤٩ ، فبراير ١٩٦٩ ، ص ٢ ، ٣)

هذه الندوة

أحسست وأنا استمع إلى خطاب الرئيس — وإلى حد ما — وأنا أطالع قرارات الندوة جسامة المهام الواقعة على عاتق هذا الجيل ، نوعاً وعدداً ، وربما أخذنى شيء من الرهبة ، ما كان أسهل إغراءها لى بأن تتحول إلى إشفاق رخيص عليه ، وأن أتضعضع لها فأنكص عن امتحان النفس وتحمل المسئولية ، وأخيراً أن أستغرق فى الأحلام ، كأنها كل ما أقدر عليه من جهاد ، وهى الهروب بعينه ، بل أشد فصائله خداعاً للنفس .

هذا الشرق العربى الذى دافع عن الحضارة لا عن نفسه فحسب بصد التتار والمغول ، والذى دافع عن أصالته ووحدة أراضيه بإجلاء الصليبيين يلقى الآن على الجيل الحاضر من أبنائه أشق وأشرف مهمة عرفها تاريخه إلى اليوم . مرة أخرىِ أن لا يدافع عن نفسه فحسب ، برد أعتى عدوان وقع على أراضيه ، بقلب هزيمة قاسية إلى نصر ، باسترداد عروبة فلسطين ،

بحماية الأماكن المقدسة ، بل أن يدافع أيضاً عن الحضارة ، أن يتولى وحده كسر الصهيونية وفضح زيفها وخطرها . ليبرأ العالم المتدين كله من نصبها عليه وتغلغلها سراً فى أحشائه لتضليله والسيطرة عليه ، ليبرأ اليهود أنفسهم من جنون التميز والعظمة الذى يلوث إنسانيتهم ويشعل الأمم جميعاً بمشكلة مفتعله مفروضة عليها بالإرهاب ، تحرمها من الاطمئنان أن الولاء واحد لا مزدوج . أن يعطى أبناء هذا الجيل للتاريخ تفسيره الحق ، فينشق له أقوم الطرق نحو مستقبل يسود فيه السلام ويمتنع العدوان .

وكأن هذا كله لا يكفى ، فهذا الجيل مطالب أيضاً ، لا بمتابعة السير بل بالوصول ، لا بترديد مقدمات النظرية مرة بعد أخرى ، بل بالاهتداء اليوم إلى الحل . فالأسئلة التى طرحها الرئيس بوضوح وجمع بين البساطة والعمق ـ شأن المستوى الرفيع الذى يبلغه دائماً فى قضايا الفكر ـ ربما واجهتها أيضاً أجيال سابقة منذ الحملة الفرنسية وبقيت لنا وإن تكن فى صورة جديدة أشد اتقادا ، لأننا فى عصر غزو الفضاء ، ما كان أكثر تقليبها على الجنبين منذ مولدها . أبناء هذا الجيل هم المطالبون بالانتقال من الجدل إلى رأى يجمعون عليه ويؤمنون به ويقدمون على تحقيقه ، ياله من تكليف عسير أشد العسر ، كيف يستطيع شعبنا أن يعيش عصر الفضاء وفى نفس الوقت يستبقى جذوره فى ترابه الوطنى ، كيف يستطيع شعبنا أن يوفق بين الأصالة وهى التاريخ وبين التجديد وهو المستقبل ؟ كيف يستطيع شعبنا أن يعيش عصر العالمية الذى تلاشت فيه الحدود والمسافات وفى الوقت ذاته لا يضيع ذاته وصفاته ؟ كيف يستطيع شعبنا أن ينطلق إلى آفاق التكنولوجيا الحديثة وفى نفس الوقت لا يدوس على التراث المجيد ؟

قد لا نواجه وحدنا ضرورة الإجابة على هذه الأسئلة لذلك كان كلام الرئيس بصيغة الجمع (شعوب) لا صيغة المفرد المنطبقة على شعبه ، وإذا كان المجرى العالمي للحضارة الإنسانية يشهد لمصر والأمة العربية كلها ، كما قال الرئيس أيضاً ، بإسهامها الموفور والمقتدر فإن الإجابات التي ستعطيها مصر على الأسئلة العسيرة التي عددناها ستكون بلا ريب إسهامها الجديد في العصر الحديث .

ليس من قبيل الأحلام ، بل بتضرع إيمان يحتل القلب توجهت إلى المولى سبحانه ـ أن يقيض لهذه الأمة ـ وهي تجتاز محنتها ـ صفوة من أبنائها ينشغلون بهذه القضايا الكبرى كل الانشغال ويدركونها تمام الإدراك ويكرسون أنفسهم لخدمة العلم لوجه الله والوطن بلا انتظار لجزاء ، لا تأخذهم في الحق لومة لائم ، يكفون عن المزاعم والخيلاء والمن بكل فضل مهماقيل عن التشكي والتراشق بالتهم والتنازع على المناصب والجاه ، يصبرون على المشقة ، يقوم كل منهم بواجبه غير ملتفت هل سار غيره أم قعد ، هل أحسن أم أساء ، وأن يكون من بينهم شاعر يشدو بأمجاد الأمة ويحدو خطاها ويعدلها عن سلبية اللامبالاة إلى إيجابية العمل والجهاد .

وإذا كانت قرارات الندوة محصورة في دائرة أنانية الاختصاص ، وقد لا تعد إلا إشارة بسيطة جزئية إلى المهام الجسيمة التي تنتظرنا،فإنها مع ذلك ترمز لها وتنفذ إلى صميمها ، فهيهات لبلد يهمل تاريخه ويتنكر لماضيه أن يتعرف أين طريقه من غد .

انصرفت عن صفوف المستمعين وفي قلبي شعور مزدوج : الاعتزاز

الشديد بما ثبت عليه طبع بلدى الأصيل من تسامح برفضه التفريق بين الأجناس والأديان فى دعوة العلماء الأجانب إلى النـدوة (دون أن يطلب الإشادة وإن كانت تسرنا لو وافتنا تطوعاً إبان المعركة التى نخوضها وبسببها فحسب ، فلعل وعسى) وشعور بالحسرة والغيرة لأن عناية هؤلاء العلماء الأجانب بدقائق تاريخ بلدى وآثاره قد يقال عنها إنها ربما كسفت عنايتنا نحن أهل البلد .

(مجلة « المجلة » ، العدد ١٤٩ ، مايو ١٩٦٩ ، ص ٢ ، ٣)

جواهر علق بها التراب

جواهر كريمة : فريدة : لم يكن لها قبلها مثيل ولن يكون لها من بعد مثيل ؛ تتلألأ بالحسن ؛ تتألق بالجمال ؛ بالظرف والجلال معاً ؛

ما أصعب الجمع بين هاتين الصفتين : المهابة وخفة الدم ؛ الجد والانشراح ؛ العظمة والسماحة ؛ تحنى لها رأسك ولكن بلا انسحاق وشعور بمركب النقص ؛ لا تتعالى عليك ـ كأعمدة الأقصر ـ بل تمد لك يدا تألفها يدك ؛ لا تنتسب إلى عملاق أنت عنده حشرة لا حساب لها عنده ؛ تدفن أنت فى حفرة أما هو ففى هرم ضخم ؛ بل تنتسب إلى إنسان مثلك ؛ خاشع لربه ؛ يحبك ويبتسم لك ؛ ولكن يا له من إنسان ؛ إنه رسول الفن إليك ؛ يقبسه لك من شعلته المقدسة ثم لا ينزل على قلبك إلا برداً وسلاماً ، فيسر منك العين ويبهج القلب وينعش الروح ، عريقة من ناحيتين : لأصالتها الفذة ؛ ولتعاقب أجواء طاهرة عليها بلا انقطاع ؛ تتردد فيها الصلوات وآيات سحر البلاغة فى كلام الله .

إننى أتحدث عن مساجدنا العظيمة فى قلب قاهرتنا القديمة ؛ جامع قلاوون ؛ الأب والابن ؛ جامع الغورى ؛ جامع برقوق ؛ جامع المردانى ؛ جامع محمد أبو الذهب ؛ جامع الأقمر ؛ جامع إينال اليوسفى ؛ والأسبلة أيضاً ؛ سبيل الناصر ؛ سبيل خسرو باشا ؛ اسألنى أنت إذا سألتك أنا : ماذا فعلنا بهذه الجواهر الكريمة الفريدة ؟ اذهب إليها ولو مرة ؛ واذرف الدمع إن بقى فى قلبك إحساس بالجمال واعتزاز بالتراث وحب لبلدنا العظيم ــ القاهرة ــ وتاريخها الطويل ؛ ستجدها وتراها فى أبأس حال ؛ لا يصدق عليها إلا قولهم « أخنى عليها الدهر بكلكله » ، مهانة بعد عز ، تراكم عليها التراب ، يقاس عمرها الآن بطبقاته ؛ تدلق عندها القمامة ؛ يربط عند جدرانها الخيول ؛ وربما فك السائر عندها حصره ؛ بعض أجزائها مؤجر مخازن لتجار الخيش أو النحاس وبعضها مؤجر للسكنى ؛ هى حضيض المساكن الشعبية . ليست هذه هى المصيبة ؛ بل المصيبة أن كل هذه الآثار تذوب بين أيدينا ؛ أرى رأى العين دبيب الفناء فيها ؛ تشققت جدران بعض المساجد ، أصبحت فعلا خرائب ؛ ستجد المسجد الكبير الشاسع لا يقوم على تعهده إلا نفر قليل جدا من الخدم أو البوابين ؛ إننى لا أتخانق وأطالب بإنفاق كل ما يلزم من مال لترميمها وإعادتها لبهائها الأول ؛ لا أطالب بأنوار كاشفة وبرامج صوت وضوء . . لا أطالب بإزاحة المساكن المتداعية من حولها لينكشف استقلالها للعيون ؛ لا أطالب بأن يكون فى كل مسجد مندوب من مصلحة الآثار درس فى الجامعة ؛ وكتاب بلغات عديدة يشرح تحفه ؛ وتاريخه ؛ أترك هذا كله ليوم تفيق الأمة لفنها ؛ بعد انتصارها ؛ إنه يوم آت ولا ريب بإذن الله ؛ كل الذى أطالب به الآن هو صفيحة ماء ؛ وفرشاة من لباد ؛

ويدا تكنس وتغسل أرضه وسلالمه وجدرانه . أليست مقامة هذه المساجد لدين يرى أن النظافة من الإيمان .

اصبر على المشقة والمكاره ومرارة الامتعاض واسلك حوارى وأزقة ضيقة لولبية ، وخض فى خضم من لحم بشرى يكدح فى طلب الرزق ؛ ثم قف تحت قبة برقوق أو قلاوون ؛ وافتح عينك ونوافذ قلبك وأبوابه عسى أن تصيبك فتطهرك هزة الطرب والانشراح للجمال ؛ الجمال الأنيس الظريف ؛ هزة الخشوع لله ، سبحانه ؛ واهب الفن للإنسان ؛ ستجد الرقم الذهبى فى الهندسة والزخرفة ؛ الزجاج الملون زينة علوية وعجب ؛ الخشب دانتيللا ؛ والمرمر تبخرت برودته ؛ يشع بالدفء كأنما رفعت عنه فى التو يد الفنان الذى حنا عليه وقطعه وسواه ؛ من هو؟ ليتنى أعرف .

لا أعتب إلا على أصدقائى الذين يعرفون عند الناس بأنهم فئة المثقفين ، كثير منهم يشتغل فى الصحافة ؛ إنهم يهملون واجبهم المعلق فى أعناقهم ؛ واجبهم هو الانتباه لهذه الكنوز والاهتمام بها ولفت الأنظار إليها ؛ يتكلمون عنها بصدق العاشق لا بزيف البرو باجندست ، عسى من تفرق المشاعر المستثارة ينشأ تيار قوى يكون له تأثيره ويحسب له حساب . ولا يجدى فى اعتذارهم قولهم إنهم يقضون سهرات رمضان فى قهوة الفيشاوى ؛ يشربون الشاى « الكشرى » ويدخنون الشيشة .

(« التعاون » العدد ٣٩٠ ، ١٩٧٠/٨/٩ ، ص ١٠ ، ٨) .

علم وتواضع

وقع هذا الكتاب فى يدى صدفة وسط السيل المنهمر من المؤلفات التى لا تجد مع الأسف عناية برصدها ونقدها . ولعل ظهور مجلة «الكتاب» فى ثوبها الجديد يسد بعض جوانب هذا التقصير .

وظننت لأول وهلة أنه من الصنف الذى يكفيه التصفح السريع بدل القراءة المتأنية ، صنف شائع عندنا مع الأسف ، كثير من الكتب مسطر لمقالة أو دوران مفتعل حول فكرة بديهية ، أو صرعى ولـه بالاسترسال والاستطراد واللت والعجن والفكر المائع والأسلوب الأشد ميوعة . ولكنى لم أكد أبدأ سطوره الأولى حتى جحظت عيناى من شدة الانتباه وغمرتنى سعادة كبيرة ، وأحببت المؤلف ـ وأنا لا أعرفه ـ من كل قلبى .

هذا هو كتاب «من الفراعنة إلى عصر الذرة ــ سطور من قصة الصحة النفسية فى مصر» من تأليف الدكتور صبرى جرجس ، ومن منشورات دار الكاتب العربى .

فلم أكن أتوقع من المؤلف الغارق فى طب النفوس ـ دراسة ومزاولة ـ أن يستوعب التاريخ فتكون له على ضوئه وقفة طويلة متأملة للحضارة العربية من خلال فتوحاتها فى علوم الأمراض العقلية والنفسية ـ دراسة وعلاجا وتأليفاً . ليس هذا هو المهم ، بل المهم أن المؤلف استطاع بعد هذه الوقفة أن يضع يده على مفاتيح المقومات الأساسية لهذه الحضارة . ولأن كلامه عنها جاء فى مقدمة كتابه الذى لم يسهب رغم صغر حجمه (٦٤) صفحة من القطع المتوسط أن يجمع بين دفتيه تاريخاً منحدرا من عصر الفراعنة إلى عصر الذرة فقد اتسم هذا الكلام عن الحضارة العربية بتركيز شديد كأنه قنينة صغيرة جميلة بها روح عطر هو خلاصة أطنان من الزهور .

عمل الدكتور صبرى جرجس لم يأت بجديد ولكن هذا التركيز على المقومات الأساسية للحضارة العربية هو الذى جعلنى أحس أننى لم أقرأ من قبل مثل هذا الدفاع عن هذه الحضارة بلغ مبلغه من قوة الإيمان والإقناع، من الحب الصادق والفهم الصحيح.وتهاوت فى ذهنى جميع الاتهامات التى وجهها أعداؤ ها إليها جملة ، عن حسن نية ، أو مضللين عن حقد وسوء نية .

أسارع أولا وأقول لك إن الدكتور صبرى جرجس نفى عن العرب تهمة إحراقهم لمكتبة الإسكندرية ، فقد قال فى صحيفة (٢٠) إنها تعرضت أولا لتدمير جزئى عند استيلاء يوليوس قيصر على المدينة عام ٤٨ قبل الميلاد ، ثم على يد الامبراطور الرومانى أورليان سنة ٢٧٨ م . ، ثم للتدمير الشامل بتحريض من الأسقف ثيوفيلاس الذى قام بشن حملة

هوجاء ضد الوثنية ، أى قبل الفتح العربى بعدة قرون : لم يستنكف الدكتور صبرى جرجس أن يلقى التهمة على تعصب المسيحيين فى عصور سادها الجهل والظلام نقضاً لروح المسيحية السمحاء . .

ويبدأ الدكتور صبرى جرجس كلامه عن الحضارة العربية بهذه المقدمة الخاشعة .

« بينما كان الفكر البشرى يعانى من تلك النكسة المعقدة التى رانت عليه خلال الألف عام المعروفة باسم العصور المظلمة بسبب ازدياد سلطان الكنيسة ورفضها كل رأى يخالف ما كان مفكروها ينتهجونه وبطشها بصاحب أى فكر حر ، كانت شبه الجزيرة العربية تشهد بزوغ فجر حضارة جديدة لم يلبث ضياؤ ها أن أشرق حتى عم أرجاء العالم جميعاً ولم يقتصر فضل الحضارة العربية على أنها حملت مشعل المعرفة وصانت أمانة الفكر خلال القرون الوسطى التى امتدت زهاء ستمائة سنة كانت أوروبا أثناءها غارقة فى ظلمات الجهل ، بل إنها أسهمت إسهاماً غزيراً وأصيلاً فى كل ضروب المعرفة البشرية ، بما فى ذلك الطب . وليس يسع الباحث المنصف وهو يرقب ما كان للعرب من حيوية ذهنية وقدرة خارقة على استيعاب العلوم والمعارف وما أتاحوه لتنمية المعرفة والنهوض بها فى مناخ عقلى يتسم بالحرية والسماحة وسعة الأفق وما اتصفوا به من روح التسامح والصداقة لمختلف الشعوب التى اتصلوا بها بعد الفتح ، والترحيب بالمبرزين من رجال الفكر فيها ، ودعوتهم إلى المشاركة فى الجهد العلمى الذى نشطوا اليه وأقبلوا عليه فى تفتح باد وحماس بالغ ، نقول لا يسع الباحث المنصف وهو يرقب هذا كله إلا أن تفيض نفسه إعجابا بالدور الذى قام به العرب فى

الحفاظ على المعرفة البشرية ونقلها فى أمانة من حضارة أشرقت يوما على ربوع مصر وبلاد الإغريق ثم خبا ضياؤ ها إلى حضارة كانت لاتزال يومئذ فى ضمير الغيب ثم بدأ نورها يشرق بعد زهاء ألف عام من الظلمات على أوروبا متمثلين ما انتقل إليهم ومطعمين إياه بمساهمات فكرية أصيلة . إن أى عرفان بهذا السجل لا ينصف فضل العرب على الحضارة البشرية كل الإنصاف ويقصر دون الوفاء بحقهم عليها . . » (انتهى) .

وفى ظل الإعجاب الشديد بهذه الحضارة يتتبع المؤلف فتوحات العرب فى العلوم العقلية والنفسية ويترجم للرازى (٨٤١ - ٩٢٥) ويروى نوادر طريفة عن أسلوبه فى العلاج ، ثم يتبعه بالمعلم الأكبر أو المعلم الثانى ابن سينا (٩٨٠ - ١٠٢٧) ، ونجيب الدين أبو حامد المعاصر للرازى .

وكيف لا تهتز نفسى إعجابا بتاريخ أمتى وأنا أقرأ اقتباس المؤلف من المقريزى وصفه لاهتمام العرب بإنشاء المستشفيات كعمل من أعمال البر التى يسارع إليها أهل الخير . إن أول مستشفى عرفه الاسلام هو الذى أنشأه الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك بدمشق عام ٧٠٦ ميلادية . وأول مستشفى أنشىء بمصر كان بأمر من أحمد بن طولون ، وكانت له ككل المستشفيات الإسلامية ـ الخصائص التالية :

- أنه مفتوح لعامة الناس ، به قسم للرجال وقسم للنساء .
- الإقامة والعلاج بالمجان .
- لكل مرض قسم خاص به .
- قسم الأمراض العقلية والنفسية موجود داخل هذا المستشفى العام .

وهذا الضم لم يقدره علماء الغرب حق قدره إلا فى الأيام الأخيرة فطالبوا بإلغاء عزل مرضى العقول والنفوس فى مستشفيات منفصلة ؛ إذ أن علاجهم أفضل فى حالة الضم من حالة الانفصال .

بعد هذه المقدمات يتتبع الدكتور صبرى جرجس تاريخ الأمراض العقلية والنفسية فى مصر الحديثة ، ويصف تطور مستشفياتها ، ويخلص من ذلك إلى صلب الكتاب وهو دراسة هذه الأمراض فى مجتمعنا اليوم وجهود الدولة فى معالجتها .

وقد أضاف الدكتور صبرى جرجس إلى عمله الغزير تواضعاً محموداً ، فأبى إلا أن يسمى كتابه « سطور فى قصة الصحة النفسية فى مصر » . فما أجمل أن يجتمع العلم والتواضع .

(« المساء » ، ١٩٦٧/١٠/١٦ ، ص ٤)

عودة الغائب الجريح

فى مدينة بعيدة عنا لاتتكلم لغتنا،لها قدم فى آسيا وقدم فى أوروبا ، يعلوها الضباب فى فصل الشتاء ، وتغطيها الثلوج ، تهجع كأهل الكهف فى سبات عميق منذ ثلاثة قرون كاملة على رف فى مخزن لعله مظلم يعلوه التراب فى مكتبة عامة غير مطروقة مجموعة من أوراق كتاب لغته عربية مكتوب باليد وبخط عجيب هو مزيج من الفارسى والنسخ . ما هو هذا الكتاب المطمور فى بلد غريب يعانى فيه الوحدة والنسيان ؟ تنبئنا الصفحة الأولى أنه الجزء الثانى من كتاب « نسب قريش ومافيها » تأليف أبى عبد الله الزبير بن بكار الزبيرى (رضى الله عنه) .

- « رواية أحمد بن سليمان الطوسى عنه .
- رواية أبى بكر بن شاذان عنه .
- رواية أحمد بن عمر العذرى المعروف بابن الدلائى عنه .
- رواية أبى ذر عبد بن أحمد الهروى عنه

- رواية محمد بن أبى نصر الحميدى عنه .
- رواية على بن الحسين بن عمر الفرّاء الموصلى عنه .
- رواية الشيخ ابى عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت الكنانى عنه .
- رواية محمد بن الشريف القاضى الكامل ذى الحسبين أسعد بن على الجوانى النسابة عنه » والجوانى الذى أملى هذه الأوراق هو عالم مصرى فى الأنساب ، ولى نقابة الأشراف فى مصر . ولد سنة ٥٢٧ هـ . وتوفى سنة ٥٨٨ هـ .

ترى ماذا جرى لهذه الأوراق بعد أن أملاها الجوانى ؟ كيف ومتى وصلت إلى تلك المدينة البعيدة ؟ ما هى الأيدى التى تداولتها ؟

جزى الله أجدادنا خير الجزاء ، قد كان من عادتهم أن يسجلوا على الكتاب اسم من ملكه يداً بعد يد ، فإذا رجعنا للورقة الأولى وجدنا مكتوبا فى أعلى الصفحة فوق عبارة «الجزء الثانى من كتاب الخ ما نصه : «وقف لله سبحانه ومقره بالقبة المنصورية» .

والقبة المنصورية هى إحدى العمارات الجليلة التى أنشأها السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الذى ولى مصر سنة ٦٧٨ هـ . إلى أن توفى سنة ٦٨٩ هـ . وفى سنة ٦٨٢ هـ عمر مارستانا ومدرسة وقبة . وقد وصف المقريزى القبة المنصورية وصفا عجيبا فى خططه فقال : «وبهذه القبة خزانة جليلة كان فيها عدة أحمال من الكتب فى أنواع العلوم مما وقفه الملك المنصور وغيره . وقد ذهب معظم هذه الكتب وتفرّق فى أيدى الناس» .

وإذن فقد دخلت هذه النسخة بعد سنة ٦٨٣ أى بعد كتابتها بنحو خمس وعشرين ومائة سنة على الأقل . فهل نستطيع أن نعلم أين كانت هذه النسخة قبل أن تؤول إلى القبة المنصورية .

نعم ، ففى الجانب الأيمن من الورقة الأولى نجد مكتوبا ما يأتى : «لعبد العظيم بن عبد القوى بن عبد الله المنذرى نفعه الله به آمين» .

وكاتب هذا بخطه هو الحافظ الكبير الإمام الثبت الشامى المصرى شيخ الإسلام المنذرى ، مولده بمصر سنة ٥٨١ هـ ووفاته بها سنة ٦٥٦ هـ ، ولى مشيخة الدار الكاملية للحديث وانقطع بها ينشر العلم عشرين سنة . فيكون من المرجح أن هذه النسخة قد آلت إليه فى حدود ٦٣٥ هـ أو قبلها أى بعد وفاة صاحبها الجوانى النسابة فى سنة ٥٨٨ هـ . بنحو سبع وأربعين سنة ، فأين كانت طوال هذه المدة ؟ هذا سر غامض علمه عند ربى .

ثم نجد فى الجانب الأيمن من هذه الورقة بخط مغربى دقيق لطيف ما نصه «لمحمد بن على بن يوسف الأنصارى لطف الله له بمحبة والديه» .

ما معنى «بمحبة والديه» إن الكلمتين غير واضحتين فى الأصل ولا سبيل لنا اليوم لقراءتها إلا على هذا التخمين .

وكاتب هذا بخطه هو الإمام الأستاذ القارىء الكامل اللغوى النحوى الأديب المؤرخ المعروف رضى الدين الشاطبى ولد ببلنسية بالأندلس سنة ٦٠١ هجرية ثم هاجر إلى مصر ونزل للإقراء بالقاهرة إلى أن توفى بها سنة ٦٨٤ هـ .

فيكون تاريخ هذه الأوراق هكذا كتبت سنة ٥٥٧ هـ . بالقاهرة وبقيت عند صاحبها الجوانى النسابة إلى أن توفى سنة ٥٨٨ هـ ، ثم مضت نحو سبع وأربعين سنة لم ندر أين كانت ، ثم آلت إلى المنذرى فى نحو سنة ٦٣٥ هـ . حتى توفى سنة ٦٥٦ هـ . فدخلت فى حوزة الشاطبى حتى توفى سنة ٦٨٤ هـ ، ثم دخلت وقفا فى القبة المنصورية فى سنة ٦٨٤ هـ أو بعدها . ولعلها بقيت هناك إلى عهد المقريزى الذى ذكر ـ كما سبق القول ـ أن معظم كتب القبة المنصورية قد تفرق فى أيدى الناس ، ثم لا ندرى بعد ذلك من أمرها شيئاً أربعة قرون يحوطها ظلام دامس إلى أن دخلت آخر أمرها قبل سنة ١٠٨٥ هـ . فى حوزة الوزير العثمانى الجليل فاتح البلاد والحصون فى المجر وبولونيا وإقريطش أبى العباس أحمد بن أبى عبد الله محمد المعروف بكوبرلى ، وهى فى مكتبته النفيسة بالآستانة إلى يوم الناس .

ظلت هذه الأوراق هاجعة كأهل الكهف فى سبات عميق تحت جو غريب إلى أن قيض الله لها العالم السعودى الشغوف بالتراث الشيخ حمد الجاسر فتتبع هذا الكتاب الجليل حتى عثر على نسخته فى استانبول وعلى نسخة أخرى لها قصة أعجب موجودة فى مكتبة «بودليان» بأكسفورد ومع هذا الجهد فإنه لم يعثر إلا على النصف الأخير من الكتاب أما النصف الأول فأين هو ؟ علم ذلك عند الله . . هل ضاع كما ضاع أغلب تراثنا ؟

ونسخة « الجوانى » لم تسلم من التلف ، ففيها خروم كثيرة ، وجار المقص على أطراف بعض الصفحات ، ثم دفع الشيخ حمد الجاسر بصورة فوتوغرافية من كل من النسختين إلى الأستاذ العلامة المحقق محمود محمد

شاكر ، فأخرجه للناس على نحو لا يدع لناقد قولا بعد أن فك جميع عقده وجلا كل غوامضه .

ما سقت لك هذا الكلام إلا لأقول لك إنه كلما صدر كتاب فيه إحياء لتراثنا الجليل المبعثر فى بقاع الأرض إلا تلقيته بخشوع أكاد أقبله كما تقبل الأم ابنها التائه إذا عاد إليها بعد يأس . إننى لا أقف عند مادة الكتاب القديم أيا كانت قيمته فى وقتنا الحاضر ، وإنما أقف وأنا واجف القلب من شدة الدهشة والإعجاب بأجدادنا الذين وقفوا أنفسهم على طلب العلم الذى يعرفونه فى زمانهم ، أخلصوا له إخلاصاً يقرب من العبادة . حمل الكلمة ونقلها من جيل إلى جيل ، من أستاذ إلى تلميذ ، أمانة فى أعناقهم كما لو لم يكن لهم فى الدنيا شاغل سواها . أرض الإسلام واحدة ، الحدود زائلة والعلماء يتساندون فى حمل الأمانة والحفاظ عليها ، أنت رأيت فى كلمتى هذه علماء من مكة ، من الشام ، من القاهرة ، من بلنسية ، كلهم خدموا مؤلفا واحدا فى عهد لم يعرف الطباعة إنما بفضلهم وحده وصل إلينا من هذا التراث فتات ينبىء عن الثروة الضخمة التى خلفها الأجداد ، أكثرها ضاع إلى الأبد ، وأقلها لا يزال مع الأسف ــ مبعثرا فى بقاع الأرض فمتى يرجع إلينا ؟ ومتى نعرف كيف نفيد منه ؟

فى كتاب « جمهرة نسب قريش وأخبارها » للزبير بن بكار شعر كثير لا نجده فى الكتب التى هى بين أيدينا ، بل إن الأخبار التى رواها الزبير تعد من أعظم الوثائق التاريخية الدالة على الحياة الاجتماعية فى الجاهلية والإسلام ، فضلا عما فيها من جمال العبارة ودقتها وجلالها ــ هكذا هو حال تراثنا ، وإنه كل يوم يخدم بعضه بعضا ، ولا غنى لبعضه عن بعض ،

ويالضيعة أمة لا تعرف تراثها . ما أشد حماقة من يهزأ بنشر هذا الكتاب فى وقتنا الحاضر ، أو يشكك فى فائدته؛ إنما يهزأ به الأعمى الذى لا يرى كنوزه ولا يرى هذا النور الوهاج الذى يشع من وجوه العلماء من أجدادنا الذين ضربوا للعالم أروع الأمثال على الإخلاص للعلم وحمل أمانته لوجه الله وحده ، ثم انظر إليهم كيف أنهم لم يتركوا عالما واحدا ، فى جيل من الأجيال دون أن يترجموا له ويقدروا آثاره ، فاتصل علم الأمة ولم ينقطع .

(«المساء» ، ١٩٦٢/٨/٢٠ ، ص ٨)

الأعياد والألعاب فى القاهرة

من العدد الثانى للحوليات الإسلامية الصادر عن المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة بمناسبة عيدها الألفى والذى ضم عدة أبحاث قيمة لنفر من العلماء الفرنسيين اخترت مقال الأستاذ جاستون فييت لأترجمه لك ، لأنه ترك المبانى والآثار وتحدث عن الشعب وأحواله وعنوان المقال :
الأعياد والألعاب فى القاهرة :

كتب فلوبير (١٨٢١-١٨٨٠) فى خطاب له وهو يزور مصر :
« الشعب هنا شديد المرح ، يهيم كثيرا بالعجائب والمساخر والمواكب » .
ووقوف المارة فى الطرقات وصرف أوقاتهم للتفرج بالنظر أو الاستماع على مظاهر تلهيهم ، خلة تجدها فى كل زمان ومكان ، وقد وصلنا عن بلاد إسلامية غير مصر وصف أقدم لاحتشاد الناس حول مدرب لحيوانات تؤدى ألعابا تتسم بالذكاء والمهارة ، أو حول رجل يعرض دبا ، أو قرداتى ترقص قروده على دقات دفه ، ولهيام الناس كذلك بالتفرج على المجاذيب

الزاعمين أنهم من أولياءالله ، وعلى أدعياء الطب والقدرة على شفاء الأمراض ، وقد تجدهم يسيرون وراء رجل مسكين يساق به إلى المشنقة ، وقد ورد فى كتب عربية عديدة ذكر أناس تتجمع حولهم المارة ليروهم وهم يلعبون بالسيوف أو يسفون الرمال ، أو يزدردون الطوب أو فتات الزجاج أو وهم يؤدون بعض ألعاب الحواة كقدرتهم على إخفاء الأشياء كأنها ذابت فى الهواء فإذا بها بين أيديهم سليمة كما كانت ، وكل ذلك على مرأى من الواقفين حولهم ، وقد روى لنا ابن خلدون وإن لم يضمن لنا صدق ما رواه أن بالقاهرة أناسا مهنتهم هى تعليم الكلام للطيور ، وتدريب الحمير على القيام بألعاب عديدة هم أيضا حواة يدهشون المتفرجين بحيلهم البارعة ويتولون أيضا تدريب تلاميذهم على المشى فوق حبل مشدود فى الهواء ، وعلى الرقص والغناء فوقه ، والحكاية التالية تشهد بما كان ، يقول ابن إياس : إن السلطان سليم العثمانى جىء له وهو بالقاهرة سنة ١٥١٧ بغراب مدرب على أن يهتف . الله حق ، الله ينصر السلطان . فمنح صاحبه ثلاثين دينارا وهنأه على براعته .

والقصد من هذه المقدمة عرض بعض أسباب اللهو والتسلية التى كان يهيم بها أهل القاهرة فى القرن الماضى .

ونجد فى تاريخ المجتمعات الإسلامية عند نشأة الإسلام ارتباطا بين محترفى ألعاب التسلية ومنشدى السير الشعبية وكان من الأمثلة الشائعة قولهم : حبل المنشدين والقرداتية ، وقد وصف لنا الأستاذ بيلا ما كانت تعج به مدينة البصرة من عروض تقام فى الطرقات . وإذا كان للطبقة الراقية والوسطى فرق تختص بها من عازفى الموسيقى ومنشدى الأغانى

والمهرجين فقد بقى لعامة الناس إلى جانب رواة السير الشعبية المسلية والشطار النصابين سوق رائجة للقرداتية ومدربى مختلف الحيوان . وكان الزامرون بترقيص الثعابين أحب هذه الفئات إليهم . وقد نقل الأستاذ كانار عن القزوينى قوله :

« إن الميدان الأخضر فى مدينة « دمشق » تجرى به ألعاب المصارعة والمصارعين والمغنيين وفرق الناس يوم السبت طلبا للهو » ، ولا تزال مدينة مراكش إلى الليلة تشهد فى ميدان جامع الفناء كل مساء زامرا من أصحاب الحيل والخوارق الجسمانية ومن البهلوانات والسحرة وبائعى النار والراقصين والزامرين للثعابين . ونحن لا نجد للملاهى العامة أنماطا محددة ولا دورا تختص بها وهكذا فإن الإسلام وإن اقتبس من الحضارات السابقة عليه طقوس الذهاب إلى الحمامات الشعبية فإننا لا نجد فى ظله دورا توقف على الملاهى الشعبية ، كالمسرح أو حلبة السيرك ، ولكننا نرى فى مصر - كما قدمنا - كما فى بلاد أخرى كيف أن الشعب قد اعتاد التجمع فى ساحات بعينها فى مناسبات معينة ليلتمس نصيبه من اللهو .

ونجد المقريزى وهو يتحدث عن حى بين القصرين يقول إنه تقام به اجتماعات عديدة للاستماع إلى السير الشعبية والحكايات التاريخية أو لإنشاد الشعر ، بالجملة للترويح عن النفوس بكل ما يدعو للتسلية . كما كان يشهد هذا الحى أيضا عروضا للمبارزة يقوم بها أناس لهم براعة فائقة فى استخدام كل أنواع الأسلحة وفى ألعاب التحطيب كذلك بالعصى الغليظة ، وإلى جانبهم عازفون على الآلات الموسيقية لمصاحبة منشدى المواويل .

ويقول المقريزى إن حى الحسينية ، وهو فى شمال القاهرة ، كان يتعذر السير فيه لشدة ازدحامه بالشيالين والمارة وبائعى الأطعمة والمهرجين والبهلونات .

وإذا صدقنا كلام أحد كتاب القرن الثانى عشر المسمى محمد فرطى فإن هذا الحى الشهير ، حى بين القصرين ، كان يشهد فى ذلك العهد اجتماع الناس للاستماع إلى تلاوة حكايات ألف ليلة وليلة ، ورواة الحكايات الشعبية هم أسلاف رواة القصص الذين صاحبوا نشأة الإسلام ، وقد ظلت سوقهم رائجة فى مصر ، ثم أصابها الكساد بظهور خيال الظل والتمثيليات المسرحية ، ثم فى أيامنا هذه ظهور الفونوغراف والإذاعة والسينما .

وكتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى يشهد أن الموسيقى والرقص كان لهما دور كبير فى المجتمعات الإسلامية وبخاصة فى عصور الخلفاء . وعنيت زخارف الخشب والخزف فى عهد الفاطميين بتصوير الموسيقيين والراقصين والراقصات مما يدل على محبة الناس لهم . أما الموسيقيون فكانوا يعزفون ألحانهم فى حفلات خاصة بمناسبة زواج أو ختان . وليس هناك ما يدل على الرقص فى حفلات عامة فى دور مخصصة لها ، ولو أننا نعلم أن فرقا من الموسيقيين والمغنين كانت تسير فى الطريق الذى تسير فيه المواكب الرسمية للمماليك ، ربما لتسلية جمهور النظارة إلى أن يحين مرور الموكب . وكان الموسيقيون والمغنيون والمغنيات يتوجهون إلى القصر بدعوة منه ، أو يصحبون السلطان فى أسفاره وكان الناس حينئذ ، كالعهد بهم اليوم ، يهيمون بتتبع أخبار نجوم الطرب وتدور عنهم أحاديثهم فى منتدياتهم ، وقد

قال لنا ابن إياس إنه سمع فى شبابه أخبارا كثيرة عن مغن مشهور هو محمد غازونى . الذى كان معروفا ببراعته الفنية وقدرته على أداء مختلف طبقات الأنغام ، وروى عنه كلمة تمزق القلب قالها حين أصيب بشلل نصفى وهو يتوجه بالكلام إلى زائريه : ليكن لكم شفقة على إنسان لم يعد صوته يسمع وأصبح نصف جسده ميتا لا نفع فيه .

وبقى لنا من عهد قايتباى ذكر لمغن يسمى على بن رحاب ، الذى بدأ نجمه يسطع سنة ١٤٦٣ منافسا لمغن آخر اسمه إبراهيم بن الجندى وكانت لهذه المنافسة بينهما آثار وخيمة ، وانتهت إحدى الحفلات بنشوب عراك بين أنصار هذا وذاك ، فنفى على بن رحاب إلى سوريا سنة ١٤٦٦ ، ثم مالبث أن عفى عنه وعاد إلى مصر ، وتوفى بها سنة ١٥٠٠ ، فعلم عنه أنه كان فنانا لا يبارى ، هو الذى يضع الألحان لأغانيه ، ولكنه من سوء حظه خاض غمار المعترك الدينى وخرج علينا بعبارات جارحة عن رأيه ، فحكم عليه بالجلد ثم أركبوه وهو عار حمارا وطافوا به فى أنحاء القاهرة .

(« المساء » ، ١٩٧٠/٢/٢ ، ص ٦ ، ٥)

* * *

ولم تسلم المغنيات أيضا من عسف السلطات الرسمية ، ونقرأ لابن إياس وهو يروى وقائع سنة ٨٤٦ هـ (١٤٨١ م) قوله :

قبض يشبك ابن حيدر والى القاهرة على امرأة يقال لها خديجة الرحابية . وكانت من أعيان مغنيات مصر ولها إنشاد لطيف وكان أصلها

من مغنيات العرب ثم عظم أمرها جدا وحظيت عند أرباب الدولة ورؤساء مصر . وكانت جميلة حسنة الغناء فافتتن بها الكثير من الناس فلما قبض عليها كانت فى بعض الأفراح فقبض عليها من هناك . فلما مثلت بين يديه قال لها : أنت التى أفسدت عقول الناس ، ثم أمر بضربها بين يديه نحوا من خمسين عصا وقرر عليها مبلغا وكتب عليها قسما بألا تغنى أو تحضر فى مقام . فلما خلصت من ذلك أقامت مريضة من الرجفة التى وقعت لها ثم ماتت عقب ذلك وكان لها من العمر نحو الثلاثين سنة . »

ويضيف فييت قوله : « فحزن عليها جميع الناس . »

أما زميلتها عزيزة بنت سطحى فكانت أحسن منها حظا ، ويقول ابن إياس إنها كانت من أشهر المغنيات معدودة من عجائب الزمان . كانت جميلة الصورة بارعة فى الغناء ، يجود الشعر وتزداد حلاوته وهى تغنيه : لم تأت بعدها مغنية تقاربها فى فنها ولم تحظ مغنية أخرى بمثل ما حظيت به من إعجاب الناس ، وفى مقدمتهم كبار الموظفين والأعيان ، وامتد العمر بهذه المغنية التى طبقت شهرتها آفاق مصر كلها وماتت فى سن الثمانين .

ووصلنا أيضا اسم محمد بن برقوق ٨٧٣ هـ (١٤٧١ م) وهو ملحن ومغن بارع فى فنه وإنشاده ، وذكر لنا ابن إياس كذلك اثنين من عازفى الطنبور هما على بن تمائم ومحمد بن قدجيك ، كما امتدح طويلا مغنية تركية اسمها شهر دار وكانت زوجة لأحمد بن جيعان ناظر الخزانة فى مطلع الحكم العثمانى .

ولم يأنف ابن إياس لحسن الحظ من أن يروى لنا نوادر عصره فهاهو ذا يروى لنا نادرة عجيبة جرت سنة ٩٢٧ هـ (١٥٢١ م) أى بعد أربع سنوات

من دخول الأتراك إلى مصر . قام اتفاق على ترتيب مباراة فى الغناء بين مغن شهير كبير المقام هو محمد بن سراعية ومغن آخر اسمه محمد أوجاق ، وقال محمد بن سراعية : عندى أغنية لم يسمعها أحد بعد فإذا أردتم تصديق قولى فليجتمع يوم الأحد القادم فى بركة الرطل كل أعلام التلحين والغناء فى المدينة . وكان الزمن زمن موسم الربيع ، وفى الموعد المضروب وفد على مكان الاجتماع كل الملحنين والمغنيين واتخذوا مجلسهم وسط البركة وتحلّق حولهم عدد غفير من الناس وهم فى شوق لاغتنام متعة بديعة . وأدى كل مغن أحسن ما عنده ، فكان اليوم يوم أنس وطرب . أما محمد بن سراعية فلم يظهر معتذرا بمرضه ، فعدّ الناس غيابه دليل انهزامه فى المباراة أو دليل عجزه عن إثبات صدق دعواه .

ونذكر فى خاتمة هذا الموضوع حادثة مؤسفة محزنة . كان السلطان قانصوه الغورى يحب المغنين ويصطحبهم فى أسفاره ، فلما خرج لمقاتلة العثمانيين اصطحب معه ثلاثة من المغنين هلكوا معه فى ميدان القتال ، ولم يبق لهم أثر . وكان يُطلق على أسماء المغنيات لقب « العوالم » أو « الغوازى » أو « البر مكية » ويمدنا « الجبرتى » بمعلومات كثيرة فى هذا الصدد فى حديثه عن موكب عروس فيقول إنه يفوق كل ما سبقه من روعة وفخفخة سارت به طوائف محترفى الغناء والألعاب ، لكل حرفة عربتها

عربة أرباب الملاهى (وهم المغنيون والمنشدون) وعربة « نساء المغانى » وعربة أرباب الملاعب وعربة البهلوانات وعربة الراقصين ، وكانوا يسمون أيضا الشنك ، وعربة محترفى المصارعة . إن المقام الكبير الذى احتلته

الموسيقى والرقص فى القاهرة الإسلامية تستحق بحثا منفردا وقد اقتصرت على أمثلة لها دلالتها .

لم يكن من المألوف إذن أن يتاح لعامة الناس الاستمتاع بالحفلات غير المقامة لهم ، ولكنهم كانوا يدعون أيام الإخشيديين والفاطميين للاحتفال بالأعياد المسيحية . ولايجمل بنا أن نستشهد بمثال فرد لنقيم الحكم ، فهاهو المحاسبى يروى من وقائع سنة ٤١٥ هـ (١٠٢٤ م) مشهدا عجيبا كان مسرحه قرية بوصير جنوب الجيزة فى حضرة الخليفة الظاهر ، فوصف لنا بالتفصيل موكب طاف بتلك القرية إجلالا للسجن الذى شهد عذاب البطريرك يوسف ، وفرض أهل القرية وأصحاب دكاكينها على تجار الفسطاط أن يتحملوا عنهم بنفقة هذا الموكب . تلكأ تجار الفسطاط فى الاستجابة لهم ولكن الخليفة أمرهم بأن يدفعوا ما تقرر عليهم . وأمضى الخليفة يومين فى بوصير وبدا عليه السرور لما شاهده من الاحتفالات .

ونوجز فنقول إن طائفة الرماطية (وهم جنس من الغجر) دخلوا سجن البطريرك يوسف على وجوههم تماثيل (يعنى أقنعة) يؤدون المضاحك ويسردون الحكايات ويعرضون خيال الظل أو يتلاعبون بدمى لها هيئة عجيبة ، وطاف هذا الموكب بالقاهرة أيضا طيلة أسبوعين .

وهناك ذكر لموكب آخر أكبر خطراً يقام بمناسبة عيد مدنى لا دينى هو عيد النيروز رأس السنة القبطية . ويروى المؤرخون الحوادث البشعة التى كان يشهدها ذلك اليوم إذ كان يختار لعيد رأس السنة القبطية رجل من عامة الناس ليكون أمير العيد وزعيمه ويكون له حاشية كبيرة ، تصرفاته

كأنما هي تصرفات أمير حقا تسانده السلطات الرسمية ليلعب هذا الدور كأن الأمر جد لا هزل ، فيركب هو وحاشيته جمالا ضخاما ويمر الموكب على بيوت أعيان البلد فتصدر من أمير العيد أحكام بغرامات أو أحكام قبض واستدعاء للتحقيق . كل هذا داخل في اختصاص أمير العيد هزل كله في صورة جد ، لأنه كان يرضى بكل ما يقدم له من هدايا كأنها أداء للغرامات ولو كانت تافهة ، ثم يجتمع المغنيون وأرباب الملاعب للمثول بين يديه يحملون آلات العزف ويطلقون صرخات عالية ويحتسون جهاراً كؤوس النبيذ والجعة ، وتُرش المارة في الطرقات بماء لا يسلم من القذارة . فكل من خرج من بيته في ذلك اليوم لم يسلم من تلوث ثيابه اللهم إلا إذا افتداها بمبلغ من المال .

وقد أمرت السلطات بتحريم هذا العيد سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٣ م) بأمر من السلطان برقوق لسنوات سبقت توليه السلطنة وبين أيدينا صورة تفصيلية لما جرى من الشعب الذى ترتب عليه تحريم هذا العيد . فقد تجمعت الغوغاء وأركبوا مهرجا وهو عارى البدن على رأسه عمامة ضخمة من سعف النخيل على حمار وتخيروا رجلا جسيما قوى العضلات أطلقوا عليه لقب أمير عيد رأس السنة القبطية وطافوا به على بيوت الأعيان يفرض عليهم غرامات باهظة يعطيهم عنها إيصالات ممهورة بختم ، فإذا رفض إنسان دفع الغرامة انهال عليه أهل الموكب بالسب والإهانة ، ولو كان من الأعيان ويظل مستمرا على باب بيته إلى أن يدفع الغرامة ، ثم انطلقوا يرشون على المارة ماءً قذراً أو نبيذا ، وشاع قذف البيض الفاسد على الوجوه والضرب بالنعال على القفا ، والخبط لتهشيم العمائم ، فامتنع المرور فى

الطرقات وعجز الناس عن الوصول إلى الأسواق ونشبت معارك وخناقات وربما وقعت حوادث قتل من جراء السكر والعربدة .

ولكن تحريم مواكب أعياد رأس السنة القبطية لم يسلب أهل القاهرة كل متعتهم فإن هذه الأعياد كانت تصادف أعياد جبر الخليج فكانت تقام لها احتفالات شعبية صاخبة مديدة .

ويتابع جاستون فييت فى الجزء التالى وصف أعياد جبر الخليج بتفصيل كثير .

(« المساء » ، ١٩٧٠/٢/٩ ، ص ٦ ، ٥)

* * *

إن أوفى وصف لأعياد وفاء النيل فى القاهرة نجده عند الجغرافي ليون الإفريقى (المولود بغرناطة سنة ١٤٨٣) بعد أن زار مصر سنة ١٥١٧ قال : « فى بدء الأيام التى يغمر فيها النيل أرض مصر يقام فى القاهرة عيد كبير وتعلو فيه الضجة والهتافات وأنغام الموسيقى حتى لكأن البلد انقلب رأسا على عقب ــ تستقل كل أسرة قاربا تزينه بأغلى الأقمشة وأجمل السجاجيد وتحمل معها أطايب الطعام والحلوى وشموعا غاية فى اللطف والبهاء . الناس كلهم فى القوارب يلتمس كل منهم لهوه حسب طاقته ويشارك السلطان نفسه فى الاحتفال بهذا العيد يصحبه الرؤساء من أعوانه وقواده فيأخذ طريقه إلى خليج فى النيل يسمى بالخليج الكبير حيث

موقع السد . ويتناول السلطان فأسا ويشرع بضرب جدار السد ، ثم يحذو حذوه كبار رجال حاشيته حتى ينهدم جانب الجدار الذى يحبس الماء عن الجريان فلا يكاد الجدار ينهدم حتى يتدفق النيل فى الخليج وهو يهدر بعنف ، ثم ينصب من هناك إلى الخلجان الأخرى فى المدينة المحمية بسورها بحيث تصبح القاهرة فى ذلك اليوم شبيهة بمدينة البندقية . فيتاح التنقل بالقوارب بين مساكن مصر ونواحيها كلها . وهكذا فان ثمرة ما ربحه التاجر أو الصانع خلال العام كله ينفقه فى هذا الأسبوع على الطعام والحلوى والشموع والعطور واستخدام محترفى الغناء والموسيقى . وهذا العيد بعث لأعياد كانت عند قدماء المصريين

وهكذا ما إن يعلن عن وفاء النيل حتى يحتشد له أغلب سكان القاهرة وينصبوا خياما لهم على الشاطئين وفى جزر النهر . ولا يتخلف عن الجمع أحد من المطربين وعازفى الموسيقى ومحترفى الألعاب وأصحاب أماكن اللهو والمحظيات والخلعاء تحف بهم جموع من شباب صاخب . كلهم بلا استثناء يشاركون فى بهجة العيد وينفقون أموالا لا حصر لها .

ويورد الرحالة كارلييه دى مبتون (١٥٧٩) مزيدا من التفاصيل فيقول إن الناس تخرج فى هذا العيد إلى الشوارع يلتمسون ما يتاح لهم من اللهو . يتفرجون على الراقصين ومدربى القردة وعلى مبارزات رجال فوق ظهور الخيل ، يستخدمون سيوفهم بالأيدى والأقدام .

والجانب الشيق عندنا فى هذا الاحتفال الذى يقام فى الخلاء هو امتداده أيضا إلى الليل . فتطلق الألعاب النارية وتقام زينة من الأنوار بهية ، لم يفت المؤلفات العربية وصفها . وبقى الاحتفال بهذا العيد من

التقاليد المرعية . وبلغ التأنق فى زينته أقصى غايته . فكانت الفوانيس ترتب بحيث يخيل لرائيها أنه إزاء قلاع أو قصور أو حتى مشهد مبارزة .

وكان الاحتفال بهذا العيد النهرى يمتد أيضا إلى بركتين . فتقام زينة سن الأنوار لها بهجة كبيرة عند بركة الرطلى فيهرع إليها الناس للفرجة ويحتشدون على جوانب البركة يشهدون فرق « التشخيص » . . وفى أواخر القرن الخامس عشر أصبحت البركة المستجدة فى الأزبكية منتدى لجموع المحتفلين بالعيد ، إذ كان حين يتم الفيضان يقام احتفال رسمى لفتح السد ليجرى الماء إلى بركة صغيرة . إنه احتفال كبير . يشارك فيه الرؤساء من رجال الدولة ويتقاطر إليه جموع غفيرة من الناس للفرجة ولا يقتصر الاحتفال على إقامة مأدبة كبيرة رسمية بل تطلق الألعاب النارية وتتراقص قوارب عديدة على صفحة البركة . وتندلع شهوة الأكل والشرب إلى حشد جنونى . وكانت الألعاب النارية فى بعض الأحيان سببا لوقوع إصابات لبعض الناس .

ويمدنا الرحالة كوبان (١٦٣٨) بتفاصيل شيقة عن هذا العيد فيقول إن حشودا كبيرة من الناس تتجمع فى سطح الماء أو على الشواطىء أو حتى داخل المساكن يعلق على واجهاتها فوانيس عديدة حتى تصبح كأنها بساط من النور . يربط هذه الفوانيس حبال رقيقة على الجدران طولاً وعرضا وفق تشكيل ونسق جميل . لكل واجهة زينتها الخاصة إما ترسم جسد حيوان وإما أشكالا زخرفية كنقوش السجاد . وتبقى الفوانيس مضاءة طول الليل ، لا تنطفىء . وعلى الجانب الآخر من قاع النيل أمام مصر القديمة يتراءى للناس مركبان من أكبر المراكب التى تشق النيل . ويعلو فوق هذين

المركبين هرم خشبى رشقت عليه الفوانيس متقاربة . تبدل أماكنها صعودا وهبوطاً أو فى حركة دائـرية ويتم ذلـك فى سرعـة مذهلة . منـظر يبهج العيـون . ولا يتأتى لأحـد أن يلحظ كيف يتم هذا التبـدل والدوران . لا شك أن هذه الفوانيس موصولة بعجلات يحركها رجال مختبئون داخل الهرم الخشبى . . وإلى جانب المركبين ثالث تنطلق منه الصواريخ والألعاب النارية . فتبعث السرور فى القلوب .

أما الرحالة فردريك نوردان (سنة ١٨٣٧) فلم يصف العيد بأسلوب شاعرى . بل بقى منه فى نفسه ضيق وحرج ، فاقتصر فى وصف العيد على قوله إن الباشا أمر بإطلاق ألعاب نارية لا تستحق الإشادة بها لأن عددها كان لا يزيدُ عن عشرين صاروخا ، وإن الاحتفال الدينى طالما تغنى بوصفه بعض الرحالة لا يزيد عن احتفال بزواج عند الفـلاحين.أمـا الذى يثـير الدهشة والعجب فهو مواكب الرؤ ساء لأنها فاقت كل المواكب المماثلة فى روعة المنظر . ما أكثر الحماقات التى تصدر فى هذا العيـد من الناس . تعبيـرا عن سـرورهم بـأن فيضـان النيـل قـد أتى لهم بـالخصب ووفـرة المحصول .

ولم يحدث عاما بعد عام أن مر عيد دون أن تزهق فى زحمتـه بعض الأرواح . ننتقل الآن إلى احتفالات طلعة المحمل وعودته .

(« المساء » ، ١٩٧٠/٢/٢٣ ، ص ٦)

* * *

لا أطيل هنا وصف احتشاد الناس للاحتفال بطلعة المحمل وعودته . فقد تكفل الأب جومييه فى كتابه بإيراد تفاصيل عديدة عن هذا المحمل

الرائع الزينة المنصوب فوق جمل متين جسيم ، تعبيرا عن الرفعة وجلالة القدر ، ومما قاله إن الاحتفال بالمحمل سنة ٦٨١هـ (١٢٨٢م) شوهد فيه لأول مرة حملة الرماح وهم يقومون بمبارزات وهمية على سبيل اللعب ، ونجد مزيدا من البيان فى نص للقلقشندى ترجمه جودفروا ديمويين يقول : « ويركب جماعة من المماليك السلطانية الرماحة ملبسين المصفات الحديد المغشاة بالحرير الملون ، وخيولهم ملبسة البركستوانات والوجوه الفولاذ كما فى القتال ، وبأيديهم الرماح ، عليها الشطفات السلطانية فيلعبون تحت القلعة كما فى حالة الحرب ، ومنهم جماعة صغار بيد كل منهم رمحان يديرهما فى يده وهو واقف على ظهر الفرس وربما كان وقوفه فى نعل من خشب على ذباب سيفين من كل جهة .

(المترجم : المصفات : هى زرد الحديد الذى يحمى المقاتل ، والتى تحمى الجواد تسمى بركستوانات)

ويحدثنا الأب جوميه عن شيوع الهرج والمرج بين الناس بسبب هؤلاء الرماحة ، الذين يلقبون بشياطين أو عفاريت المحمل ، يبرزون للناس فى هيئة مخيفة مضحكة معا ، فيضحك لهم الناس وهم فى فزع ، هم جنود فوق جياد رشقت بها أجراس صغيرة ومعلقات معدنية عجيبة شتى ، ولكن مشاركتهم فى الاحتفال لم تكن منتظمة ، فهم يظهرون حينا ويغيبون حينا ، أما الرماحة فقد بقوا يلازمونه وهم يرتدون زى القتال وعدته ، وقد جدد السلطان قايتباى تحريم ظهور عفاريت المحمل فى الاحتفال ويبدوأن السلطات الرسمية كانت تتردد بين تحريم ظهورهم خشية ما يقع بسببهم من هرج ومرج وبين السماح لهم لكى لا يحرموا الشعب من متعة يهيم بها هياما كبيرا ، ويعبر ابن إياس عن سروره باستئناف العادات القديمة التى

سنها السلطان قنصوه الغورى فيقول وهو يصف المحمل : إن الرماحة ارتدوا زيهم الأحمر وفقا للعادات القديمة وشق الموكب أحياء المدينة فكان مشهدا رائعا بدت فيه مناظر كانت قد اختفت وطواها النسيان ، واجتمع نفر غفير من الناس يشاهدون مبارزات الرماحة وألعابهم وانطلقت جموع الشعب ترقص وترفع أصواتها بالغناء ، فعمت البهجة والسرور ، ولكن ابن إياس لاحظ أن دور عفاريت المحمل قد أسند فى ذلك العهد إلى نفر من المهرجين المحترفين .

هذا الوصف المستفيض لا يمنع كتاب الرحالة توبان من أن يكون مرجعا قيما لنا ، إذ قال إن الناس كانت تحتشد لهذا الاحتفال بجموع غفيرة ، وأن عدد الجمال المصاحبة للمحمل تبلغ تسعة أو عشرة آلاف ، ولكن لا يشق المدينة منها إلا الجمال المحملة بمتاع أمير الحج ، بل يتخير منها أفضلها . أما الباقى فيظل خارج المدينة ، منها خمسمائة جمل لحمل قرب الماء ، وبقيتها لحمل المؤونة والخيام ، هذا إلى جانب خمسة أو ستة جياد تجر مدافع صغيرة ، أما أمير الحج فيرتدى ثيابا بهية جميلة ، هدية من الباشا ، ويتلقى نفر من ضباطه هدايا مماثلة وإن تكن أقل قيمة : ويرفع المحمل فوق الجمل بتوقير شديد ، ويتزاحم الناس للتمكن من لثم أطراف الكسوة ويعمد البعيدون عنها إلى رمى مناديلهم إليها وأيديهم تمسك بها فإذا لمست الكسوة لثموا هذه المناديل ومسحوا بها على وجوهم ، ويسير أمام المحمل ووراءه جموع من أتباع الطرق الصوفية ، لهم شارات عجيبة وحركة أعجب منها ، فيهم من هو نصف عار ، ومن هو عار تمام العرى ، ومن يكتسى بجلد الوحوش ، ومن انغرز سهم فى ذراعه وشق لحمه ، ومن يبدو كأنما به جنة ، يقبل على أكل أفاع تتلوى بين يديه ، يسنده ثلاثة

أو أربعة من زملائه ، ومن يحمل « الدبابيس » الطويلة الغليظة ، رؤ وسها كتل ثقيلة من الخشب ، أثوابهم من ألوان شتى متنافرة ، وفيهم من يرقص ويقفز ، كما يحلو له .

(تعليق المترجم : يخامرني الشك في صدق قوله بأنه رأى بعض رجال الطرق الصوفية عاريا تمام العرى ، فهذا مستبعد منهم . وأكثر من ذلك فإنه منظر يمجه ذوق أهل مصر وحياؤ هم ولو حدث لذكره ابن إياس أو غيره من مؤ رخي بلادنا ، أما تعرية الصدر والظهر فقد شهدتها بعيني في مواكب الشيعة ليلة عاشوراء ، يلجأ إليه من يضرب جسده بسلسلة من الحديد إعرابا عن الجزع لمقتل الحسين .)

(« المساء » ، ١٩٧٠/٣/٢ ، ص ٦)

* * *

وإلى جانب الأعياد الموسمية فقد كان بالقاهرة أمكنة أشد من غيرها جذبا للناس فى طلب اللهو ، تؤ مها مختلف الطبقات ، ويجمل بنا ألا نطيل الحديث عن بنات الهوى والخلفاء ، لكن لا مفر من الإشارة إليهم إذا عددنا أصناف الناس الذين تشهد هذه الأمكنة لهوهم الصاخب . تجد فى مبدأ الأمر من أطلق عليهم لقب « زعيرات الشماعين » ، لأنهن يتجمعن بالقرب من المسجد الأقمر فى حضن سوق الشماعين ، لهن سيما يعرفن بها وزى يتميزن به ، وهو لبس ملاءات الطرح ، وفى أرجلهن سراويل من أديم أحمر (نقلا عن المقريزى) ثم تشهد فيما بعد حمام القصرين ، فى ميدان بين القصرين ، فإنه ــ بشهادة المقريزى كان مكانا ساخرا مبتذلا ، يقول :

« ولقد كنا نسمع أن من الناس من يقدم خلف الشاب أو المرأة عند

التمشي بعد العشاء بين القصرين ويلامس حتى يقضى وطره وهما ماشيان من غير أن يدركهما أحد لشدة الزحام واشتغال كل أحد بلهوه »

ويذكر المقريزى اندلاق الخلاعة أيضا على شاطىء الخليج فى القاهرة ويمدنا هذا المؤرخ أيضا بمعلومات أخرى فيقول :

« وكان يتجمع فى ميدان باب اللوق أصحاب الحلق وأرباب اللعب والحرف ، كالمشعبذين والمخايلين والحواة والمتأففين وغير ذلك فيحشد هنالك من الخلائق للفرجة ولعمل الفساد مما لا ينحصر كثرة .

(تعليق المترجم : طوى النسيان هذه الطوائف فأصبحنا نحتاج لمن يشرح لنا من هو المتأفف و المشعبذ الوارد ذكرهما فى النص . ولعل المشعبذ تحريف لكلمة « مشعوذ » وقد ترجم جاستون فييت كلمة متأفف بكلمة « مهرج » وكلمة المشعبذين بكلمة « الحواة » ، مع أنه ظاهر من نص المقريزى أنهم طائفة أخرى ، فقد ذكر الحواة إلى جانب المشعبذين دلالة على اختلاف بينهما . وأضاف فييت من عنده إلى هذا الجمع طوائف لاعبى القرة قوز ومدربى الحيات والثعابين . نعود الآن إلى النص الذى نترجمه) .

وكانت هذه الأمكنة يؤمها جموع غفيرة من الناس للفرجة والانغماس فى الخلاعة . ينفقون فى ذلك أموالا كثيرة . ويذكر المقريزى أيضا ظهور جزيرة وسط النيل بحذاء بولاق سنة ٧٤٧هـ . (١٣٤٦م.) ما لبث أن أصبحت مباءة للخلعاء يقترفون بها كل ضروب الفساد .

ولكن ميدان باب اللوق ظل مع ذلك معروفا بملاهيه ، يجتمع فيه سفلة الناس ورعاعهم ، ويقول المؤرخ الرحالة ليون الإفريقى : نجد فى

القاهرة ميدانا فسيحا يطل عليه قصر ومدرسة بناهما المملوك أزبك الذى كان أيام حياته مستشارا للسلطان ، لذلك سمى الميدان بالأزبكية ، وبعد الصلاة والخطبة يتجمع الناس فى هذا الميدان كل يوم جمعة حيث نجد أمكنة للهو الذميم كالخمامير والمواخير .

وكان البغاء مباحا فى كل الدول الإسلامية ، تشرف عليه الشرطة ، وتترأسه زعيمة لابد لها من دفع ضريبة خاصة . ولكن لابد أن يسبق هذا الكلام مقدمة نستمدها من ابن حوقل لأنه نقد بشدة هذه الأحوال التى لا ترضيه فى المجتمع الإسلامى حين تحدث عن الإقليم الذى يسكنه البربر إذ قال :

« لا نجد فى بلادهم فسادا يخرق العين ، ولا اقترافا للهو محرم مثل التعلق والانشغال بالعزف على العود وضرب الصاجات واستخدام الندابات والمغنيات والخليعات ، وبالجملة كل هذا الفساد الفظيع الذى تجده رائجا فى بلاد كثيرة » .

ولم تسلم دور البغاء من العسف بها بين حين وآخر ، ابتزازا للأموال ، يقول ابن إياس : « وفى شهر رجب سنة ٩١٥هـ (أكتوبر ١٥٠٩م .) قبض المحتسب على امرأة فاسدة اسمها أنس ، تدير منزلا للبغاء ، أقامته أولا فى الأزبكية ، ثم نقلته إلى قليوب . حيث أمر السلطان بالقبض عليها واعدامها غرقا ما لم تدفع غرامة قدرها خمسمائة دينار . ثم تنفى من البلاد . ولكن محنة هذه المرأة لم تقف عند هذا الحد ، فقد رؤى طلبا للقربة إلى الله فى سنة انخفض فيها فيضان النيل بهذه المرأة العقاب

الذى أمر به السلطان التركى فى شهر رجب ٩٣٥هـ (يوليو ١٥١٩)
فيقول ابن إياس بسرور كبير :

« جرى القبض على امرأة اسمها أنس جهة الأزبكية تتجمع فى بيتها البغايا وتدفع للمحتسب ضريبة شهرية معروف أمرها ، وصدر الحكم باعدامها غرقا فى النيل ، فسيقت إلى قصر العينى ، وقذف بها على الفور فى النيل فماتت غرقا ساعة العصر ، واحتشدت جموع غفيرة من الناس لتشهد غرقها . وهكذا أنقذ الله الناس من شرها وطهر البلاد من رجسها وأمر المحتسب بغلق غرز الحشيش والخمامير ـ ولكن ها هو النيل قد علا فيضانه واستحقت جباية الأموال المفروضة على الأرض فأمر حاكم المدينة بعدم التعرض لأبناء أنس هذه إذا أداروا بيتا للدعارة ، وأتوا ما استحقت عليه أمهم الموت غرقا » .

(« المساء » ، ١٩٧٠/٣/٩ ، ص ٦)

* * *

ويعدد الجبرتى أنواع الحرف التى كان يستهدف أصحابها تسلية الناس فيقول : إن الأزبكية كانت تمتلىء بأرباب الملاعب ، (يعنى بهم فى الأغلب لاعبى الجمباز) والمفزلكين (أصبحنا لا نعرف أى شىء تعنى هذه الكلمة) والجنابطة « وهم الذين يقومون بقفزات خطيرة » والحباظية (وهم أصحاب عروض خيال الظل) ، ومدربى الثعابين والراقصين والراقصات . ويصف ابن إياس رجلا يدير قرصا من النحاس مرفوعا فوق عصا رفيعة ، ونجد عند ليون الإفريقى مزيدا من التفصيل فيقول :

« وكان يجتمع بالأزبكية أيضا عدد كبير من أرباب الملاهى ، الشارع مسرحهم ، وبالأخص الذين يقومون بترقيص الجمال والحمير فكان الرجل منهم إذا انتهى من ترقيص الحمار خاطبه قائلا :

مولانا السلطان أمر بإقامة عمارة ذات أبهة وفخامة ، وأنه أصدر تعليمات بجمع كل حمير القاهرة من غد صباحا لنقل الجير والحجر وبقية مواد البناء ، فما يكاد الحمار يسمع هذا الكلام حتى يقع على الأرض ، ويرفع قوائمه فى الهواء ، وينفخ بطنه ويغمض جفنيه كما لو كان قد نفق ، وتنهمر الدموع من عينى الرجل أمام المشاهدين حسرة على نكبته بفقده لحماره ، ويستجديهم أن يساعدوه بحسنة ليشترى بها حمارا غيره ، فإذا دار عليهم وجمع تبرعاتهم له تغيرت سحنته وخاطبهم قائلا : لا تحسبوا أن حمارى قد مات ، إنه ــ بالعكس ــ حمار فارغ العين فجعان يعلم أنه سيشتغل من غد من مطلع الشمس لمغربها فلابد أن تمتلىء بطنه ، ويعلم أننى رجل فقير فهو يريد بتصنعه للموت أن اشترى له علف يومه من غد بما تجودون به على من مال ، ثم يتوجه بالكلام إلى الحمار ويأمره أن يقف ، فلا يتحرك ، فيضربه بالعصا مرارا فلا تبدر من الحمار أقل حركة ، حينئذ يتابع الرجل دعاباته فيخاطب المشاهدين قائلا : « يكون فى علم كل واحد منكم ، يا أهل الجود والكرم ، أن مولانا السلطان أصدر مرسوما يلزم جميع أهل القاهرة أن يخرجوا للفرجة على موكبه احتفالا بالنصر ، وأن كل نساء أعيان القاهرة ، وكل بنت حلوة فيها مطلوبات لتركب كل واحدة منهن حمارا فشر الغزال ، لابد من إكرامه ، إكراما لراكبته ، فتقدم له كيلة من أفضل أنواع الشعير ويسقى من ماء أحسن زير ، لا عكارة ولا طينة.»»
فما يكاد ينتهى من كلامه حتى يقفز الحمار واقفا ويسير مختالا فخورا أمام

المشاهدين ، ولكن الرجل يتابع كلامه فيقول : « الأمر وما فيه يا جماعة أن شيخ الحارة طلب أن يستلف مني حماري لتركب فوقه امرأته العجوز الكركوبة ، القبيحة الوجه » ، حينئذ يبدو على الحمار أنه فهم ما سمع ، كما لو كان له ذكاء بني آدم ، فيخفض رأسه من شدة الهم ، ويندفع مبرطعا بقوائمه الأربع ، كأنه يريد أن يهرب بجلده فيقول له الرجل : « ما شاء الله . . تعال . . تعال ، لم أعرف من قبل يامكار يالئيم ياخنيس أنك لا تحب إلا البنت الشابة الحلوة » يطأطىء الحمار رأسه ويهزها كأنه يقول « نعم » ويستمر الرجل « قدامك ياسيدى أكثر من واحدة ، فأرنى من التي تعجبك منهن ، ومن التي تختار ، فيدور الحمار على حلقة المشاهدين وهي لا تخلو عادة من نساء وقفن للفرجة ، يدور الحمار مرة أخرى حتى يقف أمام امرأة تكون أجمل الحاضرات ويتقدم اليها ويلمسها برأسه فيصيح بها الحاضرون معابثين لها : عروسة الحمار ، عروسة الحمار ، على حين يكون الرجل قد سارع فقفز فوق صدره ومضى لمكان آخر . وهناك صنف آخر من أرباب الملاعب ، يعرض على الناس عصافير مدربة حاطة على صندوق ، قادرة على أن تنتزع منه بالمنقار ورقة مطوية على طالع ، فمن أراد من المشاهدين معرفة طالعه رمى « نكلة » أمام العصفور فيلتقطها بمنقاره ويضعها فى الصندوق ثم ينتزع منه ورقة مطوية على الطالع وقد جربت أنا نفسى معرفة طالعى فخرجت لى ورقة لا تنبىء بخير ، ولكن الذى حدث لى فعلا فيما بعد كان أسوأ من المكتوب .

تكلم الرحالة منكويبا — سنة ١٦٤٧ — عن كل هذه الحرف فذكر مدربى القرود ، ولاعبى المصارعة والبهلونات ، ولاعبى خيال الظل ، ووصفهم قائلا إنهم يحركون دمى من وراء ستار ، وكذلك

وصف محترف كشف الطالع بقراءة رمل مفروش أمامهم ، كما ذكر الحواة أيضا . وقد مر ذكرمدربي الثعابين وهي حرفة منحدرة منذ ما قبل التاريخ ، لم تختف عن وادي النيل .

وقد ذكرها الرحالة جيمس بروس سنة ١٧٦٨ فقال : « رأيت رجلا يلتقط بيده إحدى الحيات من بين كثيرات منها موضوعة في زجاجة كبيرة ، ثم وضع الحية على رأسه العارية ، وغطاها بطاقية حمراء ، ثم تناولها من تحتها ووضعها ، في عبه فوق صدره ، ثم لفها حول عنقه كأنها عقد ، كل ذلك دون أن تصيبه الحية بأقل أذى ، ثم يمد الرجل يده إلى دجاجة ربطها بجانبه فيقربها إلى الحية . . فتلدغها من فورها ، ثم لا تلبث الدجاجة أن تموت بعد لحظات قليلة ، وليس هذا كل ما يفعله الرجل ، بل رأيته يتناول الحية من عنقها ثم يشرع في أكلها ابتداء من الذيل ، حتى يأتي عليها ، هنيئا مريئا ، بلا امتعاض أو تقزز ، كانما يأكل رأس جزرة حلوة أو رأس كرفس لذيذ .

وإليك هذا الوصف الذي أمدنا به جوبينو الدبلوماسي والرحالة الفرنسي (١٨١٦ ـ ١٨٨٢) ، قال : صادفت ذات يوم رجلا من مدربي الثعابين عند منعطف درب لا يزيد عرضه على ثلاثة أقدام ، تحوطه منازل مرتفعة تحجب عنه الضوء فتغرقه في الظلمة ، جلس الرجل مستندا بظهره إلى جدار ا عابسا ، ينطق وجهه بالشر ، إنه يرث قدرته على السحر عن أزمنة وأجداد موغلة في القدم ، يتكتم أسرارا أخفى من أسرار سحره ، من عينيه ينبعث وميض لا يقل في فتكه عن السم الزعاف الذي يستحلبه

من أنياب حياته وكان أمامه ثعبان ملفوف ، مخيف ، قبيح المنظر أخذ يتلوى تحت قدميه كأنه يتشمم الهواء ليستمد قوة لطعنه لفريسته ، ثم إذا به ينتصب على ذيله قائما كأنه العصا ، ومرت فلاحتان فانبعث لهما صريخ من شدة الرعب وسارعت كل منهما إلى الهرب ولاذت بجدار تلتصق به ، لم يحرك الرجل ساكنا ولم يبد أقل اهتمام ، رمقهما بنظرة من طرف جفنيه ، وبدت على فمه ابتسامة مريبة ، كأنه يزهو بمقدرته وسلطانه ، ولكن بقية المارة زجروه وأمروه بأن يلم ثعبانه ويمضى لحال سبيله ، فمد للثعبان يده ، وبحركة تنم عن الحذر ، صادقة أو كاذبة تناوله بسكوت ودسه تحت ثوبه .

(« المساء » ، ١٩٧٠/٣/٢٣ ، ص ٦)

* * *

نختتم وصف ألعاب القاهرة وأعيادها بنبذة عن البهلوانات الذين عرفهم العهد الفاطمى ، يذكر المقريزى طائفة منهم تنسب إلى إقليم برقة ، اسمها (صبيان الخفى) ويقول عنها : كان لها اقطاعات وجرايات وكسوات ورسوم ، فإذا ركب الخليفة فى العيدين مدوا حبلين مسطوحين من أعلى باب النصر إلى الأرض حبلا عن يمين الباب ، وحبلا عن شماله ، فإذا عاد الخليفة من المصلى نزل على الحبلين طائفة من هؤلاء ، على أشكال خيل من خشب مدهون ، وفى أيديهم رايات ، وتلف كل واحد منهم رديفة ، وتحت رجليه آخر معلق برجليه ويديه ويعملون أعمالا تذهل العقول ، ويركب منهم جماعة فى الموكب على الخيول ، فيركضون وهم يتقلبون عليها ويخرج الواحد منهم من تحت إبط الفرس وهو يركض ، ويعود يركب من الجانب الآخر ، ويعود وهو على حاله لا يتوقف ، ولا يسقط منه شىء إلى الأرض ، ومنهم من يقف على ظهر الحصان فيركض به وهو واقف .

ولم تختف عروض البهلوانات بعد ذلك عن القاهرة وإن قل عددها ، لا تنفك تجذب حشودا كبيرة من الناس تستمتع بها كثيرا ويرجع الفضل إلى المؤرخ الدكتور أحمد دراج (وهو صاحب دراسة وافية عن السلطان برسباى) فى تنبيهى إلى نصوص لم يسبق نشرها عندنا ويسعدنى أن أقدمها للقراء لأول مرة ، أولها مستمد من كتاب (أبناء الفجر) لابن حجر المعروف بالعسقلانى (١٣٧٢ - ١٤٤٩) وهو حجة مشهور فى علم الحديث . قام برحلات فى مصر والشام والحجاز واليمن ، طلبا للعلم ويسمى بحافظ عصره . إذ نعلم منه أن بهلوانا اسمه يزبك الجركسى ، وهو رقيق أصله من بلاد الجركس أسره الأوربيون فبقى عندهم زمنا تلقى خلاله دروسا فى البهلوانية فلما قصد القاهرة أخذ به السلطان فمثل بين يديه واعتنق الإسلام وانضم إلى طائفة المماليك ، وأراد أن يعرض على السلطان برهان براعته فمد حبلا من قمة مآذن جامع السلطان إلى قمة قصر الأشرافية الكائن داخل القلعة ، ومشى على الحبل وهو يرمى تارة بالمكاحل (أى البندقية) وتارة بسهام من قوس صغير ، فلما انتهى من العرض أمر له السلطان بخلعه سنية رفعته إلى رتبه (راكب حصان) بين طائفة المماليك ، كما منحه الضباط الحاضرون مكافآت مالية ونقل لنا المقريزى فى كتاب (السلوك) عرضا مماثلا قام به اثنان من البهلوانات فى شهر ربيع الأول سنة ٨٢٩هـ (١٤٢٦م) أحدهما وثنى حديث عهد باعتناق الإسلام ، له زى عسكرى ، وذكر المقريزى أن الحبل كان يرتفع من الأرض مائة قدم ، فعم الذهول كل من شاهد هذا العرض وقال إنه لو لم ير بعينه لما صدق إمكان حدوثه .

وفى كتاب « السلوك » للمقريزى خبر عن فتى من أولاد البلد ، أراد

أن ينافس هؤلاء البهلوانات الوافدين ، فمد فى بيته سلكا وأخذ يتدرب على المشى فوقه ، فلما اجتاز الامتحان بنجاح انتقل فمد حبلا بين رأسى نخلتين وجرب المشى عليه حتى أتقنه حينئذ انبرى لتقديم العرض الذى يصبو إليه فمد سلكا بين قمة مئذنة جامع برقوق وقمة مئذنة جامع قلاوون عبر ميدان بين القصرين ، وجعل حبلا يتدلى من وسط هذا السلك ، وأخذ المشاهدون يتساءلون ترى أى لعبة خطيرة سيقوم بها هذا الفتى ، بدأ من قمة مئذنة جامع الظاهر (برقوق) وبدأ يمشى على السلك وهو منتصب القامة . قاصدا الوصول إلى المئذنة الأخرى وبينهما مسافة لا تقل عن مائة قدم ، وارتفاع السلك عن الأرض يزيد عن هذا القدر ، ثم إذا به بعد قليل يرقد على السلك كأنه فى فراش وثير ، ثم يقوم ويتابع سيره ، حتى إذا وصل إلى منتصف السلك عند ربطة الحبل المتدلى انزلق عليه فهبط إلى الأرض ، ثم طلع عليه وهو يقوم بحركات بهلوانية أذهلت المشاهدين ثم تابع سيره حتى بلغ غايته ، ولولا حرص هذا الفتى أيضا على ضرورة التزام رشاقة الحركة لما بلغ ما بلغ من مكانة بين المشاهدين ، ولا نمحت ذكرى ألعابه من أذهانهم .

ثم عاد مرة أخرى ومد حبلا بين قمة مئذنة جامع السلطان حسن إلى قمة قصر الأشرفية داخل القلعة كما فعل من ينافسهم من قبل ، ورضى السلطان أن يتقلقل ليشهد بنفسه ألعاب هذا الفتى ، كما هرع إلى المكان حشد كبير من الناس ، وكان اليوم يوم جمعة هبت فيه رياح عاتية ، قادرة على أن تقتلع الأشجار وتهدم الجدران ، وبلغت العاصفة ذروتها والفتى يسير مستقيم الظهر على السلك حتى إذا بلغ منتصفه حيث الحبل المتدلى أمسك به وانزلق عليه إلى الأرض ، رأسه إلى أسفل وقدماه إلى أعلى ، ثم

صعد عليه وتابع سيره حتى بلغ غايته ثم إذا به لا يكتفى بهذا كله بل يترك السلك ويأخذ يتسلق قمة القصر بسرعة فائقة ، مستعينا بكرسى من رصاص مصقول ليلامس جدران القبة بلا احتكاك ، يفعل والرياح الهوج ماكفت من هبوبها بعنف يجعل الطير يتخبط فى الهواء ، وقطع الفتى المسافة ذهابا وإيابا ، كأنما له طبع الريح ، لقد دل على براعة فائقة وبالأخص لأنه لم يتلق دروسا أو تدريبا طويلا على تعلمه ، لم يعتمد إلا على نفسه وعلى قوة إرادته .

ويقول المقريزى أيضا فى كتابه « السلوك » . فى يوم ١١ ربيع الثانى سنة ٨٢٩هـ (٢٠ فبراير سنة ١٤٢٦م) مد تاجر عجمى سلكا بين مئذنتى جامع السلطان حسن كما فعل سابقوه ، بدأ من إحدى مئذنتين وسار على السلك خطوات ثم كر راجعا إلى حيث بدأ وعاود المشى وهو مشدود القامة حتى بلغ غايته ، وقام أثناء سيره بألعاب عجيبة ، امتطى السلك فجعله بين ساقيه وتناول وهو على هذه الجلسة قوسا يحمله على كتفه ، وأخرج سهمين من جعبة يحملها على كتفه ، وأطلقهما من القوس واحدا تلو الأخرى بسرعة كبيرة ثم يقف على السلك ويمد جسده داخل طوق كان معه ، ويكرر لعبته على تنوع ، مرة يدخل الطوق بقدميه قبل صدره ، ومرة يدخل بالعكس ، ثم ينزل إلى الأرض منزلقا على حبل كان جعله يتدلى من منتصف السلك ، وأثناء نزوله يدور جسده وهو يهوى فى حركة لولبية ، جاعلا رأسه أحيانا إلى أسفل ، ويلتزم فى هذا الوضع المقلوب أن يطلق ثلاثة أسهم من قوسه ثم يصعد إلى الحبل ويستوى واقفا فوق السلك المشدود ، ثم إذا به يسقط فجأة من على السلك ، ولكن قدميه معلقتان به وتحميانه من دق عنقه على الأرض ، إبهام القدم هو المشبك الذى يربط

به بالسلك ، ثم يرفع جسده وهو ما يزال فى وضعه المقلوب - الرأس إلى أسفل - حتى إذا علاه عدل وضعه ووضع قدميه على السلك ، معتمدا على قدم واحدة رافعا الأخرى إلى حذاء فمه ، ثم يعيد ما فعل خلف خلاف ، ثم يجمع قدميه على السلك ، وينحنى ويسجد فوقه كأنما هو ماثل فى حضرة السلطان يقبل الأرض أمامه ، وقد أنست براعته المشاهدين كل مايذكرونه عن سابقية . .

(عن جاستون فييت بتصرف واختصار)
(« المساء » ، ٣٠ - ٣ - ١٩٧٠ ، ص ٦)

ذكريات

مدينة المصنع والأسمنت والأسلاك المعلقة والقضبان الممدة . . أم السيارة والبلاستيك والنيون والسينما والكوكاكولا ، المدينة الحديثة رأيتها بعيني تأكل بدأب وقسوة ـ كما يأكل القط فأرا ـ مدينة القرون الوسطى ، أم الحمير وعربات الخيل والبغال والسقا ، عاشقة النحاس والمشربيات والفوانيس وخيال الظل والكراكوز ، شاربة الخروب والسوبيا والتمر هندى والبنزهير والعرقسوس .

رأيتها بعيني تهدم أبواب الحارات وتدك الأسوار وتندلق من فوقها فارشة فوق الغيطان وتبعثر من مراقدها إلى التشرد فالضياع صناعات يدوية ، لكل صناعة معلم يسير مع الطائفة فى موكب الرؤية ، وحى لا يقبل غيرها ولا تخرج هى إلا منه ، اسمه من اسمها .

هى الآن تلفظ آخر أنفاسها ، من حقها على من عاش طفولته فى حضن

شيخوخة عزها أن ينسى لحظة تطلعه وسيره نحو بشائر المستقبل لينحنى عليها بتحنان ، من قبل أن يغيب وجهها فى التراب . .

شهدت بعينى متاجر السيوف والبنادق المفضضة والبارود والخرطوش فى حى سوق السلاح ، لا تشترى منه الآن حتى ولا سلاح جيليت . . هى البنادق التى انطلقت يوم مذبحة القلعة التى تطل على الحى . .

وكم من مرة سرت فى هذا الطريق الضيق المحبب إلى ، أكاد أعشقة من أول حى المغربلين ، لم يسعدنى الحظ برؤ ية وجوههم المعفرة وأثوابهم القصيرة ، كانوا قد اختفوا وطلع شىء سمعت عنه ولم أره اسمه وابور الرمالى .

من بعده عتمة رقيقة تجد فيها حمى من لهاليب الصيف أجسادنا وعيوننا التراخومية ، تحت سقف من خشب متداع ـ ما أجمل تسلل أشعة الشمس من شقوقه يمتد حى الخيمية ، يعملون قعادى ، ويرسمون بالقصاقيص على العبك صورة رمسيس العظيم منتصبا فى عربته فى معركة قادش ، لو رآها فى قبره لضرب كفا بكف ، ولكن هذا هو جزاء النقاش النخاع . . فيما بعد قرأت لأحمد فارس الشدياق وهو يصف كيف أن المرأة فى زمنه كانت تزور جارتها المواجهة لها فى هذا الحى بخطوة واحدة تقفز بها فى الهواء من نافذة إلى نافذة . قال أيضا إن المارة كانوا يرفعون رؤ وسهم للسماء لا فى دعاء بل للفرجة . .

بعده حى السروجية ، أمام كل عامل صورة حصان أو حمار : من خشب عليه جلد وقماش وحشو يتشكل ، فى اليد إبرة غليظة هى الميبر ،

السرج العربى له حاجز من أمام ومن خلف ، مكسو بالقطيفة ، مدندش بالشراريب . . هذه سروج السفر ولعب البرجاس ورقص الخيل ، عن مثل هذا السرج ورغم مسانده ـ سقط الغورى فى معركة « مرج دابق » أمام السلطان سليم «وداسته سنابك الخيل » ـ إنى أحفظ هذه الجملة من أيام المدرسة ـ وعلى أمثاله أيضا تهادت شجاعة المماليك أمام مربعات نابوليون ومدافعه الحاضرة فى معركة الأهرام . ترى هل أحس حى السروجية بالنذر ؟ أولا استيراد لسروج إفرنجية من أوربا ، ثم اختفاء رويدا رويدا للخيول ، وإن بقيت رائحة من البركة فى الحمير . . مر به الآن لتعلم على أى حال أصبح .

من بعده يجىء دور الأنف بعد أن كان الدور هو دور العين ، فى الجو رائحة لذيذة من توابل وعطور ، كأنما يحملها نسيم قادم من الشرق الأقصى القرنفل والقرفة والزنجبيل ما أجمل وقع هذه الأسماء على الأذن من هنا يشترى المغات للنفسة ، والقرطاس والتحويجة للسمنة ، والمفتقة والبخور للزار ، لابد لكل امرأة تعبره أن تشترى لفة من اللبان لتظل بقية يومها تمضغ وتطرقع ، وكانت طرقعة اللبان من علامات الدلال ، ورأيت أما تضرب بنتها لنهيها عن طرقعة اللبان .

وعلى الرصيف بائع الغوائش الزجاج ، أمامه حسناء تمد له يدها فيعالج غوايش ضيقة حتى تستقر فى ذراعها ، والمكسور منها محسوب على البائع . . إكراما لعيون الشارية . .

نمر الآن تحت بوابة ضخمة ، فى سور عتيق ، ونشهد بعجب خرقا من القماش معقودة على مسامير البوابة ، إنها (عمل) تستشفع به طالبة حاجة

أو طالبة انتقام من جارة . . فيما بعد لم أكن أمر تحتها إلا ذكرت طومان باى وشنقه . . وانقبض قلبى لا لموت هذا البطل فحسب ، بل لخيانة أصدقائه له .

لك أن تمضى بعد ذلك إلى الصاغة ، وكان فى الحقيقة حى الزينة وحى البنوك أيضا ، الأسورة على شكل ثعبان حلية ورصيد فى بنك . هنا نشترى المشالله لوقاية الولد من الحسد . . رأيت بعينى خلاخيل الفضة الغليظة التى كانت تلبسها خضرة وأم السعد . نزع الخاتم عند الموت من الأصبع سهل . . ترى كيف كان خلع الخلخال . . ؟؟

وإن شئت عرجت على حى النحاسين ، الحلة واللحوقى وطاسة الخضة ، سيخصص للنحاس عربة بتمامها يوم زفة الجهاز من بيت العروسة إلى بيت العريس . . فى الجو ضجة ، هى وقع الشاكوش على النحاس . .

وأمام بيت فى هذا الحى كنت أحس برهبة وخشوع ، كان اسمه (بيت القاضى) .

(« التعـاون » العدد ١٦١ ، ١٩٦٦/٣/٢٠ ص ٦)

عربى وافرنجى

ما أكثر المهن البلدية الصغيرة التى كادت تختفى الآن أمام زحف الحياة الحديثة . وحين كتبت مقالى السابق عن تقهقر منصة عرايس مولد النبى إلى أطراف الأحياء الشعبية عادت ذاكرتى إلى القاهرة التى عرفتها وأنا صبى . كان من معالمها :

١ - موقف الحمير : فى العتبة الخضراء ، فى القلعة ، بل عند سور الأزبكية أمام فندق الكونتنتال ، وفى أماكن أخرى كثيرة لافتات مكتوبة هكذا « موقف لعشر حمير » . وكانت اللافتة المكتوبة أمام الكونتنتال مكتوبة هكذا « موقف لخمس حمار » كأن جوار السياح الأجانب كان يقتضى لخبطة الهجاء العربى . وكم ركبت حمارا من العتبة الخضراء لأعود إلى بيتى فى آخر شارع محمد على .

٢ - عربة سوارس : التى يجرها بغلان ، خط القلعة سيدنا الحسين مارا بالمغربلين والخيمية وبوابة المتولى ، خط القلعة السيدة زينب مارا بالحوض

المرصود وبركة فرعون ، خط السيدة إلى سيدنا الحسين . أنت ترى أن سوارس كانت لخدمة الفلاحين الذين يزورون أهل البيت ، ما بقى من الزباين تتكفل بهم عربات الكارو .

٣ - الحصرى : كان فى كل حى تقريبا دكان حصرى ، نراه مقرفصا فى دكانه أو فى شارع أمامه وهو يمرر عيدان القش من بين خيوط الدوبارة المشدودة بين عارضتين .

وكان الناس يشترون هذا الحصير إما لفرشه على أرضية الحجرات أو لوضعه تحت البساط ، حسب القدرة ، وكانت حصيرة الصلاة لها أيضا سوق رائجة فشتان بين زبيبة الصلاة من أثر حصير خشن ، وزبيبة الصلاة من أثر سجاد ناعم .

وكان أهم زبون صقع للحصير هى وزارة الأوقاف ، تشتريه لمساجدها العديدة ، وكان من النوادر التى يضحك لها الناس قولهم إن شركات الدخان والسجائر كانت هى التى تشترى المستهلك من حصير وزارة الأوقاف . .

اختفى دكان الحصرى أو كاد ، لم أعد أراه ، وكان الأمل أن تتطور هذه الصناعة اليدوية بحيث يضع الناس فى بيوتهم على الأرض أو على الجدار حصيرة جميلة الصنع والألوان . . إنها لمسة فنية رخيصة الثمن .

أقول هذا وفى ذهنى هذا الحصير اليابانى الرقيق الجميل الذى كانت تعرفه أسواقنا فيما مضى . .

٤ - المكوجى العربى : هو المختص وحده بكى ثياب لابسى العمائم من الجبب والقفاطين والأحزمة الشاهى . . لم يحدث لواحد من الأفندية أن أرسل إليه بدلته لكيها له ، بل لم يسأله هل هو قادر على كيها أو غير قادر ، ولا أدرى ماذا كان يجيبه لو سأله ، وصاحب الدكان لا يعمل بيديه وحدهما ، بل بهما وبقدمه اليمنى أيضا ، ثق أن قدمه هذه أهم له من يديه ، ما كان أحق مهنته إذن أن تسمى « قدمية » لا يدويه ، أو على الأقل «يدقدمية» ، على غرار « مسروايه » توفيق الحكيم . كان له طاولة واطئة . . يفرد عليها الجبة أو القفطان ثم يضع عليه مكواة كبيرة جدا ، غليظة لها يد خشبية طويلة ، يمسك هذه اليد بيده ويضغط على المكواة بقدمه اليمنى . . فهو منكفىء ، مقوس الظهر ، لا يماثله فى انحناء الظهر إلا نحات الحجارة الذى كاد ينقسم وسطه ، ولعل تقوس ظهر المكوجى العربى هو الذى جعل بخة الماء التى تخرج من فمه طراطيش تشبه المطر الغزير المنهمر ، مندفعة بقوة ، تخلخل الهواء فتجعله يمر بمنشور زجاجى .

وكان مهما إذ كان للمعممين شياكة لا تقل عن شياكة الأفندية ، بل ربما فاقتها ، وكان لهم « مانيكان » متجول ، هو المرحوم الحمصانى صاحب مصانع الشاه والكشمير ، له عربة خيل أنيقة ، جرسها يرن رنينا موسيقيا بديعا ، له وجه وردى وسيم لذيذ ، وشارب أصفر جميل . . يلبس عمامة صغيرة مقلوظة ، لا تحتل إلا قمة رأسه ، وجسده الرشيق عليه أجمل ما فى السوق من شاه وكشمير ، مفصل باتقان ، وخارج لتوه من دكان المكوجى العربى . لم أر رجلا مثله يعلن عن بضاعة بمثل هذا الظرف . وكان

الحمصانى وعربته وعمامته وجبته وقفطانه من معالم القاهرة التى عرفتها وأنا صبى .

ومكوجى الأفندية والخواجات كان يسمى « مكـوجى إفرنجى » إذ كان العهد عهد انقسام بين عربى وإفرنجى . . هذا فرن إفرنجى ، وهذا فرن بلدى ، هذا ترزى إفرنجى وهذا ترزى عربى ، وفى القمة : هذا محام مختلط وهذا محام أهلى أو شرعى . . بـل كانت ثمـار بذور الخضـروات المستوردة يطلق عليهـا وصف الرومى . هـذا باذنجـان رومى أو باميـة رومى . . بجانب الباذنجان البلدى والبامية البلدى .

تدهور حال دكان المكوجى العربى ، ولم أعد أراه إلا نادرا ، لا عجب فقد لبس البدلة بدلا من الجبـة والقفطان أبنـاء الأزهر ، ودار العلوم ، وتضاءلت نسبة لابسى العمامة بين أبناء الشعب .

٥ - دكان الخراط : وهو يعمل بقدمين لا بقـدم واحدة . وكـان منظره يستوقفنى ويستهوينى فنحن نعتبر القدم فى شدة الحمورية إذا قيست باليد ، فإذا بها فى دكان الخراط تثبت أنها لا تقل عن اليد ذكاء وخفة وحصافة . واستخدام الإنسان لقدميه فى عمل يثير الدهشة دائما . . لا عجب أن كان من النمر الرائجـة فى خيام المـوالد رجـل يلضم الأبرة مستعينـا بقدميـه وحدهما ، ويولع بهما أيضا وابور الجاز .

كاد دكان الخراط يختفى ، لم أعد أراه إلا نادرا ، ضم إلى القائمـة « المرخماتى » الذى يشتغل فى الرخام والمرمر وتصليح الأوانى الخزفيـة . .

« والنجار الدقى » الذى يصنع المشربيات ، ودكان « القباقيبى » ، ودكان « السيرجة » التى كنا نشترى منه الكسبة والزيت الحار « بذر الكتان » والسيرج (بذر السمسم) وأكثر الدكاكين معاندة للزوال هو دكان « الطرشجى » ولكن مآله محتوم بسبب انتشار مصانع الطرشى .

ولعلى لم آسف على اختفاء كل هذا المهن اليدوية أسفى على اختفاء نداءات الباعة الجوالة . . إن طفولتى ملأى بنداءات عديدة منوعة ، بالليل والنهار ، وكان لها أجمل وقع على أذنى وقلبى .

(« التعاون » العدد ١٧٨ ، ١٩٦٦/٧/١٧ صـ ٨)

معاينة من الداخل

هذه اللجنة الحكومية التى قرأت فى الصحف أخيرا نبأ تشكيلها لدراسة أوضاع الحمامات العامة ـ سألت نفسى ترى كيف سيعمل أعضاؤها ؟ هل سيكتفون بالمعاينة من الخارج أم ستقتضيهم الذمة أن ينفلتوا من ستارة رقيقة بالية رطبة كانت ذات يوم مخططة بالأحمر مسدلة على باب واطىء غير عريض فى أحد دروب الأحياء الشعبية فيشفطهم دهليز ملتو ضيق لا يشعشع فى غبشته إلا ضوء خجول كلما تحركت الستارة من بعيد ، ليفضى بهم إلى قاعة معتمة مكتومة صيفية الطقس حتى فى عز الشتاء ، يقبع فى أحد أركانها ـ وفى حضن الصمت ـ مسترزق ينتظر هو الآخر كرم المولى ، فإذا أعفاهم من الأجر وأمره لله ـ لأن المهمة رسمية ـ نادى فأقبل فوق قبقاب حنين على الأرض من فرط ما براه الشقا رجل عار إلا من فوطة كالمنديل المحلاوى حول ما أمر الله به أن يستر ، شدها منها فيها حول خصره ، نحيف تستطيع أن تعد ضلوعه ، حتى الأخير العائم منها ، جلد على عظم ، هذا جسد تعود على مغازلة نار مزمنة ، هذا هو

« المكيساتى » يا عزيزى . سيقودهم إلى دروة بها كنب بلدى يخلعون فيها ملابسهم ، فإذا تعروا كما ولدتهم أمهاتهم أخذ بيدهم برفق ـ هكذا يقتضى البروتوكول ـ كأنه جزار يجر ذبيحته ، أو مغسل حانوتى يتسلم الشغل ، ومشى بهم إلى قدس الأقداس . . تحت قبة على سطحها عراك أبدى بين أشعة الشمس وتراب متراكم فوق براويز من زجاج أحمر وأخضر وأصفر ، هذا إذا كان الحمام ابن عز قديم ، وقدس الأقداس هو المغطس يشع من مائه المغلى بخار يملأ الحمام كله ، ينصحهم المكيساتى أن ينبطحوا قليلا فوق الرخام الساخن فهذا شفاء من الروماتزم وكافة أوجاع البرد وأن يتقلبوا عليه ظهرا وبطنا ثم يصبر عليهم إلى أن يتصببوا عرقا ، لو فى دلو لملأه ، وأن تفك كل خلية فى جلدهم آخر زرار فى قميصها فيأتى بكيس صغير خشن يلبسه كالقفاز ويعمل به على أجسادهم من فوق لتحت ومن تحت لفوق ـ عمل فارة النجار على لوح من الخشب ، سيدهش كل واحد ـ وهو يظن أن جسده نظيف ـ من هذا المقدار الهائل من القاذورات السوداء التى فضحها هذا الكيس الدؤوب ، إنه أزاح معها أيضا طبقة من الجلد فأصبح مس الحرير يؤذيه ، ومن العجيب أن لهذا المكيساتى عادة سمجة كنت أتافف منها كل مرة ، لا شهادة عنده على براعته فى عمله واستحقاقه لبقشيش كبير إلا أن يفتل هذه القاذورات السوداء من على بطنى ، دفعا إلى صدرى ، ثم يمد ذراعى حتى يحشو بها يدى ، خذ : هذا الخبث كان فوق جثة حضرتك فأرحتك منه كما ترى ، آن الأوان للنزول إلى المغطس والاستعاذة بالله من هلبة مائه ، ومن بعده فم (بضم الفاء وتشديد الميم) أول وثان بالليفة والصابونة مع دلق الماء على الرأس والجسد من كوز بيد المكيساتى ، أصبح جسدك يلمع كالحذاء الاجلاسيه ، حينئذ يقودك

صاحبنا برفق أشد ـ لأنك دائخ ولا ريب ـ حتى الدروة فتستلقى على الكنب وقد التففت بفوطتين كبيرتين ـ كأنك أصبحت من الحجاج فى وقفة عرفات ـ إذا أردت جىء لك بشاى أو قرفة ليعوض حرارتها بعض الفرق بين طقس المغطس وطقس الدروة ، وليعوض أيضا بعض السوائل التى أفرزها جسدك حتى كاد ينضب معينه . ولابد أن يقول لك المكيساتى وهو يودعك « عقبال حمام منى » وأعلم أننى حججت وذهبت إلى منى وبحثت عن حمامها فلم أجده . . ولا رأيت مسلما واحدا يستحم بها .

* * *

تميزت المدينة الإسلامية بكثرة الحمامات العامة بها ، يقال إن بغداد هارون الرشيد كان بها ألف حمام ، وكان على مرمى حجر من بيتى فى صغرى ثلاثة حمامات عامة ، حمام الصليبية ، وحمام اسمه «حمام الدود» قصاد الحلمية القديمة فى شارع محمد على ، وحمام فى شارع المغربلين ، تعمل الأسبوع كله ، ليلا ونهارا ، أيام مخصصة للرجال وأيام مخصصة للنساء ، وكنا نشاهد أحيانا بمتعة كبيرة كيف يقدم موكب العروسة للحمام وقد استأجرته الأسرة ليكون وقفا عليها ، تدخله بيضاء اليدين والقدمين وتخرج وهى مزركشة برسوم بديعة من الحناء ، الليلة القادمة هى ليلة الدخلة ، وكان الحمام شبه فندق ينام فيه من فقدوا المأوى ليلتهم ، ويؤدى خدمة كبيرة لبطون الشعب ، ففى مستوقده ينضج الفول المدمس داخل قدرة من فخار ، لا من نحاس أصفر فوق بريموس ، كالعهد به الآن ، وشتان بين الطعمين ، وكنا فى صبانا نسمع همسا ـ وبلذة عجيبة ـ لأن الكلام عيب عن أن بعض الحمامات مباءة لهواة الشذوذ الجنسى ،

ودخل الحمام فى أمثالنا البلدية مرتين مشهورتين ، مرة نقول : « حمام بلا ماء » ، وصفا للضجة الشديدة ، وهذا مثل مستمد من الحمام يوم تخصصه للنساء ، ومرة أخرى يقول فيها المثل عن إنسان قد ضاع هدرا إنه ضاع كالشبه . . . فى حمام فأنت إذا نزلت المغطس لن يدرى أحد بما يفعله ماغاب من جسدك فى الماء . . أعترف أن الجريمة تكون فى أغلب الأحيان اضطرارية ، تستحق العفو . .

* * *

تدحدرت حال الحمامات العامة الشعبية ، اختفى معظمها ، وساد الباقى جو من الشيخوخة والفقر والمهانة ، وحل محلها ــ وللطبقة الراقية وحدها ــ حمامات اسمها « السونا » وفدت إلينا من بلاد الشمال ، تشغيلها بالكهرباء ، وبدل قفاز المكيسانى فروع صلبة من شجر تجلد بها جسدك وخاصة ظهرك . لم أدخل واحدا منها ، رغم اشتهائى لها ، فلا تزال ذكرياتى مشدودة إلى حمام الدود . .

(« التعاون » ، العدد ٢٥٢ ، ١٩٦٧/١٢/١٧ ، ص ١٠)

أسواق

من أحب القراءات عندى ـ وأنا ابن بلد وصف القاهرة فى مختلف العصور وارتباط بعض أحيائها القديمة الباقية إلى اليوم بفترات هامة من تاريخها ، ارتباط انفك مع الزمن فى طى النسيان ، خذ مثلا هذا الشارع الضيق النازل من القلعة إلى السيدة زينب ، مارا بالصليبة وبركة فرعون ، أتمنى أن أكتب سيرته قبل أن أموت من خلال هذه السيرة سينبعث من جديد فى صورة درامية ـ عصر المماليك بزعقاته ومجالس علمائه فى المساجد ووقائع الأيام المجيدة للمقاومة الشعبية لجيش نابوليون ولثورة سنة ١٩١٩ أيضا فقد سارت فيه أيضا جنازة ابن القباقيبى الذى هجم على الإنجليز أمام دكان أبيه فى الركبية فصرعه رصاصهم مشت الأمة كلها وراء نعشه . هذا البطل مطوى أيضا فى النسيان ؛ بل لا نعرف اسمه . لن أذكره فى سيرة هذا الشارع إلا باسم « ابن القباقيبى » والكتب التى تقتصر على وصف المبانى والعمائر من مسجد وسبيل وتكية وخانقاه مما يؤلفه علماء الآثار ، هى فى هذا البحث بمثابة العظام لاغنى عنها ولكنها جافة مليئة

بمصطلحات معمارية من قولة : مقرنصات وعقود وأكتاف . أما الكتب التى تستهوينى فهى التى تكسو هذه العظام باللحم والجلد والعروق التى يجرى فيها الدم فتتكلم عن المدينة كلامها عن كائن حى تحاول النفوذ إلى روحه وسر طبائعه وتعنى بوصف الألوان والروائح واختلافها من حى إلى حى ومن ساعة إلى ساعة ، ويغيظنى أشد الغيظ أن أحد الأجانب ــ لا أبناء البلد ــ هم الذين ينحون هذا النحو . آخر ما وصلنى كتاب جميل لدزموند ستيوارت عن القاهرة كما هى اليوم ، لعل البعيد يرى ما لا يراه القريب ، وإحساس الضيف الطارىء بجو البيت أشد وأسرع من إحساس صاحبه الأليف به ولكن الحب هو الذى يهزم كمامة القرب والألفة . لن يكتب وصف القاهرة على هذا النحو من أبناء البلد إلا من أحبها ، من عشقها ، ويالها من فتاة جديرة بالحب وبالعشق .

وأريد أن أحدثك اليوم عن بعض ملامح القاهرة التى شهدتها فى صباى ثم اختفت الآن ، لا تقليدا للأجانب بل لأن هذه الملامح لا تفارق ذكرياتى فى اليقظة والمنام . سأتخلص من إلحاحها بالإفضاء بها إليك .

كنت أذهب إليها لا للبيع أو الشراء بل للفرجة . أشعر بلذة كبيرة حين أجدنى ضائعا وسط عالم غريب لا تجده إلا فيها ، يتجمع عندها ساعة ، ثم يذوب وتبتلعه المدينة ، لو لم تره فيها لما أدركت قط أنه يعيش بجانبك دون أن تحس به . لكل منها مكانه وميقاته وبضاعته وزبائنه وضجته ونداءاته ، هى بعض أسواق القاهرة كما رأيتها فى صباى .

سوق العصر

أولها وأهمها هو سوق العصر ، وكان يقام على أرض فضاء أصل إليها بعد مروى على الجدار الشرقى لسجن قرة ميدان فى حى القلعة . أقرأ على بابه لافتة تقول بخط ثلث لا يناسب جماله جهامة البناء « السجن تأديب وتهذيب وإصلاح » . كان العهد مغرما بلطع الحكم على مقاعد طقم الصالون العربى . ولكن من بين سجون مصر كلها كان سجن قرة ميدان « كان » لأنه انهدم الآن ـ ينفرد وحده ، ولا أدرى لماذا يلطع هذه الحكمة على بابه ، صدقنى أننى لم أكن أصدقها . على طول جدار السجن رجال ونساء من أولاد البلد يصرخون من نافوخهم بأسماء أقاربهم وعيونهم معلقة بالنوافذ الصغيرة ذات القضبان : الرؤ ية حرام فلم يبق إلا سماع الصوت الحبيب ولو أتى من بعيد . . قلبى ينقبض لهذه الصرخات المحتدمة وأحس بفجيعة السجن ولوعة الفراق وفجأة يلفنى سوق العصر بجوه الغريب . الهواء مثقل بالتراب ، زحام يكاد يلتصق فيه اللحم باللحم ، لا يمكن أن تمشى فى خط مستقيم أكثر من خطوتين . إنه سوق الفقر المدقع والفقراء المهلهلين ، ومع ذلك يغشاه أناس لوقستهم بمقياس هذا الحضيض فلابد أن تقول عليهم إنهم من الموسرين ، ولو لم يكن فى جيوبهم إلا فكة ريال ، دفعتهم هواية لهم إلى هذا السوق كما سترى . لم أدرك إلا فى سوق العصر مآل كوز أعقاب السجاير التى يلمحها بعين النسر فى شوارع القاهرة وفى أرض مقاهيها صبى هو مثال مجسم للتشرد والضياع . فى سوق العصر رأيت هذا الصبى يأتى ببضاعته موضوعة فى كيس فيشتريها منه رجل يجلس على الأرض يفرش أمامه قطعة قذرة من الخيش يفرفط عليها هذه الأعقاب

المتهرئة التى سقط منها آخر نفس هى ورق فيه شبهة من تبغ ، فيخرج منها خليط يغلب عليه لون السواد . لهذه البضاعة زبائن يأتون إليها من أقصى المدينة ، أذكر منهم رجلا شيخا مكحكحا يتعمم ويتكىء على عصا غليظة يمشى بخطوة ثقيلة جلس أمام التاجر جلسة القرفصاء ، وتلبث لحظة يسند رأسه المائل إلى كتفه ويبلع ريقه ، ثم أخرج من عبه علبة من الصفيح واشترى من التاجر عبوتها من هذا التبغ المفرفط بكم ؟ لست أدرى لكن الثمن لا شك يبهظ المشترى فإنى أرى أصابعه تدعك العملة دعكاً شديداً وهى تدفعها إلى يد البائع ، وما الثمن إلا ملاليم قليلة . أعاد العلبة المملوءة هذه المرة إلى عبه ، وقام وربت عليها بكفه مرتين من قبل أن يستدير ويمضى.إلى أين ؟ سيارة مهكعه وقفت أمام محطة بنزين لتزود بالوقود .

على مقربة امرأة كأنها من لونها وملامحها واحدة من سرب الحدآت التى تحلّق فوق السوق بلا انقطاع وضعت،هى الأخرى فوق قطعة من الخيش كوما هائلا من نفاية مطابخ المستشفيات ومعسكرات الإنجليز حينئذ ، إذ كنا إبأان الحرب العالمية الأولى ، مهما دققت النظر لن تدرى أى طعام هو ، لقم وهبر من شغت ومواسير عظام مفتتة مختلطة بعضها ببعض . البيع منها بالحفنة لا بالكيل أو الميزان . بجانبها امرأة أخرى تبيع من حلة غارقة فى الهباب محشى الكرنب ، ولا شك أن الحشو أرز بلا لحم ، بدليل شدة الزحام على بائعة النفايات . .

وهذا رجل لا ندرى من أين التقط بضاعته لا شك أنه على صلة وثيقةبجامعى القمامة ، إنه رتّب فى صفوف منتظمة على قطعة من قماش فردها أمامه ، أشياء لا علاقة لواحد منها بالآخر من قريب أو بعيد ،

صامولة زنبرك فونوغراف مكسور ، علبة صفيح ، منفضة سجائر عليها اسم « بيرة الأهرام » قصرية مخروقة ، مبرد بدون قرص ، مقبض جنزير بسكليت ، ملاعق من الصفيح إلخ إلخ أشياء رماها أناس ليبيعوها إلى أناس . . وأعجب العجب أن كل شيء من هذه الأشياء سيجد له مشتريا يسعى إليه من أقصى المدينة . .

أما الموسرون فهم هواة الحمام وكان لا يخلو حى بلدى فى القاهرة حينئذ من غية حمام يتلذذ صاحبها برؤ يته وهو يطير فوق منزله ثم يعود إليها بعد أن يصطاد حمامة أو حمامتين من غية منافس له . إلى سوق العصر يذهب أيضا هواة الحمام ليشتروا اليمانى والهزازى والشقلباظ الذى يدور مرتين على نفسه إذا سقط من كفك إلى الأرض ، ويشترون أيضا الحمام الزاجل ، وكان هؤلاء الهواة أشرق زبائن سوق العصر وجوها وأنطقها بالسعادة لا لأنهم من الموسرين إذا قيسوا بحضيض هذا السوق ، بل لأن الهواية حب وهيام .

وسأحدثك فيما بعد عن بقية أسواق القاهرة كما شهدتها فى حياتى .

(« المساء » ، ١٩٦٦/٥/٣٠ ، ص٦)

* * *

كان سوق العصر ، مطروحا على هامش المدينة بين السجن والجبل لأنه سوق أناس يعيشون فى مسغبة على هامش الحياة تهش بخرهم وجربهم إليه عصا التأفف والبطر فى يد رعاة التخمة والترف كنفخ المغربل العفى للقشور والحب الأجوف . نفايات تتساقط كالذباب على نفايات السبارس وكناسة المطابخ فى المستشفيات والثكنات وحلة الكرنب المحشو غارقة فى الهباب .

سوق الكانتو

تعال الآن معى ننحدر من القلعة إلى ميدان العتبة الخضراء لنشهد سوقا آخر ، إنه مقام كما ترى فى قلب العاصمة ما بين مدخل الموسكى وحردة الميدان من ناحيته البحرية اسمة سوق الكانتو ، الذى أعرفه أن « الكانتو » كلمة إيطالية تعنى الغناء ، وأعترف بأننى لا أدرى إلى اليوم لماذا أطلقت هذه الكلمة الإيطالية اسما لهذا السوق . وفى لغتنا العامية كلمات إيطالية كثيرة جمعها صديقى الدكتور مراد كامل وألقى عنها أخيرا محاضرة طريفة . أيكون السبب أن نداءات الباعة نوع من الغناء ، غير أنى موقن بأنى لم أسمع وأنا أزور هذا السوق فى صباى نداءات للباعة ، بل تصر ذاكرتى على تقديمة لى الآن فى صورة سوق يتم فيه البيع والشراء بمفاوضات تجرى همسا بوشوشة فى الأذن مع انفراد البائع بالمشترى فى خلوة وسط الزحمة . كل الباعة فى « سوق العصر » جلوس على الأرض أما فى سوق الكانتو فكلهم وقوف . وتصر ذاكرتى أيضا على أنه سوق يقام فى عتمة المساء ، ما أحقة أن يسمى « سوق العشاء » . سوق العصر وسوق العشا كأن أسماء أسواق القاهرة حينئذ كانت من مواقيت الصلاة .

وشوشة وعتمة . هذا دهليز مقبض يفضى إلى ساحة الرهبة . نعم صدقنى كنت أحس فى هذا السوق وأنا صبى بشىء من الرهبة ، إذ كان يقال لنا إن البوليس يرسل إليه من رجاله بصاصين يحومون متنكرين حوله ، ومع ذلك تفضحهم أحذيتهم ، يتأملون المبيعات ويتفرسون فى وجوه الباعة وكنا نعلم أن البضائع المعروضة فى هذا السوق تأتى من

مصدرين رئيسيين : اللصوص والحانوتية ، وأنه سوق مقام على الغش والمقالب ، لا فرق بين غشيم وأجعص جعيص ، هما وحظهما قد يخرج الأول فائزاً والثانى خاسرا . ما أعجب هذا السوق سوق الوشوشة والعتمة والجريمة والموت والغش واللوترية . كان سوق الكانتو سوق الملابس القديمة المستعملة ، بالأخص البدل الإفرنجية ، بدل الأفندية ، وأحيانا بدل البكوات والباشوات ، فلا يزال على بعضها امضاء أشهر مشاهير الترزية فى ذلك العهد ديليا وفيستا (لاحظ أنهما من الطليان أيضا). ولكن إياك أن تظن أنك ستجد البدلة كاملة . هذا لا يحدث إلا نادراً ، إنما تباع جاكتة بلا بنطلونها ، أو بنطلون بلا جاكتته ، أو صديرى يتيم فقد الأب والأم ، هذا التفتيت هو سر رواج سوق الكانتو فأنت لا تعلم كم كانت حينئذ زنقة هذا العدد الغفير من الناس الذين يلبسون فوق الجلابية جاكتة يشترونها بلا بنطلون وصديرى ، لا يجدون فى القاهرة كلها حينئذ متجرا واحدا يبيعها لهم ولو ذهبوا إلى ترزى لتفصيلها لهم لقال لهم : عليكم وعلى سوق الكانتو . .

هذه الجاكتة وحدها يعرضها بائع له عيون النسر ودحلبة النمس وفصاحة سحبان وريق حلو ، لو وقعت فى قبضته أشرف الفتيات لقادها مختارة إلى درب طياب ، الجاكتة مسلبطة على يده ، ولكنه يشد حيلها بالتربيت عليها بيده الأخرى . لقط نظرة مترددة بين نعم ولا يصوبها إليها فتى نحيل مصفر الوجه (البلهارسيا يافندم) يلبس جلابية مقلمة من فوقها جاكتة زيتى تقول : « من الهوا دبنا » ، لعله كاتب حسابات فى وكالة ، فأخذه واختلى به وسط الزحمة ووشوش فى أذنه : « هى خرج بيت

واحد باشا لم يلبسها إلا شهورا قليلة ثم خلعها على طباخه فباعها فى ساعة عوزة ، حقا انك مبخت أن جئت هذا المساء » .

خلع الفتى جاكتته الزيتى ولبس جاكتة الباشا فإذا الكم أطـول من ذراعه وإذا بها تكاد تصل إلى ركبته . قال له البائع وهو يشد كتفها : تقصير الكم أمر سهل أما الطول فنافع فى الشتا ، إنها سترم بدنه وخلعها عنه برفق كأنه شماشرجى الخديو اسماعيل وقلبها له ليريه بطانتها الحـريريـة وهو يمسح بكفه خيوطها النافرة من طول البلى . . وبعد فصال شديد ثبت الفتى على رقم لا يتزحزح عنه فتركه البائع متحسرا على سذاجته ومضى يتصيد غيره وهو يـرمق الفتى بطرف عينـه ليرى هـل يتبعه أم لا ؟ نعم ، إنها حقيقة ، فوقف عند رجل رضى بعد فصال شديد أن يدفع فيها مبلغا يزيد على الثمن الذى أصر عليه الفتى ، فاندب وزاد عليه ، واشتراها ، وفى البيت انتبه لأول مرة أن الجيب الأعلى موجود ناحية اليمين لا اليسار وأدرك أن الجاكتة مقلوبة ، ولو كان أكثر فطنة لأدرك أيضا أن المشترى الثانى كان من أعوان هذا البائع . وكنت إذا عدت للبيت أحس بسعادة كبيرة لأن بيتنا كله ليس من زباين سوق الكانتو . . إنه سوق رهيب .

ومن الغريب أنه كان على مقربة من سوق الكانتو دكاكين تبيع الكتب القديمة المستعملة تشترى منها شاكسبير وجيبون وديكنز بقرش أو قرشين ، هى أجداد سور الأزبكية أيامنا هذه وكثير من الكتب مكشوط عن صفحاتها الأولى أختام المكتبات العامة التى لا تبيع ذخائرها .

* * *

سوق الخيل

وتصر ذاكرتى على أنه كان يقام فى الطراوة ولكن فى وضح النهار لا ريب أن موعده كان مابين العصر والغروب ، فالجلسة فيه تطول كثيرا ، والبائع والمشترى جالسان على قهوة هذه المرة ، هذا هو سوق الخيل فى ميدان باب الخلق ، والقهوة على الرصيف المواجه لدار الآثار العربية .

وكان للخيل حينئذ دولة . . ثم زالت . لا يباع فى سوق باب الخلق خيل السباق ولا عربات الكوبيل والفيتون والكارتة فى اصطبلات السادة الأغنياء أو المعلمين الكبار ، بل هى خيول الشغيلة من أولاد البلد لجر عربات الدبش أو عربات الحنطور . والخيل كما ترى مقامات كالناس تماما بتمام . لا أدرى إذا كنت حينئذ أقسم خيل هذا السوق إلى نوعين : النوع الفلاحى ، وهى خيل عربات الدبش لا ينقصها إلا أن تلف على وسطها حزاما من الليف وتنادى من تحت قناطير القفة : منفلوطى يارمان : جسد لا ينهد رغم الشقا وجلد لا يأبه للسعة الشمس والخدوش التى لا تبلغ مبلغ الجروح الغائرة المكتومة بمسحوق الحناء ورأس عنيد وصبر لا ينفد واستعصاء على التطبع بطبع أهل المدينة ، خليط مدهش من السذاجة والمكر .

والنوع الثانى نوع الأفندية من الموظفين خارج الهيئة ، وهى خيل عربات الحنطور ، وبخاصة الفردة الشمال فإنها دائما أضأل من الفردة اليمين ، غلابة ومساكين وذل مقيم . . فإذا استراحتْ فى الموقف وجدت رجلا جالسا عنده يفتل للسائق سوطه القديم ليجدد قدرته على اللسع . . نعم كان فتل هذه السياط مهنة يرتزق منها بعض الناس حينئذ .

ها أنذا جالس مع المشترى والبائع فى قهوة باب الخلق وقد أمر البائع صبيا له أن يقود الحصان جريا أمامنا مرة ثانية وثالثة إذا قلت لك إنه كان يجرى كل مرة كالغزال فلا تستعجب . فكما قيل لنا إن سوق الكانتو مرد لصوص وحانوتية قيل لنا أيضا إن مسحوق الشطة (وهى أخت بودرة العفريت وكانت تقوم مقام حقنة فيتامين « أ » و« ب » و« ج » إلخ . . يحقن بها الحصان فى مكان ما من جسده . . أمر الله بالستر . . وإذا امتنعت عليه الوحوحة من حلقه أطلقها من سيقانه وحوافره .

(« المساء » ، ١٩٦٦/٦/٦ ، ص ٦)

دهليز بعد دهليز . .

نشأت فوجدت اسم « ميدان باب اللوق » ، على ضلعه القبلى واجهة خشبية رثة متداعية لمحطة سكة حديد حلوان ، لم أدخلها إلا مرارا قليلة ، فى زيارات سنوية ، أيام شم النسيم . والقطار ينفث دخانا كثيفا على الجانبين ، فأحمد الله أننى لا أسكن فى المنازل المطلة عليها ، وعلى ضلعه البحرى منزل نمر أمامه بتوقير شديد ، لأننا نعلم أنه منزل صالح باشا الفلكى وإن لم نكن قد رأينا صاحبه رأى العين ، بتوقير شديد لا لأنه باشا ــ طظ فى الباشوات ــ بل لأنه عالم جليل شهدت له أوربا ذاتها بالتفوق . كم أتمنى أن لا تنقطع الإشادة به وببقية علمائنا الأفذاذ الراحلين ، كم أتمنى أن ننشر من جديد أعمالهم القابعة تحت التراب فى مخازن المكتبات ، طواها النسيان وطواهم جميعا مع الأسف .

ووسط الميدان موقف مهم لعربات الحنطور ، أمر أمامها فأشتاق أن أركبها فى نزهة على كوبرى قصر النيل ، صبرا صبرا ، قد يتحقق الأمل فى يوم قريب ، يأتى فيه الفرح مع الفرج ، فلم يبق لى إلا أن تعلق عينى برأس

الحصان وقد خلع عنها اللجام والشكيمة وهى محنية مندسة فى كيس التبن ، هى ذليلة فى الحرية ، ذليلة فى الأسر ، هكذا كانت تقول لى نظرتها وهى تشكو إلى هوانها . رائحة التبن أيضا، تلقطها أنفى بلذة وضيق معا ، ولكن الحذر الحذر من أن ينفث الحصان وأنا أمر بجانبه فيسقط شىء من الرذاذ على يدى . فمن معلوماتى الطبية الأكيدة بالتوارث أن هذا الرذاذ يكون بذرة ينبت منها فى يدى شىء كجذع الشجرة اسمه « قوبة » — لابد من قطعها بالمقص . وتعلق عينى أيضا — فى شىء من العجب — برجل يقتعد الرصيف ، جعل مهنته فتل السياط لسائقى العربات بين مشوار وآخر — الرزق ضئيل ولكنه أيضا سرساب من يد ليد . تعود لذهنى صورته من متاهات النسيان حين كبرت كلما قرأت عن هذه الطيور الدنية التى لا تعرف الأكل إلا بالتقاط الطفيليات التى تضايق جلد التمساح فيتركها تسرح وتمرح على ظهره دون أن يطبق عليها فكه الفظيع . ومثلها تلك الأسماك الصغيرة التى تعيش بتأدية الخدمة ذاتها لوحش البحر ، سمك القرش المخيف ، حقا : كل فولة ولها كيال . . .

لم يخطر ببالى حينئذ أن أبحث عن معنى كلمة « اللوق » — ما أكثر الكلمات التى ننطق بها ولا نعرف معناها ، وبقيت أردد هذه الكلمة كالببغاء ، يحاول ذهنى — فى غفلة منى — أن يربط بينها وبين كلمات أخرى تبدو كأنها مشتقة من نفس المصدر ، من ذلك ما أسمعه من أهل البلد : « خد قلم على وشه اتلوق منه » . ولا أدرى لماذا وسوس لى وهم خفى أن « أتلوق » بالعامية هى كلمة متعلقة بالفم . فالذى صفع على وجهه سيقوم من الضربة وقد تورمت شفته وتلجلج لسانه ، وربط ذهنى بين هذه الكلمة وحركة تلقيمنا بملعقة ملأى بحلاوة « على لوز » التى كنا نشتريها من فتيات

صغيرات بجحات يتجولن فى الشوارع أول أيام العيد الصغير ، وحلاوة « على لوز » كثيفة لزجة مطاطة تتعب الشفتان واللسان والشدقان والحلق فى تناولها « وتلويقها » فى الفم ، ها هى . وفى كلمة « اتلوق » وجدت استعمالا آخر لها ، مرتبطا بالفم ، ومع ذلك أبت هذه الكلمة إلا أن توحى لى أيضا بأنها تعنى كذلك إصابة الجسم كله بخلل فى اتزانه واعتداله وتطابق شقيه ، فيزحف الخد من مكانه ليدخل مكان الخد الآخر ، أو يستدير الكتف وينحنى على الصدر ولا يعود لموضعه . أو أن تتخالف القدمان فتصبح اليمنى كأنها اليسرى واليسرى كأنها اليمنى . فمن أخوات كلمة « اتلوق » . فى العامية كلمة «أتلوح » . والكلمة الأولى تفيد أن الجسم أصبح كأنه رخو بعد أن كان متينا ففقد رباطه واختل توازنه واعتداله وتطابق شقيه .

وبقيت كلمة « اللوق » لا معنى لها عندى ، أكررها كالببغاء إلى أن رحلت فى مطلع شبابى إلى الصعيد ، فوجدت لها لأول مرة معنى واضحا ، هى كلمة شائعة على ألسن الفلاحين ، وتعنى هذا الطين الرائب فى الأحواض فور أن ينحسر عنها ماء الفيضان . حينئذ وقبل أن يجف الطين لابد للزارع أن ينثر بذور البرسيم أو الفول ثم لا يفعل من بعد شيئا إلا أن يسوى الأرض ويترك النبت ينضج دون أن يسقيه . هذا هو الفول البعلى وهو بخلاف الفول المسقاوى الذى يشرب من ٤ إلى ٦ مرات . وللفول البعلى صيت أيما صيت ، فهو فى الاعتقاد السائد أسهل نضجا فى الطبخ وأجود طعما من الفول المسقاوى وتطلق كلمة « لوق » بالتبعية على أرض الحوض كله ، بلا نظر إلى الطين هل هو رائب أم جامد .

والآن وأنا أكتب هذا المقال أكشف لأول مرة فى « القاموس الوسيط »

على كلمة « لوق » فأجده يقول : لاق الشيء لوقا لينه ، والألوق هو الأحمق الذى لا يحسن الكلام ، واللوق كل شيء لين من طعام ونحوه . فأنت ترى أن الكلمة فى الفصحى تستمد معناها من مصدرين : الأول هو الليونة . والثانى مرتبط بالفم أى لجلجة اللسان بدليل أن كلمة « ألوق » معناها الأحمق الذى لا يحسن الكلام . والكلمة العامية كما فى الفصحى تستمد من المصدرين أيضا ، فاللوق هو الطين الراثب ، اللين ، ثم اتلوق بمعنى أن الجسد كله أصبح رخوا فاختل نظامه واعتداله واتزانه . وبقى بعد ذلك المصدر الثانى المتعلق بالفم . . « اتلوق » بمعنى تلجلج لسانه ،وبمعنى الشقاء فى تناول حلوى « على لوز » وهى أيضا مادة رخوة لينة . . لست أدرى هل سبب تسميه الميدان بباب اللوق أنه كان أيام القاهرة المعزية الخد الفاصل بين العمران والأراضى الزراعية ؟ . ربما . . ومرت الأيام فإذا ميدان باب اللوق أصبح يعرف باسم ميدان الأزهار ، ثم بميدان الفلكى .

وتراجعت محطة سكة حديد حلوان إلى الوراء لينشأ شارع يقام فيه سوق دائم هو من أشد شوارع القاهرة زحاما . وانهدم منزل الفلكى وقامت مكانه عمارة عسيرة الولادة ، فلم تنفك عنها السقالات منذ سنين . ولم يبق فى موقف العربات إلا عربة فرد جربانة كحيانة ، لا أمر بها إلا عادت لذهنى صورة الماضى كله . رائحة التبن ، والواجهة الخشبية الرثة ، وتلفتت عينى تبحث عن فاتل السياط فلا أجده .

(« التعاون » ، العدد ٢٢١ ، ١٩٦٧/٥/١٤ ، ص ١٠ ، ٩) .

المتبوع واحد

طلع علينا الدكتور محمد يوسف نجم أستاذ الأدب العربي بالجامعة الأمريكية ببيروت فى محاضرة ألقاها أخيرا هناك برأى جديد عن إصلاحات محمد على فهو يراها لم تقتبس نماذجها الأولى من الحملة الفرنسية أو من إصلاحات نابوليون فى مصر كما قال أكثر المؤرخين : بل إن محمد على كان يضع النموذج التركى نصب عينيه . . فالحملة فى سنواتها القليلة التى قضتها فى مصر كانت منصرفة إلى تنظيم وجودها وتوطيد حكمها فى تلك الأرض الغريبة المعادية ولم يتح لها الوقت لكى تقدم للمصريين نماذج حضارية فعالة جديرة بأن يحتذيها الحكام الذين سيتولون أمر مصر بعد خروج الحملة . ولقد كان عنصر الزمن ضد هذه الإصلاحات . . كما كان الشعب من الناحيتين النفسية والثقافية غير مستعد لتقبلها . ومن هنا لم تكن الحملة الفرنسية أكثر من هزة حركت شعور محمد على ودفعته إلى اقتباس النماذج المألوفة لديه المعروفة عنده ، أى أنه اتجه ببصره إلى تركيا لا إلى فرنسا . فقد بدأت حركة الإصلاح فى تركيا منذ عهد السلطان أحمد

الثالث الذى أدخل الطباعة بالتركية والعربية ، ونظم البحرية على الأسلوب الغربى ، ثم تلاه محمود الأول (١٧٣٠ - ١٧٥٤) الذى أسس مدرسة الهندسة ومجلس العلوم الرياضية ، وأمر بأن تؤلف وتترجم الكتب العسكرية والطبية والتاريخية . وفى عهد مصطفى الثالث (١٧٥٧ - ١٧٧٤) أنشئت مدرسة الرياضيات الجديدة لخدمة الأسطول . . وحين كان محمد على فى العشرين من عمره بدأ عهد سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧) وهو أبو الإصلاح الحقيقى بإدخاله أفكار الثورة الفرنسية إلى بلاد الخلافة ، بعثات كثيرة أوفدها لفرنسا واستوفدها منها لوضع أسس جديدة للنهضة الثقافية والعسكرية ، وهو الذى استن لمحمد على فيما بعد الالتجاء إلى الضرائب لسد النفقات التى يتطلبها هذا الإصلاح .

ويرى الأستاذ يوسف نجم أن هذه الإصلاحات التركية هى التى تطلع إليها محمد على وكان فى بدء حكمه قليل الثقة بالأوربيين وخاصة الفرنسيين والإنجليز الذين خاض معهم غمار حربين لتحرير مصر من قبضتهم فاستعان أولا بالإيطاليين .

ويتصيد يوسف نجم بعد ذلك الحجج التى يراها مؤيدة لرأيه ، فيقول إن محمد على حاول سنة ١٨١٥ إدخال النظام الجديد إلى جيشه ، فاستعان بإبراهيم أغا وهو من الأتراك . وحين أنشأ مكتبا بحوش السراية لتعليم جملة من أولاد البلد ومماليك الباشا كان اعتماده فيها على حسن أفندى المعروف بالدرويش الموصلى وروح أفندى . وحين أنشأ مدرسة الهندسة سنة ١٨٢١ جلب لها عددا من الكتب التركية المطبوعة فى تركيا ومنها القاموس العربى التركى . وكان يستدعى المدرسين الذين يتقنون

التركية والفرنسية من الآستانة للتعليم فى مدارسه الأولى . وحين أنشأ المدرسة الحربية فى فرشوط سنة ١٨٢٢ اتفق مع ناظرها « محمد بك » على أن يجرى تنظيمها على الأسس التى وضعها سليم الثالث لمدارسه الحربية . فالنتيجة التى وصل إليها يوسف نجم هى أن محمد على تطلع إلى إصلاحات سليم الثالث حين كان يضع الخطط الأولى لإصلاحاته العسكرية والتعليمية فى مصر .

ليكن كل ما قاله الأستاذ يوسف نجم صحيحا ولكنه لا يثبت إلا أن محمد على لم يتجه أول الأمر إلى الحضارة الغربية التى كانت فرنسا قبل إنجلترا هى الممثلة لها فى نظره إلا عن طريق واسطة هى تركيا فلا فضيلة لهذه الإصلاحات التركية فى نظر محمد على لا أنها مقتبسة من الحضارة الغربية فكل الذى فصله المؤرخون الذين ظن يوسف نجم أنه طلع عليهم وعلينا برأى جديد يخالف رأيهم . . هو أنهم أسقطوا الواسطة من الاعتبار واستبقوا الأهمية للمصدر الذى جعله محمد على نصب عينيه ، وهو اقتباس أنظمة الحضارة الغربية وأين رآها إلا بفضل حملة فرنسا وإنجلترا على مصر . لا شك أن معركة الهرم كانت درسا هيهات لمحمد على أن ينساه .

أما استعانة محمد على بالأساتذة الأتراك فهو لا يدل على شىء . . دع عنك أن أكثر من ثلث اللغة التركية ألفاظ عربية فلا تعد مفارقة للغة التلاميذ مفارقة كبيرة فإن هذه اللغة التركية كانت أيضا لغة الدولة فى مصر ، وكلا اللغتين تظللها راية الإسلام . لم يكن لمحمد على إذن مناص من الالتجاء إلى الأتراك الذين حاولوا اقتباس أنظمة الحضارة الغربية فى بلادهم وإلا لما لجأ اليهم هذا الثعلب الماكر ، ثم لا تنس أن محمد على كان قد أرسل

البعوث إلى أوربا وكان محتاجا إلى أن يملأ الفراغ قبل عودتها . وفوق هذا فإن بعض الحجج ينقض آخرها أولها ، فهو حين يتكلم عن استقدام محمد على للأساتذة من تركيا لا يلبث أن يضيف أنه اشترط أن يكون لهم اتقان للغة الفرنسية ، أى أنه لجأ إلى التركى المتفرنس ، إن لم نقل إلى الفرنسى المترك لا حبا فى سواد عيون الأتراك ، بل حبا فى سواد عيون الفرنسيين .

وأخيرا يغتبط يوسف نجم حين يقرر لنا أن محمد على عين ضابطين تركيين ممن درسوا فى الآستانة لمعاونة البعثة الفرنسية التى استقدمها سنة ١٨٢٤ فى تنظيم جيشه ، وكان من أهم أعمالها تنظيم المشاة برئاسة الكولونيل رى . فيا يوسف يا نجم من الأهم ؟ . . الأستاذ أم مساعده ؟

والغريب أن المحاضرة تستطرد بعد ذلك لإثبات أن تركيا عادت واقتبست لنفسها كثيرا من أساليب محمد على فى الإصلاح ، أى جرى تبادل مستمر بين النموذج المصرى والنموذج التركى ، وكلاهما يقتبسان من مصدر واحد هو الحضارة الغربية .

إن المناخ الذى ساد مصر فى أعقاب الحملة الفرنسية هو أن لا سبيل لمحاربة الأعداء الغزاة القادمين عبر البحر إلا باصطناع أسلحتهم ، ولا وسيلة لاصطناع أسلحتهم إلا باقتباس حضارتهم . ولا أعرف أحدا عبَّر عن هذا المناخ أصدق تعبير مثل الجبرتى . ولعلك تذكر أننى حدثتك ذات يوم عن وقُفته فاغر الفم مندهشا أمام عربة جيب صغيرة لنقل الأتربة جاء بها الفرنسيون معهم فلأن لها من الأمام عجلة واحدة صغيرة أصبح من المستطاع برفع العجلتين الخلفيتين عن الأرض دفع العربة بسهولة . هذه العجلة الصغيرة فى عربة يد لنقل الأتربة كانت كافية لأن يلطم الجبرتى

خديه حسرة على تخلف الحضارة فى بلده المحبوب ـ مصر التى لا يعرف أهلها نقل الأتربة إلا على عربات ذات أربع عجلات يحتاج دفعها إلى جهد شديد . ما أشبه رأى يوسف نجم بالمثل البلدى القائل ! «ياجحا ودنك منين ؟» .

(« المساء » ، ١٩٦٧/١٠/٣٠ ، ص ٤)

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل !

يُصر الميدان ـ كما يُصر الكيس ـ على منزل يشغل وحده قمته الغربية ، منزل غير كبير لأنه مسكن لأسرة واحدة لا تجهر بثراء فاحش ، فهو لا يتراجع عن الطريق ليحتمى من العالم ووراغشه وراء حديقة تختبىء داخل جدار مرتفع ، لرب الدار حكر زهورها اليانعة ، وللمارة من عباد الله إحسان يُلقى إليهم من فوق السور ، يشمون فيه عطر نجوم مبعثرة من الياسمين الهندى ، وإنما ينم عن بحبوحة محتشمة فى رزق غير موروث بل مكتسب بشرف وعرق الجبين ، وعن كرم وحب للناس ، فرصيف الميدان هو عتبة الدار ، وعن ذكريات إقامة فى أوربا ، لأنه من طراز عمارتها .

هو من طابقين ، وبعرض الطابق الثانى شرفة مكشوفة فسيحة ترسل إليها الشمس أول ما تطلع من الشرق باكورة أشعتها لتحيى وتقدم فروض الطاعة لصاحب المنزل ، الفلكى النابغة الذى يرصد حركتها ويجلو أسرارها .

أعرف هذا المنزل منذ صباى ـ أى منذ نصف قرن ـ وإن كنت لم أعرف أهله ، أوليه ـ قبل إجلال ـ حبا خالصا سعد به قلبى . ما مررت بالميدان إلا تطلعت إليه ، ورأيت رأسى يرتفع بحركة غير إرادية ، لأنه يهبنى إيمانا بأن الله سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملا ، ولأنه يملأنى ثقة فى خصوبة تربة هذا الوادى ، ومواهب أبنائه من الفلاحين الغلابة ، وذكرت ولا مفر على مبارك ومحمد عبده وترحمت على الجميع .

وكان المنزل حينئذ عامرا ، وحتى لو طفت به ذات يوم فوجدت الصمت مخيما على نوافذه المغلقة فإنى أحس مع ذلك بدفء أنفاس أهله . قطة الدار لا شك تتثاءب بملل ولكن بدون يأس لأنها تعلم أن أعزاءها عن قريب عائدون . أما المنزل المهجور ، ولو أحيطت به زينة الأفراح ، فله إطراقة حزينة لا يخطئها القلب .

لم أنتبه وقتئذ أن موقع المنزل يجعله بمثابة المرصد للميدان ، وكان خليقا بى أن أدرك هذا الشبه ، إذ يكفى أن صاحب المنزل اسمه «الفلكى» . وما أكثر ما شاهد هذا المرصد ، تحول الاسم من «ميدان باب اللوق» إلى «ميدان الأزهار» . تراجعت محطة سكة حديد حلوان إلى الوراء ، وشُق لها شارع قصير جديد . ذهبت القاطرة التى تصطك وتنفث الدخان وتزحر زحير الحبلى ، فتفتننا نحن الأطفال وتخيفنا . وجاء بدلها من وراء البحار ديزل مبرقش بالأحمر والأصفر . اختفى حارس المزلقان الذى يصرخ ويُلوح فى وجوهنا بعلم أحمر ممزق ويمسك بلجام الخيل والبغال بعد أن شدَّت قوائمها فوق القضيب ، فتهز رؤوسها حيرة واستنكارا ، ثم تلم نفسها بجهد ، وحل محله جرس مزدوج فى حجم الطبلة كأنه ناكرونكير ،

ثقيل الدم لأنه مزعج ولحوح ، ونور أحمر يتواثب كالعفريت يمنة ويسرة فيضنى زنبرك المزلقان والرقبة . ومع ذلك فحوادث المزلقان لم تنقص بل زادت لأن الصدمة لم تعد تدهس فردا ، بل أوتوبيسا مزدحما جوفا وسلما . والعذر ؟ . . الفرملة خسرانة !

اختفى شيئا فشيئا جيل «بقال باشا» الذى كان يحتل جوانب الميدان ، أسماء من قبرص واليونان ، وكبر صاحب قفة الفول واللب فوق الرصيف وفتح له فى الميدان (دكان مقلى) طار صيتها عند كافة هواة التسالى . لم يتخل عن عمامته وجلبابه فخلفه أبناء أفندية فى قمصان من الحرير فتضاءل صيت الدكان قليلا قليلا حين توكل به صبى أجير فى جلباب غير نظيف . الفول لم يتغير ، بل لعله تحسن ولكنه فقد لذته حين فقد شهرته ، والوهم سلعة تباع وتشترى .

اختفى دكان الشربتلى وجف ينبوع العرقسوس الخمير والتمر هندى شفا والشعير والسوبيا والبنزهير ، وظهر فتى من الصعيد الغميق يلبس صيفا وشتاء عمامة على لفة خرطوم من القماش يتهدل طرفاه فوق صدره وتحت كاكولة من الصوف فانلة من الصوف يمتد الكمان منها إلى الرسغين (هل هو يعيش فى سيبريا ؟) ، ولكنه مشمر دائما عن ساعديه ، وفتح له فى طريق محطة حلوان أول دكان فى الحى لعصير القصب ، وتحوّلت العصّارة من يدوية إلى كهربائية ، ثم مسايرة لدكاكين قلب العاصمة ــ ضم للقصب عصير البرتقال والجزر والمانجو . . ولكن لا فائدة . . الرائحة هى هى رائحة عصير القصب .

* * *

وتقدم المنزل الأغر فى العمر ، هـو أيضا يـودع دور الشباب ولكن الشيخوخة لا تزال بعيدة ، غير أنى كنت أحس والسنون تمر أنه بدأ يرخى جفنيه قليلا قليلا .

وظهر فى الميدان سنة ١٩١٩ أجناس جديدة من المارة ، هم المشتغلون بالسياسة ، فمنزل الشيخ الوقور وابنه محمد محمود على مرمى حجر من المنزل الأغر ، تنعقد فيه اجتماعات وحلقات ، ثم أصبح الميدان معبرا لأعضاء البرلمان . ويحدثنا «العقاد» أنه كان يجتاز هذا الميدان هو أيضا فى طريقه إلى منزل الشيخ الوقور ، أو إلى البرلمان ، أو إلى صحيفة «البلاغ» . لا شك أن «العقاد» حين مروره بالميدان كان يلقى تحية الاعتزاز والإكبار على المنزل الأغر لأنه هو أيضا من عشاق صاحبه .

هذا عن الأحياء . فماذا عن الأموات ؟

لم يكن يمر بالميـدان إلا جنـازات قليلة ، المـوتى هم ولا ريب من سكانه ، أو سكان الأحياء المجاورة ، فإذا بالجامع القريب منه ــ جامع جركس ــ يصبح محطة وصول لركاب ليس فى أيديهم تذكرة للعودة . يبدأ الخط من جامع السيدعمر مكرم . «ولو كنت من السيد عمر مكرم أو من جركس هذا ــ وأعترف أنى لا أعرف من هو هذا الولى ــ لثرت فى قبرى احتجاجا على الوظيفـة البغيضة التى أُسنـدت إلىّ رغم أنفى الذى أكله الدود» .

وخط « عمر مكرم ــ جامع جركس » كثير الزبائن ، أغلبهم من عِلْيَة القوم ، فشهد الميدان عن كثب كيف بدأت تشيع مودة تشييـع جنازات المسلمين بكورونـات من الزهـور . . ترى هـل أحس المنزل الأغـر أن

الموت ، كما هو قدر محتوم للأحياء ، هو أيضا نهاية لابد منها للمنازل ، خيل إلى أنه يبدأ مع إرخاء جفنيه يطرق برأسه قليلا ويحوطه جو مبهم من الوحشة .

لا شك أنه كان يماثل ، أو لا يقل إلا قليلا عن ارتفاع منازل الميدان ، ثم إذا بالمعول يقضى على معظمها واحدا بعد الآخر ، وتظهر آلة كأنها برج بابل تدق الأرض فترجها رجا . وتقوم على جوانب الميدان من الأسمنت المسلح عمارات شاهقة . . وبل على المنزل الأغر . . إنه أصبح كالقزم الضائع وسط العمالقة ، وما أشق أن يولى الصحاب قبل أن يولى العمر ، وأحسست وأنا أطوف به مسحة من الحزن تخيم عليه .

واحتل العمارات أشكال وألوان من الأطباء ، يعلن اختصاص كل منهم سفور أمراض كانت محجبة من قبل .

وتحت العيادات لبد الصيادلة ، وصار فى الميدان بين كل صيدلية وصيدلية . . صيدلية ! والمنزل الأغر أصبح يوحى بأنه غير باق على قيد الحياة إلا بفضل حقن مقوية .

* * *

كنت أطوف به فى السنين الأخيرة فأجده غارقا فى صمت عميق ، أصبحت له إطراقة المنزل المهجور ، كأنه غطى رأسه بلحاف وانسحب من الحياة ، واستغرق فى سبات طويل .

كان من قبل فى شجرة الميدان بمثابة ثمرة تزينها . كبرت الشجرة وتضخمت فتضاءلت الثمرة وذبلت ، ولم يعد يربطها بالغصن المتفرعن إلا صلة أو هى من خيط العنكبوت ، ستقع ستقع . وماذا يهم أن نسأل متى ؟

هو لا يزال موجودا ، ولكن ما أظن أن أحدا من المارة يشعر به ، أو حتى يراه وهو ماثل أمامه ، ومن انسحب من الحياة ينبغى له ألا يلوم إلا نفسه . .

لا أدرى لماذا كان يذكرنى صمته ببقرة وديعة رأيتها فى حظيرة المذبح ، هيهات أن أنساها ، كانت هى الأخرى صامتة تحس أنها تنتظر دورها ، واختلط فى نظرتها التوجس واليأس بفقدان الحيلة والاستسلام ، ومع ذلك لم تنقص ذرة من وداعتها .

ومع ذلك كنت أقول للمنزل الأغر وأنا أمر به ما يقوله الأهل لأب عزيز مشلول لا يغادر الفراش : يكفينا أنك معنا . . وكنت أحس أن المنزل ينتظر هو الآخر دوره .

وحدث الذى كان لابد من حدوثه . لا تسل عن الطعنة التى أصابت قلبى حين مررت منذ أسبوع على المنزل الأغر ، المنزل العزيز ، رفيق العمر ، الذى وهبته إجلالى ومحبتى ، فإذا بى أراه قد سقط تحت المعول . اختفت الشرفة ، تهدمت الجدارن ، ضاع منه كل أثر ، تكشفت أرض سداح مداح .

لقى حتفه فى صمت ، على غفلة من ضجة الميدان ، ومضى كأنه لم يغن بالأمس . وقفت حزينا ذاهلا موجع القلب ، أتأمل ما بقى من أنقاضه ، وأقسم لك أننى لم أر من قبل بياضا أنصع من بياض هذه الحجارة القليلة التى بقيت من قلبه ، كأنها ترمز لبياض قلب صاحبها .

أتعرف من هو ؟

إنه ابن الفلاح ، «الفلكى» النابغة ، مفخرة مصر ، وابنها البار المرحوم «محمود حمدى الفلكى» الذى يسمى الميدان الآن باسمه . وسأحدثك عن طرف من سيرته العاطرة فى المقال التالى .

(« المساء » ، ٢٢/٤/١٩٦٣ ، ص٨)

كنز تافه . .

سارعت إلى شراء الكتاب حين رأيته على سور الأزبكية ــ حماه الله من عين البلدية . ظننت أننى وقعت على كنز ثمين لم أدفع فيه إلا قروشا قليلة بعد فصال طويل ، لا عن شح ولا عنت بالبائع ، بل لأن هذا الفصال له لذة لا يعرفها إلا هواة الكتب القديمة . . دلال وإعراض واستخفاف لإخفاء الفرحة . ولكن لهفتهم مفضوحة دائما ، شأن كل عاشق متيم .

لأسباب ثلاثة ، فهو من قبيل المذكرات ، فهذا النوع من الكتب وكذلك التراجم ، ذاتية وعن الغير ــ هو الذى وجدت فيه متنفسا لى بعد أن أتخمتنى قراءة القصص من نسج الخيال ، وواقع الحياة قد يكون أعجب وأغرب ، التاريخ يتحول فيه من نص جاف إلى دفء قاعة محكمة يتوالى عليها الشهود فى قضية مثيرة .

وهو عن فترة من حياة بلدى أعدها أقرب فتراته إلى روعة الدراما ، ما قولك فى مسرح تتحرك عليه وتتصادم شخصيات مثل : عباس الثانى ،

مصطفى كامل ، محمد عبده ، سعد زغلول ، لطفى السيد ، على يوسف ، المويلحى ، قاسم أمين ، ومعهم كرومر ، غورست ، كتشنر ، رونالد ستورز ، برونبات ، وراسل الكبير صاحب المذكرات التى يسخر فيها بالمصريين .

وهو لرجل عاش وسطهم . دخل قصر الخليفة فى استانبول ، شهد علاقات التابع والمتبوع ، ودخل قصر الخديو فى مصر ، ودار المعتمد البريطانى ، وبيوت الباشوات والبكوات ، وأطل على حياتهم الخاصة ، وتكشفت له أسرارهم ومباذلهم .

وتناولت بشغف مذكرات كومانوس باشا ، الطبيب اليونانى المشهور فى ذلك العهد ، وقبل أن أقرأها عاد ذهنى إلى مطلع صباى .

بعثات محمد على إغنت مصر بأسماء لامعة فى عالم الطب ، أولاد الفلاحين عادوا من باريس وعلى رؤوسهم تيجان شرف وفخار : سالم ، حمدى ، البقلى ، ومعهم الدرى تركى الأصل ، هم الذين جعلوا من قصر العينى (لا القصر العينى) المعهد العتيد الذى تخرج فيه فيما بعد على إبراهيم ورفقاؤه أطباؤنا العظام الذين لا أشبع من قراءة تاريخ حياتهم ، ومع ذلك فإن الامتيازات الأجنبية كانت قد فتحت باب مصر على مصراعيه لكل من هب ودب ، صدق من قال : بوابة من غير بواب ، فوفد عليها نفر من المغامرين فى زى أطباء ، يستغلون طيبة الشعب ، لم يكن يطلب منهم الحصول على ترخيص بمزاولة المهنة ولا أداء امتحان ، وأعلم علم اليقين أن أحد هؤلاء الأطباء كان يشتغل بشهادة فى الطب حصل عليها أخوه . . وامتلأت مصر بأطباء أجانب من كل جنس ولون .

وعمل الاحتلال البريطانى على اضعاف ثقة المصريين فى أنفسهم ، فارتفعت سمعة الأطباء الأجانب على حساب سمعة الأطباء أولاد البلد . لا أنسى إلى اليوم تلك اللافتة العجيبة التى كنت أراها سنة ١٩٢٧ فى أحد شوارع منفلوط غير مكتوب عليها إلا كلمتان «حكيم فرنساوى» ، لا يهمه أن يذكر اسمه ولا فرع تخصصه ، فكلمة «فرنساوى» تغنى عن كل شهادة وكل تزكية .

إذا كان رب البيت . . . هذا هو الملك فؤاد لا يلجأ لتوليد الملكة نـاظلة (هذا هـو النطق المصـرى لاسم نازلى) إلا لـطبيب أجنبى هـو كاسولارى ، ولا يسلم أسنانه التى نجت من الرصاص إلا للمستر براى داى الإنجليزى ، أو إلى استانكوفتش ، ولعله مجرى ، ولا يسلم روحه إلا أمام أطباء وفدوا من إيطاليا .

وبلغ من شهرة بعض الأطباء الأجانب فى ذلك العهد أن كان اسمهم يجرى مجرى الأمثال . من هؤلاء الدكتور وارنوك ــ مدير السرايا الصفرا ــ مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية . فمكثت أسمع فى صباى حين يراد وصف إنسان بالخبـل إما قـولهم « ده عباسيـة خالص » أو « ده وارنـوك خالص » .

وكان أبى يتندر بأخبار طبيب أجنبى اسمه فوكيه (لعله فرنسى) كان مشهورا بعدائه للتدخين ، فيروى لنا أنه كان فى عربة حنطور مرت به على قهوة فرأى أحد زبائنه يدخن الشيشة غير مبال بنصائحه ، فأوقف العربة ونـزل وهجم على الشيشـة وخطفهـا وحطمهـا على الأرض ، ثم تـابـع سيره . .

وكان من الأطباء أصحاب الشهرة الواسعة الدكتور هيس النمسوى (قريب هيس نائب هتلر) والدكتور جوب طبيب الجلد ، والدكتور هرون ! والدكتور كيتنج ناظر مدرسة الطب الذى اشتهرت قسوته على الطلبة وخاصة أيام المظاهرات .

ولكن ينبغى الاعتراف أن وسط الحشد الهائل من المغامرين عرفت مصر نخبة من أعلام الأطباء الأجانب ، منهم فورونوف الذى ذاع صيته فى أوروبا فيما بعد حين ابتدع زرع غدد القرود فى أفخاذ الشيوخ استرجاعا لشبابهم ، والدكتور فيشر طبيب العيون والمستشرق الكبير . (ولا أدرى هل هو يهودى أم لا) .

وكان كومانوس باشا صاحب المذكرات التى أحدثك عنها طبيبا مشهورا فى أوساط الطبقة الأرستقراطية ، وهو يرجع أسباب شهرته فى مصر إلى ابتداعه لعلاج جديد للحمى التيفودية ، اتركه يحدثك هو بنفسه ، وتعال ندخل معه إلى قصر أحد عظماء تاريخ مصر الحديث لنرى كيف كانت الحياة فى هذا القصر . .

« يا لعظم الحظ الذى صادفنى فى مطلع عملى ، فقد عهد إلى بعلاج بنت رئيس الوزراء ـ شريف باشا ـ من الحمى التيفودية ، فكان علاجى لها بلف بدنها فى ملايات مبلولة . . ووضعها فى حوض الحمام وهو ممتلىء بماء بارد ، ووضع كيس من الثلج على رأسها ، وهو علاج كان غير معروف فى مصر : أثار دهشة بل حنق الأطباء الذين كانوا يعالجونها قبلى .

« وكان شريف باشا من بين أفراد الطبقة الحاكمة فى مصر أكثرهم مجدا وتمدنا وثقافة ، وكان يسمى «شريف باشا الفرنساوى» . إنه رجل كريم

تنم ملامحه على فرط الذكاء ، وكان إذا ظهر إلى جانب الخديو فى الحفلات الهامة ظن من لم يعرفهما أنه هو صاحب العرش . وكان يتكلم الفرنسية كالفرنسيين .

« ولما شرفنى بدعوتى للاشتراك مع ثلاثة من الأطباء الشيوخ فى معالجة ابنته طلب منى راجيا أن أعود إليه وحدى لأجتمع به فى حجرة مكتبه لأخبره بنتيجة الفحص .

« وفى هذه الخلوة التزمت الصراحة ، ودون أن أخفى شيئا ــ وفقا لعادة الأوروبى! ــ فقلت له إن ابنته المسكينة معرضة لخطر بليغ . وبدا لى أنه كان جاهلا بمدى خطورة مرض ابنته ، ذلك لأن الأطباء الثلاثة ، مع اشتباههم فى أنها مريضة بحمى التيفود رفضوا التصريح بالحقيقة جريا على أخلاق أهل البلد ، وذكروا أنها مريضة بمرض آخر ، كذبا منهم (ملحوظة للقارىء : هذا هو أول سب من كومانوس لبلدنا) ، بل إنهم حذرونى وأنا أفارقهم قائلين : إياك أن تعلن الحقيقة للباشا فإنه سيغضب منك ويقضى على مستقبلك . .

« لم أخضع لهذا التحذير بطبيعة الحال . استمع إلى الباشا وبدا عليه قلق شديد ، ثم انخرط فى البكاء دون أن يلفظ كلمة واحدة . ولبث أمامى فترة طويلة مضعضعا ملتزما للصمت ، ثم وقف فجأة وتركنى دون أن يمد لى يده ، أو يسلم على بحركة من رأسه» .

سأقفز نصف صفحة أطنب فيها كومانوس باشا فى وصف قلقه ومخاوفه من هذه المعاملة الجافة حتى خيل إليه أن الدنيا قد هدمت فوق رأسه . .

« لم يبق أمامى إلا أن أغادر القصر فمشيت مترنحا إلى الباب ،

فاستوقفنى الباش أغا : « إلى أين ؟ » ، فقلت له : « سأعود إلى بيتى إذ لم يبق لى هنا ما أعمله » ، فاعترض قائلا : « ينبغى أن تبقى ، فقد أمر الباشا بأن تعالج أنت وحدك سيدتنا المريضة وطرد الأطباء الثلاثة . . » .

زال عنى القلق ، وصحا الجو ، وانقشعت الغيوم عن نفسى ، فقادنى الباش أغا إلى حجرة المريضة ، وسارع بإصدار أمره إلى عشر من الجوارى ــ بين بيض وسود ــ لتلبية طلباتى . فاخترت من بينهن من توسمت فيهن شيئا من المقدرة ، ووضعت لهن نظام العلاج .

وبقيت فى حجرة المريضة لم أفارقها الليلة الأولى ، بل تناولت بها عشائى . وقد لقيت أكبر عون من المربية الألمانية التى كانت ترعى تلميذتها رعاية الأم الحنون .

وشفيت المريضة ، واعتذر لى شريف باشا عن جفافه» .

ويستطرد كومانوس باشا قائلا :

« ومنذ ذلك اليوم لم ينقطع الباشا عن السؤال عنى ، وعن دعوتى على مائدته ، وعيننى طبيبا خاصا له ولأسرته . وظللت أتمتع بهذه الرعاية إلى آخر يوم فى حياته . إنه خصنى بصداقته ، ووضع فىَّ ثقته ، وهو الذى أذاع صيتى حتى أستطيع أن أعترف بأنه هو الذى بنى دعائم مستقبلى فى مصر » .

ثم يندم كومانوس باشا على هذا الاعتراف فيضيف من فوره :

« ولكن الفضل راجع إلىَّ أنا أيضا فقد داومت على متابعة آخر الأبحاث الطبية فى أوروبا . . إلخ » .

* * *

أوهمنى كومانوس باشا بعد هذه المقدمة عن نفسه أنه سيكشف عن أسرار الثورة العرابية ، وهل كان لبعض الدول الأجنبية ضلع فيها ، وحقيقة موقف ديلسيبس من عرابى باشا . . وعن علاقة الخديو عباس بكرومر . ولكنى لم أجد شيئا من هذا .

لا أعرف رجلا أتيح له ما أتيح لكومانوس باشا من الاطلاع على دخائل من بيدهم خيوط الدمى ثم حمل القلم وكتب مثل هذا الهراء والثرثرة وبمثل هذه التفاهة ، بل بمثل هذا الغرور ، فقد زعم أنه كان مرشحا لعرش ألبانيا . . ومع ذلك ففى صدر الكتاب صور غير قليلة ، إن تكن تافهة ، فهى تستحق مع ذلك أن أترجمها لك لأنها تعطيك صورة من قريب لهذه الفترة العجيبة من تاريخ بلدنا .

(« المساء » ، ١٩٦٥/٥/٢٤ ، ص٨)

* * *

سطحية . . وغرور !!

مذكرات الدكتور كومانوس باشا ، الذى عاصر إسماعيل وتوفيق وعباس الثانى ، مر على الحوادث الجسام مر الكرام رغم تأكيده بأنه كان شاهد عيان أو ناقلا من مصدر موثوق به . وإليك بعض الأمثلة :

١ - نكبة إسماعيل باشا المفتش :

تقول المذكرات : قبل وصول اللجنة الفرنسية ـ الإنجليزية المكلفة بالتحقيق فى الوضع المالى فى مصر أحس الخديو إسماعيل بأنها ستمسك بتلابيبه باعتباره المسئول الأول عن الإسراف الذى أدى إلى تبديد أموال

الخزانة العامة ، وخشى أن يقدم صديقه الحميم وزير ماليته على الإدلاء باعترافات تفضحه ، لذلك اعتزم التخلص منه ، فدعاه ذات يوم إلى تناول الشاى معه فى قصر الجزيرة ، وزيادة فى إكرامه مر بنفسه على داره ليكون الضيف فى صحبته أثناء الطريق أيضا . ولم يكد الخديو إسماعيل يدخل القصر حتى اعتذر إلى ضيفه بأنه سيغيب عنه قليلا فى الحريم ، وطلب إليه أن ينتظره فى صالون الاستقبال .

لم يكد الوزير يستقر فى مجلسه فإذا بأحد أنجال الخديو يدخل عليه ويقول إنه جاءه ليصحبه إلى اليخت الراسى فى النيل أمام القصر وأن مائدة العشاء معدة به ، فلما نزل اليخت أدرك أخيرا أنه وقع فى الأسر ، وأرسل إليه الخديو ياورا يأمره بالسفر إلى أعالى النيل ، حيث تضعضعت قواه من الغم والوحدة وسوء الجو ، فلم يلبث طويلا حتى لقى حتفه .

ويستطرد كومانوس باشا قائلا :

وقد سمعت بأذنى تفاصيل هذه الحادثة من الياور الذى أشرف على تنفيذ أمر الخديو . . انتهى كلامه .

فأنت ترى أنه لم يقل لنا أى أبناء إسماعيل شارك فى هذه المؤامرة . إنه فى بعض الروايات الأمير حسين كامل الذى تولى العرش فيما بعد . ولم يذكر لنا اسم الياور ، ولم يشأ أيضا أن يشير إلى الإشاعات التى راجت بأن إسماعيل باشا المفتش مات مخنوقا وألقيت جثته فى النيل ، وأنه استطاع أن يعض خانقه قبل أن يلفظ الروح ، وأن القتل حدث فى محضر من الأمير ، لكنه آثر السلامة ، لأنه كان على صلة بالخديو عباس الثانى ، فهو لا شك يخشى من غضبه .

ولكنه مع الأسف لم يلق أقل ضوء على أسباب مصرع إسماعيل باشا المفتش ليكشف لنا الغموض الشديد الذى يكتنفه . فمسألة الخوف من الاعترافات غير مقنعة . ما هى الوقائع التى كان الخديو إسماعيل قادرا على إخفائها بعد اختفاء وزيره ؟ هل اكتشف أن صديقه الوزير كان يخونه ويغترف من المال السائب بالأردب والكيلة ؟

يقول كومانوس باشا إن إسماعيل باشا المفتش ترك ثروة طائلة ، ثلاثة قصور فخمة ومئات من الجوارى « وقد صادر الخديو هذه الثروة » ومع ذلك فلا نجد ذكرا لأطيان وأبعاديات وشفالك ، وكانت الثروات الطائلة حينئذ هى حيازة الأراضى لابناء ثلاثة قصور . . . هل كان إسماعيل باشا المفتش كبش ضحية ، أراد الخديو بذبحه أن يثبت للجنة عزمه على تطهير الأداة الحكومية ؟! . . لا أحد يدرى ، فلا يرقى سبب واحد . بل الأسباب مجتمعة ـ إلى مرتبة الإقناع .

إذا ذهبت لشرب الشاى يوما فى فندق عمر الخيام بعد كوبرى بولاق ، فعدنى أن تعود بذهنك إلى أحداث هذه المأساة الأليمة فإنك ستكون واقفا على مسرحها ، ربما جلست على المقعد الذى كان يجلس عليه إسماعيل باشا المفتش .

وفى بعض الأقاويل أن الخديو إسماعيل كان لإسماعيل المفتش أخا فى الرضاعة من أجل هذا سمى باسمه ، وأيا كان الأمر فلم يخص إسماعيل الخديو أحدا بصداقته ومودته كما خص سميه . ترى كيف كان الحديث فى العربة وهما ذاهبان إلى القصر ؟ هل منحه الخديو وجها ينطق بالبشر والود كالعهد به ؟ هل لمست يده يد فريسته أو كتفه بحنان وود ؟ هل تثبتت

نظرته على عين رفيقه ولو برهة خاطفة ؟ أم تراه كان يشيح وجهه عنه ، ويداري الحديث ، فإذا سئل أجاب فى غير الذى سئل عنه ؟ هل أحس إسماعيل الخديو بحقارة مسلكه . . أن يتولى هو بنفسه اصطياد ضحيته بالغدر والخيانة ؟ ما الذى منعه من أن يأمر ياوره بالقبض عليه ؟ دليل إشفاقه بصديقه أن « لاتأتى الطعنة إلا من يده ، لا من يد غريب » .. هل رضى إسماعيل الخديو عن نفسه وأعجب بها لأنه أتقن تمثيل دوره ؟ وهل نام ليلته غير مؤرق . . أم ظل شبح صديقه يطوف به ؟

ما أشبه عناء إسماعيل بعناء هارون الرشيد يوم مصرع البرمكى ، وعناء سليمان القانونى يوم أن وقف على باب الخيمة التى يقتل فيها أعز أبنائه بأمره ، يسمع نداءه إليه مستغيثا : انقذنى ياأبى ! بل ما أشبه الموقف بموقف فيكتور عما نويل حين دبر القبض على موسولينى وهو يزوره فى قصره .

حين زرت الأستاذ ثروت عكاشة فى قصر سامونا ، إذ هو سفيرنا فى روما ، خيل إلى أننى أعيش ذلك اليوم وأننى أحضر مشاهده فى هذا المكتب . كان اللقاء الأخير بين الملك والدوتشى ، إن كان الملك قد كلمه بشىء من الحزم المختلط بالجفاف فإنه لم يكشف له عما ينتظره ، ثم تركه وأخذ يحييه مودعا وهو يصعد الدرج . . وظن موسولينى أنه سيعود سليما كما دخل ، فإذا به ـ لشدة دهشته ـ لا يكاد يخرج من القصر حتى يرى نفسه وقد زج فى عربة إسعاف لتحمله إلى المنفى . . من شدة الدهشة دخلها مستسلما لم تبد منه أقل مقاومة . . كان يحمل وساما يخول لصاحبه أن يقول له الملك : يا ابن عمى العزيز . .

* * *

٢ ـ هل لقى عرابى تأييدا من بعض الدول الأجنبية ؟

لا أذكر أننى قرأت فى المراجع العديدة عن الثورة العرابية إشارة إلى تأييد تلقاه عرابى باشا من إحدى الدول الأجنبية ، أما موقف ـ تركيا فأمر آخر ، لأن الذهن لا ينصرف إليها حين يكون الحديث عن الدول الأجنبية أيام عرابى ، لذلك ثار اهتمامى كله حين بدأت إحدى الفقرات فى مذكرات كومانوس باشا بالقول بأن عرابى باشا قد لقى مثل هذا التأييد ، ثم لم أكد أمضى فى القراءة حتى وجدت الكلام كله فاشوش فى فاشوش ، إذ قال ، غفر الله له :

« وعرابى باشا رجل من عامة الشعب ، جاهل كل الجهل ، لم ينل أى قسط من التعليم ، أسكره نجاح خطواته الأولى ، فظن أنه أصبح زعيماً جليلا ، يستطيع أن يرهب حتى الدول الأوروبية ، وقد لقى عونا من تركيا ، إذ كانت تعلن استياءها منه ثم تؤيده فى الخفاء تحقيقا لمصالحها الذاتية الرامية إلى عزل أسرة محمد على عن ولاية مصر ـ وكانت تركيا تكره هذه الأسرة ـ وإلى القضاء على الإشراف الثنائى على مصر (الإنجليزى ـ الفرنسى) لأنه كان يخشى سيادتها على وادى النيل ، كما أن الخليفة كان ينقم على الخديو توفيق أنه لم يقدم له فرائض الخضوع فى استانبول وامتنع عن السفر إليها .

« وإلى جانب تركيا كانت هناك دول أوروبية تؤيد عرابى سرا وتوافق على سياسته ، منها الولايات المتحدة مثلا ، فإن ممثلها فى القاهرة اجتمع بعرابى باشا وقمت أنا بدور المترجم بينهما ، فسمعته يصف الرجل من باب المداهنة بأنه واشنجتون مصر .

« وكذلك كان شأن فردينانـد دى ليسبس الكبير ، خشى أن يسـد عرابى القناة كوسيلة للدفاع عن مصر ، فأخذ يتملقه ويمدحه ، وأكد له حيادة قناة السويس وامتناع أن يجيء الغزو عن طريقها . وحصل بذلك على تعهد من عرابى بأن لا يمسها بضرر ، واحتفالا بهذا الاتفاق أقام دى ليسبس مأدبة فى فندق الكونتنتال تكريما لعرابى باشا ، حضرها أكثر من ١٥٠ عضوا ، وكنت أنا من بينهم .

« غير أن الحفلة لن تسلم من أزمة بروتوكولية صغيرة ، فإن عرابى ووزراءه رفضوا أن يمدوا أذرعتهم للسيدات الأوروبيات للاعتماد عليها فى الطريق إلى المائدة ، وقد أثار هذا المسلك كثيرا من ابتسامات السخرية . . »

انظر إلى الحوادث الجسام كيف أصبحت فى هذه المـذكرات نـوادر تروى للتسلية . دع عنك سخفه فى وصف مأدبة دى ليسبس ، واقتضابه المخل وسطحيته المعيبة فى وصف سياسة تركيا من عرابى ، فإن مقابلة ممثل الولايات المتحدة لعرابى فى المذكرات لا نفهم منها أكثر من أنها مقـابلة للتعارف ، فمن واجب الممثل الدبلوماسى أن يعرف زعماء البلد الـذى يقيم فيه . ليس فى هذه المقابلة أى ذكر لتأييد ، ومع أن كومانوس كان هو المترجم بين الرجلين فإنه لم يذكر لنا اسم الممثل الأمريكى ، ووصفه خطأ بأنه وزير مفوض مع أن جميع الممثلين الأجانب فى ذلك الحين كانوا من القناصل . ولم يذكر لنا من الحديث الذى جرى بين الرجلين سوى عبارة « أنت واشنجتون مصر » من قبيل السخرية بعرابى .

* * *

وقد جمع كومانوس باشا إلى هذه السطحية غرورا لا حد لـه يبعث

ولا شك على الضحك . وفى مذكراته أمثلة كثيرة سأكتفى بأن أنقل إليك أول ما صادفنى منها :

« كان لى الشرف أن أكون الطبيب الخاص للسير دزموند ولف المعتمد البريطانى أثناء إقامته فى مصر ، وكان من عادته أن يستقبل طبيبه الخاص كل صباح تفاديا للأمراض وحفاظا على صحته . وقد أتاحت لى هذه الزيارات اليومية أن يجرى بينى وبينه أحاديث ظريفه تدورحول الموقف فى مصر .

« سألنى ذات يوم عما ينبغى له عمله من أجل أن يكسب ثقة مصر به وتقديرها له ، فضربت له المثل ببسمارك بعد احتلال ألمانيا للألزاس واللورين ، فإنه اختار أبرع رجال ألمانيا وأشدهم كفاءة ومقدرة لتولى مناصب الحكومة فى الولايتين بحيث انتزعوا إعجاب الأهالى بهم رغم كرههم لهؤلاء الغاصبين .

« وقد لحظت أن كلامى وقع لدى المعتمد البريطانى موقعا حسنا ، فلم يمض وقت طويل حتى أوفدت إنجلترا نخبة من خيرة رجالها مثل سكوت ولو نكريف ، وجارستن ، وفيتزجرالد ، وجراهام . . » .

ياسلام ياسلام . . لم نكن ندرى أن كومانوس باشا كانت له اليد الطولى فى توجيه سياسة إنجلترا فى مصر !

(« المساء » ، ١٩٦٥/٥/٣١ ، ص ٨)

* * *

كيف يتزوج الخديو . . !

لا تزال مذكرات الطبيب اليونانى كومانوس باشا - رغم ثرثرتها - تغرينى بأن أقتبس لك منها مالا نجده فى غيرها من رؤية عن قرب لدخائل عباس الثانى وعصره ، فقد رسم لنا فى هذه المذكرات صورة لسموزبونه المعظم وقد اعتلى العرش فى سن الثامنة عشرة فوجد نفسه أسيرا فى قصر كبير يقضى الليل وحده فى غرفة نومه ، تحت مراقبة شديدة من أمه . لم يكد يبحث عن مخرج حتى وجد أن زواج الخديو - أو سر محته - أعقد من زواج أى شاب آخر من رعاياه أو سر محته ، وكاد يقع فى مأزق حرج رغم أنفه ، ثم آب فى نهاية الأمر بأسهل الحلول ، وإن لم يكن هذا الحل السهل محققا لكل ما تصبو إليه أطماعه وشهواته - فكان له بعد ذلك أثره .

وقد تقول : وماذا يهمنا الآن من نسائيات عباس ؟

إن عذرى فى التحدث عنها هو أملى فى أن يفتح الباب لأحد الباحثين ليدرس لنا دور المرأة المختفية وراء ستار العرش فى تاريخ مصر الحديث ، فمثلا قد كشفت لنا أوراق « إدريس أفندى » المؤرخ الفرنسى — بريس دافين — وقد نشرت فى مجلة « المجلة » - وجها جديد اللخديو عباس الأول كان الاوروبيون قد طمسوه وأخفوه تحت قناع قبيح ، أعنى إعراضه عن الخواجات النصابين والمرتزقة ليتجه إلى اعتناق القومية العربية فيحب العرب والبدو وسكنى الصحراء ، وامتلاك الخيول الأصيلة - فنحن نعلم من هذه الأوراق أنه تزوج من سيدة بدوية هى فى نظرى الرمز إن لم يكن

المنبع لسياسته . وهل ينكر أحد الدور الكبير الذى لعبته الملكة نازلى فى حياة فاروق ، ومن ثم فى تاريخ مصر ؟!

لاشك أن عباس الثانى كان يحسب ألف حساب لأمه أمينه إلهامى - أم المحسنين ، هى التى جنبته الفضائح النسائية وهى التى أرادت أن تنفرد باختيار زوجة له تليق بمقامه ، لم أدرك ذكاءها إلا حين نشر ابنها محمد على ترجمة لبعض رسائلها إلى ابنها عباس وهو يدرس فى سويسرا . تقول له فى إحدى هذه الرسائل :

« وصلتنى صورتك ، وقد لاحظت أن سمانة رجلك غليظة ، وهذا لا يليق بشاب سيتبوأ عرش مصر ، فعليك بممارسة الألعاب الرياضية ليستقيم لك قد رشيق . »

لم يكد يعتلى العرش حتى رمى بنصيحة أمه عرض الحائط ، وأوغل فى النهم عن طبع فى أسرة محمد على ، ولأنه كان يشتكى أيضا من الوحدة فمال إلى البدانة ، وافترسه الصرع .

يقول كومانوس باشا : فى السنة الثالثة من حكم عباس أقيمت فى قصر القبة مأدبة تكريم لمسيوفيليكس فور رئيس مجلس نواب فرنسا ، وكان قد قدم مصر ليقضى الشتاء بها ، وكان لى شرف مرافقته فى نزوله من القصر إلى المدينة فإذا به يوجه إلىَّ لوما شديدا لأنى أترك عباس يتمادى فى النهم ويصل إلى البدانة مما يضر بصحته ، فقلت له معتذراً : لقد بذلت غاية جهدى لحثه على الاعتدال ولكنى فشلت وكيف لى أن أجبر سيد البلاد على خطة لا يريدها ! فقال لى إنه سيحاول نصحه حين يستضيفه مرة أخرى ، وطلب منى أن أشد أزره . ولما خرج من المأدبة الثانية قال لى إننى

صعبت عليه لأنه رأى الخديو لا يأبه لنصح ويأكل بنهم لا يعرف الشبع . »

أمينه إلهامى حريصة على مجد ابنها من أجل أن تختار له زوجة نظرت إلى فوق ، لا إلى جنب أو تحت . فمن جنب ومن تحت تزوج كل خديو قبل ابنها ، إما فتاة من الأسرة لأنها فى أغلب الأمر جارية بيضاء ، أو من جارية بيضاء . أمينة هانم وحدها من أب وأم من الأسرة ، ولكن مطامعها كادت توقع ابنها فى أزمة نجاه منها حسن حظه . سنجد ذكر هذه الأزمة فى رواية كومانوس باشا لزيارة عباس وأمه للخليفة فى استانبول للمرة الثانية سنة ١٨٩٤ ، ولكن ينبغى أن نرجع إلى الوراء قليلا لنمسك بأول الخيط ونشهد عباس الشاب الصغير - خديو مصر - يقضى ليله وحيدا فى حجرة نومه تحت رعاية أمه .

« كان عباس قبل مغادرته القاهرة لاستانبول يعلن لمن حوله ويشكو لى شخصيا أنه ضاق ذرعا بوحدته ، فأبواب الحريم تغلق عليه كل ليلة . . . النسوة الخدم نائمات فى جناح أمه ، وهى لا تأذن لرجل أن يقتحم مأوى ابنها بالليل . إنه لا يجد من يحسن القيام على خدمته . وكان يخرج كل صباح من جناح القصر المخصص له وهو متجهم الوجه محنق متذمر ، وكان يطلب منى أن أتوسط له لدى أمه من أجل أن توفر له طقما من الخدم يتمتع بقسط من الذكاء والحنكة ، وكان يهدد بمغادرة القصر ليسكن فى مكان غيره .

« وكانت أمه تخشى أن تخصص لخدمته بعض الجوارى البيض . إنها لا تريد له أن يهبط - كغيره من أفراد الأسرة إلى هذا المستوى ، ولكنها رضخت أخيرا لغضبه وإلحاحه وعينت لخدمته ثلاثا من الجوارى البيض ،

أراد القدر أن يكون بينهن فتاة مهذبة حسنة الأدب حتى تحسب أنها من سلالـة كريمة .

« نال الخديو بغيته ، وامتلأت عينه ، ولكنه أبدى لى مع ذلك رغبته فى أن أرشح له أميرة من الأسرة تكون فتاة جميلة ليتزوجها ، فرشحت له الأميرة عزيزة بنت الأمير حسن وهى مستوفية لكل الشروط التى يطلبها ، وتزيد عليها بأنها على قسط كبير من العلم والثقافة ، ولكن أمه كانت تغار منها ولا تطيق رؤ يتها ، فرفضت زواجه منها .

« لم تكد أمينه هانم تصل إلى استانبول حتى طلبت الإذن من الخليفة لتخطب لابنها فتاة من أسرة بنى عثمان هى بنت السلطان عبد العزيز فهمى تمت بصلة القرابة للخليفة .

« وقد سر الخليفة لهذا الطلب ولم يتوان فى لحظة نشوته من الإذن بهذا الزواج . ففرحت الأم بهذا النصر فرحا شديدا وطارت مسرعة إلى ابنها لتخبره بالنبأ السعيد ، وأمرت بتزيين قصبرها وإضاءته ثلاثة أيام متتالية .

« ولكن الخديو أسرَّ إلىَّ أنه اغتم غما شديدا لما فعلته أمه بدون علمه وإذنه . ولكنه حرصا على رضاء الخليفة لم ير بداً من التظاهر بـالقبول والسرور وهو يكتم فى نفسه أشد الضيق .

« وبعد قليل طلب منى أن أزور الجارية البيضاء الأثيرة عنـده لأنها تعانى مرضا شديداً . فلما فحصتها لم أجدها إلا حبيبته قد انهارت آمالها وأكلت الغيرة قلبها فلحقها السقم والهزال ، وأصبحت تتمنى المـوت ، وتهدد بالانتحار . » .

أقطع كلام كومانوس باشا لأقول لك إن أمينة هانم نظرت إلى فوق الفوق لا إلى فوق فحسب . فإن أسرة محمد على على رغم أبهتها وأمجادها فى مصر كانت تقبل أن تعامل معاملة التابع فى استانبول . لم يحظ الخديو عباس بشرف الجلوس على يمين الخليفة فى المآدب المقامة تكريما له إلا بعد معارك سياسية طويلة من أجل أن يتزحزح الصدر الأعظم عن مقعد الضيف الأول إلى مقعد الضيف الثانى ، إذ كان الصدر الأعظم أكبر قدرا فى استانبول من الخديو ، وكان هذا الخديو لا يوجه إلى الخليفة كلاما أثناء المأدبة ، بل ينتظر أن يبدأ الخليفة فى الكلام ويقتصد هو فى الرد عليه بأدب ، ولا يجسر أن يرد عليه جالسا ، بل ينبغى له أن يتخلى عن جلسته ، ويقف ، ويحنى رأسه ، فإذا فرغ من إجابته عاد وجلس .

وقبل الخديو عباس الأمر الواقع ، وأخذ يعد العدة لزواجه من أميرة بنى عثمان ، فأخذ يفكر فى اختيار حاشية لها من الجوارى البيض من سوق النخاسة فى استانبول ، وبعث بطبيعة الحال كومانوس باشا ليتولى بنفسه فحص البضاعة قبل الشراء . وكان عباس لا يحب لبائع أن يغشه .

ذهب كومانوس باشا بصحبة مندوب من الخديو عباس لزيارة قصور آل عثمان لاختيار البضاعة ، فوجد فتيات يطمعن فى الزواج لا فى النزول إلى مرتبة الخدم . وكان سعر الجارية يتراوح بين ٢٠ و ٣٠ ألف فرنك . (أى من ألف إلى ألف وخمسمائه جنيه) . وأخيرا استنجد كومانوس بقصر الخليفة فأوفد معه مندوبا لزيارة سوق النخاسة البيضاء .

استعرض كومانوس باشا خلال ٣ ساعات أكثر من ٨٥ جارية فى هذا السوق ، يدخلن إليه ثلاثا ثلاثا للفحص على الفرازة ، وكانت كل واحدة منهن ترجوه أن يقع اختياره عليها .

زواج من أميرة عثمانى ، وشراء جوار بيض تكون لها حاشية تليق بالمقام . . حقا يا عباس قد وقع الفاس فى الراس . ولكن ربك كريم . بعد أيام قدم إلى قصر بيك موكب الغازى مختار باشا بخيله وهيلمانه ، وطلب الزائر العظيم أن يختلى بكومانوس باشا ، وأبلغه أن الخليفة قد سحب أذنه بزواج عباس من قريبته ، وأنه يريد منه أن يتوسط لدى الخديو ليعدل من جانبه عن المضى فى اتمام مراسم الخطبة تمهيدا للزواج . المسألة كلها ينبغى وضعها تحت ماجور ، وإذا طلب عباس الإذن بالسفر من استانبول فلن يسأله الخليفة : متى يكون الزواج إن شاء الله ؟

لم يذكر كومانوس باشا السبب فى عدول الخليفة عن إذنه . قد يكون العدول لأسباب سياسية ، وربما كان لإنجلترا ضلع فى إفساد هذه الزيجة ، ولكن عباس سافر من استانبول وحيدا وهو يقول فى سره : « بركة ياجامع . . » .

ولما عاد إلى مصر أعلن زواجه بالجارية البيضاء التى أضناها مرض الحب فى استانبول . هذه هى إقبال هانم أم أولاده .

ويشهد كومانوس باشا أن أمينة هانم إلهامى قبلت الأمر الواقع وهى مرغمة حزينة ، لأن آمالها فى مجد ابنها كانت أكبر بكثير من حبيبته .

لا شك أن عباس كان يحس فيما بعد أن زوجته جاءته عن طريق الصدفة لا الاختيار ، فأراد أن يتزوج مرة ثانية بإرادته وحده ووفق مزاجه ، ولكنه لم يقع لسوء الحظ إلا على فتاة نمساوية عبرت حياته عبورا سريعا غامضا . من أجل أن يترضى شعبه وينال صفحه عن هذه الزيجة قرر أن يحج إلى بيت الله الحرام .

ولّما طلّق هذه الفتاة النمساوية أصدرت كتابا يتضمن مذكراتها روت فيه أشياء عجيبة وأخرى صبيانية عن عباس ، لعلى أقدم لك فى يوم مقتطفات منه .

(« المساء » ، ١٩٦٥/٦/٧ ، ص ٨)

نور أحمر من مصباح صغير

جعل الحبة قبة ، الرفض على طول الخط ، المسارعة إلى اليأس ، الكلام بلهجة المتعالى البرىء وحده من التقصير الذى ينسبه لغيره ـ أذناى تضجان من سماع هذه النغمة فى كل حديث يدور عن حياتنا العامة ، ومن ضمنها إنتاجنا الأدبى الذى يعنينى هنا فهل ترانى عجزت عن التحرر من هذه النغمة ، إذا قلت لك إننى أخشى أن إنتاجنا الأدبى يبدو الآن كأنه مهدد بموجة من الاستهتار لابد من التصدى لها .

ليس فى يدى مقرعة بل مصباح صغير يضىء بنور أحمر ، لاقضاء بمنع المرور ، بل إشارة إلى أن الطريق يتطلب التنبيه والحذر ، الحذر هنا من التخلى عن الصدق والأمانة ، من غلبة الزيف .. من تسمية الأشياء ووصفها بغير أسمائها وأوصافها .

لا يخلو عصر من إنتاج أدبى زائف ، وأناس أقحموا أنفسهم غرورا على ميدان ليسوا من أهله ، ولكن هذا كله تيار جانبى لا قدرة له على

الجذب والابتلاع ، الاستثناء لا القاعدة . التحذير هنا من أن نراه طاميا عندنا ، يجذب ويبتلع ، أن يكون هو القاعدة لا الاستثناء .

كانت فى أيدينا فى صباى كتب غير قليلة عليها أسماء لمؤلفين نعلم حق العلم أنهم لم يكتبوا فيها حرفا ، بل لعلهم لا يحسنون قراءتها . كتبها لهم غيرهم وكتبوا هم أسماءهم عليها ، للمرحوم مصطفى صادق الرافعى كتاب قرأته على أنه من تأليف رجل آخر ، والمصيبة أنه كان قاضيا ، ثم ارتقى الزيف وتهذب وتحول فى شبابى إلى اكتفاء الناهب بوضع اسمه جنب اسم المنهوب منه ــ لا بعده ، بل قبله ! وقرأنا أيضا صفحات عديدة فى قصص يقال إنها مؤلفة مع أنها مترجمة .

انتهى هذا العبث والحمد لله ، ولكن الزيف اتخذ له صورا أخرى :

كاتب يقتصر عمله على تلخيص كتاب أو كتابين ، ويزعم لك أن الكتاب من وحى فكره ، لأنه لم يترجمه حرفا بحرف .

كاتب يتصدى للترجمة وهو لا يملك لغته فما بالك باللغة التى ينقل عنها .

كاتب يزعم لك أنه بحث ودرس وحقق واستخلص . . فإذا بك تتبين أن الذى فعل ذلك كله رجل غيره ، وسطا هو على ثمرة جهده ونسبها لنفسه . الأمثلة جاهزة عندى ، لا أذكرها فلست أقصد التشهير . . بل إلى التحذير من غلبة الزيف .

جالت هذه الأفكار فى رأسى وبين يدى كتاب أصدرته لجنة نشر المؤلفات التيمورية والاسم الذى يحمله هو « أعلام الفكر فى العصر

الحديث » ــ تلقيته بلهفة وتوقير شديد لأنى لا أعرف رجلا أحبه كما أحب أحمد تيمور . إنه عندى مثل فذ فى عشقه للعلم وجده وإخلاصه لعمله ، وإيمانه بفضائل قومه ، وتحليه بكرم الخلق والتواضع وعفة اللسان .

فمن الزيف الذى أحمل عليه اختيار اللجنة هذا الاسم الخادع لهذا الكتاب الأمين . ولابد لشرح خداع العنوان من الرجوع للوراء ربع قرن ، حين أصدرت الأسرة التيمورية لعميدها كتابا لطيفا صغير الحجم بعنوان «تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر» ، نقلا عن خط المؤلف فى دفتر كبير ناحل الورق من أثر السنين . أربع وعشرون ترجمة لأعيان من مصر ، بعضها جد قصير وواضح أن المؤلف عليه رحمة الله تعالى كان فى سبيل الإعداد والتجميع لكتاب يقتدى فيه بسُنّة أجداده فى التأريخ فى كل عصر لأعلام العصر ، فليس فى الدفتر ذكر لمنهج الكتاب ولا الاسم الذى سيحمله ــ انظر مقدمة الأستاذ الصديق العزيز محمد شوقى أمين للكتاب الجديد ــ ومع ذلك فإن القدر الذى نشر كان أشهى شىء عندى ، لأنه عرفنى لأول مرة بأناس كنت أسمع عنهم ولا أدرى قدرهم فإذا بهم أهل للإجلال والإعزاز كالشيخ حسن الطويل .

ألحقنى الكتاب بالأعلام من جيل الآباء والأجداد ، وانتفعت به كل النفع فى كتابة سيرة محمد تيمور فى « فجر القصة المصرية » . ولولا هذا الكتاب لما فهمت محمد تيمور ، بل لما فهمت أيضا محمود تيمور .

ثم تألفت لجنة لنشر بقية مخطوطات أحمد تيمور ، وعثرت على تراجم أخرى لنخبة من أعلام العرب فى الشرق والغرب ، هى قطعا أضأل قدرا من الجزء الذى نشرته الأسرة التيمورية إن لم تكن أضأل عددا . وواضح

أنها كانت من قبيل المسودات وتجميع المراجع إعدادا للكتاب الذى كان أحمد تيمور ينتوى تأليفه . فماذا فعلت اللجنة ؟

تناولت الكتاب الصغير اللطيف الذى صدق له اسمه وحذفت منه فصولا ، ثم جعلت الباقى صلب الكتاب الجديد ، وأضافت إليه ما عثرت عليه من التراجم ، واختارت للكتاب اسما خادعا هو « أعلام الفكر الإسلامى فى العصر الحديث » .

وكان خليقا باللجنة إن أرادت الصدق أن تعد الكتاب الجديد إعادة طبع للكتاب القديم ، وتضم إليه ملحقا بما جدَّ لها يكون ذيلا للكتاب ، إذ كان من جراء مسلكها أنها حذفت من الكتاب القديم عدة تراجم مثل ترجمة « سلطان باشا » ، و « مصطفى باشا الخازندار » ، و« المغازى أحمد مختار باشا » ، ولا أدرى من الذى أعطاها هذا الحق .

إذا تعللت بأن اسم كتابها الجديد ــ وهو اسم خادع ــ يقتضى هذا الحذف إذ يستعصى وصف المحذوفين بأنهم من أعلام الفكر الإسلامى ، فإنى أسألها من الذى أجبرها على اختيار الاسم الجديد الذى حملها على هذا الحذف .

عنوان خادع مرة أخرى لأننا نستطيع أن نهضم دخول الشيخ أحمد أبى الفرج الدمنهورى فى زمرة أعيان القرن ، ولكن من العسير أن نهضم دخوله فى زمرة « أعلام الفكر الإسلامى » ــ وصفه أحمد تيمور بأنه شاعر وروى لنا نتفا مضحكة من حياته وشعره ، وواضح كل الوضوح أنه من الندماء ، يحتضنه بعض أعيان العصر طلبا للضحك والتسلية ، وهو بعد

ذلك غير معدود فى العير ولا فى النفير ، فكيف نعده من أعلام الفكر الإسلامى ؟

إننا نشكر اللجنة ولاريب على الإضافات التى قدمتها لنا . ولكن هذا الجهد الذى بذلته فى تجميع الشتات المتفرق كان خليقا بها أن تبذله فى إصدار عمل كبير لا يزال ينتظر النشور ، نترقبه بفارغ الصبر ، هو «معجم الألفاظ العامية» .

أعود فأقول إن العنوان خادع لأننا حين نقرأ عبارة «أعلام الفكر الإسلامى» نتوقع أن يكون للمترجم له أثر فى توجيه هذا الفكر الإسلامى أو قيادته ولكن أغلب من جاء ذكره فى الكتاب هم من شيوخ الأزهر كل عملهم أنهم جلسوا إلى تلاميذهم وقرأوا عليهم كتبا فى العلوم الإسلامية . . يتكرر ذكر هذه الكتب بعينها فى كل ترجمة جيلا بعد جيل . بعضهم ليس له مؤلفات ، وبعضهم مؤلفاته لاتخرج عن إعادة عرض للقديم ، يلتزم الحدود الموروثة ولا يتعداها .

عنوان خادع مرة أخرى لأن عبارة « العصر الحديث » مطاطة ، وكان ينبغى تحديد الفترة كما فعلت أسرة تيمور فى الكتاب الصغير اللطيف ، فإنها حددته بأنه عن القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر .

لشيوخ الأزهر الوارد ذكرهم فى هذا الكتاب كل إجلال منى واحترام . لاننكر فضلهم على تلاميذهم ولكن كيف أصفهم بأنهم من أعلام الفكر الإسلامى وأنا أقرأ مثلا عن الشيخ أحمد أبو الفتح (١٢١٧ ـ ١٢٩٤هـ) أنه لم يؤلف إلا كتابا بتبويب الأشباه والنظائر لابن نجيم ، وعن الشيخ محمد الأشمونى (١٢١٨ ـ ١٣٢٠هـ) الذى قرأ المطول وجمع

الجوامع وكتب التفسير والحديث والعقائد لأنه لم يؤلف كتابا ، وإنما كتب عنه بعض تلاميذه تعليقات من قراءاته للعقائد النسفية ومختصر السعد ، وعن الشيخ أحمد الرفاعي (١٢٥٠ ــ ١٣٢٥هـ) أن مؤلفه الوحيد هو شرح لامية الأفعال لابن مالك ، وهكذا وهكذا . .

فعنوان الكتاب فيه إذن شبهة من هذا الاستهتار الذى أشرت إليه إذ يعنيني أن يضاء أمامه مصباح صغير بنور أحمر . . ومع ذلك فإننا نشكر للجنة نشر المؤلفات التيمورية إماطة للثام عن هذا الكتاب المدفون ، فإنه جدير بأن يقرأه كل شاب مثقف ليعلم آباءه وأجداده . . ماذا فعلوا وماذا ينبغي له أن يفعل .

(« المساء » ، ٥/٢/١٩٦٨ ، ص ٤)

* * *

استخلاص الفوائد

من تحت مائة سيرة منفردة متباينة ضمها كتاب « أعلام الفكر الإسلامى فى العصر الحديث » الذى أصدرته لجنة نشر المؤلفات التيمورية ولها جزيل الشكر ــ تندس فوائد كبيرة تستدعى التنبة لها والوقوف عندها منها :

١ - نزعة التحر ر عند علماء الدين كانت تصدر من منبعين الأول هو الاتصال بالثقافة الغربية كما هو الحال مع الشيخ العطار (١١٨٠ - ١٢٥٠هـ) فى مخالطته للفرنسيين فى مصر ، والشيخ محمد عياد الطنطاوى (١٢٢٧ - ١٢٨٠) فى رحلته إلى روسيا (وكان أول من اهتم باللغة العامية والأغانى الشعبية) .

والنبع الثانى هو التصوف لفضله فى فك أغلال الروح وتلطيف الحس وتغليب الفهم على الحفظ ، كما هو الحال مع الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣) والشيخ حسن الطويل (١٢٥١ - ١٣٤٥) . وقد وصف الشيخ محمد عبده أجمل وصف أثر التصوف عليه ، قال (ص ١٤٦) رأيتنى أطير بنفسى فى عالم غير العالم الذى كنت أعهده ، واتسع لى ما كان ضيقا ، وصغر عندى من الدنيا ما كان كبيرا ، وعظم عندى من أمر العرفان والنزوع بالنفس إلى جانب القدس ما كان صغيرا ، وتفرقت عنى هموم النفس إلا هما واحدا هو أن أكون كامل المعرفة ، كامل أدب النفس .

هذا هو الجانب الروحى فى التصوف وهناك جانب آخر أسميه بالجانب الدعائى أى الميل إلى الشهرة بين العامة بالزهد فى خيرات الدنيا ، وقد أوقع هذا الميل ببعض أصحابه فى مواقف أعترف أننى لا أرضاها لهم ، خذ مثلا الشيخ أحمد الحجار الحلبى من أعلام الشام (١١٩٠ - ١٢٧٠) روى عنه « ص ٢٢٥ » أن شيخه نصحه بالسفر إلى دمشق وقال له لا تأكل فيها إلا البصل ، ربما ظن أنه سيقيم فيها أسبوعا أو أسبوعين ، أو على الأكثر شهرا أو شهرين . ولكن اقامته بها امتدت عشرين سنة . . ومع ذلك يقال لنا إنه ظل طول هذه المدة معتكفا على أكل البصل ولم يتناول غيره إداما سوى مرة اشتهى الدسم فأذاب شحما وقلى به بصلا فاعترته الحمى المثلثة ثمانية أشهر ، فأحسن التوبة ، وعاد إلى البصل بقية إقامته بدمشق ، وكان إذا اتفق له حضور وليمة فى تلك المدة يقول لصاحب الدعوة « احضر لى بصلا فإنى لا آكل غيره ، بهذا أمرنى شيخى » .

عفوا إننى كما لا أحب رائحة البصل لا أحب أيضا رائحة هذه الحكاية، لا أستطيع تصديقها ولا أرضى بنسبتها إلى شيخنا ، ينبغى حذف هذا

العبث حين نكتب اليوم سير العاسرين من شيوخنا فإنه يضر بهم ولا ينفعهم .

٢ - من لم يكن مصريا حقا من أساتذة الأزهر فهو فى الأعم من نسل جدود الأزهر من المغرب ، « المدد الشامى اختل » كالشيخ حسن العطار والشيخ محمد الأشمونى (١٢١٨ - ١٣٢١) وحاشاى أن أسند إلى اشتهار المغرب حيئنذ بفنون السحر وفتح الكتاب رغبة فى تتبع شجرة الأسرة للعثور على جد ــ ولو سابع جد ــ هاجر من المغرب ونجد الدليل على شهرة المغرب بالسحر ــ وإن كان دليلا مؤلما ــ فى سيرة الشيخ على الليثى ــ أمير الندماء كما يصفه أحمد تيمور ، فقد اتهم بسبب سفره إلى المغرب بمعرفته الزايرجة والأرقاق ، ولعل هذا كان من أسباب حظوته لدى أم عباس الأول والأمير أحمد باشا رفعت بن إبراهيم باشا الكبير وماذا كسب الشيخ على الليثى من هذه الشهرة ؟ لما تولى سعيد باشا أمر ضابط مصر عبده باشا بجمع من يأكلون أموال الناس بالباطل بهذه الخزعبلات ونفيهم إلى السودان فسيق الشيخ على الليثى معهم لما علق به من هذه التهمة وبقى فى السودان إلى أن جاءه العفو .

٣ - هل شيخ الأزهر قابل للعزل ؟ لأول مرة أقرأ أنه كان غير قابل للعزل . ففى الفصل المخصص للشيخ محمد العباسى المهدى (١٢٤٣ - ١٣١٥هـ) نجد النص التالى (ص ٦٥) : وفى سنة ١٢٨٧ أراد الخديوى إسماعيل عزل الشيخ مصطفى العروسى شيخ الأزهر ، ولكنه خشى الفتنة لأن العزل لم يقع من قبل لأحد من مشايخ الأزهر .

لا أعلم متى تقرر هذا الحق ومتى عدل عنه ، نحن نعلم أن الخديو

عباس عزل الشيخ حسونة النواوى سنة ١٢١٧ وقد كان الخديو دائما فى غنى عن إصدار أمره بعزل شيخ الأزهر ، يكفيه أن يتجهم له وجهه حتى يبادر هو بالاستقالة ، اقرأ هذه القصة الطريفة فى سيرة الشيخ محمد العباسى المهدى الذى كان يجمع بين منصبى مشيخة الأزهر والإفتاء :

« بلغ الخديو أن جماعة من الأعيان والتجار مثل محمد باشا السيوفى وأخيه أحمد باشا يجتمعون للسمر بدار الشيخ فى أغلب الليالى فيتكلمون فى الأمور السياسية ويظهرون أسفهم من وجود الإنجليز بمصر وموافقة الحكومة لهم ، فحنق الخديو وتجهم وجهه للشيخ فى إحدى المقابلات الاعتيادية وقال له وقت الانصراف : ياحضرة الأستاذ ، الأجدر بالإنسان أن يشتغل بأمور نفسه ولا يتدخل فيما لا يعنيه ، فما كان جواب الشيخ إلا أن قال له : إننى ضعفت عن حمل أثقال الأزهر وأرجو أن تعفونى منه ، فقال الخديو : ومن الإفتاء أيضا ؟ فأجاب نعم ومن الإفتاء أيضا » .

ثم يمضى أحمد تيمور فى شرح أسباب أخرى للاستقالة ، كنت لولا ضيق المقام أود نقلها إليك ، لأنها من أصدق ملامح العصر ، فأرجوك أن ترجع إليها أنت بنفسك .

٤ – تعقد شخصية الخديو عباس الأول ، هذا القزم المستبد الطاغية ، الهدام الرجعى المدلل كان يجرؤ وحده على الجلوس وهو صبى فى حضرة جده محمد على وواضعا ساقا فوق ساق ، نعلم عنه مع ذلك من الكتاب (ص ٦٤) أنه يمتلك جميع ما بيد ذرية جده محمد على لأن جده هذا ورد مصر وهو لا يمتلك شيئا ، فكل ما خلفه لذريته أما هو من مال الأمة يجب رده إليها ووضعه بيد أمينها المتولى شئونها .

ما شاء الله ؛ جعل عباس شرعية أمانته مساوية لشرعية التأميم ، ولكن من كان ينتظر صدور هذا الكلام منه ، الكلام عن الأمة وحقها فى استرداد ما غصب منها ونهب ، أحقا أن هذا التركى القح أول من فكر فى القومية العربية والدولة العربية الموحدة فى مواجهة تركيا ؟ حبه للخيول العربية والمرأة البدوية وسكناه الخيام فى الصحراء . هل الحملة عليه مصدرها الأجانب الأفاقين الذين طردهم بعد أن رأى فرط جده فى الحفاوة بهم وفتح جميع الأبواب لنهبهم وسلبهم وخداعهم ؟

هذا هو الشأن أيضا مع الخليفة عبد الحميد فالذين أطلقوا عليه لقب « السلطان الأحمر » ونسبوا إليه أبشع الجرائم هم الصهاينة الذين رفض مطالبهم فى الاستيلاء على فلسطين ولا يقل سعيد باشا تعقدا عن عباس الأول ، فهو أيضا أول من قال : أنا مصرى واحتضن الفلاحين ، وهو المستبد السفيه الذى أسلم ذقنه لديلسبس. لا يزال فى تاريخنا الحديث جوانب كثيرة تنتظر الدراسة .

٥ - فى الكتاب ذكر لمؤلفات عديدة قيمة ، مدفونة إلى اليوم ، وما أحق الدار القومية للنشر بتوجيه الاهتمام إليها لنشرها ، فمن غيرها يتولى بعث ذخائر تراثنا . أكتفى بذكر مؤلفات عبد الحميد نافع . فنحن نعلم من الكتاب أنه ترك رسالة عن دراسة الموسيقى (لم يذكر أحمد تيمور أين مآلها) وكتابا بعنوان « تاريخ أعيان القرن الثالث عشر وبعض الثانى عشر » بيع لما بيعت كتبه ، وهو موجود الآن فى ليدن بهولندا ، كما جمع ديوان صاحبه صفوت أفندى الساعاتى مختصرا.كم أتمنى أن تعثر الدار القومية على هذه الكتب لتفحصها وإن رأتها ذات قيمة نشرتها .

وبعـد فلابـد من الاعتـراف ــ مـع الأسف ــ بـأن صـورة الفكـر الإسلامى فى ذلك العهد كما يعكسها كتاب أحمد تيمور هى صورة قاتمة محزنة ، هى صورة الجمود والتخلف ودعوة الشيخ حسن العطار لإصلاح الأزهر ، بدت كأنها صرخة فى واد ، حتى إلى عهد الشيخ حسونة النواوى فقد ثار عليه قرناؤه لأنه يؤيد تدريس الجغرافيا والحساب والجبر والهندسة بدعوى أنها علوم مستحدثة فيقول أحمد تيمور «وما هى إلا علوم اشتغل بها المسلمون وألفوا فيها » .

كم أتمنى أن يعكف كل مثقف على قراءة هذا الكتاب ، سيشم فيه رائحة مصر وشقيقاتها من البلاد العربية جزى الله لجنة نشر المؤلفات خير الجزاء .

(« المساء » ١٢/٢/١٩٦٨ ، ص ٤)

أطالب بعودة مغترب عزيز

الأرض - كل الأرض - بطنها سواء ؛ هنا أو هناك : ما الفرق ؟ التراب هو هو ، طاهر أينما كان ، ورعية محمد أمة واحدة ، والإسلام يكره قلقلة الميت عن لحده ، ومع ذلك لا أخشى أن يكون مطلبى بدعة معانقة للضلالة ؛ ماذا أفعل وأنا وريث حضارة تحتضن فيها كل قرية قبورها قبل أن تحتضن منازلها ، لا بد أن يكون الدفن حيث مسقط الرأس ، أشق الغربة غرْبة الرفات لا غربة الأحياء ، بل القبر أكثر دواما وأعلى قدرا من المسكن ؛ أغنى أثاثا وبهاء ، ماذا أفعل وأنا هذه الفلاحة التى كان قبر أعزائها فى القرافة فى أرض خلاء يتيما منفردا بارزا للعيون ، ثم تكدست القبور من حوله حتى ضاع بينها ؛ لا علامة له تميزه ، وما من درب يؤدى إليه . ومع ذلك إذا غممت بعصابة عينيها وهى مشرفة على القرافة مع الصبح فى كل عيد ، قادمة من قرية البساتين على ظهر حمارها ، لسارت وهى عمياء إلى القبر ، بلا تفحص من قدم أو يد ؛ غير مترددة ولا حائرة أتراها تشم رائحته من بعيد فقادتها أنفها بدل عينها ؟ ثم تنزل وتجلس وتفرش منديلها الأحمر وتخرج خوصها وريحانها

وتضعهما على القبر ، وخبزها وتمرها وتوزعهما على المساكين ، حينئذ صح عندها العيد وتحايا المباركين . ماذا أفعل وأنا أحب من كل قلبى هذا الرجل الذى أجىء اليوم مطالبا بقلقلته عن مثواه وإن كان فى دار شقيقة من دور الإسلام ، لتؤوب الينا وإلى أرض الوطن رفاته . لا أذكره إلا تصورته متململا فى قبره ، يئن من لواعج الغربة أنين الثكلى ، هواء البسفور يتراوح على مرقده ، ولكن هيهات ! إنما شوقه لهواء البحر عند رأس التين فى الاسكندرية ، مسقط رأسه ، قبره قطعة من أرض الأناضول إن انفرد منها لواء الإسلام على شعوب كثيرة فى آسيا وأوروبا فهى سلاسل جبال متجهمة من حمم بركان وفعل زلازل ، واللسان فيها رطانة وبربرة . إنه يريد - كما كان ظنه وأمله - قطعة من أرض الوطن، أرض الوداعة وبناء الحضارة راقا فوق راق متمثلا فى طمى دلتا النيل التى ذرعها طولا وعرضا ، خالط فيها الفلاحين والأعيان ، أدباء المندرة وأدباتية السامر والموالد ظهر فيها وتخفى ؛ أمرد وبعمامة خضراء مرة ، ملتح وبعمامة سوداء مرة ؛ امتلأت فيها أذناه بلغة الشعب الساحرة ، بحكمتها ودعابتها ، خبر فيها مروءة هذا الشعب الذى وهبه هو كل حبه وإعزازه ، وشارك وقاد جهاده من أجل التحرر ؛ فى ميدان السلم وميدان الحرب ، أرقه ظلم الأيام لهذا الشعب ، فأراد أن يأخذ بيده ، وضع له الخطط الكفيلة برقيه وسعادته ، وحلم له أجمل الأحلام .

إننى أطالب بعودة رفات عبد الله نديم من مقبرة يحيى أفندى فى حى بشكطاش باستانبول إلى ضريح يقام له فى أجمل عمارة فى حى رأس التين بالإسكندرية أطالب بأن يعود إلينا هذا المغترب العزيز ، لقد سبق لنا أن استرجعنا رفات محمد فريد ؛ ورفات مصطفى الوكيل ، فلماذا نقعد عن استرداد رفات عبد الله النديم ؟ لقد استرجعت أفغانستان رفات جمال

الدين ، فهل نحن أقل منها عرفانا بالجميل وأكثر منها تفريطا فى حق المجاهدين ؟

لست أدرى لمن أتقدم بهذا الطلب . لعل الدكتور ثروت عكاشه وزير الثقافة هو أول من أؤمل فيه احتضان هذه الفكرة ، فهو قادر على أن يجعل الاحتفال بعودة المغترب مصحوبا بإعادة طبع مؤلفات عبد الله النديم ليكون نشرها نشورا لصاحبها سابقا لنشوره بين يدى ربه ، لقد تكفل فرد واحد من تجار طنطا بنفقة استرجاع رفات محمد فريد ولم تزد عن ٢٠٠ جنيه فيما أذكر فهل أطمع فى جهود المثقفين من أبناء الاسكندرية أن يؤلفوا جمعية تساند الدكتور ثروت عكاشه ببذل الجهد والدعاية ـ وبذل بعض المال أيضا ـ للترويج لهذه الفكرة وإخراجها إلى حيز التنفيذ ؟ نريد أن يقام فى مدينتهم لعبد الله النديم ضريح فى أجمل عمارة ينتهى عنده مطاف هذا المغترب العزيز.ومن حسن الحظ أن علاقاتنا قد تحسنت أخيرا مع تركيا ولا أظنها إلا مساعدة فى تحقيق هذه الرغبة .

لا تزال مدافن أعلام الشعب مبعثرة عندنا ، لا يضمها ضريح واحد كما هو الحال فى بعض البلاد المتحضرة فيكون مزارا يقود الأب إليه ابنه الصبى ليقرأ معه الأسماء ويتذكر الأمجاد ويهتدى بالمثل؛ ولكن لا بأس ، لعلنا نحسن صنعا ، فمن الصعب قياس الزمن الذى ينفلت بعده الراحل عن تضارب الآراء حوله ، عن تصارع المودات والحزازات ، كما هو شأن الدنيا وعالم الأحياء ، ولا تزال فى ذاكرتى قصة طريفة بطلها قزم ضئيل هو « دلفوس » مستشار حكومة النمسا قبيل الحرب العالمية الثانية. ، فقد اغتالته شيعة النازية وهو فى مبنى المستشارية وتركته ينزف حتى مات . وأحبطت المؤامرة وأعدم القتلة . فدفن دلفوس فى الكنيسة الكبرى وأقيم له فوق قبره تمثال . أما جثث القتلة فألقى بها فى الحفرة العامة التى تخصص للمجرمين ، وما هى إلا أيام

قلائل حتى سقطت النمسا كلها فى قبضة النازية ، وإذا بتمثال « دلفوس » تحطمه المعاول وينقل رفاته إلى مقبرة المجرمين وإذا بجثث المجرمين تنقل لتدفن فى الكنيسة ، ويقام لهم فوق القبورتماثيل ، عليها أسماؤهم مكتوبة بالذهب !

لست أدرى اليوم أين قبر « دلفوس » وأين قبر قتلته !

(« التعاون » ، العدد ٣٦٠ ، ١٩٦٨/٢/١١ ، ص ٩ ، ١٠)

فى مثل هذه الأيام . . منذ ستين عاما !

وبالتحديد فى ٨ إبريل سنة ١٩٠٤ كان لورد لاندسون وزير خارجية إنجلترا يستقبل فى مكتبه مسيو بول كاميون سفير فرنسا فى لندن . النار مشتعلة فى المدفأة لأن الجو عاصف ، ترتج النوافذ المغلقة بهدير الرعد فيخيل إليهما أنه قادم من برلين . هذا هو صوت الأخ القاصر المحروم قد بلغ رشده وكشف عن عضلاته وفتل شاربا وقف عليه نسر جاء يطالب بحقه فى الميراث من يد أخويه الكبيرين اللذين نهبا التركة وأكلا خيراتها إلى حد التخمة . وقلّما يستطيع لصان الاتفاق على تقسيم المسروقات كل لشدة طمعه ودهائه يود أن يكوّش على اللحم ويرمى بالعظم والشغت ليلتهى بها زميله . ما دام الغدر شيمته وسلاحه فكيف لا يغدر بشريكه . كل منهما يزعم أنه عادل فى القسمة ، بل إنه خرج منها بصفقة المغبون ، فما بالك إذا كان بين اللصين ـ إنجلترا وفرنسا ـ عداء قديم نزف فيه كل منهما دمه ، بل كان التاريخ يشهد ألا عدو لفرنسا إلا إنجلترا

آخر معركة حين حاول نابليون خنق رقبة إنجلترا فسحقت له رأسه فى أبو قير وواترلو ، ثم تسابق الاثنان فى نهب خيرات آسيا وإفريقيا دون أن تنقطع

بينهما ملاحاة فى تبادل المقالب والترضيات . إذا كانت إنجلترا قد طردت فرنسا بالأمس من الهند وكندا ، فإنها هى التى أصبحت تحثها على غزو تونس بعد الجزائر ، ثم على غزو مراكش ، ثم تلف من وراء ظهرها لتلتهم وحدها وادى النيل كله لتصل بين القاهرة والكاب . ولكن فرنسا تعتقد أن مصر هى غرس يدها فلا تغتفر لإنجلترا أنها سرقت هذه الدرة الثمينة من جيبها .

وكان نهب انجلترا وفرنسا لمعظم خيرات آسيا وإفريقيا قد أوشك أن يتم والشعب الألمانى لا يزال مشتتا يجاهد فى تكوين وحدته ، إلى جانب قدرته الهائلة على النظام والطاعة والإنتاج ، إلى جانب نبوغه فى العلوم والفلسفة والموسيقى ، فإنه لسوء الحظ مصاب بعقد نفسية جعلت قدره أكبر مأساة خيمت على العالم المتحضر فى العصر الحديث ، فهو مفتون بخطوة الأوزة والزى العسكرى ، مجنون بعظمته ، ألمانيا فوق الجميع .

لم يكن من فلتات التاريخ أن يصطدم الشعب الألمانى باليهود ، لأنهم مثله مصابون بجنون العظمة . من سوء حظه أنه كان لابد له أن ينتزع بالقوة حقه فى الوحدة من الذين يخشونها من جيرانه ، ولكن أين يكون الاحتفال ؟

ليس فى برلين كما كان ينبغى ، بل فى قصر فرساى فى باريس التى جثت على ركبتيها . الاعتراف بالوحدة لا يكفى ، بل لا بد لبسمرك أن يقتطع من فرنسا إقليم الألزاس . لا بأس ، ولكن معه أيضا إقليم اللورين تأمينا لسلامة ألمانيا

أناس كثيرون تتبدل بين عشية وضحاها جنسيتهم وأعلامهم ولغتهم وقوانينهم دون أن يؤخذ رأيهم ، كأنهم قطيع من الأغنام .

وارتكب بسمرك غلطة أخرى ، ظن أنه سيصرف فرنسا عن رغبتها فى

الانتقام بحثه لها على التوسع الإستعمارى فى شمال إفريقيا . لم أر أحدا كفرنسا يأكل بدعوة من خصميه اللدودين ، لو وقف الطعام فى زورها لخبطت إنجلترا أو ألمانيا على ظهرها ليسهل لها الابتلاع ، ومع ذلك فإن فرنسا تشكو لطوب الأرض أنها مظلومة . .

ولعل هذه الغلطة من بسمارك ثم رفضه رؤ ية نشوء أحزاب اليسار فى ألمانيا من أهم الأسباب التى حدت بالشاب المتعافى غليوم الثانى بمجرد أن تولى العرش إلى عزل مستشاره الشيخ الأمين ، فكانت آخر وصية لهذا السياسى المجرب هى قوله لامبراطوره أن لا تحارب ألمانيا أبدا فى جبهتين ، أى مع فرنسا وروسيا فى وقت واحد . نصيحة لقيت من غليوم إغفالا أودى به وبالألزاس واللورين وكل مستعمرات ألمانيا ، وأحالها إلى خرائب وأطلال .

هذه هى مأساة قدر شعب ألمانيا ، أن يتلقى فى فترة وجيزة وعلى أم رأسه خبطتين مدمرتين وفى ظنه أنه لم يكن يطالب إلا بحقه فى الوحدة ونقاء العنصر واحتلال المكانة الجديرة به فى العالم ، وستظل ألمانيا بؤ رة التوتر الدولى لأن مشكلتها باقية دون حل يكون فيه شفاؤ ها من جنون العظمة وشفاء جيرانها من خوفهم منها .

وبعد أن تخلى غليوم الثانى عن بسمارك أراد أن يدخل فى السباق الاستعمارى لأنه يريد هو أيضا بلادا ينهب موادها الأولية ويبيعها وحده فائض إنتاجه المتزايد . إنه لا يصدق قول إنجلترا وفرنسا إن التجارة حرة والأسواق مفتوحة لأنه يعلم أن تجارته ستظل مرهونة بمشيئتهما لا بمشيئته . إنه يريد تطبيق المبدأ الذى يسيران هما عليه : لا تجارة إلا فى ظل العلم المحتل . وأخذ يخطط مشروعه « برلين ـ بغداد » ، ويعاكس فرنسا فى مراكش ، وإنجلترا فى الترنسفال . وقف لهما كالعفريت فى كل خرابة ، وعلم أنه لن ينال شيئا إلا إذا

كانت له قوة يهدد على الأقل باستخدامها ، إن لم يكن ينوى الاعتداء حقا .

ولو أنه ركز اهتمامه على تقوية جيشه لما أسرع خطوه إلى الهاوية ، ولكنه ارتكب غلطة جسيمة ببناء أسطول ضخم يهدد سيطرة إنجلترا على البحار . تقبل إنجلترا كل شىء إلا هذا . إنها سيدة المحيطات والبحار ، فى يدهـا البواغيز والمضايق ، لها الإشراف على كل الأساطيـل التجاريـة ، من أكبر مواردها غير المنظورة دخلها من التأمين البحرى . إذا انكسر أسطولها تساقطت مستعمراتها من يدها ، بل جاعت الجزيرة البريطانية ذاتها .

إنها تترك كل أسد فى أوروبا يكسر قفصه لأنه سيخرج منـه إلى قفص أكبر ، أما الطامة الكبرى فهى أن يهدد سيطرتها على البحار ، فبفضل هذه السيطرة تهزم كل عدو . وهى لا تدخل أبدا فى حرب إلا إذا وجدت لها حليفا فى أوروبا يكون له جيش كبير يتلقى الصدمة ، وأن تجمع بدهائها بين عون الصهيونية العالمية والكنيسـة الكاثـوليكية ، وأن تضمن أيضـا أن الترسـانة الأمريكية لن تتخلى عنها .

أما فرنسا فكانت لا تزال تبكى على الألزاس واللورين ، وتريد أن تغسل عار هزيمتها فى حرب سنة ١٨٧٠ .

وهكـذا التقت مصلحة الخصمـين . اللدودين : فـرنسـا وإنجلتـرا . وسعت فرنسا أيضا أن تمهد للتفاهم بين إنجلتـرا وروسيا – وهمـا أيضا عدوان قديمان – من أجل أن تحارب ألمانيا فى جبهتين إذا وقع الاصطدام . وكان لابد لفرنسا وإنجلترا أن يتم بينهما الاتفاق على تسـوية الخـلافات الثانوية الناجمة عن تنازعهما على المستعمرات .

من أجل هذا اجتمع اللورد لاندسون ومسيو كاميون فى لندن يوم ١٨ إبريل سنة ١٩٠٤ ، فى يد كل منهما قلم أحمر لرسم دوائر النفوذ ، نشرا بين

أيديهما خريطتي آسيا وإفريقيا ، سبحانهما ما لكى الملك ، وقال أحدهما للآخر : هذه لك وهذه لى . . صافى يا لبن .

وهكذا تم التوقيع على الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا - وكان من شروطه أن تبارك فرنسا لانجلترا احتلالها لمصر ، وتبارك إنجلترا لفرنسا احتلالها لمراكش .

وإذا انتزعنا هذه الفقرة من بقية الاتفاق وأردنا أن نعرف لمن رجحت الكفة فيها لما جاوزنا الصواب إذا حكمنا بأن فرنسا كانت هى الرابحة . فمراكش بلاد شاسعة ثمينة الموارد جبلية تسمح باعتصام الثائرين فى مواقع منيعة ، شواطئها ممتدة تتيح للأسطول البريطانى تهريب الأسلحة بسهولة . نظام وراثة العرش غير مستتب ، فمن اليسير إحداث القلاقل بتأليب أمير على صاحب العرش . الثارات بين القبائل لا تنقطع . وهناك أيضا أسبانيا التى تحتل جزءا من مراكش قد تدفعها بريطانيا للمشاكسة بالتنازع على الحدود . كل هذه الأخطار زالت عن فرنسا وبلعت مراكش لقمة سائغة وجندت من أهلها جيشا كبيرا .

ومع ذلك فلم أقرأ كتابا إنجليزيا واحدا يتحسر فيه المؤلف على تسليم إنجلترا بسيطرة فرنسا على مراكش . ولم أقرأ كتابا فرنسيا واحدا - حتى ولو كان صادرا اليوم - إلا وجدته يلطم الخدود ويقيم مناحة لأن فرنسا اعترفت سنة ١٩٠٤ بسيطرة إنجلترا على مصر .

لم تكف فرنسا إلى اليوم عن البكاء على ضياع مصر من يدها كما تزعم . إنها لا تنسى أن محمد على هو رضيعها ، وأن مصر الحديثة هى غرس يديها ، وأنها حكمت مصر حكما ثنائيا فى فترة أيام الخديو إسماعيل ، وأن احتلال

مدارسها منتشرة لا يتعلم فيها التلاميذ إلا تاريخ فرنسا وجغرافيتها ، ليس لوزارة المعارف أى إشراف عليها . بعثاتها التبشيرية متغلغلة حتى أقصى الصعيد ، بل احتفظت فرنسا فى اتفاق سنة ١٩٠٤ باحتكار بعض الوظائف الرئيسية فى الحكومة المصرية مثل منصب مدير الآثار . . فعلى أى شىء تبكى فرنسا ؟

إذا دققنا النظر فى الاحتلال البريطانى وجدناه فى حقيقة الأمر يخفى تدويلا لمصر ، لأن موقعها الجغرافى من الخطر وشدة التأثير على التوازن الدولى بحيث منع انجلترا من ضمها لأملاكها وإخضاعها للنظم والقوانين الإنجليزية ، وقد ظهر هذا الميل إلى التدويل فى مشروع مستر برونيات قبيل ثورة سنة ١٩١٩ ، فقد كان يقضى بانشاء مجلس للشيوخ يدخله ممثلون للأجانب المقيمين فى مصر . هذا هو النظام الذى تريد أوربا أن تفرضه اليوم على بعض المستعمرات الإفريقية حين تعترف لها اسميا باستقلالها .

وهنا يعود ذهنى إلى مشروع التدويل الذى قدمه الجنرال يعقوب لدول أوربا بعد انتهاء حملة نابليون ، لعله هو الذى رسم سياسة انجلترا فى مصر.

وإذا رجعنا إلى المجلات الأدبية التى ظهرت فى شهر إبريل سنة ١٩٠٤ وجدناها منشغلة بالاحتفاء بظهور ترجمة البستانى شعرا لإلياذة هوميروس . ومع ذلك فإن الرأى العام فى مصر استفاق يوم توقيع هذا الاتفاق الودى فى حلم كان يجد فيه بعض الأمل فى الخلاص من ربقة الاحتلال البريطانى . وسأحدثك عن هذه النقطة فى المقال التالى .

(« المساء » ١٣/٤/١٩٦٤ ، ص ٨)

مصر كان مدبرا على أن يكون احتلالا ثنائيا أيضاً لولا تردد مسيو فريزييه وزير خارجيتها عندئذ . . فرنسا تتردد وتترك الفرصة تفلت من يدها ثم تلطم الخدود وتتهم انجلترا بأنها مكرت وغدرت بها .

لقد سبق لفرنسا أن ترددت فضاعت من يدها صفقة عظيمة . فحين فكر اسماعيل فى بيع حصة مصر فى شركة قناة السويس اتجه أول الأمر إلى فرنسا ، ولكنها ترددت فإذا بالصفقة العظيمة يخطفها دزرائيلى بعون من روتشيلد عميد الصهيونية العالمية وأحد مؤسسى إسرائيل . ولم تنس فرنسا أيضا أنها وصلت إلى ما توده .

والحقيقة أن فرنسا لم تتنازل عن شىء فى مصر سنة ١٩٠٤ إلا طمعا فى أن يرتفع عليها العلم المثلث الألوان إلى جانب العلم البريطانى . أما دون ذلك فإن الإتفاق لم يمس بحقوقها أقل مساس . فمصر سداح مداح لا تحت أقدام فرنسا وحدها بل تحت أقدام كل الدول صاحبة الامتيازات الأجنبية .

دخول مباح بلا شروط أو قيد ، حتى لكل بلطجى وقواد وتاجر مخدرات ورقيق أبيض . كلهم يجدون فى مصر نعم الملجأ والمأمن . استثمار للأموال تحت ظل المحاكم المختلطة دون دفع مليم واحد لخزانة البلد الذى ينهبون خيراته ، بل إن تصدير الأرباح مباح ومتبع . لا عجب أن تولى الرأسمال الأجنبى خنق أنفاس الرأسمال الوطنى . الفلاح غارق لذقنه فى ديون أرباح الربا ، وأرض مصر تكاد أن تكون مرهونة فى البنوك الأجنبية .

كانت فرنسا تشارك فى هذا النهب ، يكاد يكون لها نصيب الأسد . هذا هو مسيو ليبون يحتكر الكهرباء ، ولفرنسا دون بقية الدول سلطان فى المحاكم المختلطة وفى صندوق الدين . لغتها هى الغالبة وثقافتها هى المتسلطة ،

ذكريات . . بين حلوة ومرة

فى مثل هذه الأيام منذ ستين عاما (وبالتحديد فى ٨ إبريل سنة ١٩٠٤) تم القبول والتراضى بين إنجلترا وفرنسا على عقد « الاتفاق الودى » الذى يوحى ظاهره بأنه مقاصة تجارية تفض ما بينهما من حزازات بسبب تنافسهما على نهب آسيا وإفريقيا ، أما باطنه فيضمر تأليف جبهه واحدة من الدولتين لمواجهة ألمانيا فى أوربا . . . فسياسة إنجلترا تهدف دائما إلى إقامة توازن بين القوى فى أوروبا للحيلولة دون أن تنفرد دوله فيها . . ولو كانت صديقة . . بفرض سيطرتها ، ففى هذا التوازن ضمان ببقاء الجزر البريطانية فى معزل ومأمن من القارة (لعل دول السوق الأوروبية اليو م لاتنسى لإنجلترا هده السياسة) فلا بأس لدى إنجلترا أن يصبح عدوها بالأمس حبيبا لها بعد هزيمته ليحد من نفوذ حليفها الذى خرج معها من الحرب منتصرا . وهكذا جمعت إنجلترا بمهارة بين متناقضين فى قولها عن أوربا ـــ أنا فيها وأنا لست فيها .

هذا التوازن فى القوى ، فهى ترمى إلى بسط نفوذها جنوبا (النمسا ـ البلقان ـ إلى تركيا حتى بغداد) ثم شرقا فهى من قديم تحلم بحقول أوكرانيا ، وزاد الطين بلة على رأس إنجلترا أن ألمانيا جاهرت أيضا برغبتها فى أن تكون لديها مستعمرات فى إفريقيا ـ يحميها أسطول ضخم . .

كان لابد لإنجلترا أن تقول لها : « قفى عند حدك » ، وكان هذا ما تريده فرنسا أيضا ، وتزيد عليه رغبتها فى استرداد الألزاس واللورين .
والتقاء المصلحتين بين فرنسا وإنجلترا جعل خلافاتهما على بعض الفتافيت المتساقطة من مائدة الاستعمار تبدو تافهة وسخيفة ، يتعارك عليها كلاب الأسياد ، لا الأسياد أنفسهم : فلم يكن من العسير عليهما فض هذه الخلافات لتفرغ كل منهما إلى مواجهة تفاقم الخطر فى أوروبا.

لم تهتم مصر يومئذ ـ وهى معذورة ـ بتقصى الدوافع الحقيقية لهذا الاتفاق ، إنما هالها أن ترى فقرة من فقراته العديدة تقضى بأن تبارك إنجلترا لفرنسا احتلالها لمراكش مقابل أن تبارك فرنسا لإنجلترا احتلالها لوادى النيل كله . وقد حسبت مصر حينئذ أن الاتفاق لم يعقد إلا لغرض واحد هو تثبيت الاحتلال البريطانى وهدم كل أمل فى الجلاء والاستقلال .
(وإغفال الإحاطة بالموقف ودراسته كان يعيب فى بعض الأحيان سياسة مصر فى الماضى ولم تبرأ منه إلا بعد ثورة ١٩٥٢ كما سأبين لك فيما بعد) .

والسبب فى أن مصر قد هالها هذا الاتفاق هو أن قادتها حينئذ كانوا يتطلعون إلى باريس لتقف معهم ضد لندن . فالاحتلال قد جثم على صدر مصر ، يوهمها هو وأنصاره أنها لاتستطيع الخلاص منه بمجهودها وحده. وصحيفة « المقطم » تلح فى إفهام المصريين أن صفة « العظمى » اللاحقة

بكلمة بريطانيا لا تعنى تفريقها فى الحجم عن مقاطعة بريطانيا الفرنسية ، بل تعنى أنها أعظم دولة فى العالم ، وربما كانت كذلك حينئذ ولكن لا بدلالة الاسم .

انبعث صوت مصر يطلب النجدة ، تلفتت حولها تبحث عن معين ، الباب العالى حيطة مايلة . ليس فى أوروبا دولة تعنى بمصر أو ترضى من أجلها بمعاداة إنجلترا . أما فرنسا فانفردت بأنها لم تغتفر قط لإنجلترا أنها سرقت مصر من جيبها ، لأنها تؤمن أن محمد على هو رضيعها ، وأن مصر الحديثة غرس يديها. لذلك بصبصت لمصر على مرأى من إنجلترا أو من وراء ظهرها ، فظن قادة مصر أن فرنسا مستعدة لأن تعارك هذا البلطجى الذى يستحوذ على بلدهم ، أو أنها على الأقل قادرة على أن تقض مضجعه بإلقاء الطوب على النوافذ ، فيظل بقاؤه مقلقلا .

وغرق قادة مصر فى أحلام اليقظة ، وبالغوا فى تقدير أهمية سياسة وخز الإبر التى اتبعتها فرنسا مع إنجلترا فى مصر ، وفتحوا قلوبهم وبيوتهم لبعض الفرسان الهلافيت من أبناء فرنسا الذين وجدوا فى الدفاع عن مصر بالكلام وسيلة سهلة لإشباع رغبتهم فى إلقاء الخطب الرنانة فى المآدب الحافلة التى تقام تكريما لهم .

النائب الفرنسى دونكل (شىء فى صدرى يهمس لى بأنه يهودى — والله أعلم) زار مصر سنة ١٨٩٥ ، فاستقبلته بالأحضان كأنه الغيث بعد الجدب .

بلغ أمل مصر فى فرنسا ذروته فى تلك السنة حينما أعد « اللواء » مصطفى كامل صورة كارت بوستال تمثل مصر فتاة مقيدة بالأغلال ،

بجانبها الأسد البريطاني وجندي إنجليزي يعتمد على سيفه ، وفرنسا ــ في هيئة الفتاة ماريان ــ جالسة على عرش ، جميلة حلوة ، تستقبل وفدا من المصريين على رأسه « اللواء » نفسه ، وتحت الصورة بالعربية والفرنسية شعر من نظم مصطفى كامل يقول . .

« أفرنسا يامن رفعت البلايا
عن شعوب تهزها ذكراك
انصرى مصر إن مصر بسوء
واحفظى من مهاوى الهلاك
وانشرى فى الورى الحقائق حتى
تجتلى الخير أمة تهواك »

وذهب اللواء ومعه ستة من المصريين المقيمين بباريس . لم يذكر لنا أستاذنا عبد الرحمن الرافعي من هم ــ مع الأسف ــ وقدم هذه الصورة لمسيو بريسون رئيس مجلس النواب الفرنسي ، فأبدى عطفه على الأماني القومية المصرية . ووزعت من هذه الصورة آلاف من النسخ ، وعلى جميع صحف العالم .

ولعلك تسأل ــ ما هى البلاد التى حررتها فرنسا ؟ لا شك أن اللواء كان يقصد معاونتها لليونان وبلجيكا على نيل استقلالها ، وعونها من قبل على تحريك الوحدة الإيطالية أيام نابوليون ، ولكن اللواء نسى أن هذه البلاد تقع فى أوروبا ، أما مصر فتقع فى إفريقيا . وفرق بين أوروبا وإفريقيا ، حتى فى نظر القانون الدولى الذى يوهم بأنه يسرى على الجميع . (وبيان الخلاف سيأتى فيما بعد) ، ونسى أيضا احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٨٣٠ ، وإعداد العدة لاحتلال مراكش من بعدها .

أبعد شيء عن ذهني أن أتهم اللواء بالسذاجة أو الغفلة . أرجو من كل من يتعرض لسيرته أن لا ينسى أنه مات في سن الرابعة والثلاثين ، بل إني أعتقد أن اللواء كان أكثر قادة مصر حينئذ إدراكا للموقف الدولي . لما عاد من فرنسا بعد إتمام دراسته حمل معه عدة مؤلفات عن القانون الدولي والمسألة الشرقية وتاريخ القضية المصرية . وعكف في بيته يدرسها إلى أن فرغ منها .

كان يعتبر نفسه محاميا موكلا في قضية فلا بد من الاطلاع على كافة المستندات ليحسن مرافعته . وهو وحده الذي ألّف الكتب عن المسألة الشرقية . هو أكثر قادة مصر تجوالا في أوروبا وزيارة لعواصمها ومقابلة لزعمائها واتصالا بصحافتها ، بل قد يقال إن إقامته في أوروبا أيام الجهاد زادت عن إقامته في مصر .

من الحماقة والظلم أن نطالبه بأكثر مما فعل ، أن نطالبه مثلا بالانتباه إلى أن أغلب مؤيديه كانوا من أحزاب اليسار (كما حدث في إيطاليا) فكان من الخير لو أنه ركز بعض اهتمامه على هذه الأحزاب ، وعرّف أهل بلده بكيانها ونموها ، ووثّق صلته بها ، أو الانتباه إلى أن بعض مؤيديه (كما حدث له في زيارة ألمانيا) كانوا يرمون لا إلى استقلال مصر بل إلى تدويلها تحت وصاية الدول الأوروبية مجتمعة ، أو أن نطالبه وهو يشيد لأبناء أمته بجهاد أيرلندا أن يحاول إيجاد صلة بين حركة التحرر في البلدين .

لم يكن اللواء إذن غافلا عن أن فرنسا لن تحارب إنجلترا من أجل مصر . إنه كان على علم بعناصر الموقف الدولي وتوازن القوى في أوروبا . لم يكن غرضه من تقديم هذه الصورة لرئيس مجلس نواب فرنسا إلا محاولة

لإخراج النزاع من ثنائية (مصر ــ إنجلترا) ليصبح قضية دولية تقيد فى جدول أعمال كل مؤتمر دولى يعقد لغرض من الأغراض من أجل هذا قال كلمته الشهيرة « كرماء لضيوفنا » ورضى ببقاء الامتيازات الأجنبيـة وإن طالب بأن يشمل اختصاصها الحكم فى القضايا الجنائية .

اللواء إذن غير مخدوع . هل تريد الدليل ؟ انظر إليه يكتب من برلين إلى محمـد فريـد (فى ٤ - ٩ - ١٨٩٨) : « كلما زرت عـواصم أوروبـا ازددت اعتقادا بأن الأمر بيدنا . . وإنى لأحس بكآبة . . » وانظر إليه يقول لمحرر صحيفة « لاكلير » الفرنسية (فى ٢٩ - ٧ - ١٩٠١) : « كلا إننا لم نيأس ، ولن نيأس أبدا من مستقبل الوطن العزيز فإننا نعلم علم اليقين أن مصر مقبرة للأمم الطاغية . ولكننا إذا كنا غير يائسين من مستقبل بلادنا فإننا يائسون كل اليأس من أى تعضيد يأتينا من أوروبا » .

وغير مخدوع أيضا الداهية الماكر الأرقم عباس حلمى الثانى . إنه يؤ يد مصطفى كامل فى طرقه لأبواب فرنسا ، وغرضه الأول ــ ولو على فرض نوال مصر استقلالها ــ هو بسط نفوذه وانفراده بالحكم فى مصر ، وتخلصه من بعبع « كرومر » الذى يسقيه من الإهانات ما لا تحتمله نفس رجل من عامة الشعب ، فما بالك بالأمير ؟!

استقبـل فى قصره الصحفى الفـرنسى « روجيه لامبـلان » والنائب الفرنسى « مسيو كليرى » ، فحدثهما فى الأدب والفنون والمسرح ، ثم بدأ يتكلم فى السياسة ، فإذا بمسيو كليرى يهاجم إنجلترا ويمنى عباس بمساعدة فرنسا له ضدها ، فاستمع له دون أن تظهر على وجهه علامة تـدل على المخالفة أو الموافقة . ومضى المحامى يقول :

ـ « آه يا سمو الأمير ! لو أنك ثرت على الظلم لـوجدت أنصـارا كثيرين لمساعدتك على الخلاص منه » .

فنظر إليهما عباس طويلا ثم قال :

ـ « هل تضمنون لى أن فرنسا ترسل لمساعدتى ولو فرقة واحدة ؟»

فلم يفتح أحدهما فمه بكلمة . . فقام عباس معلنا انتهاء الزيارة .

وشاء ربك أن تبرأ مصر من أوهامها . . استيقظت سنة ١٨٩٨ على صفعة أصابتها بعد انهزام فرنسا فى حادثة فاشودة وتراجعها وذيلهـا بين الساقين ، تاركة مصر وأعالى النيل كله لإنجلترا .

لقد كان فى هذه الصدمة الأولى خير لمصر ، لأن الخديو عباس بدأ بعدها يرتمى فى أحضان إنجلترا ، وزارها لأول مرة سنة ١٩٠٠ ، فمهد بذلك الطريق لانفصال الحزب الوطنى عن القصر . وبدأت الأمة تدرك أن التنظيم الداخلى هو أسـاس المقاومـة الشعبية ، وهى مـلاذ مصر الأول والأخير .

ومع ذلك فإن صدمة فاشودة لم تقض كل القضاء على الأمل فى معونة فرنسا ــ البقية الباقية فى هذا الأمل قضت عليها صدمة شديدة يوم توقيع الاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ .

وكان فى هذه الصدمة الخير والبركة ، فإن مصطفى كامل بذل كل جهد بعدها لإعداد المقاومة الشعبية داخل مصر . ولأول مرة نشهد زعيما وطنيا يفتح مدرسة ويتولى إدارتها ليلقن تلاميذها حب وطنهم ولغته .

(« المساء » ، ١٩٦٤/٤/٢٠ ، ص ٨)

وجهة نظر قابلة للتصحيح !

السؤال الذى يتردد فى خاطرى وأنا أقرأ تاريخ مصر الحديث هو عن مدى إلمام قادتها بالموقف الدولى ، فإن الجهل به كان ــ فيما أعتقد ــ سبب وقوعهم فى أخطاء كثيرة وإصابتهم بخيبة أمل من جنس واحد ، مرة بعد مرة دون أن يتعظوا .

لم يتمثل الجهل المطبق بالموقف الدولى كما تمثل فى إبراهيم بك ومراد بك حينما ظهر أسطول نلسون أمام الشواطىء المصرية ، وأرسل إليهما يقول إنه يطارد أسطول نابليون الذى أبحر لغزو مصر . لم يسأل أحد من هو نابليون ؟ . . ولماذا يريد غزو مصر ؟ . . ولماذا تطارده حضرتك ؟

قالا له إن مصر كنانة الله فى أرضه ، وهى منيعة لأنها من بلاد الدولة العلية . حسباها زعقة أو كرشة بين اثنين من العصبجية لا شأن لمصر بهما . ومع أن مصلحة المماليك توحدت ومصلحة إنجلترا فى صد عدوان فرنسا على مصر ، فإن مراد بك وزميله لم يحاولا أن يلعبا ورقة نلسون ضد نابليون . كانا يجهلان كل الجهل الصراع القائم بين إنجلترا وفرنسا .

وعاد نلسون من حيث أتى دون أن يظفر بإنسان يفهم عنه . ليس فى الجبرتى أى دليل على أن مصر أدركت أن سبب غزو نابليون لأرضها هو ــ قبل كل شىء ــ لكسر شكيمة إنجلترا فى أوروبا والمحيطات . كذلك لم ينطق نابليون للمصريين بكلمة واحدة تعينهم على فهم الموقف الدولى ودور مصر فيه . لعله وجدهم دون مستوى الفهم !

هناك كتب فى التاريخ عنوانها « لو أن . . . » ، فمن الجائز أن يكون من بين فصولها محاولة الإجابة على السؤال الآتى : « ماذا كان سيحدث لو أن مراد بك وزميله سمحا لنلسون بانتظار نابليون أمام شواطىء مصر بحيث يتم تحطيم أسطول نابليون فى موقعه «أبو قير» قبل الغزو لا بعده ؟

لك أن تتخيل ما تشاء ــ فإنى لا أحب هذه التخمينات لأنها سفسطة فارغة ــ ولك أن تقول إن نهضة مصر الحديثة ربما كانت تتأخر قرنا من الزمان .

كان أكثر المصريين فهما للموقف الدولى حينئذ هو الجنرال يعقوب الذى قدَّم ــ وهو هارب على ظهر سفينة إنجليزية ــ مشروعا بتدويل مصر تحت وصاية الدول الأوروبية. هذا المشروع الذى يصفه بعض المؤرخين عندنا خطأ بأنه كان يرمى إلى الاستقلال .

من الخطأ إطلاق وصف « القادة » على إبراهيم بك ومراد بك . لم يكن كل منهما فى حقيقة الأمر إلا « شيخ منصر » همه السلب والنهب وامتلاء جوفه وخزائنه . فليس بعجيب عليهما هذا الجهل المطبق بالموقف الدولى ودور مصر فيه .

ننتقل الآن إلى محمد على . لا يمكن لعصامى مثله الجمع بين طغيان

الشخصية وشدة الدهاء إلا أن يكون ــ رغم أميته ــ « رجل دولة » بالمعنى الحديث لهذا التعبير . أراد من أول يوم أن يستأثر هو وأبناؤه بحكم مصر لأنه أحبها كما يحب الأكول البطنى أكلة شهية . هى جنته فى الأرض ينعم بها قبل أن يأذن له سيدنا رضوان بدخول جنة السماء ، علمى علمك . فكان لابد له أن يفهم سياسة الباب العالى فى استانبول ، وهى فى ذاتها عقدة العقد ، وأن يظل متسمعا لكل همس يدور فى سراى « خولة باغجة » أو « يلديز » . وعن طريق سياسة الباب العالى نفذ محمد على إلى فهم الموقف الدولى فى أوربا .

من الممكن الدفاع عن الرأى القائل بأن محمد على لم يفهم هذا الموقف الدولى حق الفهم ، وأنه ظل حبيس أفقه المحلى الدائر حول محور (رأس التين ــ خولة باغجة) ، لعل السبب أن أطماعه كانت أقوى من ذكائه ، والطمع يعمى ويصم .

فقد أخطأ فى تقدير أن أوروبا ستقف مكتوفة الأيدى تشهده ينشىء امبراطورية عربية تغير على الدولة العثمانية ، فإما أن تحتلها وإما أن تقص جناحها على الأقل وتنتزع منها الخلافة ، فامبراطور العرب وصاحب مكة والمدينة أولى بها من التركى المقيم باستانبول .

وأخطأ فى تقدير مدى مساعدة فرنساله . حسبها أنها ــ وهى مرضعته ــ ستقف إلى جانبه على طول الخط . لم يفهم أن تركة «الرجل المريض» معدة للتوزيع على دول أوروبا لا على بلاد آسيا وإفريقيا ، كلها فى نظر أوروبا بلاد نيام نيام ، وأن أوروبا ، وإن اختلفت ، فهى متفقة على منع إقامة دولة عظيمة

فى هذا الموقع الذى تحتله مصر ، وأنه إذا لمس سكين محمد على رقبة الخليفة التركى فإن فرنسا ستنسى حتما صداقتها لوالى مصر .

فلما توغل إبراهيم باشا فى الأناضول ، وأصبح قاب قوسين أوأدنى من استانبول اشتركت أوروبا ــ فى مقدمتها فرنسا ــ فى توجيه إنذارها لمحمد على بالرجوع إلى جحره والانكماش فيه . وكان تحطيم أسطول مصر غدرا فى موقعة نافارين مثلا آخر على اتحاد أوروبا وفى مقدمتها فرنسا ــ على كبح جماح مصر .

من السهل ربط خيبة أمل محمد على ببوادر إصابته بالجنون . لا شك أن الإنذار الأوروبى كان صدمة شديدة له . والجاهل ، لا العالم ! هو الذى يصاب بمثل هذه الصدمة حين يستيقظ على الحقيقة المرة التى كانت خافية عليه .

ومن الجائز الدفاع عن الرأى المضاد القائل بأن محمد على لم يكن غرا حتى يتصور أنه يستطيع إقامة أمبراطورية وخطف الخلافة بمشهد من أوروبا ،التفسير المعقول لسياسته هو أنه أراد أن تكثر فى يده أوراق اللعب ولوضحى فى سبيل ذلك بالجيوش والأساطيل . كل هذه الأوراق ــ إلا ورقة واحدة ــ لا تلزمه . ولا يطمع فى الربح منها ــ وإنما لأبد له أن يحتال لامتلاكها ليساوم بها فيتنازل عنها جميعا من أجل استبقاء هذه الورقة الواحدة فى يده . إنها ورقة استيلائه على عرش مصر حقا له ولذريته من بعده ، وتمتعه ، لا بالاستقلال التام عن الدولة العثمانية ، بل بأكبر قسط ممكن من الاستقلال .

إذا كان محمد على قد انسحب من الحجاز واليمن وسوريا

والأناضول ، وإذا كان أسطوله قد تحطم ، فإن هذا كله كان الثمن الذى لابد من دفعه لحصوله على عرش مصر . كان محمد على يعلم هذا الثمن ، وكان مستعداً لدفعه . ومما يؤيد هذا الرأى أن مودته ومودة خلفائه من بعده لفرنسا لم تتغير رغم كل الذى فعلته .

وإذا جئنا لعرابى وجدناه هو أيضا ــ لسوء الحظ ــ غير ملم بالموقف الدولى الإلمام الواجب لرجل مثله يقود أمته وسط الأعاصير . ليس هناك دليل قاطع على أنه فهم سياسة إنجلترا نحو قناة السويس ، وكيف تحولت من معارضتها إلى الطمع فيها ، ثم إلى اتخاذ العدة للاستيلاء عليها . لم يمد بصره إلى أوروبا ليعرف كيف تقف من إنجلترا إذا أزمعت غزو مصر منفردة . لم يحاول البحث عن نصير ، حتى ولو حكم من أول الأمر أن لا نصير له .

كان لابد له مع ذلك أن يقوم باستكشاف يفتح له عينيه ، ويزيح عنها كل شبهة . كان ينبغى أن يكون ملما كل الإلمام بالموقف الداخلى فى فرنسا ، ليزن ، بميزان صحيح قيمة وعد دى ليسبس له بأن إنجلترا لن تخرق حياد القناة . من أجل ذلك وقع فى خطأ عسكرى جسيم هو عدوله عن ردمها .

لم تجد إنجلترا فى عرابى خصما ذا دهاء يجيد المناورة ، بل رجلا طيبا يؤمن بأن الاعتداء جريمة وبأن الشجاعة تغلب المدفع . فلما وقعت النكبة فسرها بأنها من تصاريف القدر ، وأحال عليه كل الذنب ، وبقى هو مستريحا مطمئنا لا ينضم ضميره إلى خصومه فى توجيه اللوم ولم يتزلزل اعتقاده فى أنه قام بواجبه فى الدفاع عن كرامة شعبه وحقوق بلاده . وإذا كانت حكمته موضع درس فإن إخلاصه فوق الشبهات .

وفى السنوات الأولى للاحتلال البريطانى نسيت مصر الدرس الذى تلقاه محمد على ، ثم عرابى ، على يد فرنسا ، وتعلقت آمال بعض قادتها من جديد بهذه الصديقة التى تعد ، ثم تخلف ، بل قد تنحاز للعدو .

حسب هؤلاء القادة أن الوعود المعسولة فى الخطب الرنانة والاجتماعات الخاصة لها قيمة المعاهدات الرسمية . وكان هذا الخطأ فى التقدير سبب إصابتهم بخيبة أمل كبيرة بعد انسحاب فرنسا من فاشودة سنة ١٨٩٨ . ومع ذلك فإن الفرنسيين يقولون إن الكابتن باراتيه الذى أوفده مارشان قائد الحملة إلى باريس بعد الانسحاب قد قوبل فى مصر بحفاوة كبيرة . فكتب قصيدة نثرية يقول فيها :

« قد يراخى شعب همته لفترة من الوقت . . ولكن هيهات له أن يخون قدره . لا تنس يا ابن فرنسا أنك تمثل فى نظر سكان ضفاف النيل شمس الدنيا وعدالة الشعوب . لقد تبينت مصر أنك جئت تخوض المستنقعات من أجل الدفاع عن الحرية . . . »

صدمة كانت هى الأولى ، ومع ذلك لم تمنع إصابة مصر بالصدمة الثانية على أثر توقيع الاتفاق الودى بين فرنسا وإنجلترا فى شهر إبريل سنة ١٩٠٤ ، أى فى مثل هذه الأيام منذ ستين عاما .

أما الوفد المصرى فقد أدرك من الموقف الدولى القدر الضئيل الذى يلزمه ، فلم يتلكأ فى تحويل قضية مصر عن النطاق الدولى المأمول إلى علاقة ثنائية بينها وبين إنجلترا ، فشد الرحال إلى لندن للمفاوضة ، بعد أن وجد جميع أبواب مؤتمر الصلح مغلقة فى وجهه ، بعض رسائله أعيدت إليه دون أن تفتح .

وقد أصيبت مصر حينئذ بخيبة أمل قاسية جاءت هذه المرة من أمريكا لا من فرنسا . هتفنا فى المظاهرات إلى أن بحت الأصوات بحياة ويلسون وميثاقه المؤلف من ١٤ نقطة ، من بينها نقطة تعترف بحق كل شعب فى تقرير مصيره . فإذا بنا نعلم ذات يوم أن أمريكا اعترفت بالحماية البريطانية . إننى لا أنسى إلى اليوم سخونة وجهنا فى ذلك اليوم من أثر تلك الصفعة !

وقد كنا نكون فى منجى من الإحساس بهذه الصفعة المؤلمة لو أن أحدا بصرنا بحقيقة هامة كثيرا ما غابت عن قادة إفريقيا وآسيا ، وهى أن القانون الدولى موضوع لمصلحة دول حضارة أوروبا الغربية وحدها . كأن المساواة فى نظر القانون تتطلب مساواة فى الحضارة . لا يوصف الغزو الاستعمارى بأنه حرب فتطبق عليه أحكام باب الحرب فى القانون الدولى ، بل يوصف بأنه نزهة عسكرية .

نقض معاهدة مع حاكم فى إفريقيا أو آسيا غير مساو فى الخطر والقبح نقض معاهدة بين دولتين فى أوروبا ، إن بلاد حضارة أوروبا الغربية جماعة تركب قاربا يعوم بهم فلا تأذن لغريب أن يزاحمها فيه ، حتى ولو كان له مشاركة فى الدين ، فغزو إيطاليا المسيحية للحبشة المسيحية هو أيضا نزهة عسكرية ، يباح فيها استخدام الغازات السامة ، حتى ولو كان الغريب له قدم فى أوروبا جغرافيا ، وما محاولات بطرس الأكبر ثم مصطفى كمال لفرنجة بلادهما إلا لغرض واحد هو نوال حق ركوب هذا القارب .

إن أزمة الكومنولث والأمم المتحدة هى من آثار هذا الربط فى الماضى بين المساواة فى الحقوق والمساواة فى الحضارة . والأمم المتحدة تعانى الآن

آلام مخاض فكرة جديدة هى التى تليق بهذا العصر الذى نعيش فيه ، فكرة المساواة بين الشعوب .

إن ويلسون حين نادى بحق كل شعب فى تقرير مصيره كان لا يقصد شعوب آسيا وإفريقيا ، بل شعوب أوروبا مثل بولندا وتشيكوسلوفاكيا . إنه لم يخن مصر ، بل مصر هى التى أساءت فهمه .

(« المساء » ، ١٩٦٤/٤/٢٧ ، ص ٨)

عيد الجلاء وذكرى دنشواى !

وقفت مرارا على الرصيف وأنا صبى صغير وسط سيقان بعض أولاد البلد من رجال ونساء نشهد ـ قبل الحرب العالمية الأولى ـ مرور طابور إنجليزى وهو نازل من القلعة أو طالع إليها . صدقنى إذا قلت لك إننى لا أزال إلى اليوم أجد على طرف لسانى طعم السخرية التى كنت ألتذ بها فى تلك الوقفات تسرى إلىّ بالعدوى من التيار من حولى ، سخرية ـ على بساطتها ـ كانت ترج نفسى رجا شديدا . أرفع لجيرانى نظرة متلهفة متطلبة للمعرفة والمشاركة فى الفهم وجدارة الزمالة ، فتقع علىّ أعين يشع منها الهزء والاستخفاف ، وشفاه يعابثها مرح ذكى وتعابثه ، كأنها تقول لى : « اضحك معنا أنت أيضا ، إنها وليمة للجميع وبالمجان . . » .

لا ينعقد جمع إلا إذا سعى ـ بغير شعور منه ـ إلى أن توحد بين شتات أفراده عاطفة واحدة ، حتى ولو كانت غير طيبة ، تنحو وتطفو وتشجب بقية أوجه التماثل فى ميولهم .

تمد إليهم نظرتى وهى تبتسم أيضا ، فكأنها تلقى مزيدا من الحطب على النار . أخذا وعطاء . مـا أبلغ حديث النـظرات فى صدقـه وعمقه وإيجازه ، فلا لغة ولا نحو ولا صرف ، ولا عامية ولا فصحى .

هذا طابور عساكر غير خارجين لحرب ، ولا لتدريب ، بل فى مشوار أشبه بنزهة ساعة صبحية . سالم غانم فى ذهابه وإيابه . مشوار من القلعة لقشـلاق قصر النيـل ، ليس حكايـة تحتاج إلى تكتيـك واستراتيجيـة . لو وضع أحدهم ذراعه فى ذراع أخيه أو على كتفه وساروا لأنصفوا أنفسهم والمنطق معا . فكانوا إذا بالغوا فى المشية العسكرية مع رفع الرأس وهز الذراعين إلى مستوى الكتفين ، سخرنا من هـذا الجهد المبـذول فى غير طائل ، من النفخة الكذابة ، من الحاملين لأبى طوق فوق رؤوسهم وهم غلابة .

على ذقن من يضحكون ؟ وإذا تهاونوا فى المشية العسكرية وتراخت الأكتاف وانشفطت الصدور وتدلدلت الأذرع سخرنا من هذا الجند الذى لا يعرف كيف يمشى مشية الجند . وخيل إلينا أن دحديرة القلعة والمحجر كفيلة بأن تفك لهم كل نظام .

نسخر من القفا الأحمر كأنه خلفية قرد ، مسحتها له أمه برغيف فلم ينج طيلة عمره من وصمة الكفر بالنعمة . نسخر من المعزة التى تسير فى مقدمة الطابور ، ونحكم بأن هؤلاء الإنجليز عقلهم فارغ ، وأن المولى ـ سبحانه ـ يمتعهم الآن ، ولكن يمهلهم رويدا .

أكثر مايثير دهشتنا وسخريتنا هو لبس الإسكتلنديين : نريد جميعا أن نعرف هل تحت هذه الجونلا لباس أم لا ؟ هل هم عرى السيقان أم لا ؟

وكنا نهزأ برجال لهم مثل هذه الأجساد البغالى كيف يرضون لأنفسهم بلبس العيال أو البنات ، ولماذا يتركون أنفسهم موضع شبهة ؟ حقا إن الحياء شىء لا يتعلمه الإنسان من الكتب .

قال الرجل الواقف على يمينى لزميله : أصل الحكاية أن الملكة فاكتوريا لما أحبت أن تغزو بلادهم تعبت كثيراً لأنهم حاربوها طويلا ، فأقسمت أنها يوم تحتل بلادهم ستحكم على جميع الرجال أن يلبسوا زى النساء .. إذلالا لهم ووضعا لأنوفهم فى التراب ، ومن شاء منهم بعد ذلك أن يربى شاربه فهو حر ..

فزادت سخريتنا من هؤلاء الرجال الذين يرسفون فى أغلال ذليلة بحكم امرأة ! فى اعتقادنا أن كل واحد منهم طرطور فى بيته ، لا يحكم زوجته ، بل هى التى تحكمه ، فما دام قد نخ لامرأة من قبل فسيطول نخيخه ..

هذا هو الظاهر ، وفى باطن قلوبنا غفلة شديدة ، لا يدركون أنهم ضحايا نصاب كبير الدهاء وأن كل حركة منهم بعد ذلك مهما صدقت فيها النية ووضح الإيمان ، ما هى إلا مشاركة منهم فى هذا النصب ، لا على أنفسهم هذه المرة ، بل على الغير .

أنتم أناس لا شغلة لكم ولا مشغلة ، يحبسكم هذا النصاب فى قشلاقات كأنها الحواصل ، يطعمكم ويسقيكم كأنكم عجول للتربية ، ثم يطلقكم بين الحين والحين لتلين سيقانكم وركبكم ، فترضون أن تمشوا فى الشوارع مشى القطيع من الغنم .. ما الفرق بينكم وبين المعزة التى

تتقدمكم ؟ أى دخل لكم فى بلدنا ؟ ما شأنكم به ؟ لماذا أنتم هنا ؟ أليس لكم بيت يلمكم ؟ .

لم يكن ينفع إنجلترا أن يكون لها حينئذ جيش احتلال كبير فى مصر ، فهى أولا بلد يكره الخدمة العسكرية زمن السلم ، يصدر فى ذلك عن عقلية التاجر صاحب الدكان ، ثم لا تدخل الحرب إلا بجانب حليف يكون له جيش كبير يدافع عن الاثنين ، مكتفية هى بالدلال عليه بأنها هى التى تفتح له البحار ، وتجبى له المال ، وتحشد الأنصار ، وأن دهاء سياستها كفيل بكسر كل سلاح فى يد العدو .

وإن إنجلترا تخسر جميع المعارك إلا الأخيرة ، ثم إنها منذ دخلت مصر حرصت على أن تمسك العصا من الوسط فتزعم للدول الأجنبية فى الظاهر أنها لا تنوى ضم مصر لأملاك التاج البريطانى بل ستبقيها للدول الأجنبية كلها كأنها بوابة بلا بواب . وتسعى فى الباطن لأن تكون السلطة الفعلية فى يدها وحدها ، فكان اتخاذها لجيش صغير فى مصر مظهرا لهذه السياسة ، ولكنها مع ذلك حرصت على أن تجعل هذا الجيش الضئيل سلاح إرهاب فى وجه المصريين ، تخفيه فى كفها ولكنها تشهره إذا اقتضى الأمر فى قسوة وفظاظة كما فعلت فى حادثة دنشواى .

ومع ذلك فالأثر المتخلف فى قلبى من وقفاتى مع أولاد البلد نتفرج على مرور الطابور الإنجليزى هو أن الجيش البريطانى لم يكن الشعب المصرى يرهبه ، بل كان يسخر منه سخرية شديدة .

كان يقال : لو بصق كل واحد منا بصقة واحدة لأغرقنا هذا الجيش وكسحناه من بلادنا ، إنما جيش الاحتلال الحقيقى كان شيئا آخر ، كان

جيشا من الإنجليز والأجانب احتلوا المناصب الرئيسية فى الدولة ، وضعوا يدهم على نظام التعليم ، فى حمايتهم جيش آخر أكبر من المغامرين والأفاقين ، اغتالوا الرأسمالى الوطنى فى حماية الامتيازات الأجنبية والمحاكم المختلطة .

كنا ندرك أن الحرب بيننا وبين الإنجليز تدور فى ميادين كثيرة ، إن إنشاء الجمعية الخيرية الإسلامية ، وإنشاء الجامعة المصرية الأهلية ، ثم من بعد ذلك قيام بنك مصر . . لم تكن فى نظر الشعب إلا انتصارات فى معارك عسكرية . إنه جيش يواجه العدو فى جميع الميادين .

وكان كرومر يحب أن يمشى فى الأسواق مشية السائح المضيع ، وكان من أناقة كثير من موظفى داره أن يخرجوا للناس فى ملابس مهلهلة ، تركوا الفخفخة والعربات المطهمة والحرس المزركش لجناب الخديو والسادة وزرائه . لماذا ؟ لأنهم كانوا يقبضون فى يدهم على السلطة الفعلية فى البلد ، ومن كانت فى يده السلطة لا يعبأ بالمظهر ، إنما يعبأ به الأغوات والخدم والعبيد .

وفى سنة ١٩١٤ عرفت مصر الوجه الحقيقى لما يسمى بالجيش البريطانى . هبطت علينا جيوش من كافة أرجاء الامبراطورية ، عاثوا فيها كأنها مزرعة مورثة من أبيهم . عرفت مصر الجيش النيوزيلاندى والأسترالى .

باعة الفول السودانى وضعوا حول بضاعتهم سياجا من السلك لحمايتها من الخطف والنهب . باعة التين الشوكى رأوه يؤكل بقشره خطفا ونهبا . .

كمية « اللكميات » التي نزلت على السائرين الآمنين كانت تفوق في ليلة واحدة كل ما وقع منها في تاريخ الملاكمة من أقدم العصور .

وكانت أشنع حادثة لازلت أذكرها هجوم هؤلاء الجنود على منزل في وجه البركة ، وإلقاؤهم لجميع الساكنات فيه من النوافذ العليا فلم تبق واحدة منهن إلا لقيت حتفها .

ومع ذلك فإن أهل مصر لم يرهبوا هذا الجيش حين شبت الثورة سنة ١٩١٩ ، وتصدى شعب أعزل من السلاح لمحاربة جيش مدجج بالسلاح . .

(« المساء » ، ١٩٦٥/٦/٢١ ، ص٨)

١١ نوفمبر . . . !

عـادت أول أمس ذكرى هـدنة الحـرب العالميـة الأولى « ١٩١٤ ـ ١٩١٨ » فردتنى بقوة إلى أيام طفولتى ، ولكنى لا أظن أنها تعنى شيئا كثيرا للجيل الحاضر ، وليست هذه الحال حالنا وحده . كنت منذ عشر سنوات فى باريس وهى التى عانت الحصار فى هذه الحرب ، وحلقت فوقها مناطيد زبلين التى تشبه السيجار الفخم الذى كان يدخنه تشرشل فى الحرب العالمية الثانية ، وهى التى ضربتها من بعيد مدافع برتا (اسم ابنة صاحب مصانع كروب الألمانية) وصفرت فيها الرياح بعد أن هجرتها الحكومة إلى مدينة بوردو ، فاشتكى لى أحد الفرنسيين من جيلى أن الشبان فى بلده أصبحوا إذا ذكر لهم اسم كليمنصو سألوا من يكون ؟ مع أنه كان يلقب بالنمر ، وهو الذى قاد بلاده إلى النصر فى هذه الحزب الضروس وكتب عنه عشرات المؤلفات ، لا أحب أن أقول إن للشعوب قدرة هائلة على النسيان بل أعزو هذه الظاهرة إلى أن العصر الذى نعيش فيه يفوق كل عصر سابق فى عمق تطوراته وسرعتها سرعة خاطفة مذهلة ، وإذا كان الماضى السحيق الذى

طواه النسيان يقاس من قبل بالقرون ثم بالسنين فإنه اليوم يقاس بالأيام ، ولعله غدا سيقاس بالساعات .

* * *

لم تعرف مصر حينئذ إطفاء الأنوار ، لأن الطيران كان لا يزال فى مهده ، ومع ذلك فقد زارتنا ـ كالذبابة الدائخة ـ طيارة ألمانية وألقت علينا بعض القنابل ، سقطت إحداها فى شارع محمد على قريبا من دارى ، فوقعت على حوذى يسوق عربة حنطور فنفق حصان من الاثنين ونجا صاحبهما ولا أزال أذكر إلى اليوم تجمعنا حول هذه العربة لنشهد الجواد الصريع ، إنه أول حى فى بلدنا يسقط عليه الموت من السماء . قنبلة واحدة فسافيسى ، كأنها بيضة الديك ـ فلم نعرف حينئذ رغم سقوطها الخوف من الغارات الجوية .

لم نطفىء الأنوار ولكن العهد كان عهد ظلم وظلام ، فهل كان من قبيل الرمز أن أول شىء عاناه شعبنا كان لطلب النور ، لم تكن الكهرباء قد شاعت ودخلت القصور علنا وبعض البيوت خلسة ، كحالها اليوم ، اللصوص وقتئذ غشم ولو سرقوا الكحل من العين ، هيهات لهم أن يختلسوا سحر شيطان ماكر ، إذا مد له أحدهم يده ـ ولو كان أسطى فى النشل ـ صعقة على الفور ، حد الله بينهم وبينه . فكان للناس حينئذ اعتماد وحفاوة بعروس جميلة رغم هبابها ، منبعجة البطن « الحال من بعضه » طويلة الرقبة ، اسمها « اللمبة نمرة خمسة » تقف وهى فى زهرة العمر أمام مرآة مستديرة ، ثم سرعان ما تشيخ فلا يهمها أن مرآة شبابها هشة قد خلقت للكسر السريع . ولكن حياة هذه العروس تتوقف على

بترول وزجاجـة . أما البتـرول فقد اختفى وأصبـح أندر من الكبـريت الأحمر . كنا لا نعرف منه إلا ماركة واحدة ، ماركة رأس الخروف ، بترول روسى اسمه ننتشوف ، والغريب أن الباعة الجوالين كانوا لا ينادون عليه فى الأزقة باسم « أبو خروف » بل كان صوتهم يلعلع باسم منتشـوف ، لعلهم حسبوها تحريفا من « مـا أنت شايف » أو استسهلوهـا لأنها تقبل السجع مع عبارة « على قدر الشوف » ، لا أزال أذكر إلى اليوم واقعة رهيبة فى شارع السيوفية شهدتها بعينى . هجم الناس من رجال ونساء وصبيان على دكان يبيع البترول بالقرب من مدرسة أم عباس باشـا الأول ، وهو دكان ضيق لا يتسع إلا لبرميل راقد على جنبه . ولو كانوا جياعا أشرفوا على الموت من السغب فهجموا على مخبز لما كانت لهم مثل هذه الضراوة والقسـوة . كفأوا امـرأة عجوزا فمـاتت وسط الزحـام تحت أقدامهم . ولا أزال أذكر إلى اليوم وجه صاحب الدكان بعد انفضاض الهجوم وهو يجفف عـرقه بمنـديله المحلاوى ويحمـد ربه عـلى نجاتـه ونجاة مـلابسه وطاقيته . فقد كان ينتظر أن يكون هو الصريع . أما الزجاجة فقد كان باقيا منها فى مصر قدر مخزون ولكن ثمن الواحدة ارتفع من مليمين إلى خمسين مليما . ولا أزال أذكر أن أكثر أمثلة الغلاء ترددا على الألسن بالتندر كان ثمن هذه الزجاجة وشح الزجاج فعمد بعض الشطار إلى قص زجاجات البيرة وباعوا لنا نصفها الأسفل لتحل محل الكبايات وأذكر أننا بقينـا فى البيت زمنا نشرب الماء فيه من هذه الأكواب الدبش .

ومع ارتفاع الأسعار عرف الموظفون لأول مرة علاوة الغلاء وبلغت ١٠٠٪ فرضوا بها أول الأمر ثم سـرعان مـا تبينوا أن المـاهية المضـاعفة لا تكفى استجرارهم من البقال والجزار وحدهما .

وظهر فى الأسواق جنس غريب من الناس ، واحد أفندى غلبان ، مستخدم بدائرة طلعت باشا أو كاتب طابونة الحاج شحاته ، لا أخاف منه ، أجده بين عشية وضحاها قد أصبح ضابطا فى الجيش البريطانى فى يده عصا ، وفى قدميه طوزلوك وعلى كتفيه شرائط ، فكنت أنظر إليه بدهشة عجيبة وأتحاشاه .

* * *

وكان العهد عهد ظلم وظلام ، فكان المطلب الثانى هو النور أيضا ، نور المعرفة . . كل إنسان يتلهف على معرفة الأخبار ، لم يكن الراديو معروفا حينئذ ، بمحطاته الرسمية والسرية ، فلم يبق لنا اعتماد إلا على الصحف وحدها ، وفرض الإنجليز عليها رقابة شديدة . ولكنهم كانوا غشما كلصوص ذلك العهد . إذا حذفوا من صحيفة خبرا أبقوا مكانه فارغا ، والغريب أننا كنا نجد فى هذا الفراغ شفاء لقلوبنا المتعطشة ، لو خيرنا بين أن تتركه الصحيفة على حاله وبين أن تملأه بأحب الأخبار إلينا ترويها بكلام صريح لا لبس فيه لفضلنا أن تترك الفراغ كما هو ، لأنه ـ أولا ـ صادق ، أما الأخبار فتحتمل الصدق والكذب ، ولأنه ـ ثانيا ـ يجعلنا نفرح بذكائنا ونحن نفهم دلالته .

لا أزال أذكر إلى اليوم اهتزاز أعصابنا جميعا فى البيت ونحن نترقب نداء الباعة فى المساء على ملحق جريدة « الشعب » التى كان يصدرها المرحوم أمين الرافعى من ورقة واحدة فإذا سمعنا الصوت لم يهرول واحد منا بل هرولنا جميعا وأحيانا بالقبقاب لنشترى العدد . . كنا نراه فى يد البائع رأى العين أبيض من أوله إلى آخره ، ليس فيه إلا العنوان وتوقيع أمين

الرافعى بأسفل الصحيفة الأولى ، ومع ذلك كنا ندفع القرش ونشترى العدد ونظل نقلبه بين أيدينا ونحن فرحين زائطين ، فإن حذف الأخبار دليل على أن حالة الإنجليز أصبحت مهببة . أما إذا وجدنا فيه شيئا فنقرأه بصوت مرتفع مرتعش تحت ضوء مصباح الشارع قبل أن نصعد للبيت .

ولا أزال أذكر اليوم الذى فرض فيه الإنجليز الحماية على مصر وأعلنوا الأحكام العرفية وبدأوا يلصقون على الجدران الأوامر العسكرية التى يصدرها القائد العام البريطانى ، مكتوبة بالعربية والإنجليزية ، ولم الإنجليزية ؟ حين يكون الإنجليزى وقحا فلا حد لوقاحته . لا أزال أذكر هذا اليوم ، لأنه كان يوم حداد عام ، شهدت بعينى فيه رجالا يبكون كالنساء من شدة حسرتهم على بلدهم . أحست مصر كلها أن قلبها قد أصيب بطعنة خنجر ، وهبط عليها الغم وعاشت فى وجوم ، ارتفع عنها فجأة حين سمعنا أن الرئيس ويلسون أعلن للهدنة برنامجا من ١٤ نقطة ، من بينها مبدأ الاعتراف للشعوب بحق تقرير المصير ، فرحنا فرحا عظيما ، ورفعنا ويلسون إلى مصاف الأنبياء ثم لم تلبث فرحتنا طويلا فما هى إلا أيام قلائل حتى فوجئنا بأن أمريكا اعترفت بالحماية ، فكانت نكسة فظيعة ، ويلسون يلحس كلامه ، السياسة نصب وتهويش ، وعاد للأذهان ذكرى اعتماد مصطفى كامل زمنا على فرنسا فخذلته فرنسا ، ومن قبل على تركيا فخذلته تركيا ، ولكن اعتراف أمريكا لم يكن نكبة ، بل كان نعمة وبركة ففى ذلك اليوم آمنت مصر واقتنعت أن لا سبيل للاستقلال إلا بمجهودها هى أولا ، وبالثورة على الإنجليز مهما كان الثمن .

ووفد على أرضنا الطيبة لأول مرة أشتات مختلفة من جنود بيض وسود

وحمر وصفر ، عند إنجلترا منجم من اللحم البشرى تسوقه كالغنم لتسد به أفواه مدافع الأعداء . عطفت قلوبنا على الهنود ، اسمع قول الناس عنهم « دول مسلمين زينا » وعطفت كذلك على الأيرلنديين لأننا رأيناهم يسبون الإنجليز علنا ، التقت على أرضنا بذور ثلاث ثورات على إنجلترا : الهند وأيرلندا ومصر ، وحين خرج الزعماء لقيادة الثورة حسبنا أن الصلة ستتوثق بينهم . وبذلت محاولات لم تنجح كثيرا لإيجاد صلة بين الثورة العربية والثورة الهندية ، وبقيت علاقة الثورة المصرية بالثورة الأيرلندية علاقة تعاطف من بعيد لبعيد ، كان تفكير زعمائها فى ذلك الوقت محليا لا يتعدى حدود بلادهم ، وحتى لو أرادوا لم تكن لديهم الخبرة ولا الوسائل ، ومع ذلك فإننى أفخر ببلادى لأن على أرضها تلاقت بذور ثورات وطنية ثلاث .

أما الجنس الذى أخافنا وكرهناه أشد الكره فهو الجنس الأسترالى . جنود كالوحوش . يخطفون من الباعة تجارتهم الضئيلة ، باعة الفول السودانى بنوا سياجا من السلك حول أقفاصهم ، فيه فتحة صغيرة لا تتسع إلا لمرور يد بصعوبة . . ولا أزال أذكر إلى الآن يوم ضحكت حين رأيت جنديا أستراليا يخطف من فوق عربة ملء يده من التين الشوكى ، وسكر جماعة من هؤلاء الجنود ذات ليلة وذهبوا إلى ماخور فى شارع وش البركة ، وبعد أن عبثوا فيه ما شاء لهم العبث لم يكتفوا بتحطيم أثاثه بل ألقوا جميع نسائه من النوافذ فتهشمن ومتن أشنع ميتة . . لا أزال أذكر هذه الواقعة لأنها كانت حديث القاهرة كلها ، وأذكر أننى ذهبت مع أخوتى الكبار لهذا الشارع لنرى موقع البيت . وكتمنا الخبر عن أمى وأبى لئلا يثور فى قلبهما الشك بأن أقدامنا قد عرفت سبيلها إلى أقذر طريق .

* * *

بسبب أربع معارك وليس غير هى با ـ دى ـ كاليه ، فردان ، تانبرج، الدردنيل ، ارتفع عدد ضحايا الحرب إلى عشرات الملايين من زهرة الشباب.كانت أول حرب عالمية ، وأول حرب تسفك فيها الدماء بهذه الغزارة ، وولدت فيها الطائرة والدبابة والغواصة والغازات السامة ، وظن الناس من فرط بشاعتها أنها ستكون آخر حرب ، وأنهم سينعمون بسلام لا يزول ، وإلا فيم كان سفك هذه الدماء كلها ولكن الحرب العالمية الثانية ولدت يوم توقيع هدنة الحرب العالمية الأولى فى عربة سكة حديد فى غابة كومبيين بفرنسا فى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ كانت نهاية الحرب بداية حرب جديدة .

واليوم تعود إلى ذهنى ذكرى هذه الحرب الضروس القاسية التى خلفت مدنا من المقابر وملايين من الأرامل والأيتام والعميان والمشوهين فإذا بى لشدة دهشتى وارتعابى لا أتمثلها على ضوء مخاوف اليوم إلا فقاعة كبيرة من الهواء كان لانفجارها دوى كبير ولكنه فشوش فى فشوش ، ومع ذلك فشفتاى تهمسان لى : فيم كان سفك هذه الدماء كلها ؟ .

(« المساء » ١٣/١١/١٩٦١ ، ص ٨)

هذا الجيل . .

ما أعجب قدر الجيل الذى ولد حول مطلع هذا القرن . إنه ينحدر هذه الأيام ويوشك أن يندثر . ما أحق وداعه أن يكون بالتأمل والدراسة والتأريخ . إنه الجيل الذى ينفرد بأن رحلته لم تبتر . هو الذى حضر البذرة وشهد براعم الثمرة ، وكأنه عانى فى روحه وبدنه وأعصابه جميع التقلصات التى كان لابد من تحمل عذابها من أجل التحرر من القيود والسعى للوصول إلى بدء مرحلة الانطلاق . لعل كلامه كان أكثر من فعله ، وآماله أكبر من طاقته ، ولكنه آمن وثابر وشق طريقه ، يعى ما يفعله أحيانا ، ولا يعيه أحيانا ، وكأنما تسوقه قوى خفية . .

* * *

نشأت فى جو مطلبه الأول هو البحث عن النفس . هذه هى القضية الأساسية التى صرف إليها هذا الجيل كل جهده وسعيه لأنه كان يدرك تمام الإدراك أن من حقه أن يعتز بنفسه ، باقيا مع ذلك بريئا من الغرور ومن السقوط فى مركب الشعور بالنقص كما كان يراد له .

أن يعتز بتاريخ بلده وحضارته ، بموقعه الجغرافى ، بوحدة شعبه ، بحبه للسلم والعدالة وكراهيته للعدوان . يدرك تمام الإدراك خبث و المحاولات الجبارة المبذولة لقتل هذه النفس أو طمسها أو تمويعها وبث الشك فيها والزراية بها والتهوين من فضائلها والمبالغة فى تصوير نقائصها . وكان يعلم فى قرارة ضميره أنه قبل الاهتداء إلى النفس لا يستطيع أن ينفلت من أسر التخلف فى جميع وجوهه : جهل وفقر ومرض ، ليبنى له كيانا يساير ركب الزمن ويدخل عصر العلم والصناعة والعدالة الاجتماعية .

فالقضية الملحة الثانية التى ولدت تحت جناحها هى كيف نوفق بين القديم والحديث . ما هو الأصيل فى هذا القديم الذى نستطيع التخلى عنه إذا أردنا الاحتفاظ بملامحنا وما هو العارض الثانوى الذى نستطيع أن نخلعه عنا ، ثم ما هو النافع فى الحديث الذى ينبغى اقتباسه وما هو العارض الثانوى الذى ينبغى الإعراض عنه رغم بريقه وفتنته .

البحث عن النفس والتوفيق بين القديم والحديث هما فى الحقيقة قضية واحدة ، وإن بدت لها صور مختلفة فى ميادين عديدة يظن لأول وهلة أنها متباعدة منفصلة . واختلفت الحلول المقترحة باختلاف الطبائع ، وأصدق وصف لهذا الخلاف بأنه تردد بين قبول للمصالحة وبين رفضها ، ولكن هدف الجميع كان واحدا .

من أجل البحث عن النفس رفض هذا الجيل كل الرفض محاولات إنجلترا وحلفائها فى تثبيت الاعتقاد بأن الاحتلال ضرورة لابد منها ، وأنه أبدى ، وأن مصر أضعف من أن تقاومه بالقوة ، فلابد من التسليم بالأمر

الواقع . كان وصف بلدنا بأنه واد منبسط سبة لنا تحمر لها وجوهنا فى المدرسة الابتدائية .

ووقعت حادثة دنشواى سنة ١٩٠٦ فتشكل وجدان أبناء الجيل فى ظل طعنتها ، لم يعرف لجرحها التئاما طيلة حياته وانغرزت فى قلبه كراهية الإنجليز وتصميم على الجهاد من أجل إجلائهم عن أرض الوطن . وكأن توالى الحوادث رسم عن عمد لتكون بمثابة التجارب التى يسرع معها نضوج الوعى القومى ، ففى أول الأمر تعلقت الآمال بحاكم شاب أعلن نفوره من العدو المحتل ، ولكن سرعان ما تكشف للأمة أن الاعتماد على الحاكم سراب خادع ، فها هوذا عباس يعقد الصلح مع غورست المعتمد البريطانى ، ويعرض عن مصطفى كامل . حينئذ أعلن اللواء أن لا جهاد إلا جهاد الأمة وحدها وأن البناء ينبغى أن يبدأ من القاعدة الشعبية . وفتح الحزب الوطنى مدارس لأبناء الشعب ، وكان مصطفى كامل يذهب ليلقى بنفسه دروسه بها ، بل كان إنشاء الجمعية الخيرية فى القاهرة والعروة الوثقى فى الإسكندرية جهادا سياسيا فى واقع الأمر ، القصد منه تثبيت ثقة الشعب بنفسه وقدرته على الاتحاد والتنظيم والعمل النافع من أجل العدالة الإجتماعية ولو فى أبسط مظاهرها . كذلك كان جهاد عمر لطفى لإنشاء النقابات .

وصحب هذا كله حركة المطالبة بالدستور لتتولى الأمة مقاليدها بنفسها وكان واضحا أن المطالبة بالدستور ليست قضية سياسية فحسب أساسها البحث عن النفس ، بل إنها متصلة أشد الاتصال بالقضية الأخرى ، قضية التوفيق بين القديم والحديث ، إذ كان السؤال هو : أى شكل ينبغى

للدولة المسلمة الحديثة أن تتخذه ؟ وهل النظام البرلماني مما يقره الدين الإسلامي أم مما لا يقره ؟ وكنا ندور وندور ونعود للقضية الثانية .

* * *

والتاريخ الحديث لجميع الأمم الإسلامية يمكن تلخيصه في مشكلة واحدة هي من جانب : حاكم يؤمن أنه صورة أخرى لخلفاء رسول الله ﷺ ، وإن لم يكن له لقب الخليفة ، وأن في تمسكه بهذا الاعتقاد إحياء لمجد الإسلام وإعمالاً لشريعته . ونظام الخلافة ، وإن أوصى بالمشاورة ، يقوم على انفراد الخليفة بالحكم .

ولو اقتصر على ذلك لهان الأمر ، ولكنه يؤمن أيضا ــ رغم أنه وصل عن طريق الوراثة وتمثلت فيه الفروع المنحلة السقيمة للجذور القوية التي أسست حكم الأسرة في الماضي ــ أنه خير من يقود أمته ، لا أحد يغار عليها مثله . . إذ أنه وقد جرى لسانه بقوله : « بلدي ، شعبي ، جيشي » حسب في وهمه أن النسبة معناها التملك الفعلي . ومالك الشيء أشد الناس غيرة عليه .

ولأنه ــ ثانيا ــ ولد في حضن دسائس القصر فهو أبرع فرد في أمته تدربا على السياسة منذ نعومة أظفاره ، رضعها مع اللبن . إنه سيد من يتقن التكتم والتدبر والتوقيت ، ويبدي ابتسامة لا تنم عن النية ويحار الناس في تفسيرها ، وأنه ــ ثالثا ــ أعلم أبناء أمته بزعماء أمته . . يبدون للناس وجها جميلا وكلاما ينم عن الإخلاص وحب الوطن والتجرد عن الهوى ، ويبدون له في خلوتهم به وجها دميما : أنانية ومصلحة ذاتية وطعن كل واحد في الآخر وتملق ذليل . . نعاج بين يديه ، أسود أمام الشعب .

وهذه العقائد تمهد له الانحدار إلى فقدان القدرة على التفريق بين الخزانة الخاصة والعامة . نهبه للأموال العامة وأموال الأوقاف الخيرية ليس سرقة بل هو عمل مشروع من أجل مصلحة الوطن .

كان عباس عندنا يغتنى بالحرام وبيع الرتب ويقول : من أجل مصاريفى فى محاربة الإنجليز . إن يدى طاهرة .

مثل هذا الحاكم يرى كل محاولة للانتقاص من سلطته أو لمحاسبته هى طعن فى الإسلام ، طعن فى وطنيته ، طعن فى طهارة يده ، فهو يكره زعماء الشعب وممثليه كرها يحاول عبثا إخفاءه . يدبر لهم المقالب نكاية بهم . إخفاقهم يسره ، نجاحهم يغمه . ومن جانب شعب أصبح يؤمن أن نظام الدولة الحديثة هو حكم الشعب بالشعب للشعب ، تقرر بدستور يحترمه الجميع .

تاريخ كل الأمم الإسلامية فى العصر الحديث هو سلسلة من المصادمات بين الجانبين ، وقد استفاد المستعمر من هذا الوضع . وأصبح فى هذه الأمم جميعا قوة ثالثة يرجح مؤقتا كفة المغلوب لئلا يطغى الغالب ويتصدى له بقوته .

* * *

الجيل الذى أتحدث عنه هو الذى تناول هاتين القضيتين فى عز اتقادهما فعمل أول الأمر بغير أن يحدث صدعا لا يجبر على أن يصل بهما إلى حلولهما المأمولة ، فأسفر وجه مصر ، وواءم باعتدال بين القديم والحديث ، هو الذى أخذ حموة الموسى كما يقولون . .

وجاءت ثورة ١٩١٩ وكان هذ الجيل قد بلغ مرحلة الشباب فثار وهو أعزل فى وجه دولة منتصرة مدججة بالسلاح . وحدث الالتحام المرتقب بين مختلف طبقات الشعب وطوائفه . إن وجدانى تشكل أيضا فى جنازة ابن القباقيبى الذى صرعه رصاص الإنجليز فى حى الركبية ، وسار الشعب وراء نعشه . .

ولكنه لم يعرف كيف يصون هذه الثورة ، لعل الإعياء كان قد لحقه . وظلت الأمة تتطلع إلى فجر جديد ، فبزغت شمسه سنة ١٩٥٢ ، وواجه الجيل الجديد قضايا من نوع آخر . .

(« المساء » . ١٩٦٦/١/٣١ ، ص ٦)

هذا العام . .

ما أجمل تصادف جمع هذا العام بين التذكير بمرور ألف سنة على مدينة القاهرة المعزية ، وبين التذكير بمرور خمسين سنة على ثورة سنة ١٩١٩ ، كأنه رمز ــ ما أبدعه ــ لطبيعة بلدنا ، القدرة على الدوام والاستقرار معانقة للقدرة على التجديد والنمو ، اسمحوا لى أن أفتخر بأننى من مصر ، أن أقول بأننى سعيد لأننى من أبنائها وما أحوجنا أن نشيع بيننا هذا الشعور ، إننا لانقدر النعم التى فى أيدينا حق قدرها ، فلا يعرف الناس أمة كأمتنا حافظت على الصميم من شخصيتها وعلى اتصال تاريخها عبر القرون ، تقوم من حولها جماعات وتفنى وهى باقية . بل إن الألف سنة ، ما هى إلا امتداد لألوف أخرى من السنين . إن هذه العيون الفرعونية التى تتطلع فى تماثيل تجللها السكينة والجلال معا نحو الأفق البعيد ، تعبيرا عن إحساسها بالموقع والكون ، باليوم والدهر ، انسجام قوانين الإنسان وقوانين الطبيعة ، الاعتراف بعظمة الخالق وطاقة الإنسان ، الجمع العجيب بين المادة والروح . إنما هى عيون مصرى لم تنطفىء قط .

وقد تبدو سنة ١٩١٩ كأنها مكنسة أزاحت فى خبطة واحدة كل ما على المسرح من ديكور رث بال . لم يعد يشغل الناس أمر الخديو عباس مع أنه كان خلال سنى الحرب يمثل المعادل للسخط على الحماية ، ولا أمر الحزب الوطنى على جلال قدره وطويل جهاده ، ألحان مصطفى كامل طواها سجل التراث ، ولا أمر حزب الأمة وفلسفة لطفى السيد ، لم يعد يشغل الناس الإجابة على أسئلة كانت تلح عليهم من قبل : ما هى صلتنا بالخلافة ؟ ماذا نفعل بأسرة محمد على ، هل هو شرعى جلوس فؤاد على العرش ؟ الشغل الشاغل الوحيد هو طلب الاستقلال ، طلب جلاء إنجلترا عن أراضينا ، هذا هو المظهر الخارجى لثورة سنة ١٩١٩ ، أما قبلها فهو طلب الاعتراف بالشعب ووجوب احتلاله للمسرح ، الاعتراف بوجوده أولا ، بأصالته ، بحقوقه ، الاعتراف أخيرا بأنه صاحب البلد ولا صاحب له سواه .

ثورة سنة ١٩١٩ هى ثورة شعب ، الفلاحون وقودها ، لولاهم لما اشتعلت هذا الاشتعال ، وحين كان يهتف هؤلاء الفلاحون بالحرية والاستقلال فإنما كانوا يهتفون : نحن هنا ، طال نسيانكم لنا ، نسيان أشبه شىء بالاحتقار ، لنضع جميعا أيدينا معا ليكون مرد الحكم إلى الشعب ، لا لشهوة الحكم ، بل لإقامة العدل ، لتحقيق التكافل الإجتماعى ، ولأنها ثورة شعب فقد كان لزاما أن يتحد فى عنصر واحد ، ينتمى إلى الوطن ويتجمع فيه دين محمد ودين عيسى ، زالت الفرقة واختفى الشقاق . أصبح نشازا مضحكا وحماقة كبرى وكذبا سخيفا وصف هذا الشعب بكلمة « غوغاء » أو « رعاع » . . . احتل أخيرا مكانه فى الميزان .

عن هذا الشعب وإلى هذا الشعب كتبت المدرسة الحديثة ، وغنى سيد درويش ، ونظم بيرم ، ونحت مختار ، وجدوا جميعا الأرض الصلبة التي يقفون عليها ، المجتمع الذى يستقون منه ، النغم الذى يترنمون به ، الوحى الذى يسترشدون به ، كلهم من دعاة التجديد المعبر فى الوقت ذاته عن الأصالة .

لم يفهم الساسة الذين فاجأتهم ثورة ١٩١٩ وركبوا موجتها من هذه الثورة إلا وجهها الخارجى ، اشتغلوا بالبحث عن الحل المتاح ولو كان الثمن قبولهم للتنازلات ، لأن السياسة أخذ وعطاء ، ولعلهم أخفوا عن الأمة حقيقة موقفهم ، وانتهى أمرهم سريعا بقبول التفاوض مع إنجلترا ، وقال سعد زغلول مع الأسف : كيف تطلبون منى ترتيب الأثاث والبيت يحترق ، ظن أن تحقيق العدل الإجتماعى عمل حكومى ، يأتى من فوق فهو بالتالى رهن بتشكيل حكومة وطنية بعد الجلاء . ولكن متى ؟ الله اعلم .

لاأقول إن هؤلاء الساسة قد خانوا وطنهم أو خانوا الثورة بل أقول إنها فاجأتهم ولم يفهموها . كان المنتظر منهم أن ينتهزوا فرصة يقظة الشعب واشتعال الشعور الوطنى فيبدأوا تنظيم تجمع الشعب فى مؤسسات شعبية لاعلاقة لها بالحكومة ، كإعادة الجامعة الأهلية ، وفتح مدارس شعبية تهدم أسلوب « دنلوب » وتعلم أبناء الشعب حقيقة تاريخهم وأصالتهم وتبصرهم بحقوقهم ، بإنشاء نقابات شعبية للعمال والفلاحين .

لم يحدث شىء من هذا مع الأسف ، والعجيب أن المؤسسة الشعبية الوحيدة التى تمخضت عنها الثورة ورأى فيها الشعب قرب تحقيق أمله فى

اللحاق بعصر الصناعة والاقتصاد الحديث هى من عمل رجل كان يعد من أقطاب الرجعية فى مصر : طلعت حرب مؤسس بنك مصر وشركاته .

وسرعان ما انقسم الساسة بعضهم على بعض ، وتراشقوا بـالتهم كأنهم أطفال يتعاركون على لعبة هى فوق البيعة مكسورة . . حينئذ تراجع الشعب إلى صدفته المحارية ، وظل سنين يقف موقف المتفرج .

هـذه هى خصلة هـذا الشعب ، لايعبـر عن معـارضتـه بـالعنف أو الهجوم ، بل الوقوف موقف المتفرج . . الضد من المقاومة السلبية هو هذا القبول السلبى ، وأخيرا جاءه الفرج وأشرق عليه عصر الاشتراكية المصرية ، وكل الشهود المنصفين لايكتمون الآن إحسـاسهم بأن مصـر تدخل مرحلة تطور خطير ، وأن إنجازاتهـا فى المستقبل قـد تفوق كـل توقع ــ حتى من الأصدقاء !

(« المساء » ، ١٩٦٩/٣/٣ ، ص ٦)

دوران حول ثورة ١٩١٩

حين نتحدث عن ثورة ١٩١٩ تتبادر للذهن أولا صورة معركة بين جيش بريطانى مدجج بالسلاح وشعب أعزل لم يرهب الرصاص والمشانق وعذاب السجون وانقطاع الرزق . صورة قتلى وجرحى ، ودم مراق ، وقضبان مخلوعة ، وترام محروق ، ومصابيح مكسورة ، ومدارس معطلة ، ومكاتب خاوية ، وصحف مكممة ، وأحكام عرفية . صورة ساحة يتناثر فيها الحطام ويولول فوقها الموت والدمار .

هذا هو ما يعلق به التصور أولا وتدور حوله الأحاديث . العمل بالعنف المشروع لدحر عنف اعتداء إجرامى ، لا وسيلة غيره للتصدى لجبروت إنجلترا وإرغامها على الجلاء من أجل أن تتحقق لمصر حريتها واستقلالها ، ولكى يستعيد الشعب كرامته من تحت أقدام الغاصب .

ولكن هذا العنف هو المظهر الخارجى ، فثورة سنة ١٩١٩ ــ قبل هذا كله وأهم من هذا كله ــ هى فى المحل الأول قلب صفحة جديدة كل الجدة

فى حياة مصر ، لا علاقة بينها وبين الصفحة السابقةمناخ مبتكر مختلف كل الاختلاف عن المناخ المألوف ، إنها مولد جديد للأمة ، هى أشبه شىء بالميتامورفوز .

عوامل هامة فعالة كانت تسيطر من قبل ، يخال أنها أبدية ، فإذا هى تتلاشى كأن لم تكن أو تتضاءل إلى حد فقدانها القدرة على التأثير ، تحل محلها عوامل أخرى لم تكن فى الحسبان . حق لها أن تكون مذهلة ، لاتدرى أهى طارئة أم انبعاث فى صورة جديدة لقديم مقبور ظن به أنه مات بلا رجعة .

وقبل أن أضرب الأمثلة أحب أن أقف قليلا عند مشروع برونيات الذى تمثل فيه وجدان الأمة خطرا يفوق خطر الاحتلال والحماية والتبعية ، لأنى مندهش كيف ينكشف لنا الآن أن الاستعمار الأوروبى كان قد بدأ منذ سنة ١٩١٩ يتدبر ابتداع نظام يصلح للتطبيق فى إفريقيا إذا حل يوم يقظتها ولو فى المستقبل البعيد . ولم يغفل الاستعمار عن تأثير هذه الحرب العالمية الأولى على بنيانه ، ولعله توقع أن تتلوها هزة أشد ، كأنما شم رائحة الحرب العالمية الثانية .

هذا مثل بارع فذ للدراسة واستباق الحوادث والتخطيط للمدى البعيد ، وأنت تعلم أن صلب مشروع برونيات هو إشراك الجالية الأجنبية البيضاء المستوطنة فى بلادنا فى حكم مصر ، فإذا أرادت أن يكون لها مجلس نيابى فلابد لها من الاعتراف بحق هؤلاء الأجانب فى اقتسام مقاعد هذا المجلس معها ، باعتبار أنهم يمثلون مصالح حقيقية فى البلد ، إن لم يقولوا إنهم وحدهم أصحاب المصلحة ، وإنهم هم الذين صنعوها من العدم ، الرأسمال المستثمر هو مالهم .

وهكذا يهدد المشروع فكرة القومية ، والحدود الوطنية ، وحق تصرف الشعب فى أموره وتقرير مصيره لرسم سياسته . تفقد الجنسية المصرية صفة الخصوص ، ويكتسب الأجانب جنسية مزدوجة . وتسلسل هذا المنطق يقضى بأن يكون هناك وزراء من بين الأجانب أعضاء المجلس النيابى .

مشروع يفضى فى النهاية إلى تدويل مصر ، وإخراجها من المعترك الدولى ، لا بالحياد بل بالانعزال . تتقاسم فيه دول الاستعمار نهب ثروات البلد لتفض ما بينها من نزاع حول تقسيم المستعمرات أيضا فيما بينهم ، لعلها تعيش فى سلام بغير حروب .

وبعد مشروع بورنيات بثلاثين عاما تقريبا وجدنا مستر بيفان فى محادثاته مع صدقى يتكلم عن قيام علاقة بين إنجلترا ومصر على أراضى مصر تشبه علاقة ما بين الشركاء أصحاب الحقوق المتماثلة . هذا تفكير يسير على عين الطريق الذى بدأه برونيات وهذا هو هدف سياسة الدول الاستعمارية فى إفريقيا ، مثل رودس وجنوب أفريقيا ، كما نراها اليوم .

نعود الآن إلى ثورة ١٩١٩ وكيف كانت قبل كل شىء صفحة جديدة فى حياة الأمة لاعلاقة لها بالصفحة السابقة . خذ مثلا ماذا فعلت الثورة بأسرة محمد على ، بشخص الجالس على العرش ، السلطان فؤاد .

كانت أسرة محمد على ــ ككل الحكام الشرقيين ــ ترى من العار عليها أن لاتكون صاحبة الكلمة الوحيدة فى حكم البلد أو على الأقل صاحبة الكلمة الأكبر فى الأوقات التى ينتزع فيها الشعب لنفسه نصيبا من السلطة ، الإرهاب والبطش والانتماء إلى دولة الخلافة ــ هذه هى ضغوط

أسرة محمد على على الشعب ليقبل حكمها صاغرا ، وهى من جانبها كأنما أخذها شيء من التحشم فى مواجهة هذا الشعب العريق الجامع بين التجديد والثبات فأبدت له ـ على خلاف أسر حاكمة شرقية عديدة ـ ما يرضاه من واجهة تدل على التماسك والبعد عن التمزق والاغتيالات داخل أحشائها حول وراثة العرش ، حتى قبل تعديل إسماعيل لنظامها من العضو الأكبر إلى الإبن البكر ، إن كان إبراهيم قد خلع محمد على ومات ، ومات عباس الأول قتلا فوثب سعيد مكانه ، وغرق أحمد فتولى إسماعيل ، فهذه حوادث لم تتكشف أسرارها للشعب ، أو قل إنه لم يبال بها أقل مبالاة ، لم يحدث إلا أواخر حكم إسماعيل أن بدأ يعقوب صنوع يخادع رواد مسرحه ليجذبهم إليه باللعب على كلمة « حليم » إشارته إلى منافس لإسماعيل فى حكم مصر ، ضحك الشعب لهذه التورية ولكنه لم يأخذها مأخذ الجد .

القضايا السياسية تعود فى ثنائية : الشعب وأسرة محمد على ، أصبحت ثلاثية بعد الاحتلال ، فقدت أسرة محمد على احتكارها للكلمة الأولى ، أو للكلمة الأكبر ولكنها ظلت مع ذلك قوة يحاول كل من الطرفين ـ الإنجليز والشعب ـ استغلالها فى مواجهة الطرف الآخر ، وتحاول أسرة محمد على اللعب بهذه الورقة لتبقى طافية على السطح ، أما مظهر صاحب السلطة ، عباس الثانى مع مصطفى كامل ضد الإنجليز ، مع الإنجليز ـ بعد الوفاق ـ ضد الحركة الوطنية ، ورغم هذا الموقف الثلاثى ، وزهو الإنجليز أنهم الغوا السخرة والكرباج والجور فى توزيع المياه ، وأن الفلاح المصرى وأصحاب الأطيان لم ينسوا قط غوائل أسرة محمد على ـ وبالأخص

إسماعيل ــ عليهم ، ليس فيهم واحد يطمئن إلى أن أرضه لن تستولى عليها الخاصة الخديوية ، هذا هو المناخ الذى نبت فيه حزب الأمة .

لم ينتبه المصريون بشدة إلى العرش ووراثة العرش إلا وقت أن خلع عباس الثانى ، ونصبت إنجلترا عمه السلطان حسين مكانه ، ولأن السلطان حسين أصبح رمزا للحماية والاغتصاب فقد أضفى الشعب هالة على عباس الثانى لايستحقها ، وكان من بين المصريين من يتمتم أثناء الحرب العالمية الأولى ، « الله حى ، عباس جاى »بل زعم أناس أن الأغنية الشعبية « قولوا لعين الشمس ما تحماشى » قيلت لوداع عباس فى حين أنها قيلت لوداع إبراهيم الوردانى يوم شنقه ، ولعلها أغنية شعبية قديمة تتكرر عند كل استشهاد ، وزادت كراهية الشعب الغاضب للعرش أضعافا مضاعفة ، حين رأى البرنس فؤاد الذى تحوط حياته الخاصة شبهات لايبددها انبراؤه للخدمة العامة ــ كإنشاء الجامعة الأهلية . . هو صاحب فضيحة كلوب محمد على ، المفلس الذى يقترض من سائقى عربات الحنطور . هكذا تقول الإشاعات.رآه الشعب يخرج فى عربة مكشوفة إلى مبنى المعتمد البريطانى من قصر البستان ، ويمر بين صفين من الجنود الإنجليز إلى أن يبلغ قصر عابدين .

كل هذه العواطف والاهتمامات التى يثيرها العرش ، سواء بالتلهف على الراحل عباس ، أو بالازدراء للجالس فؤاد قد تبخرت فجأة مع الثورة ، كأنها لم تكن ، عادت الثلاثية الى ثنائية صرفا ، الإنجليز والشعب ، وحدهما هذه المرة ، وجها لوجه .

(« المساء » ، ١٩٦٩/٣/٣١ ، ص٦ ، ٥)

المناخ الجديد لثورة ١٩

فتحت ثورة سنة ١٩١٩ فى حياة مصر صفحة جديدة لا علاقة لها بالصفحة السابقة . إبدال مناخ بمناخ مخالف كل الاختلاف ، هذا هو معنى الثورة أما العنف فمظهرها الخارجى . فبعد أن كان المعترك السياسى ثلاثيا [العرش ــ الشعب ــ الإنجليز] أصبح ثنائيا (الشعب والإنجليز ــ وجها لوجه) . إننى لا أقوم هنا بدور المؤرخ وإنما بدور الشاهد على وجدان الشعب . دعنى إذن أشهد لك أننا فهمنا جميعا عند اندلاع الثورة أن حكم أسرة محمد على قد انتهى لأن الثورة أهملت السلطان فؤاد إهمالا تاما . لم تنتظرْ منه أقل مساعدة ، بل كانت تتوقع منه أن يكون من العوامل المعوقة أو المثبطة ، إن لم يقف من هذه الثورة موقف العداء السافر . لم تتوجه إليه المظاهرات ، ولم ترفع إليه العرائض بدعوة للانضمام إلى الكفاح الشعبى .

شعرنا أن الحكم الصادر أيام عرابى بخلع أسرة محمد على لم يمزق ، بل تأجل تنفيذه . فكرة التأجيل هى الكافية أيضا فى تقديرات الثورة وتريد

أولا أن تصفى الحساب مع الإنجليز قبل أن تلتفت إلى حكاية العرش ، سيأتى يومها ولا ريب لا تريد الثورة أن تحارب فى جبهتين فى وقت واحد : الإنجليز والقصر . إنها تخشى أن يضر بقضيتها تصوير إنجلترا لهذه الثورة (كما فعلت سنة ١٨٨٢) بأنها نزاع داخلى بين الشعب والقصر وليست ثورة ضد الاحتلال ، ضد إنجلترا من أجل الحرية والاستقلال .

وإذا كان الشعب لم يصدر إليه توجيه واضح فإنه فهم الموقف بغريزته . مزقت المظاهرات صحيفة « المقطم » ربيبة إنجلترا ، ولكنها لم تهتف بسقوط فؤاد رغم كراهية الشعب له ، رغم تلقفه لأزجال بيرم التونسى الناطقة بأفحش سب لفؤاد . كذلك لم يبال الشعب كثيرا بتحركات البرنس عمر طوسون ، ولم يسأل هل هو مخلص أم راغب فى اعتلاء العرش أم غاية قصده إغاظة السلطان فؤاد وتنكيد عيشه . لم تبال أيضا بتحركات البرنس عزيز حسن لأنه شخصية هزيلة ، وحين أعلن الأمراء وعلى رأسهم البرنس يوسف كمال تأييدهم للحركة الوطنية فهم الشعب أنهم فعلوا ذلك اضطرارا لأنهم أدركوا من أين ستهب الرياح .

إنهم يريدون إذا جاء يوم الفصل أن تكون صفحتهم خالية من الوزر . لم تندد أسرة محمد على بالسلطان فؤاد لأنه تسبب فى تهديد نفوذها كما نددت بفاروق واعتبرته المسئول الأول عن كل ما جرى لها .

تأجيل أيضا للإجابة على سؤال لابد من ترتيبه : من يحل محل فؤاد ؟ طرح الشعب تماما فكرة إبدال أمير بدل أمير من أسرة محمد على حتى عباس الثانى الذى كان يمثل للشعب شرعية الحكم التى اعتدت عليها إنجلترا فقد كل تأثير له . لم يعد يذكره أحد . إذن ماذا ؟ جمهورية ؟ دعنى أشعر أن

الشعب كان يتوجس حينئذ من هذا النظام لأنه يراه مدعاة للتنازع وعدم الاستقرار . الشعب كان حينئذ يريد لنظام الحكم ثباتا واستمرارا . إنه يبغى الأمل فى حاكم من أبناء مصر ينعت بأنه مستبد عادل دون أن يسأل كيف يجتمع النقيضان العدل والاستبداد ، وبين الاعتراف بفضل لطفى السيد والأحرار الدستوريين فى تقليل توجس الشعب من نظام الحكم النيابى .

ماذا فعل السلطان فؤاد حين أهمله الشعب تمام الإهمال . إنه رجل شديد الذكاء ، ورغم فقره ، شديد الاعتزاز بنفسه وبثقافته الأوروبية التى نالها أثناء إقامته فى إيطاليا مع أبيه إسماعيل بعد نفيه . إننى أتصوره يوم كان ياورا للخديوعباس الثانى واقفا زنهار إلى جانب العرش ، يقول فى سره : إننى أقدر على الحكم وأولى به من هذا الألعبان .

هداه ذكاؤه إلى أن أفضل سياسة يتبعها هو أن يتقوقع، أن يدخل جحره ، أن يلبد فى قصر عابدين يتخفى به ، وماذا يضيره ؟ إنه يعيش طول الوقت فى نعيم من حوله حاشية تنحنى وتركع أمامه . يعلم أكيدا أنه لن يغيب اليوم الذى سيلجأ إليه الطرفان ، أو على الأقل أحد الطرفين :

الصبر . وحين يمد إليه الشعب يده سيعرف كيف يصافحها أولا باحتقار ثم يقبض عليها بقوة ثم يلويها بشدة . أما يد الإنجليز فيقابلها دائما بالحذر والخشوع لا لأنها أقوى من يد الشعب ، بل لأن الخواجات مقامات وأولاد الفلاحين مقامات .

كان فؤاد دائما ذليلا أمام الإنجليز فرعونا إذا عامل الشعب . إذا جاءه المعتمد البريطانى بطلب لا يرضيه فقد يصرخ ويثور ولكنه ينتهى دائما بالإذعان .

وحينما لجأ سعد زغلول إلى السلطان فؤاد شاكيا بحزن شديد وغم كبير وخيبة أمل فظيعة ، وحين قرأنا قوله فى بدء تلغرافه أو عريضته (ياعظمة السلطان) أدركنا أن هذا هو أول مسمار يدق فى نعش الثورة .

فمنذ ذلك اليوم النحس تزايدت قدرة السلطان فؤاد ونفوذه . سيلعب بالدستور فيعطله وبالبرلمان فيحله وينشىء حزبا ينتمى إليه ثم يقول لجورج لويد : « لا أسمح لوزير أن يستقيل ، بل أنا الذى أقيله » وكلما نما نفوذه نمت ثروته فإذا بهذا المفلس الذى رقى العرش يموت بعد سنوات غير طويلة وهو مليونير ، هذا إلى جانب ما أنفقته الخزانة العامة على قصوره ، على يخته البحرى « المحروسة » على يخته النهرى « قاصد خير » . إنه مشى فى الطريق الذى شقه عباس الثانى ، طريق اللهفة على الثراء ولو بالنهب والسلب ، لأنهما من أبناء إسماعيل الذى صودرت أملاكه ، فنفيا فقيرين رغم اعتلائهما العرش على حين لم تمس ثروة باقى فروع أسرة محمد على من أمثال سيف الدين ويوسف كمال والأخوين إبراهيم ، فكان المنطق السليم يقضى بأن يكون أفندينا الذى تنحنى له جباه أسرة محمد على ولا تستطيع أن تتزوج أو تطلق أو تسافر إلا بإذنه هو أغنى فرد فيها فلا مظهر للنفوذ إلا المال .

(« المساء » ، ١٩٦٩/٤/٧ ، ص ٦)

ثورة ١٩١٩

حين فتحت ثورة سنة ١٩١٩ صفحة جديدة فى حياة مصر طوت مع الصفحة السابقة أشياء فرحنا باختفائها « كالنزاع الطائفى » وأشياء عز علينا طيها وحز فى قلوبنا ، ولكننا قبلنا هذا الطى بغير مناقشة بدافع من شعور بأن المناخ الجديد من شأنه أن يجب المناخ القديم بعجره وبجره ، وأن الصفحة إذا طويت فإنما تطوى بكل سطورها ولا وقت عند الثورة ولا استعداد لأن تنتقى ، إن لها نظرة جديدة مصوبة إلى الأمام لا إلى الخلف ، حجتها أن المقتضيات قد تبدلت . أريد أن أضرب المثل بما جرى لمحمد فريد ، وعبارة « ماجرى » ستجدها فى كل البكائيات الشعبية ، ولن أتحدث هنا بلسان المؤرخ بل بلسان إنسان يشوقه تأمل مسلك الفرد والجماعة ، اهتمامه الأول بالجوانب الإنسانية فى الأحداث التاريخية ، فإنى اليوم يستهوينى تأمل مسلك الثورة الوطنية مع الزعيم الوطنى الذى تنازل عن الجاه والثراء وقبل الفقر وتحمل السجن والنفى من أجل وطنه ، دافع عن قضيته خير دفاع ، تمسك بالحقوق جميعها ، رفض أن تكون محل

مساومة ، لا مساس ولو ببذرة منها ، إنه يعيش فى الغربة يحلم ويأمل فى أن يجىء اليوم الذى تهب فيه مصر ثائرة تطالب بحقوقها ـ أخيرا جاء هذا اليوم ، فإذا بأمله ينهدم ساعة أن يتجسد ، هاهى الثورة تتجاهله كل التجاهل ، بل الأعجب من ذلك والأدهى عليه أنه مد لها يده فتركتها معلقة فى الهواء ولم تأخذها . يحدث هذا فى الوقت الذى قبلت فيه الثورة بعض أعضاء الحزب الوطنى فدخلوا الوفد ، حرام على الزعيم ما كان حلالا للأنصار ، هل بعد هذا عقوق ، مرحبا بالمترادفات هنا لأن لها إيقاع أكف الندابات ، هل بعد هذا جحود ؟ هل بعد هذا نكران للجميل ؟

إن كان العقوق ، إذا جاء من الصديق الذى خدمته مؤلما ، فلاشك أنه إذا جاء من الوطن الذى ضحيت من أجله أشد إيلاما . إلى اليوم أتصور مرارة محمد فريد فى الغربة بعد الثورة ، إذا ارتجف عيانا من ركبه البرد فلاشك أنه كان يرتجف كتيمى من الشعور بالوحدة ، بوقوفه ـــ العامة تقول كاللوح ـــ كالمتفرج وموكب الثورة يمر أمامه ، لا أحد يلتفت إليه ويقول له : تعال معنا ، نحن فى حاجة إليك ، بل لاأحد يلقى عليه السلام ، إذا كان انضمامه إلى ركب الثورة غير متاح فعلى الأقل يطلب منه الرأى والنصيحة ، إن له خبرة كبيرة بالقضية ، وبالموقف الدولى ، وله اتصالات كثيرة بالأحزاب وأقطاب السياسة فى أوروبا، حتى هذا لم يحدث . أتصوره يسأل نفسه : ما ذنبى ؟ أين تقصيرى ؟ ماذا تأخذونه على ؟ ألم تبق عندى ذرة من نفع ؟ هل مت وأنا حى ؟ لو كنت مكانه لتحطمت ، ولكن قدر له أن يعيش أياما ليتجرع كأس المرارة حتى الثمالة ، فى استانبول (١٩٣٠-١٩٣٤) .

حرصت على أن أزور حجرته الصغيرة فى « خان سوريا » ، كنت أريد أن أتشمم جو الوحدة والفقر الذى كان يعيش فيه ، إلى اليوم أتصور بألم مشهد وفاته فى الغربة ، وحيدا ، منقطعا ، فقيرا ، مهملا ، منبوذا ، ليس بجانبه أحد من أهله ، وقبل أن أتركه أقول إنه حتى بعد وفاته لم يكن نقل جثمانه إلى مصر من عمل الشعب بل من تبرع تاجر فى طنطا ، كأنما لابد للعقوق أن يمضى إلى غايته ، أن يلاحقه حيا وميتا . .

مرة أخرى أقول إننى لا أتحدث بلسان المؤرخ بل أحاول هنا تصوير وجدان صبى كان يمشى فى المظاهرات سنة ١٩١٩ ، شمله المناخ الجديد .

وبغير توجيه من أحد فهم لماذا ترحب الثورة بتمزيق صحيفة « المقطم » ربيبة الإنجليز ولا ترحب بالهتاف بسقوط السلطان فؤاد ، إن كان هذا الصبى فى قرارة نفسه متألما لما جرى لمحمد فريد ، متململا من اتصاف الثورة والوطن بالعقوق ، فقد فهم بغريزته أن أوراق اللعب تبدلت ، كانت فى يد الحزب الوطنى بالأمس تشمل : «تركيا+دولية قضية مصر+ لا مفاوضة إلا بعد الجلاء + المطالبة لا بالسودان وحده بل بالملحقات أيضا ! زيلع وهرر ومصوع ولا أدرى ماذا أيضا » أحسسنا ونحن نمشى فى المظاهرات أن هذا كله ضرب من الأحلام أو من المعوقات ، وأن ثورة سنة ١٩١٩ لها نظرية جديدة عملية ، مختلفة كل الاختلاف ، لذلك قبلنا ــ ولو على مضض ــ ركنة محمد فريد وإن ظل فى قلوبنا صوت يوسوس : لا محل فى الثورة لزعيمين ، ومحمد فريد إما أن يكون زعيما وإما أن يكون لا شىء ، ولا وسط ، ولكننا لم نتصور حينئذ أن النظرة العملية التى

نسبناها للثورة قد تهبط إلى حد قبول المساومة على حقوق الوطن ، وتمام استقلاله ، ولم نعلم إلا فيها بعد وبأسف شديد أن المساومة كانت فى حساب زعماء هذه الثورة من أول يوم لهم .

(« المساء » ، ١٩٦٩/٤/٢١ ، ص ٨)

ابن القباقيبى

كانت ثورة لأن الناس بدأت تألف لأول مرة كلمة الشعب ، تنطقها بكسر الشين ، لا بأس ، لم تكن ثورة مثقفين وحدهم أو فلاحين وحدهم أو عمال وحدهم ، بل ثورة الشعب كله اتحـد فى عجينة واحدة ، زالت الفروق . لم تعد كلمة « فلاح » سبة ، مع أنها كانت كذلك منذ قليل ، كتاب « هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف » يحتوى على أفحش سب للفلاح ، وكاتبه ابن فلاح .

لذلك كان حنقنا شديدا ونحن نسير فى المظاهرات أن نجد الصحف الأوروبية ، وبالأخص الإنجليزية ، تصف هـذا الشعب الثائـر بأنـه من الغوغاء ، إلى هنا ولا ضير ، ولكن الحنق بلغ ذروتـه لأنها وصفته بـأنها طغمة من الرعاع ، هكذا بلا حياء.إلى اليوم لا أزال أذكر الوقع الأليم لهذه الكلمة فى قلبى وأنا صبى ، كأن الصفعة رنت على خدى ، تمنيت أن نعرف كيف نثأر لكرامتنا ونرد على هذا السب ، لا شك أن كل إنسان كان حاله كحالى ، شعور عام متقد يطلب الشفاء ، يطلب بطلا يخرج من صفوف

الشعب ، أخشى أن أقول ! يطلب جثة شهيد يخرج من صفوف الشعب ، نريد موقفا دراميا يختلط فيه الشفاء بالفداء ، فالشعور العام فى اتقاده ارتد إلى وثنية البداوة ، أصبحت الكرامة كالصنم الذى لابد أن تقدم له الضحايا ويراق على جوانبه الدم . حين يتقد الشعور العام تنطلق قوى خفية لا ضابط لمنطقها ولا شهواتها ، أحيانا لا تكون لها شهوة إلا التدمير ، ضع قطة وكلبا وقردا فى حجرة مرتبة الأثاث ، القرد وحده هو الذى سيبعثره ويحطمه فى غمضة عين ، هو من أبناء عمومة أجدادنا الأوائل .

لم يكن يدور بخلدى أن اختيار هذه القوى للضحية ، للشهيد ، سيقع على صبى يقيم بالقرب من دارى ، كان فى مثل عمرى ، الفارق أننى ببدلة فوق قميص وهو بجلابية على اللحم ، أننى منتعل وهو حاف رغم أن مهنة أبيه هى صنع القباقيب ، وقديما قالوا : زامر الحى لا يرقص . من صفوف الرعاع فى نظر الصحف البريطانية خرج البطل الشهيد الذى ثار لكرامتنا ورد الصفعة ، ردها أيضا عن خدى أنا .

تعال نصل من منزلنا إلى دكانه ، كنت أعرفه وأمر به كلما ذهبت للقرافة أو زيارة السيدة سكينة والسيدة نفيسة ، عن يمينى « سبيل أم عباس » بزخارفه النحاسية البديعة وساعته الدقاقة « الزخارف الآن صدئت والساعة خرست ».على الناصية دكان المرابى الأرمنى كركور كيمكيجيان ــ نصف متر فى نصف متر ــ لا يتسع إلا لكرسى صغير أمام خزنة كبيرة ، احتمى هو وأسرته بمنزلنا ، فعاش أياما معنا : اعتديتم ولكننا لا نعتدى . . صفحات سود مطوية هى الآن لأن من طبع هذه الأمة

أن تعفو عما سلف ، لندخل بعد ذلك شارع الركبية ، ونمشى قليلا ، على اليسار دكان مظلم طويل عريض عميق ، ولكنه خلاء بعد إعصار ، نثر فيه نشارة الخشب وفتاتا من خشب غض له تعاريج وبزاز ــ هكذا تسمى مع أنها غائرة لا نافرة ــ ، وشرائط ملعبكة من الصفيح ، وقطعا مشرذمة من الجلد السختيان ، لا أدوات إلا منشار « وقدوم » له طرف حاد ينحت وطرف غليظ يضرب ، والعمل يتم على منضدة صغيرة واطئة عند مدخل الدكان ، هذا هو مصنع قباقيب الحى ، وسيلة طائفة من فقراء المدينة لمقاومة الحفاء ، وبعض متيسريها لدخول الحمام ، ولكن لا تشهر بهذا القبقاب ، إذا لبسته فتاة معجبانية أصبح فى قدميها كالصاجات فى يديها ، إذا مشيت به كان لوقعه على الأرض نغمة كلها دلال ، إنه ايضا يكشف عن الكعب المحنى ، ربانى لا اصطناعى ، ولصاحب الدكان ولد وحيد ، هو كل أمله واعتماده إذا أعجزته الشيخوخة ، ولد تجمع نظرته بين الخوف والفرعنة ، بين الذل وحب المعابثة ، إنه ينتزع لهوه الفارغ من بين براثن وحوش مفترسة ، هى أبوه وحياة الشقاء والعناء .

وقع الاختيار على هذا الولد الوحيد ، سقط قتيلا برصاص الإنجليز فى مظاهرات مرت أمام الدكان فسار معها ، يردد هتافاتها ، فخرجت له جنازة مشهورة فى تاريخ الثورة ، بأنها « جنازة ابن القباقيبى » سار فيها الشعب كله ، من مستشارين وقضاة ومحامين ، إلى الطلبة والتلاميذ ، إلى صفوف غفيرة من أبناء الشعب ، كنا نريد بهذه الجنازة أن نقول لصحافة إنجلترا : انظرى الرعاع يشيعون بطل الرعاع . لم تشبهها جنازة أخرى طوال الثورة .

ماذا كان اسمه ؟ أين قبره ؟ لا أحد يدرى . كم عدد شهداء ثورة سنة ١٩١٩ ؟ لم يجر إلى اليوم إحصاؤهم مع الأسف ، ولا تخليد أسمائهم فى « سجل شرف » دع عنك إقامة نصب تذكارى يفى بحقهم علينا ، تمنيت ــ لو أقيم ــ أن يكون التمثال المنصوب هو تمثال صبى بجلابية ، يمسك فى يده المرتفعة فردة قبقاب . .

(« المساء » ، ١٩٦٩/٤/٢٨ ، ص ٦)

تعليقات عن هواية لا عن احتراف

ما أشبه الدكتور محمد أنيس بدينامو عفى يرجع إليه فضل كبير فى تحريك دراسات تاريخ مصر الحديث من سباتها ، ودفعها إلى الأمام على ضوء مصابيحه الكشافة ، من حقه هو وبقية الأساتذة زملائه فى « مركز تاريخ مصر المعاصر ــ بالجيزة » والجمعية المصرية للدراسات التاريخية (وكنت أود أن أذكرهم واحدا واحدا اعترافا بجميلهم علينا) أن تقابل جهودهم بالإعجاب والثناء . إن عملهم منبعث أولا من حبهم لوطنهم ، ولاشك أن باب العصر الحديث فى كتاب تاريخ مصر منذ الفراعنة أو حتى ما قبل التاريخ ، هو عندنا أشد الأبواب خطرا ، لأنه يمدنا بأنجح تفسير للحاضر وأكثره تشويقا حتى للقارىء غير المهموم به ، لأنه يرى فيه نفسه ويسترجع به ذكر أبيه ، ومن منا لا يحب أن يرى صورته فى المرآة ، لا يحب أن يقلب الألبوم

لا جرم أن هذه الدراسات فى سعيها للاهتداء لمنهج علمى تتميز به بعد أن تحقق تمصير التاريخ المصرى وكسر احتكار الأجانب له قد تعرضت

لمآزق غير قليلة ، فهى حين أرادت تطوير الدراسات من النظرة التقليدية إلى النظرة العصرية مالت إلى استيراد المدرسة المادية من أوروبا، بكل ما تحتويه من مفاهيم ومصطلحات مثل : اقطاع ، بورجوازية ، أرستقراطية ، . . . الخ . . وكل هذه أشياء خاصة بمجتمعات بينها وبين المجتمع المصرى فروق كبيرة ، فكان ينبغى لأساتذتنا أن يصوغوا لنا ــ منعا للخلط ــ مصطلحات مستمدة من مفاهيم واقعنا نحن ، فهل لدينا اقطاع وبورجوازية وأرستقراطية بمفهوم المدرسة المادية ؟ . . كان ينبغى الإجابة على هذا السؤال قبل أن نستورد هذه المصطلحات ونجعلها محاور لدراستنا التاريخية ، من أجل هذا قال أصحاب النظرة التقليدية عن المدرسة المصرية الحديثة ذات النظرة العصرية إنها بدعة من البدع ، لا لشىء آخر قد يدور فى خلد الدكتور أنيس .

ومن المآزق أيضا أن بعض الوثائق المكتشفة حديثا المميزة لجوانب من تاريخنا المعاصر كانت مجهولة لدينا تغرى لا بتعديل الرأى فحسب ، بل بالقفز إلى تعميم الحكم ، مع أن اللوحة لم تكتمل بين أيدينا حتى يسوغ لنا تعميم الحكم ، فظهور الوثائق الجديدة لاينفى ، بل يقطع بوجود وثائق أخرى تنتظر منا اكتشافها . وأسلم طريق أن تبدأ هذه الدراسات بمرحلة تقود لما بعدها . . أولها مرحلة تجميع الوثائق ، فلا تاريخ بلا وثائق ، وهو ما لم نفرغ منه بعد ، حتى داخل البلد لا خارجه فحسب ــ ياللعيب ! . . ونحن لا نزال ننتظر مولد دار الوثائق القومية ، متى ؟ . . الله أعلم ؟! .

وأود هنا أن أقترح توسيع مجال البحث فلا نسترشد بالمؤرخين وحدهم بل أيضا بمن نجده من أساتذة الأدب مشغولا بالبحث عن الخلفية التاريخية

للحركة الأدبية ، ففى علمى مثلا أن الأستاذ أنور لوقا الذى هاجر إلى أوربا وخسرته الجامعة عندنا مع الأسف . . قد اهتدى إلى وثائق خلفها رجل فرنسى (غاب عن ذاكرتى اسمه) ، كان أحمد عرابى قد اتخذه بمثابة سكرتير له ، كذلك لا ينبغى للمؤرخ أن يسقط من حسابه وتقديره مؤلفات الأدباء عندنا فى سيرة بعض أعلام عصرنا الحديث باعتبار أنها من عمل هواة لا تخصص لهم فى التاريخ .

بعد استكمال المرحلة الأولى ننتقل إلى المرحلة الثانية ، مرحلة الترتيب والتستيف ، بإنشاء سجلات ترصد الأحداث بتتابعها الزمنى ، وسجلات متخصصة فيكون لكل علم من أعلام مصر سجل خاص به يتضمن كل أخباره وأعماله وكذلك كل المراجع التى جاء فيها ذكره ، فإذا استكملنا هذه المرحلة الثانية انتقلنا إلى مرحلة الدراسة ، حينئذ يصح لنا أن نصدر الحكم . وحبذا لو بقينا مع ذلك فى حذر من تعميمه .

وقبل أن آتى لك بمثل على القفز إلى تعميم الحكم ونحن لا نزال فى المرحلة الأولى أخبرك أن الصدفة وحدها شاءت أن تستنقذ لنا من الإهمال والضياع والتلف وثائق (يبلغ وزنها ٢٥ طنا !) عن تاريخنا منذ محمد على إلى آخر أيام فاروق ، كانت ملقاة كالقمامة فى ركن بقصر عابدين ، من بينها تقرير سرى وضعه الدكتور (لقب مهنته) أحمد فؤاد « عضو الحزب الوطنى ، بعد أن استجاب لطلب الدكتور « فى القانون لا فى الطب » حسن نشأت رئيس الديوان الملكى بالسفر إلى أوروبا لرصد النشاط السياسى الذى كان لا يكف عنه الخديوى عباس الثانى المخلوع عن العرش ، وقد جاء فى هذا التقرير المؤرخ فى ٢٢ يوليو سنة ١٩٢٤ أخبار

عديدة عن بعض رجال الحزب الوطنى ، فلما اطلع الدكتور أنيس على هذا التقرير المرفوع من أحمد فؤاد إلى أحمد فؤاد (ما أعجب تشابه الاسم بين الملك ورسوله) قفز إلى تعميم الحكم ، وقال لنا بالحرف الواحد : (روز اليوسف ، ١٧ يناير الجارى) .

« يكاد يكون من المقطوع به استنتاجا من هذا التقرير أن الحزب الوطنى بعد ثورة سنة ١٩١٩ لعب دورا سيئا بل مخربا فى الحركة الوطنية المصرية » انتهى كلامه .

لست منحازاً للحزب الوطنى ولا أنبرى للدفاع عنه ، ولكنى لو كنت مكان الدكتور أنيس لما أبديت هذا الحكم للقارىء إلا وسط دراسة شاملة عن حقيقة العلاقة بين الحزب الوطنى والوفد المصرى.إن كان قد ساء الدكتور أنيس تصرف بعض أعضاء الحزب الوطنى ، فقد بقى أعضاء آخرون نزل بهم الظلم من جراء تعميم الحكم . .

ونشر الوثائق المكتشفة مقطعة بغير تعليق أو دراسة قد يحمل القارىء على إصدار حكم على أشخاص مذكورين فى هذه الوثائق ، هو خليق أن يعدل عنه لضده إذا ألم ببقية سيرتهم ،فقد ينقلب هؤلاء الأشخاص من حال إلى حال . مثال ذلك : جاء فى تقرير الدكتور أحمد فؤاد أخبار عن رجل تتطلب من القارىء أن يحكم عليه بأنه كان من أصدق أبناء مصر حبا وإخلاصا وخدمة لها ، ولو تابع سيرته لوجده كالنجم إذا هوى . . تزعم الجهاد وباع نفسه للقصر وللإنجليز بيع السماح لقاء وظيفة عالية . . وقد يكون العكس صحيحا أيضا ، فتحسن خاتمة رجل لم تحسن بدايته .

وهناك مأزق آخر ناجم هذه المرة من الدخول فورا فى دراسة تاريخنا الحديث دون أن نبدأ أولا بوضع التقاليد التى ينبغى أن يلتزمها الجميع (أقول هذا وذهنى متجه إلى الصحافة) . مثلا ما هى الفترة الزمنية التى ينبغى مرورها قبل أن يسوغ لنا ذكر الرجل باسمه صراحة ؟ إذا حددنا هذه الفترة جعلناها عدتنا فى مطالبة وزارة الخارجية عندنا بأن تفتح لنا ملفاتها السرية التى يسبق تاريخها هذه الفترة ، هل هى ٥٠ سنة ؟ إن كان هذا فقد قاربت وزارة الخارجية فى عهدها الحديث أن تبلغ هذا العمر ، فلو فعلت لكشفت لنا وثائق عن حادثة ضرب المحمل فى أول عهد الوهابيين بحكم الحجاز ، عن حادثة الطربوش التى جرت للمرحوم عبد الملك حمزة مع أتاتورك . إلخ . .

وقد نجم عن التأخر فى وضع هذه التقاليد شىء من التخبط والوقوع فى تناقض بلا مبرر ، فنحن نرى فى تلخيص «روز اليوسف» لمستندات عابدين ورود ذكر لرجل كان فى وقت مضى زعيما سياسيا ، وعرفنا لأول مرة أنه كان يقدم تقارير سرية إلى « كلايتون » عميد المخابرات البريطانية فى مصر ، وقد كتم التلخيص اسمه وأدركنا أن السبب هو دخول هذا الرجل فى الفترة التاريخية التى توجب كتم الأسماء . على حين أتى فى هذا التلخيص ذكر لرجل آخر فى عين الفترة ، وفهمنا منه أنه كان أيضا على صلة بالبوليس السياسى ، ومع ذلك فقد جاء ذكر هذا الرجل بالاسم ، والتهمة واحدة . . فلو كانت تقاليد البحث قد استتبت ودان الجميع (حتى الصحافة) باحترامها لكان من العدل أن يعامل الرجلان معاملة واحدة . .

(« المساء » ، ١٩٧٢/١/٢٤ ، ص ٤)

احتكام غريب

إننى أجد متعة كبيرة فى أن ألتمس قبسا من تاريخ مصر الحديث من قراءة مؤلفات الرحالة الأجانب الذين زاروا بلادنا والمذكرات التى خلفها رجال رأوا هذا التاريخ يصنع بأيديهم أو على أعينهم ، هى بمثابة شهادة الشهود تنبض بحياة لا تجدها فى أسفار المؤرخين الذين يبيعون لنا أحداثا لم يشهدوها وغالبا بعد عصرها بزمن طويل . ولكن كتب الرحالة لا تخلو عادة من سطحية النظرة والتعجل فى الحكم ، وشهادة الشهود لا تخلو عادة أيضا من الهوى والتحيز وبخاصة حين لا يقتصر الشاهد على رواية ما حدث منه ، بل يهدف أن يدافع عن نفسه ولو بين السطور ، أحيانا بالكتمان وأحيانا بالتعسف فى التفسير إن كان دوره فى صنع التاريخ قابلا لتناوله على أوجه مختلفة طيبة وغير طيبة .

وقد قرأت أخيرا بمتعة وأسى (وقد يجتمع الضدان) كتابا صدر سنة ١٩٣٣ من تأليف البارون فيرمين فان دن بوش ، وهو بلجيكى كان يشغل

عندنا منصب النائب العام فى المحاكم المختلطة وعنوان الكتاب « عشرون عاما فى مصر » ، أتمنى أن أقدم لك فى يوم خلاصته لتعلم كيف كان يحكم علينا وعلى بلادنا ، وأكتفى هنا الآن بأن أترجم لك فصلا روى فيه حدثا هاما فى تاريخ مصر الحديث يتعلق بالنزاع الدستورى بين الملك فؤ اد وسعد زغلول وكان للمؤ لف دور كبير فيه . . سترى رأى العين مسلك الرجلين وملامحهما إبان الأزمة . ولعلك ستعجب بعد قراءة هذا الفصل كيف أن مصالح الدولة العليا كان يبت فيها حينئذ بتحكيم الأجانب :

فى يوم سبت من شهر ابريل سنة ١٩٢٤ والوقت ظهر وأنا فى مكتبى فإذا بالقاهرة « تدق التليفون » المتحدث هو سعد باشا زغلول رئيس الوزراء يطلب منى أن أزوره فى مكتبه غدا فى الساعة الرابعة بعد الظهر فاعترضت بأننى رتبت أمورى على السفر للعاصمة يوم الخميس وأقول له إننى مشغول بأعمال قضائية ينبغى إنجازها وأسأله إن كان فى الإمكان تأجيل موعد الزيارة فيكون جوابه ، لا يمكن إن الأمر عاجل وهام وأدرك من نبرة صوته أن الأمر خطير ، ويدق تليفون القاهرة بعد عشر دقائق مرة أخرى . إنه نشأت باشا الرجل الذى يعتمد عليه الملك فؤ اد ويثق فيه كل الثقة يسألنى إذا كان الاتفاق قد تم على الوفاء بالموعد الذى حدده رئيس الوزراء ويضيف هو الآخر : لا غنى عن حضورك فى غد .

يوم الأحد أسافر للقاهرة بقطار الصباح وحين أبلغ محطة بنها إذا بمواطنى المحامى جورج موزياخ يدخل مقصورتى دخول عاصفة هو جاء . إنه جاء بالسيارة ليدركنى قبل الوصول ليحذرنى بما علمه من أحد الوزراء من أننى دعيت من أجل تسوية نزاع دستورى خطير بين الملك فؤ اد وسعد

باشا زغلول وأن الحل الذى سيسفر عنه هذا النزاع سيتوقف عليه مصير الحكومة وأمن البلاد . أبديت له وجها يزعم أن الأمر لا يهولنى ولكنى أدرك فى قرارة نفسى ما لهذا الأمر من خطورة بالغة نظرا لعلمى بخلق الرجلين المتنازعين .

فى الساعة الرابعة أصل إلى رياسة الوزراء . الحديقة غاصة بوفود ترفرف عليها الأعلام الملونة بالأخضر والأحمر وترتفع منها هتافات مجنونة : « يحيا سعد » .

حجرة الانتظار مزدحمة بالزاور ولكن السكرتير لم يكد يرانى حتى يهرول نحوى ويدخلنى إلى مكتب الرئيس . سعد زغلول جالس وراء مكتبه ناصبا قامته ويمد لى يده ويقول : « مرحبا بك، إننا فى حاجة إليك.» ثم يمضى من فوره يشرح لى النزاع الذى نشب بين الملك والوزارة بشأن تفسير مادة فى الدستور، وإذ كان هذا الدستور مستمدا فى كثير من نصوصه من الدستور البلجيكى فقد دعيت للإدلاء بالرأى فى هذا النزاع ، فالمادة ٧٤ من الدستور المصرى تنص على أن الملك يعين خُمْس أعضاء مجلس الشيوخ بلا حاجة إلى انتخابه . فهل هذا النص يمنح الملك حقا مرتبطا بشخصه وحده له أن يباشره دون دخل من وزرائه ، أم أن هذا الحق مرتبط بالقاعدة العامة المنصوص عليها فى المادة ٤٨ التى تقرر أن الملك يباشر سلطاته عن طريق وزرائه ؟ ويختم رئيس الوزراء حديثه وهو يدق بيد عنيفة على مكتبه : هذه هى المسألة وينبغى أن تحل فى ٢٤ ساعة .

أبدأ بالتراجع وراء العذر بأن مواد الدستور ليست حاضرة كلها فى ذهنى وأطلب أن أراجعها وأن يتاح لى الوقت للتدبر فلابد لى من تأجيل

قرارى ، وإلى أن يحين حينه نتابع بيننا الأخذ والرد . ما أعجب أن تجد فى رجل بلغ السبعين وأضناه النفى والمرض مثل هذا التوقد الذهنى المدهش ، بل الأعجب أن تجد فيه مثل هذه الإرادة القوية الطاغية الشموس .

لا ينقطع هتاف الوفود مطالبة بأن يطل عليهم . يذهب مرة وأخرى وثالثة إلى الشرفة ويشكرهم بلطف وإيجاز . لم يرهقه الإلحاح ويفقده ضبط أعصابه فتقوس قامته على الشرفة ويصرخ بلهجة آمرة : « طيب ، طيب ، دعونى أعمل بهدوء من أجلكم » ، ثم يغلق الشرفة بحركة خاطفة وتنتهى الزيارة . يقول الباشا لى : « إلى غد فى الساعة العاشرة بقصر عابدين » .

تحل عتمة المساء وأشق بصعوبة طريقى وسط حشود المتظاهرين فى بحر من أثواب متعددة الألوان . الأعلام ترفرف كأجنحة الطير المذعور ، الأيدى كلها مضمومة مرتفعة فوق الرؤوس وهدير صاخب يؤم هذا الشيخ العظيم ، إنه واقف فى الشرفة العالية فى غمرة الضوء ، ذراعاه المفتوحان كأنما زاد طولهما ليضم بحنان إلى صدره العريض هذا الخلق جميعا . وحين دخلت فى صباح الغد على الملك فى مكتبه وجدته بادى الاضطراب يعالج قلقه بلعب يده بقاطع للورق وزغلول باشا قباله مسيطر كل السيطرة على نفسه يتكلم ببطء هادىء .

ودار النقاش بينهما أمامى فأدركت من فورى أهمية النزاع وخطورة نتائجه . ففى جانب ملك نشأ فى أحضان التقاليد الشرقية التى تسند السلطة إلى شخصه ، وهو اليوم يحاول أن يستبقى لنفسه آخر رمق فيها . وفى جانب رئيس الوزراء معتد كل الاعتداد بالحقوق التى منحها له

الـدستور . الكـلام بينهما مهـذب ولكنى أحسست تحته خصـومة تتهيـأ للانفجار المؤدى إلى كارثة ، وأنه ينبغى فضها بغير تمهل .

فى أثناء الجلسة حين اشتدت حدة النقاش نـطق زغلول باشـا بهذه الكلمـات « لو أننـا استشرنـا الشعب . . » ومن خلال زجـاج النـافـذة العريضة امتدت نظرتى إلى ساحة عابدين يغطيها رمل ذهبى ويغمرها ضوء شمس سـاطعة . النـاس منصـرفـون فى هـدوء إلى أعمـالهم . الأولاد يلعبون . وقلت فى سرى « كلمة واحدة من فم هذا الرجل السياسى الذى يملك فى يده مصر كلها ، أرواحها وأجسادها ، فـإذا صورة هـذه الحياة الوديعة خالية البـال تنقلب إلى مشهد مخيف لغضب الشعب.» وارتفـع صوت زغلول وقال : « هل تقبل جـلالتكم أن يفصل النـائب العام فى النزاع وأن يكون قـراره حاسـماً » ؟ فكر الملك بـرهه قصيـرة ثم خضع وقال : « فليكن » .

أستأذنت أن أخلو بنفسى قليلا ، فقادنى أحد الأمناء إلى صالون يطل على حدائق القصر . ياله من مشهد ساخر . تلال المقطم ملتفة بغلالة من ضباب وردى . قباب مساجد ومآذن رشيقة تشب إلى زرقة السماء . وفى مهبط نظرى حديقة تحكم النظام فى دلال أهوائها المنطلقة،فى ظلال نخيلها زهور يانعة تمازج بإبداع لذيذ نضرة العشب السندسى :

فى هذا الإطار الفريد خلوت إلى نفسى أفكر ، وكتبت على عجـل بالقلم الرصاص بضعة أسطر . ولما عدت إلى الرجلين وجدتهما فى عين الوضع الذى كنت تركتهما فيه ،أحسست بالتأثـر يغلبنى بشدة وأنـا أقرأ

عليهما التصريح التالى « لا حق لى أن أصدر حكما فيه تقييم للدستور الذى ترسم البلاد على هديه طريقها ، ولكن إعفاء الملك من المسئولية هو أساس هذا الدستور ، فليس له أن يباشر سلطاته إلا عن طريق وزرائه ، وهذا المبدأ لا يقبل فى نظر القانون أى استثناء ويسرى على كل أعمال الملك فإذا أبحنا فيها له استثناء واحداً نكون قد هدمنا الدستور من أساسه . ولذلك أرى أن تعيين أعضاء مجلس الشيوخ ينبغى أن يصدر من الملك بناء على عرض من مجلس الوزراء » .

ثم أضفت : لقد نلت شرف اختيارى للتحكيم لأننى بلجيكى وبسبب التشابه فى الدستور بين بلدينا . فأرجو من جلالتكم أن تسمحوا لى بتذكيره باحترام أن بلجيكا عرفت فى ظل الدستور ثلاثة ملوك . أما الأول فقد أرسى استقلالنا المزعزع على قواعد ثابتة . واستطاع الثانى رغم القيود المفروضة على سلطته أن يكون صاحب تأثير قوى رائع على حياة أمته ، وأما الثالث فجلالتكم تعلمون أن الدستور لم يمنعه من أن يكون جنديا يدافع عن وطنه وأن يكون أكثر أهل بلده محبة له .

مد الملك فؤاد لى يده فجأة وقال : قبلت الرأى الذى صغته على هذا النحو ، أشكرك . وأضافَ زغلول باشا : وأنا أيضا . انتهت المقابلة وحين جلست فى السيارة إلى جانب رئيس الوزراء أمسك بيدى وعبر لى عن امتنانه وعرفانه بالجميل قائلا لى : لقد جنبت مصر أزمة خطيرة ، خطيرة جدا . (انتهى الفصل) .

ترى ماذا كان يكون موقف سعد زغلول وقراره إذا انحاز البارون فيرمين فان دن بوش إلى الملك ضده ؟ لا سبيل إلى الجزم بشىء إلا بأن

صاحبنا البلجيكى قد خرج من قصر عابدين مزهوا منتعشا يجوس خلال القاهرة وهو يقول لها فى سره ؟ أقدارك كانت رهن إشارتى ولكن إن خيل إليه أنه حرق أوراق اللعب فى يد الملك فؤاد فإنه لا يعلم أن « أبو شوارب » يخفى فى كمهأوراقا أخرى عديدة يأنف منها الشرفاء .

(« المساء » ، ١٩٦٤/١٢/٢١ ، ص ٨)

الإنسان أولا . .

إذا أردت أن تعرف فى بلدنا مثلا على ما يفهمه الإنجليز من وصف رجل منهم بأنه « جنتلمان » فلن تجد خيرا من عبد الله حمزة ، وكان هذا النعت شائعا ــ حتى بنطقه الإنجليزى عندنا ــ حتى مطالع هذا القرن ، ثم اختفى ، حلت مقاييس ومصطلحات جديدة فى تصنيف الرجال ، لذلك كنت أحس أن عبد الملك حمزة ــ فى أواخر أيامه التى طالت ــ ينتمى إلى عالم قد انقضى بخيره وشره ، كان له مظهر صفحة قديمة منمقة بخط اليد وضعت خطأ فى كتاب مصفوف باللينوتيب ، تزينه ، ولكنها مستوحشة ، لا بد من تجاوزها لمتابعة القراءة .

ومن عجب أن هذه الأسرة التى نزحت من الصعيد إلى بور سعيد ــ مدينة العمل والتجارة وأخلاقيات السوق المفترس ــ ينشأ فيها ابن مختلف الطبع والسمت ــ كأنه الشحرور الأبيض المائل إلى الروحانيات لا إلى المادة ، نظيف الملبس والسريرة ، ممشوق القامة كالفتاة ، صلب ولدن معا ، جاوز الثمانين دون أن يميل عموده الفقرى شعرة إلى الأمام ، والبدلة

التى لبسها أيام شبابه لا تزال تصلح له ، بشوش ، خفيف الوقع على الناس جميعا ، همه الأول أن يريح محدثه ، أن يرفعه منذ أول لحظة من دنيا المصالح والشكوك والمخاوف ومقارنة الأسلحة المخبأة وراء الظهور والضحك على الذقون إلى عالم الأخوة والود والصفاء والجمال ، يؤمن أن كل إنسان فيه نواة هى قبس من نور الله . لا شىء من هذا كله كان يجديه لولا أنه استنزف من أجيال الأجداد والآباء كل معينهم القابل للتوارث من الذكاء والفطنة ، لا شك أنه كان وفيرا ، فاحتكره لنفسه ، ولولا اختصاصه بصوت ناضج فكأنه أجش ، مخملى ، منغم ، لا ينبعث من أوتار حنجرته بل تحسبه تنفس فى كهوف سحيقة ، لم أسمعه قط - على طول صحبتى له - يرتفع فى غضب أو حدة ، كل نطق له فى جميع أحواله أشبه بالنجوى ، من يدرى ؟ لعله كان وهو يتحدث إلى الناس يناجى نفسه ، وبوجه دقيق الملامح ، مسمسم ، لا يعرف الجمود ، أكثر شىء حركة فيه عيناه ، لا تنفك نظراتها إما تجوب ما حولها ، تقيس بإحكام وفى سرعة البرق مكانها من العالم والمنطق - نفاذا من فوضى التشبيه إلى أفضل مراصدها ، فلا شىء مطلق ونهائى ، وهذا هو سر التسامح ، وقد يحسبه الغافل حينئذ أنه مطبوع على التردد ، يجرى وراء ألف أرنب فلا يصيد واحدا ، ولكنى لم أر إنسانا مثله يعرف ما يريد ، عن بينة ووثوق - ثم يمضى إليه ، هيهات أن يعدله حائل ، أو ناصح ، لعله يجد فى اللف والدوران معه بأبعد متعة وتسلية . ومن رجال الفكر من يستشيرك ، لا للأخذ برأيك بل للتلذذ بمقارعة الحجة بالحجة ، دون التزحزح عن النية ، وإما مصوبة إلى عينيك ، وأحيانا كثيرة إلى صدرك ، كأنها آتية من

وراء الغيب ، كنظرة الأعمى وإنْ تكن مبصرة ، هى ألسنة كاشفة تتغلغل فى أعماقك ، ليس مقصدها الفضيحة ، بل التكاشف - من أجلٰ التعارف والتآلف ، بعيدا عن الهموم والصغائر .

فكان وهو فتى غرير يسعى ويسعى إليه فى محافل الرجال المحنكين ، ذكاؤه وبشاشته - لا عمره وتجاربه - هما شفيعاه ، قال لى صديقى عبد الحميد فهمى : إن أباه الشيخ الوقور المتخير بشح جلسائه كان لا تنعقد له حلقة منهم فى بيته إلا إذا ضمت جاره الطارىء العابر ، الفتى الصغير عبد الملك حمزه ، الذى نزل أبوه بحلوان طلبا للاستشفاء فلم يصحب من أسرته أحدا غيره .

فى مدرسة الحياة لا على مقاعد التحصيل نمت وزكت مداركه ، فلم يكن يتكلم كالببغاء ، أو عليما بالنظريات ، جاهلا بمآ لها عند التطبيق ، واستقى لغته حية من أفواه الناس فى عز المعاناة لامنبتة فى بطون القواميس والمراجع ، فكنت لا تجد إنسانا يماثله فى تزايد عدد أصدقائه الحميمين ، لا يوما بعد يوم ، بل كأنما ساعة بعد ساعة ، فلو شجر إنسان ليتشكل برهة عدوا له لضاع وسط هذا الزحام أو لانقضى بسببه سحره ، فارتد سويا وانضم إلى صفوف الأصدقاء .

كان يعوم كالسمكة وسط المجتمعات ، تحت كل الأجواء ، فى بلده وخارج بلده ، غير قادر على الوحدة ، لو فرضت عليه لأودت به ، كأنما هو والنحلة - لولا إبرتها - ينحدران من أصل واحد ، لذلك كان يجد نفسه - بلا سعى منه أو مطمع - فى وسط الأحداث ، لا يريد أن يمسك بالزمام ، لا عن عجز فيه ، بل عن تجمل وإيثار ، لا تمتد يده لتزيح بداعنه ، فأكره

شيء عنده هو التزاحم والتكالب والزعم زهوا أنه مبعوث العناية الإلهية لموقف ليس له غيره ، وإنما كان يفرض أن هذا الموقف مهما بدا معقدا وعسيرا لا بد أن يقيض الله له قوى هي كفء له ، جديرة بمعالجته ، ولكن قد تقعد لها العلل ، كقصور الهمة والتشتت أو غموض الرؤية ، فكانت وظيفة عبد الملك حمزة في حياته السياسية الطويلة هي تجميع هذه القوى الصالحة وبث الثقة بقدرتها في ضميرها ، إنارة الطريق لها ، شق ثغرات تصب فيها إلى غاياتها .

ولم يحدث بسبب هذا الفيض الغريب من الود المتدفق من قلبه ـ أن جلب عليه مسلكه هذا مسارعة بعض أئمة الغافلين ، أو غلاة المتحمسين ، أو شطار العائمين على الشط ، إلى حسبانه بين رجال السياسة من الهواة ، له الفرح عند التوفيق والنجاة عند التعثر ، تاركا للمحترفين مسئوليتهم في السراء والضراء معا ، أو حسبانه من هذا الصنف الذي يتألق إذا دفعته قدراته إلى الوقوف على رأس الصف الثاني ، فإذا تقدم إلى الصف الأول شحب ولم تنفعه أو تسعفه ميزاته المشهود بها من قبل ، وقليل جدا من أحسن العكازات ما يصلح أن يكون دفة في سفينة .

هذا هو عبد الملك حمزة ـ الإنسان ـ حضرت مأتمه وأنا أتأهب للسفر إلى بعيد ، وكان أول شيء يلتحم به خاطري ووجداني عند العودة هو ذكراه ، وحقه علي ، أما جهاده الوطني ، وكيف عرفته ، وما حكاية الطربوش التي ارتبطت باسمه فسأحدثك عنها من قادم .

(« المساء » ، ١٢/٥/١٩٦٩ ، ص ٦)

لحظة

أعود فى حديثى عن المرحوم عبد الملك حمزة إلى اليوم الذى سافرت فيه بحرا من استانبول إلى أثينا ، لا لشىء إلا لأرسل منها بالبريد المسجل إلى وزارة الخارجية بالقاهرة مظروفا مبرقشا بأختام مشرذمة غليظة من الشمع الأحمر أجعله نصب عينى طول الرحلة وأحمل همه ثم أكر راجعا من فورى إلى حيث أتيت . لم يكن تمثيلنا الخارجى فى ذلك العهد يعرف « حامل الحقيبة الدبلوماسية » الطواف بين المراكز والفروع ليستبقى السر فى يد أصحابه وحدهم . وجرت مفوضيتنا فى أنقرة على إرسال تقاريرها السرية إلى القاهرة بالبريد التركى : كبقية خلق الله هل يتحايل الأتراك على فتح المظاريف « وهى مسألة سهلة » فيطلعون على هذه التقارير ؟ لا يستبعد منهم التجسس علينا ولكنى لا أظن أنهم لجأوا إليه أو لعلهم جربوا مرة أو مرتين ثم عدلوا لأنهم وجدوا ولا ريب أن تقاريرنا السرية قائمة على معلومات شائعة ، أولاخطرلها.لم تكن لمصر حينئذ سياسة خارجية وإن كانت فليس لها وزن . وما كان التمثيل الدبلوماسى إلا حلية على صدر

الملك فؤاد لو فحصتها لوجدتها من النحاس بقشـرة من الذهب يكفيـه بريقها .

ولكن المظروف الذى كنت أحمله شذعن بقية السلسلة إنه كان يتضمن التقرير السرى الذى يروى فيه عبد الملك حمزة حكاية الطربوش التى وقعت بينه وبين الغازى مصطفى كمال ، وقدَّر أن الأتراك يترقبون هذا التقرير ويحرصون على الإلمام به وأنهم لن يتورعـوا عن فتح بـريدنـا ، فرأى أن يتفاداهم من قبيل التحرز فكلفنى ، وأنا أصغر مرؤسيـه منصبا وعمـرا وأكثرهم قدرة على التنقل واحتمالا له ، أن أسافر بتقريره إلى أثينا لأرسله منها : فالمسألة لا تزيد عن رمية حجر . وخلنا أننا أبقينا أمر رحلتى سرا متكتما ومع ذلك قال لى الضابط التركى الواقف بأسفل السلم وأنا أصعد الى السفينة وشفتاه تغمزان لى بابتسامة :

ــ صحبتك السلامة ، أنت ومظروفك !

جفلت ــ وعادت لذهنى فصدقتها كل روايات الأجانب المغرضين عن جواسيس السلطان عبد الحميد وخناجرهم المفضية بـالضحايـا إلى قعر البسفور وماؤه كليلة القتل كحل ، فسارعت أصعد السلم قفزا . .

وقد سمعت من عبد الملك حمـزة تفاصيـل واقعة الـطربوش لأنى لم أحضرها وقرأت تقريره أيضا . وإلى اليوم أذكر البراعة الفائقة التى كتب بها وأسلوبه الجميل وعباراته المشرقة . وكنت فى سرى لفرط حماقتى وتسرعى واعتدادى زهوا باطلا بنعمة أستبعد وقد أضيق أن يملكها أحد غيرى أحكم على عبد الملك حمزة لكثرة ما لاحظت من قلقه وقلة صبره على المعاناة وحبه للحركة وكرهه للحبسة على مقعد أمام مكتب،إنه رجل لا يتألق ذهنه إلا فى

صالون يزيد فيه عدد حسان الفتيات على عدد الرجال الخناشير وعبر أحاديث طيارى أشبه شىء بمبارزة سلمية بين أقران فى الذكاء اللامع والظرف وحضور البديهة وسعة الاطلاع والعلم بكل جديد ، وإذن ستجده الفارس الذى لا يغلبه أحد ، سيكون أينما حل وأيا كان من اجتمعوا وإياه واسطة العقد وإليه الانجذاب . تعلم وأنت على الباب وقبل أن تخوض الزحام وتتبين الوجوه هل هو موجود أم غير موجود ، فله إشعاع يكسو الحفل الذى يحضره . يفرز إحساسك بريقه حتى من بعيد ولا يخطئه . كان أكثر من عرفت سخاء وقدرة على نشر الانبساط حوله نثر أم العروس للبدرة فوق رأسها فينتهبها المعازيم بنهم وفرح . لو أردت أن أرسم له صورة رمزية لما جعلته إلا رجلا يهز مبخرة دخانها نور يشع من وجهه وعينيه ليطرد بها الاختناق وخبث الروائح وشرور الشياطين .

فلما قرأت التقرير الذى كتبه ندمت على ما فرط منى وغلوت فى تقريعى لنفسى وأدركت كم أنا مخطىء فى حقه ، كم أنا ظالم له ، لماذا لا نصبر قبل أن نحكم ، وهل ترانى عقلت الدرس ؟

لا وصف عندى لهذا التقرير إلا أنه نبت على أناة وتحويط برعاية مشفقة وعناية قاسية لرصيد ضخم من الحكمة والتجارب ، وسلامة المنطق ، وتملك لأسرار اللغة وبلاغة الأسلوب ، وحصيلة عمر مديد ، لا شغلة علق الفكر بها وحدها فى ساعة طارئة ، ونتاج جهد ومعاناة وتدبر وتقليب طويل للرأى واللفظ على الجنبين . ومع ذلك يبدو لك ككل نبت من الأرض أن كلامه خرج تلقائيا سهلا غابت من كماله تعثرات التحاليل على صنعته كأنما لا عمل لصاحبه إلا أنه اهتدى إلى شىء قد استقامت

خلقته سوية من قبل فنقله لك كما هو ، لا ندرى أيهما يحمل رفيقه . تحررت فيه المعانى فطغت فوق رسم حروفه ، فهى وحدها التى يعلق بها ذهنك وربما بصرك أيضا . فلو كان عازف عود لسمعت ألحانه دون أن تسمع وقع ريشته على أوتاره ولقلت فى نهاية الأمر أقرأ ولا أحسُّ أننى أقرأ .

من التقرير الذى قرأته ومن الحديث الذى سمعته من عبد الملك حمزة لا يزال يتوهج فى ذاكرتى الموضع الذى وصف فيه شعوره لحظة أن طلب منه الغازى مصطفى كمال فجأة وسط حفل رسمى كبير أن يخلع طربوشه . كان عليه فى سرعة البرق أن يدير بصره على وجوه الحاضرين وقد خيم عليهم الصمت والدهشة والتوجس والالتذاذ بالتفرج على كرب الآخرين وامتحان مسلكهم وقت الشدة ليرى كيف يرقبونه وماذا يتوقعون منه وإلا ماذا يتوقعون له . فمن منهم يدعو له ومن منهم يدعو عليه ؛ أن يصوبه أيضا إلى البريق الحاد فى عينى الغازى مصطفى كمال ليرى مقدار عناده وانفعاله ومن أين يكون اصطياد بواخه وكيف يكون رد فعله إزاء العصيان .

كان عليه فى سرعة البرق أن يجمع كل الاحتمالات وأن يوازن بينها وأن يختار الأصلح والأحكم . فى الذروة توتر أعصابه ، أصبح بدنه كالقوس المشدود يكاد يسمع له أزيز ينبىء بقرب التمزق . فى الذروة اتقاد ذهنه ، جمجمته أتون لا يملؤها إلا دم يغلى . يجفف حلقه ويكاد ينز من أذنيه وفمه وعينيه وأنفه ووجهه شاحب أصفر ولسانه منعقد ، ولكن كلامه لنفسه يهدر كالسيل يلتمس منه صفوة الزبد ، فإذا به يستثير من القاع عكارة تتألب عليه . أين يضع فمه ليشرب ؟

أحسَّ كأن الأقدار ألهته وهى تسوقه بمكر لتفضى به إلى هذا الموقف الصعب ليكون امتحان عمره ، وأن الأرض خلت ساعتئذ من الأزمات إلا أزمته ، وأنه مكلف من عالم المعانى المجردة ليجسد للناس مثلا بارزا على الحرج يظل دائما مرجع التشبيه والقياس إليه . اختلط السؤالان فى ضميره ، واحد بأنين : لماذا وقع عليه الاختيار ؟ وواحد بتجلد : ماذا يتبقى له أن يفعل ؟

ولكن ألا يحسن بى أن أبدأ الحديث من أوله ؟

(« المساء » ، ١٩٦٩/٥/١٩ ، ص ٦)

الطربوش

تلقى مدير أحد مصانع القبعات فى أوروباذات يوم برقية من استانبول تطلب إليه أن يشحن لها فورا نصف مليون كاسكيت ، فرك المدير عينيه ، لابد أن الرقم مغلوط ، فلم يحدث قط أن زادت صادرات القبعات لتركيا من جميع أنحاء العالم عن عدة مئات كل سنة ، الناس هناك يلبسون الطربوش ، فما الذى جرى ؟

جرى شىء مذهل لم يعرف التاريخ مثيلا له ، رجل واحد ، قبل أن يتذرع بالسلطة التى فى يده ، يتذرع بمجده الذى حققه بفضل نبوغه وعبقريته ، وبمحبة الشعب له ، ورفعه له إلى مصاف الأبطال لكى يفرض على أمته أن تتحول بين عشية وضحاها من دولة شرقية تعتنق حكومتها الدين الإسلامى إلى دولة غربية ، علمانية ، تنفصل فيها الدولة عن الدين ، تلغى الخلافة ، تطرد أسرة آل عثمان ، تغلق التكايا ، يقال للمفتى مع السلامة ، تتحول السلطنة إلى جمهورية ، بدل الشريعة يكون

القانون السائد هو القانون المدنى السويسرى ، مترجما إلى التركية بلا تعديل ولو فى مادة واحدة . خبط لزق ، زال تعدد الزوجات وتحريم زواج المسلمة من غير المسلم ، الزواج عقد مدنى فى البلدية .

لماذا كان هذا كله ؟ لأن الغازى مصطفى كمال محرر تركيا من جيوش الأعداء ، ومن احتلال استيطانى كاد يبلغ ثلثى البلد ، ويبلغ مشارف أنقرة ، صخرة الأناضول ، قلب الأمة التركية . كان يؤمن إيماناً راسخا لا يتزعزع ، بسبب مزاجه ، وربما عرق وراثته ، وبسبب تجاربه فى الحرب العالمية الأولى وقبلها ، حين سافر إلى ليبيا ، وحارب فى الجبهة السورية ،

أن كلمة « الإسلام » وكلمة « العرب » هما عنوانان للتخلف ، وأسوأ من ذلك ، عنوانان على العجز عن التقدم ، وما من بلاء حاق بتركيا إلا كان سببه عند مصطفى كمال أنها كانت تشارك العرب فى الاندماج تحت ظل الخلافة فى مجتمع إسلامى ، هؤلاء المسلمون ــ من عرب وغير عرب ــ فتحت تركيا لهم باسم الإسلام نصف أوروبا ، فماذا كان جزاؤها ؟

انضموا إلى أعدائها وطعنوها فى ظهرها فى الحرب العالمية الأولى ، هذا عهد ينبغى أن يولى ، إنه ثوب لا يقبل الإصلاح ، كل إصلاح يزيده رقعا ، لابد من تمزيقه وطرحه ، ولبس ثوب جديد ، مستورد من الغرب ، كما هو ، بلا تعديل ، فالحضارة الغربية كل لا يتجزأ ، إما أن ترفضها كلها أو تأخذها كلها ، أما أخذ شىء وترك شىء فهذا هو تمحك العاجز ، المتردد ، الذى يريد أن يغش نفسه ، ويكتم الجرح النتن بخرق من ضماد نظيف ، لابد من إعمال المشرط واقتلاع أم القيح ، لا وقت للترقيع ،

وللتجارب ، لأن الزمن يمر ، وركب الحضارة ، يجرى ، لابد من اللحاق به . .

هكذا كان إيمان مصطفى كمال ، ومضى كالملتاث فى الشوط إلى نهايته ، لا يقبل نصيحة ولا يطيق اعتراضا . إحلال الأحرف اللاتينية محل الأحرف العربية فى كتابة اللغة التركية ، القرآن يترجم إلى التركية ولا يتلى إلا بها فى المساجد ، الآذان بالتركية ، ولكن عجبا ، إن هذه اللغة التركية أكثر من ثلث كلماتها عربية . . فما العمل ؟

إذن هيا نفلى اللغة التركية – تفلية رأس مملوءة بالقمل ـ من الكلمات العربية لتحل محلها كلمات طورانية ، منبعثة من القبور ، غريبة الوقع على الأسماع ، بل الأسماء العربية الإسلامية التى يتسمى بها الأتراك لا بد من إلغائها وأن تستبدل بها أسماء طورانية ، ولا يكون التحول مطبقا على جيل المواليد من قادم ، بل له أثر رجعى ، فالشيخ الذى بينه وبين الآخرة خطوة لا بد له أن يطرح اسمه العربى الذى كان يؤمن أن الملكين سينادیانه به فى قبره ليتخذ له اسما طورانيا .

وطبع مصطفى كمال قائمة بهذه الأسماء الطورانية ، مرتبة ترتيبا أبجديا ، فما على هذا الشيخ إلا أن يفتح القائمة حسبما تتفق له ، وأن يضع إصبعه وهو مغمض العينين على اسم ، فيتلقاه كأنما ارتد طفلا بلحية طويلة خارجا من بطن أمه ، وربما احتفظ بالقائمة فى جيبه ، والصفحة مثنية الطرف ، وأمام الاسم علامة حتى إذا سئل عن اسمه فتلعثمت ذاكرته كما يتلعثم لسانه فى نطقه سارع إلى فتح القائمة والتهجى به كما يتهجى الصبى كلمة عويصة .

وبقى شىء واحد هو المظهر البادى للعيان لتخلف الشرق والإسلام عند مصطفى كمال ، وهو الطربوش ، ثم ما هذا القمع السخيف الذى يضعه الأتراك على رؤ وسهم ، لا يقى عيونهم من وهج ، ولا وجوههم من بلل ، وما معنى الزر ؟ لماذا ولبلادهم شرفة تطل على أوروبا يظلون بسبب الطربوش مسخة بين أهل أوروبا ؟

فرض مصطفى كمال على الأتراك بين عشية وضحاها أن يخلعوا الطربوش وأن يلبسوا بدله القبعة ، شنق رجلا لأنه عصى أمره وظل يرتدى الطربوش ، وسافر يجوب الأناضول وعلى رأسه « توب هات » لأنها أكبر قبعة فى السوق . هذا هو سر البرقية التى تطلب فجأة نصف مليون كاسكيت ، لك أن تسأل : لماذا الكاسكيت ؟ لا لأنها رخيصة وتحتملها طاقة الأتراك الفقراء ، بل لأنها أصلح قبعة تظل على الرأس داخل المسجد ، فالصلاة والرأس عار مكروهة ، فمن السهل زحزحة رفرفها من أمام إلى خلف « يا فرحة بيكاسو » أما بقية القبعات فتعوق لمس الجبهة للأرض عند السجود .

فبالرغم من كل الأوامر والنواهى ظلت المساجد مزدحمة ، والمثل الأعلى للخلق القويم عند الأتراك هو ما أتى به القرآن وسنة الرسول .

لم يقبل مصطفى كمال إلا استثناءا واحدا ، أن يلبس إمام المسجد عمامة على رأسه ، فهذا زى دينى ، وإنما بشرط ألا يخرج بها إلى الطريق . حتم عليه أن يلبس بدلها قبعة .

إن كان مصطفى كمال لم يتوقع أن يثير إلغاء الطربوش شعبية فإنه لم يتوقع أكيدا أن يثير أزمة سياسية بين تركيا ومصر . . حين طلب فى حفل

رسمى كبير من عبد الملك حمزة وزير مصر المفوض أن يخلع طربوشه عن رأسه . . وكان لا بد أن تعود هذه الواقعة لذاكرتى وأنا أرثى عبد الملك حمزة الذى اختطفه الموت من بيننا حديثا ، وكنت أعمل وقتئذ تحت رياسته فى تركيا وسأزيد هذا الأمر تفصيلا .

(« المساء » ، ١٩٦٩/٥/٢٦ ، ص ٦)

* * *

٢٩ اكتــوبر ١٩٣٢

احتفال تركيا السنوى بعيد النصر ، فى الصباح فى أنقرة - عرض عسكرى يبدأ بالنشيد القومى « الشعر من نظم محمد عاكف » تهتف به مع الموسيقى النحاسية آلاف الحناجر - ذروته صرخة مدوية يهتز لها قلبى ، يتمثل فيها إجماع شعب على الغضب لشرفه ، على إبائه أن يطأ ترابه الطاهر قدم معتد نجس ، على فدائه بالأرواح ، لا تدرى أى الطرفين يضفى كرامته على الآخر : الوطن أم أبناؤه . ومصطفى كمال واقف على منصة عالية فى حلته المدنية التى التزمها منذ توليه رياسة الجمهورية. إنه ليس بالخطيب المفوه ، يقرأ من ورقة كلمته ، يشيد فيها بقداسة الوطن وأنه وديعة فى يد أبنائه ، وأن أمل الأمة هو فى شبابها ، قد يتعرض الوطن للغزو ، وقد تتساقط القلاع واحدة بعد أخرى ، بل قد تسفر الخيانة عن وجهها ، ولكن لا استسلام ما دامت تجرى فى عروق هذا الشباب قطرة واحدة من دماء آبائهم وأجدادهم ، هى الكفيلة بدحر العدو وتحرير الوطن .

وفى المساء يقيم حزب الشعب « الوطن فرقة سى » فى فندق لوزان بالاس حفل عشاء جالس لا يحضره مع مصطفى كمال من رجال السلك الدبلوماسى إلا السفراء بزيهم الرسمى ، يعقبه حفل استقبال راقص يتسع لبقية أعضاء هذا السلك .

فى هذا العام - ١٩٣٢ - شمل حفل العشاء الجالس - على خلاف العادة - جو مكهرب ، لم يكن النذير زجاجة « العرقى » أو « الدوزيكو » - عبوة لتر - الموضوعة أمام مصطفى كمال ، له وحده ، وتسربها بسرعة إلى جوفه ، شربه أكثر من أكله ، فقد عهده الناس معلنا بلا تحرج عن إفراطه فى احتساء الخمر ، دون أن يسكر أو يترنح أو يختل اتزانه وحضور بديهته ، ولا حتى شياكة ملبسه ، رباط العنق عند ندمائه تراه فى ضوء الفجر قد تراخى وانحرف - إلا هو ، كأنما عقده لتوه ، تسمم دمه بالكحول . شىء واحد رفض اقتباسه من الغرب ، هو خمره ، إنه لا يطيق الشمبانيا والنبيذ والويسكى ، لا شرب عنده أفضل من « العرقى » الذى يهيم به الشعب التركى لا فرق بين الصفوة والعامة ، بين الأغنياء والفقراء ، أبى الطبع إلا أن يبرز من تحت التطبع ولو خلال خرم صغير .

وإنما كان النذير هو تلك اللهجة المحتدة التى بدت فى صوت مصطفى كمال وهو يخاطب سفير إيطاليا الجالس قبالته ، البارون ألويزى الذى أصبح فيما بعد وكيلا لوزارة الخارجية فى بلده ، فقد كان العهد عهد حديث عن مشروع دار فى رأس موسولينى لإنشاء نوع من الحلف بين الدول الغربية حامية الحضارة الأوروبية للوقوف فى وجه البربرية الجرمانية المتمثلة فى النازية الطالعة بتصميمها على العبث بخريطة أوروبا ، كأنما أراد

أن يجدد الحلف المقدس الذى أنشأه مترنيخ بعد هزيمة نابليون لمقاومة كل محاولة للمساس بالنظام القائم فى ظل هذا الحلف . وكان واضحا أن موسولينى يريد من حلفائه ــ وقد ضمن لهم الحلف ممتلكاتهم ــ أن يتركوا لإيطاليا مجالا للتوسع فى إفريقيا أولا ، ثم لا بأس أن يكون أيضا على حساب الدول الشرقية التى لا تنتمى للحضارة الغربية ولو كانت لصيقة بأوروبا ــ مثل ألبانيا

قبضت نظرة مصطفى كمال على البارون « ألويزى » وتوجه بريقها إليه كأنه نصل سهم محمر فى النار ، لابد أن يصب عليه غضبه من مشروع هذا الحلف . خيم الصمت على الحاضرين وشدت أعصابهم من فرط التوجس ، لا يرضى منها تلذذهم بمشاهدة مبارزة سياسية فذة لن يعلم الناس خبرها ، قال مصطفى كمال بحدة للبارون ألويزى :

ــ ماذا يظن بنا موسولينى ، لو طمع فى احتلال شبر من الأناضول فإننى سأجند الأتراك جميعا وأحاربه إلى آخر رجل .

تجنب البارون ألويزى مجادلة مصطفى كمال آملا أن تهدأ العاصفة ، دارت النظرة المتقدة حتى وقعت على سفير فرنسا ــ الكونت دى شامبران ــ من كبار ساسة بلاده ــ وخاطبه لائماً حكومته أشد اللوم على وضع يدها فى يد موسولينى . هنا وجد عصمت باشا رئيس الوزراء ـ الأصم الذى يسمع همس الكائدين له ـ كما يقول شوقى ـ أنه لابد أن يتدخل فى الحديث ليصرفه إلى موضوع آخر . .

كان هذا هو مضمون القسم الأول من التقرير الذى أرسله عبد الملك حمزة إلى مصر ليمهد به لما حدث من بعد ويلتمس له تعليلا .

قام مصطفى كمال هو وضيوفه عن مائدة العشاء وانضموا إلى بقية معازيم حفل الاستقبال الراقص ، عددهم لا يقل عن الخمسمائة ، كلهم رؤ وسهم عارية إلا رأسا واحدة ، يلفت النظر بطربوشه الأحمر ، إنه رأس عبد الملك حمزة ، وزير مصر المفوض ، لأن الطربـوش شعارنـا القومى تكملة لازمة للزى الرسمى الموشى بالقصب ، ولم يكن هذا الطربـوش منزويا فى ركن ، أو ثابتا فى مكان ، بل كان متجولا فى القاعة الفسيحة ، ولعل زره يهتز ، لأن لابسه لا يكف عن الرقص مع واحدة إثر أخرى من صديقاته العديدات ، بطلب منهن لا منه هو . وشاء له سوء حظه أن يمر بالقرب من مصطفى كمال الذى بقيت أعصابه تتلمظ على نزال جديد بعد المبارزة السياسية فى حفل العشاء الجالس ، ولكن لا أحد يستطيع أن يجزم بحقيقة السبب الذى دعاه إلى ما بدر منه من تصرف شاذ عجيب . أنت تعلم مبلغ مقته للطربوش ، فهل ارتد فيه فجأة الثور الهائج الذى لوحت له بغلالة حمراء ، وهل ثار لأن الخصم الذى ظن أنه صرعه يبرز له حيا كأنما يريد أن يتحداه ، هل أشفق على عبد الملك حمزة ـ وهو صديق حميم له ـ من أن يكون بدعة بين الحاضرين ولا أقول مسخة ، هل قدر أن صديقه يكربه فى هذا الحفل لبس الطوربوش ، يود لو خلعه إن استطاع فأراد أن يهون عليه التحلل من فرائض زيه الرسمى ، لا أحد يدرى .

قطع مصطفى كمال طريق عبد الملك حمزة حين مر أمامه واستوقفه ، اختل دوران الراقصين ، والتفتت الرؤ وس نحو الرجلين ، كأنهم نظارة أمام مسرح يقف عليه اثنان من كبار الممثلين ، لابد من رؤ ية كل حركة تصدر منهما وسماع كل لفظ ينطقان به ، قال مصطفى كمال لعبد الملك

حمزة بصوت مرتفع : « يا أخى ، اخلع طربوشك » لعل الذى أحدث الأزمة كلها أن مصطفى كمال ــ حتى ولو أراد التلطف مع صديقه ــ كأن لم ينفض عنه بعد آثار الهياج الذى غلبه أثناء حفل العشاء الجالس ، فبدت فى صوته لهجة الأمر لا الرجاء ، رغبة فرض الإرادة لا الاقتراح المحتمل للقبول أو الرفض بلا حرج للطرفين ، وربما تعجل تنفيذ أمره بمناداة أحد الخدم ليأخذ الطوبوش من قبل أن يخلعه لابسه .

ومرت بعبد الملك حمزة لحظة رهيبة سبق لى أن وصفتها لك ، لا أراك الله مثلها ، وانتهى تدبره السريع للموقف إلى الاقتناع بأن الحكمة تقتضيه إلا أن يجابه رئيس الدولة أمام الحاضرين بإرادة تفوق إرادته ، فخلع طربوشه عن رأسه بيده ، وتسلمه الخادم الذى وقف بجانبه كالديدبان ، وسار به إلى حيث تحفظ المعاطف والقبعات ، اقتضته الحكمة أيضا ألا يتصرف من فوره احتجاجا على ما حدث له ، فهذه مسارعة بتفجير علنى لقنبلة زمنية ، مكث دقائق معدودات متظاهرا بتجاهل غرابة ما حدث ، بأنه لا يحس أن العيون ترقبه ، ثم أشار إلى توحيد السلحدار « السكرتير الثانى » وإلى أحمد رمزى « الملحق » وخرج ثلاثتهم من الحفل بغير توديع لأحد ، بغير استئذان من مصطفى كمال ، ولاحق أسماعهم دوى خلية نحل بالهمسات عن هذه الأزمة الطارئة .

بعد قليل هرع توفيق رشدى أراس وزير خارجية تركيا إلى المفوضية المصرية ليؤكد أن رئيسه لم يقصد إهانة الوزير المفوض أو السخرية بشعاره القومى ، وإنما أراد التلطف مع صديق له ، وإراحته من كرب ثقيل لا معنى له . ولكن عبد الملك حمزة احتجب عنه فى غرفة نوم وعكف على

كتابة تقريره إلى حكومته . التقطت بعض الصحف الأوروبية هذا الحادث وأضفت عليه تهاويل كثيرة فأصبح مثار أزمة سياسية بين مصر وتركيا .

وفى يوم ١٥ مارس سنة ١٩٣٣ « عيد جلوس الملك فؤاد » أقامت المفوضية المصرية بأنقرة حفلة كبيرة فخرج مصطفى كمال عن عادته وقصد الذهاب إليها ليعبر بلسانه أيضا عن وده للشعب المصرى ، ويمحو بذلك ذكرى حادثة الطربوش ، وكان توحيد السلحدار هو الذى يرأس المفوضية بعد أن سحبت مصر عبد الملك حمزة تعبيرا عن استيائها لما حدث . وهنا لا أتمالك نفسى من الابتسام ، فكأن قدرا عجيبا أراد أن يكون رأس ممثل مصر فى تركيا متميزا دائما بعلامة تفرقه عن بقية الرؤوس فى الحفلات الرسمية ، إذ كان توحيد السلحدار (عليه رحمة الله) قد خرج فى الصباح ليقص شعره ـ هكذا تقتضيه القيافة ـ فوقع لسيارته حادث أصاب رأسه بجرح بليغ ، فلما وقف على باب المفوضية لاستقبال مصطفى كمال كان رأسه ملفوفا بضماد متراكم يحجب كل شعره ، وكأنى بمصطفى كمال قال فى سره : ماهذا ؟ مرة طربوش ، ومرة عمامة !

(« المساء » ١٩٦٩/٦/٢ ، ص ٦)

تاتا . . تاتا . . خطى العتبة

هل رأيت الأم البكرية حين تجلس وتفتح ذراعين يشع منهما تيار من حنان مغناطيسى جاذب ، على بعد منها الصمت ضناها إثر جهد فى وقفة متأرجحة ، ثم ابتعدت عنه مسافة يقيسها صلح بين غلو أملها وغلو خشيتها ، تعلمه أول مرة كيف يصلب عوده ويعتمد على نفسه لا على الجدران وحافة المقاعد ويمشى وحده رافع الرأس ناظرا إلى الأمام معلنا استعلاءه على بقية المخلوقات ، ساقاه كرات من عجين فوق قبقاب باتيناج له مقالب ، إن يكن من لحم وعظم طرى فهو فى نظر الأم من لؤلؤ وعقيق ، فى عين الطفل ابتسامة تجمع بين اللوم والشكر ؛ بين اطمئنان المقامر بفلوس غيره ، وأول شك من إنسان فى إنسان ولو كان أمه ، ثم تناغيه بأغنية هى ذوب قلبها ،ما ألذها على سمعه وسمعها : تاتا ،تاتا ،

خطى العتبة ،فيتوكل على الله ويندفع إليها ، سابقا عثراته ،.جريا لا مشيا لأنه لايريدأن يقع إلا على صدر أمه فترشقه بقبلاتها وتحضنه حتى تكاد تخنقه .

هكذا كانت مصر ، وهكذا كان ابنها محمد صدقى يوم أن جاءها طائرا من برلين .

لا تفسير لاستقبالها الحماسى له إلا تلك اللهفة المتقدة فى قلوب أهل الشرق على إبطال استعلاء الغرب عليهم ، ينبغى أن نتخلص من ذهول « الجبرتى » أمام عربة نقل أتربة ذات عجلة واحدة حملها خمسة مقاطف ، ومن انعقاد لسان « شوقى » أمام طائرة فتحى بك ونورى بك وطائرة الفرنسى فيدرين .

من أجل هذه الدلالة سأروى لك قصة مقدم أول طيار مصرى لأرض الوطن ، وهى أيضا تعينك على أن تقيس مدى تقدمنا فى برهة وجيزة هى بمثابة غمضة عين ، أصبح لنا اليوم أسطول من طائرات حربية ، وطائرات مدنية تجوب بقاع الأرض يقودها مصريون ، هم فى نظرى من أفضل سفرائنا ، وحين يسافر الرئيس جمال عبد الناصر لبلد أجنبى لاينزل إلا من طائرة مصرية من أحدث طراز يقودها مصريون وترفع علم مصر ، هكذا ينبغى لزعيمها ورئيس جمهوريتها ، ونقيس أيضا مدى تقدم لغتنا فى غمضة عين من أسلوب زخرفى الى أسلوب متزن يأنف من البهرجة الرخيصة السخيفة .

فى شهر ديسمبر سنة ١٩٢٩ قرر شاب مصرى اسمه محمد صدقى أن يقود طائرة صغيرة من برلين إلى القاهرة ، مسافة هى الآن فركة كعب ولكنها مهولة فى ذلك الوقت . فتألفت على الفور فى نادى التجارة العليا لجنة اتخذت لها اسم « لجنة استقبال الطيار المصرى » ووجه سكرتيرها الأستاذ عبد الحليم محمود النداء التالى فى الصحف يوم ١١ ديسمبر :

« أيها المواطنون الأعزاء

بعد هذا النداء دبت الحركة ، فكتب قسم الطيران بوزارة المواصلات إلى مصلحة التلغرافات طالبا منها مخابرة البواخر التى تسير فى البحر الأبيض المتوسط لمساعدة الطيار عند الحاجة ومراقبة طائرته ، وكتب كذلك إلى مصلحة الحدود ومصلحة الجمارك لتسهيل السبل له .

وعلقت بعض الصحف على هذا النشاط وقالت إنه لايكفى ، واقترحت الاتصال بوزراة الخارجية لتكليف وزرائنا المفوضين وقناصلنا بالسعى لدى الحكومات لتقديم المساعدات والتسهيلات للطيار المصرى ، واجتمع نفر من طلبة المدارس العالية والخصوصية والأزهر الشريف ، وقرروا إقامة حفلة تكريم للطيار المصرى وألفوا من بينهم لجنة ادراية (رئيس ، ووكيل ، وأمين صندوق ، وسكرتير ، ومساعد سكرتير ، وثلاثون عضوا) .

وتألفت لجنة مماثلة فى الإسكندرية ، فقررت أن توجه دعوة للمساهمة فى الترحيب بالطيار المصرى إلى قضاة المحاكم الأهلية والمختلطة والشرعية ، ووكلاء النيابة ، والأطباء ، والمهندسين ، والموظفين الملكيين من الدرجة الرابعة فما فوق ، والعسكريين من درجة البكباشى فما فوق ، ورجال الصحافة . . . ولكن أين الطيار المصرى ؟ فى العدد الذى امتلأ بأخبار لجان الترحيب خبر صغير يقول إنه كان من المقرر أن يقوم الطيار المصرى بطائرته الأمس ، ولكن المراصد الفلكية أثبتت أن الحالة الجوية فى ألمانيا لاتساعد على الطيران ولابد من تأجيل قيامه من ألمانيا بضعة أيام أخرى وانقطعت أخبار الطيار المصرى بضعة أيام ، لاأحد يدرى عنه شيئا ، وفجأة قطعت الصحف أخبار أشد حملة انتخابية عرفتها مصر

اليوم تفخر مصر بقادم عزيز من أبنائها يجوب متن الهواء قاصدا إلى كنانتها ، أجل إنه الطيار محمد أفندى صدقى الذى تسجل مصر ذكره الخالد فى سجل فخارها وتسطر مجده فى أعلى منارها لأنه أول طيار مصرى يقوم بهذه الرحلة التى تعلى سمعة مصر بأسرها وترفع رأس الشرق بأكمله وجدير بكم أيها المواطنون الأعزاء أن يكون استقبالكم لهذا القادم العزيز عليكم استقبالا تشهد مصر جلاله ويظهر الإخلاص بهجته وجماله ، وإذا كان لأمريكا أن تستقبل لندنبرج الطيار الأمريكى بتلك الحفاوة التى اشتركت فيها الخلائق زرافات ووحدانا مما لم يتسع لوصفه البيان فإن مصر العريقة فى مجدها هى أجدر بأن تعرف المجد لبانيه وتحفظ الفضل لذويه . إن العالم بأسره يرتقب من بعيد ومن قريب ما يظهره المصريون نحو المصرى الذى رفع فى سمع التاريخ لواءهم وأعلى فى ذرا العظمة بناءهم .

لاتنسوا أيها المصريون نصيبكم من شعوركم فى أول يوم يقدم فيه أول طيار مصرى عليكم ، ففى الساعة التى يهبط فيها من ذروة الهواء ستبلغ حفاوتكم عنان السماء ويرتفع صوت مصر عاليا فى الأرجاء بما أنجبت من خير الأبناء . أيها المصريون : اثبتوا لممالك الأرض وشعوبها وفى مسمع الدنيا وبصرها أنكم تقدرون المجاهدين منكم والعاملين فيكم ، فليس هذا التكريم خاصا بصدقى وحده بل هو تكريم النبوغ والعبقرية ، وتمجيد لروح النهضة الفنية ودليل على شعوركم بالكرامة القومية والسمعة المصرية ، فعلى الطائر الميمون أيها القادم المحبوب ، ستستقبلك منا الأرواح والقلوب وستشهد مصر فى استقبالك يوما يكون عيدا تعرفه لها الأمم والشعوب » .

وتطاحنت فيها الأحزاب ونشرت بأكبر مانشيت يوم ١٥ ديسمبر (قيام الطيار المصرى من برلين الساعة ١٥ر١١ صباحا يوم ١٤ ديسمبر ووجهته براغ فبرنديزى » وأعلنت الصحف بدء الاكتتاب فى حفلات التكريم ووعدت بنشر أسماء المشتركين .

وفى يوم ١٦ ديسمبر نشرت الصحف أن أخبار الطيار تدل على أنه وصل الى درسدن فى الساعة الأولى بعد ظهر يوم ١٤ ديسمبر ووجد أن حالة الجو تقضى عليه بالنزول فنزل ، وهناك نصحه العارفون بأن يتريث حتى يصبح الجو ملائما فتريث .

وبعد هذا الخبر عمودان عن استعدادات الاستقبال فى القاهرة والاسكندرية .

يوم ١٧ ديسمبر : كانت رداءة الجو سببا فى أن يؤجل الطيار المصرى طيرانه من درسدن ولم ترد حتى أمس أنباء عن قيامه منها .

وجاءنا من مراسلنا بالإسكندرية أن الاستعدادات قائمة على قدم وساق لاستقباله .

ونشرت الصحف أول قائمة للمتبرعين يوم ١٨ ديسمبر . هدأت العواصف قليلا ، وأخذت سحب الضباب تتبدد شيئا فشيئا ، وغادر الطيار المصرى درسدن أول أمس فى الساعة العاشرة صباحا ووصل الى براغ بعد ساعة حيث استقبله المصريون هناك استقبالا حافلا ، ثم غادرها إلى فينا ، وينتظر أن يصل الى مصر يوم الخميس ١٩ ديسمبر لو ساعدت الأحوال الجوية ، ويمكث فى القاهرة أسبوعا ، ثم يغادرها إلى

الإسكندرية ، ومنها الى بنى غازى وتونس والجزائر وبرشلونـة ومرسيليـا وليون وباريس وروتردام وبرلين (لاشك أن هذا البرنامج من وضع لجنة الاستقبال لامن وضع الطيار)
عمود كامل فى وصف الاستعدادت لاستقباله .

يـوم ١٩ ديسمبر : تمكن الـطيار بعـد هدوء العـواصف قليـلا من استئناف طيرانه من فينا إلى بودابست وسيسافر منها إلى أثينا .

وعهد الى شركة مصر للتمثيل والسينما أخذ مناظر استقبال الطيار عند وصوله فى شوارع العاصمة . ونشرت القائمة الثانية للتبرعات .

يوم ٢٠ ديسمبر : لاتزال الأحوال الجوية فى أوروبا سيئة فاضطر الـطيار المصرى الى النزول فى بلدة بيلجرام الواقعة على بعـد ٩٠ كيلو مترا من براغ ـ بقية العمود فى وصف نشاط لجنة الاستقبال .

يوم ٢١ ديسمبر : فى الساعة الواحدة والربع بعد ظهـر أول أمـس غادر الطيار مدينة بيلجرام ووصل إلى فينا فى الساعة الثانية والدقيقة ٥٥ وبقى بها ينتظر تحسن الجو .

لم يحدد موعد وصول الطيار لمصر وسيعلن عن ذلك فى الصحف فى حينه .

يوم ٢٢ ديسمبر : ورد من الـطيار صـدقى التلغراف الآتى للنجنـة التكريم بنادى التجارة « أوافق كل المـوافقة عـلى ترتيبـات لجنة النـادى بخصوص استقبالى فى القاهرة ، وتمنعنى العواصف الشديدة فوق جبال الألب من القيام اليوم وربما تمكنت من القيام غدا . »

يوم ٢٤ ديسمبر : ظهرت أوائل نتائج الانتخابات ولم تشر الصحف بكلمة الى الطيار المصرى .

يوم ٢٥ ديسمبر : جاءنا من لجنة استقبال الطيار المصرى أنها حين علمت اعتزامه الاستمرار فى الطيران على الرغم من اشتداد العواصف أرسلت إليه البرقية التالية « الطيار صدقى ــ فينا : انتظروا تحسن الجو ولاداعى للعجلة نريدكم سالمين ولو طال الأجل » وبدأ فى ذلك اليوم توزيع تذاكر الدعوة

يوم ٢٦ ديسمبر : ليس فى صحيفة «كوكب الشرق » خبر واحد عن رحلة الطيار والظاهر أنها كانت مخصصة لها مكانا فملأته بالخبر التالى « وكيل كوكب الشرق فى الغربية ، قد اعتمدنا الشيخ عبد الفتاح زوين السرسناوى وكيلا عاما ومراسلا فى مديرية الغربية فنرجو من حضرات مشتركينا الكرام اعتماده فى جميع شئون الجريدة »

يوم ٢٧ ديسمبر : لاخبر عن الطيار

يوم ٢٨ ديسمبر : شرحه

يوم ٢٩ ديسمبر : شرحه

يوم ٣٠ ديسمبر : شرحه

يوم ٣١ ديسمبر : شرحه

ينبغى أن نقفز ليوم ٢٤ يناير ، ابتدأت تظهر أخبار لرحلة بالطائرة يقوم بها أحمد حسنين من باريس لمصر ولكننا نتركها جانبا . .

إننى أجل ذكرى صدقى ولا أنسى فضله ، لذلك سأعفيك أيها القارىء من تتبع أخبار هذه الطائرة العجيبة وما جرى لها بالتمام والكمال

فى البحر والأرض . يكفى أن تعلم أن الصحف والناس معها كادت تنسى أخباره ، ثم إذا به يظهر فجأة . بشرتنا صحيفة « كوكب الشرق » يوم ٢٥ يناير بأن الطيار صدقى سيصل الى مطار هليوبوليس فى الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم ٢٦ يناير . . يلى ذلك وصف من مراسم الاستقبال .

ولكن صدقى لم يهبط فى هليوبوليس بل هبط فى الإسكندرية ، أول شبر بدا له من أرض الوطن ، إنه أمسك بذراع أمه الممتد إليه قبل أن يضمه صدرها فى القاهرة .

وظهرت صحيفة « كوكب الشرق » يوم ٢٦ يناير وعلى صفحتها الأولى « مانشيت » كبير يعلن « وصول أول طيار مصرى لأرض مصر - الشعب السكندرى وبهجته ، الوزراء يستقبلون اليوم الطيار فى مطار هليوبوليس »

وقال الأستاذ عبد الغنى حسن تحية الشباب للطيار الشاب - قصيدة طويلة مطلعها :

« تخذ السماء إلى علاه مطارا
ورمى بأجواز الفضاء وطارا »

ثم بعد ذلك صفحة كاملة فى وصف استقباله فى الإسكندرية .

وفى يوم ٢٧ يناير نشرت الصحف وصف وصوله للقاهرة ، وكيف حمله الناس على الأكتاف وفى أعينهم دموع الفرح . لقد تعلم الابن كيف يمشى فى السماء أول مرة . .

وقال خليل مطران قصيدة مطلعها :

« عائدا برعاية الرحمن النيل راض عنك والهرمان

أما شوقى ، فقد عاد إلى العقاب والحوت والنحلة وبساط الريح (ارتباط هذه المخلوقات فى ذهن شوقى بالطائرة ظاهرة عجيبة) فقال :

أعقاب فى عنان الجو لاح أم سحاب فر من هوج الرياح
أم بساط الريح ردته النوى بعد ما طوف فى الدهر وساح
أوكان البرج ألقى حوته فترامى فى السماوات الفساح
أقبلت من بعد نحسبها نحلة عنت وطنت فى البراح

ولكنه قال بعد ذلك كلاما جميلا فى حفز همة الشباب كما عبر عن قلق مصر لغياب الطائر :

ولقد ابطأت حتى لم ينم للحمى ليل ولم ينعم صباح
فابتغى العذر كرام وانبرت ألسن فى الثلم والهدم فصاح

يسعدنى أيها القارىء العزيز أن طمأنتك على مدى التقدم الذى أحرزناه فى أقل من ٣٠ سنة ، وهى غمضة عين فى عمر الأمم ، ولكن لاتنس أن الحديث هو عن لهفة الشرق على إبطال استعلاء الغرب فكما لايمكن بغيرها تفسير هذه الحفاوة البالغة بالطيار صدقى فكذلك هى وحدها التى تفسر المشاعر التى ملأت قلوبنا ونحن نشهد فى مطلع القرن حروبا متتالية بين الشرق والغرب . وهذا ما سأرويه لك فى مقالى القادم .

(« المساء » ١٩٦٢/١/١٥ ، ص ٨)

منادمة الحروب

ليس هذا المقال ببحث فى التاريخ ، لا يهمنى تحديد أزمان الوقائع بل قد أخطىء فى ترتيبها . إنما أتحدث عن الأثر المتخلف فى نفسى عن الحروب العديدة التى عاصرتها منذ مولدى فى مطلع القرن ــ والنفس آلة عجيبة تجمع بين عمل الخلاطة والمصفاة والثلاجة وفرن حريق الأوراق المالية القديمة . وأزعم أن هذا الأثر لم يكن إلا صدى لإحساس شعبنا كله ، لذلك لا أجد من البجاحة أن أتقدم بشهادتى مطالبا بتصديقها دون حلف يمين . ولولا وثوقى بأن الكلام فيه عظة للجيل الحاضر وتبصير له بماضيه وحث له على قراءة تاريخه الحديث لما ناجيته به .

أقول له إن إحساس الشعب بهذه الحروب كان مسيرا بعاطفتين قويتين الأولى : لهفة على كسر استعلاء الغرب على الشرق ، والثانية عداؤنا للإنجليز ، ومن وراء هذا كله تكشف بطىء للقومية العربية ، وانتقالها من فكرة غامضة مثالية إلى عقيدة ثابتة عملية ، وانتباه متأخر للخطط الاستعمارية التى استهدفت أولا هدم « البعبع » الذى كان يسمى

« الخلافة » . ولم يكن هذا « البعبع » إلا « شخص مقاتة » أشد خوفا من الخائفين منه ، ثم تقسيم البلاد العربية وفصل بعضها عن بعض ورسم دوائر صغيرة بالبرجل حول آبار الزيوت تسمى الدائرة دولة أو إمارة أو مشيخة ، ليعيش الشرق العربى كله محروما من ثرواته مقطع الأوصال ، ثم أقاموا إسرائيل لتحز رقبة الجمل الممتد من الأطلسى إلى الخليج العربى لتفصلها عن جسده .

خذ مثلا : فى سنة ١٩١٢ وقعت حربان ؛ الأولى : هجوم على تركيا فى شمال إفريقيا ، غزو إيطاليا لطرابلس الغرب ، والثانية : هجوم على تركيا فى البلقان لطردها من أوروبا وإرجاع شعبها إلى آسيا موطنه الأصلى . أوروبا حضارة وقبعات لا مكان فيها لشعب آسيوى متأخر يلبس الطربوش وآسيا كلها فى نظر أهل أوروبا نهب لهم لأنها أحط منهم .

وكنت حينئذ فى المدرسة الابتدائية «أم عباس» نسمع عن بعثات الهلال الأحمر لليبيا ، ونتعلق بأخبار الشريف السنوسى المجاهد الكبير ، وأنور باشا ، وعزيز المصرى . وأجد اليوم من أعجب العجب فى الغفلة والحماقة أن قلوبنا آنئذ اهتزت لحرب البلقان ــ كما سترى ــ وهى بعيدة عنا أكثر من اهتزازها لحرب طرابلس وهى أختنا وجارتنا اللصيقة بنا ، كأننا كنا ــ أولا ــ قد وثقنا أن شمال إفريقيا كله ضاع منا ، اسم عبد القادر الجزائرى يمثل آخر حصن يقع فى يد الأعداء . كل أرض بعده سداح مداح . وكأننا لم نحس بالحزن على ليبيا (وسمعتها عندنا أنها جرداء) وسط أحزان أشد على مراكش والجزائر وتونس ، وسمعتها عندنا أنها من جنان الأرض .

وفوق ذلك فإن مشاغلنا بالاحتلال البريطانى وفتنتنا ببعض مظاهر المدنية المستوردة لبلادنا جعل فكرتنا عن أختنا جارتنا الغربية مخلخلة غامضة . لما كبرت وقرأت مذكرات الداهية سير رونالد ستورس السكرتير الشرقى سنين طويلة لدار الحماية فى مصر رأيته يروى حديثا له مع السلطان حسين جاء فيه ذكر السنوسى ، فإذا بالسلطان يشيح بذراعه مستهونا ويجيب «ومن يكون هذا المرابط الفقير ؟» لم أجد فى ديوان «شوقى» قصيدة تمجد الجهاد فى طرابلس وتبكى ضياعها . ينبغى أن تمر أعوام عديدة لتستيقظ فكرة القومية العربية وينطلق لسان «شوقى» برثاء البطل عمر المختار حين قتله الطليان شر قتلة سنة ١٩٣١ ، ولم يرحموا سنه التى ضعفت على السبعين :

«ركزوا رفاتك فى الرمال لواء يستنهض الوادى صباح مساء»

وكنت أجوس خلال ليبيا حين ذهبت إليها سنة ١٩٥٣ وأنا أرفع كفى ووجهى للسماء شكرا لله على خلاصها من حكم موسولينى ، لو طال أمده بها قليلا لأفنى شعبها الباسل كله . وإذا كانت مصر قد ظنت حينئذ أنها بمنجى من ميدان المعركة فقد استيقظت سنة ١٩٣٩ لتجد نفسها وسط كماشة إيطالية تضغط عليها من الغرب ومن الجنوب الشرقى . فالخطر على ليبيا كان خطرا على مصر والسودان .

والغريب أننا لم نتعظ بهذا الدرس . وكما أغفلنا جارتنا الغربية زمنا أغفلنا جارتنا الشرقية كذلك.إننى لا ولن أغتفر أبدا لساستنا القدماء من أولهم لآخرهم لأنهم لم ينبهونا إلى خطر إسرائيل القادم . لما قرأت مذكرات الأديب فالح رفقى عن اشتراكه فى حرب القناة سنة ١٩١٥ هالنى أننى

وجدته يذكر أنه رأى أرضا فى فلسطين تقوم فيها إدارة يهودية لها بريدها الخاص . لم يذكر لنا ساستنا شيئا عن مغزى وجود حاييم وايزمان فى مؤتمر الصلح بباريس سنة ١٩١٩ واتصالاته ببعض المرشحين لعروش فى الشرق العربى . كان لابد أن نتلقى درسا قاسيا لنستيقظ . كنا مخدوعين فكانت يقظتنا عنيفة مؤلمة .

ولكن قلوبنا اهتزت اهتزازا شديدا لسقوط مدينة أدرنة فى يد الأعداء فى حرب البلقان لأننا أحسسنا بغريزتنا أن المقصود هو طرد شعب شرقى من أوروبا إتماما لا ستعلائها علينا وأنفة منها أن تعاشرنا إلا معاشرة السيد للعبد لا الند للند . انطلق لسان «شوقى» يرثى أدرنة :

« يـا أخـت أنـدلس عـليـك سـلام
هـوت الخـلافـة عنـك والإسـلام »

وكنا فى المدرسة الابتدائية نردد هذا البيت الحزين ونتتبع أخبار الحرب ، وتجرى على ألسنتنا أسماء « أنور » و « نيازى » . قال التلميذ شاعر الفصل قصيدة ومطلعها : « أين سيوفك يا أنور ؟ أين المدافع يا نيازى ؟ » ، ثم نجتمع ويسأل بعضنا بعضا : ألم يقولوا لنا بلهجة التأكيد إن الخليفة يحتفظ فى خزائنه لوقت الزنقة بالبيرق النبوى ، وإنه لو خرج به للقتال ونشره فوق رأسه محق أقوى الجيوش محقا ؟ فهل الخليفة مغفل لا يرى أن هذا هو وقت الزنقة ؟ لماذا يوقعنا فى الذل وفى يده هذا السلاح ؟ كان لومنا له لا ينتهى .

ورجعت إلى البيت فهالنى أن عمى محمود طاهر حقى صاحب « الجريدة الأسبوعية » يدخل علينا وعلى رأسه طربوش أبيض لا أحمر ، إذ

كنا نستورد الطرابيش الحمر من النمسا التى انتزعت غدرا من يد تركيا مقاطعتى البوسنة والهرسك ، فامتنع بعض المصريين عن لبس طرابيشها . لا أدرى إلى اليوم من أين أتى عمى بهذا الطربوش الأبيض . أم هل تراه صبغ طربوشه القديم ؟ مهما يكن من أمر فإنى رفعته فى ذلك اليوم إلى مصاف الأبطال ، ونظرت إليه بخشوع وإكبار وتمنيت أن أكون مثله فى الوطنية .

خيم ظلام اليأس على قلوبنا سقطت حصوننا جميعا وجردنا من كل سلاح وصاح شاعر إنجلترا : «الشرق شرق والغرب غرب» . أفتدرى إلى أين اتجهنا بقلوبنا نلتمس العزاء ؟ لم نتجه إلى «استانبول» أو «اسلامبول» أو دار السعادة ، لأنها كان ينطبق عليها المثل القائل «جبتك يا عبد المعين تعينى لقيتك يا عبد المعين تنعان» . هذا مبدأ انصراف شعورنا عن دولة الخلافة واهتمامنا بمنطقتنا .

ألقيت فى ذلك العهد بذرة القومية العربية . لم نتجه للباب العالى وهو واطى ، ولا إلى الصدر الأعظم وهو الصدر الأضأل ، بل اتجهنا إلى بلاد بعيدة عنا آلاف الأميال تختلف عنا كل الاختلاف ، حتى دينها يحتاج إلى عمر طويل لفهمه ، لا نعرف عنها إلا القليل . اتجهنا إلى اليابان . كان اسمها عزيزا لدينا موحيا لنا بالثقة فى أنفسنا وبإمكان كسر استعلاء الغرب . ذلك لأن اليابان وهى دولة شرقية استطاعت فى سنة ١٩٠٥ هزم امبراطورية أوروبية ضخمة مخيفة اسمها روسيا القيصرية . هزمتها أشنع هزيمة . قال المؤرخون حينئذ إنه لم يحدث منذ ثلاثة قرون ونصف قرن أن انتصرت أمة آسيوية على دولة أوروبية ، فجاءت اليابان وكسرت هذا

الوهم . ولقد نشأت فى جيل متأثر بالحرب اليابانية الروسية أشد التأثر ، لا لشىء إلا لأنها رمز القضاء على استعلاء الغرب علينا وعلى قدرتنا بلوغ مستواه فى العلم والصناعة والحرب .

لا أزال أذكر كتابا صغيراً وقع فى يدى وأنا صبى اسمه «الشمس المشرقة» ، على غلافه صورة رجل قزم صارم كأنما خلقه الله قبل أن يخلق الإنسان ، يلبس بدلة طقم موسيقى حسب الله تهبط إلى ما تحت الركبة ، على رأسه قبعة بيضاء حربية . هذا هو الأميرال توجو الذى وقف بأسطوله فى مياه بلاده ينتظر تشريف الأسطول الروسى بجلالة قدره . إنه قادم من بحر البلطيق . ينبغى أن يدور حول الكرة الأرضية كلها ليصل إلى خصمه . وكان أمام الأسطول الروسى طريقان لدخول مياه اليابان : طريق يقضى به المنطق السليم ، وطريق آخر يستهوى من يريد الخداع والبلف . وكان لابد للأميرال توجو أن يجيب على هذا السؤ ال : من أى طريق سيأتى من الطريق الأول اعتمادا منهم على أن اليابانيين ماكرون فسيظنون فيهم المكر أيضا ويحكمون بأنهم سيأتون من الطريق الثانى . ولكن توجو كان أمكر منهم فعدل عن مكره .

كنت أتأمل صورة توجو بخوف شديد ولكن بانبهار وإعجاب . وقد عاش توجو ٨٥ سنة ومات سنة ١٩٣٤ . ولعلك تضحك إذا قلت لك إن الأسطول الروسى المتهوس خايب الرجا لم يكد يحبو خطوتين ويدخل بحر الشمال بضبابه حتى فقد صوابه وظن أن مدمرة يابانية قد خطفت رجلها وجاءت لمنازلته فأطلق عليها كل مدافعه . لم تكن المدمرة إلا قارب صيد لدولة صديقة . وكانت فضيحة تنذر بالمصير المشؤوم الذى ينتظره .

سمعنا حينئذ عن شجاعة الجندى اليابانى وتفضيله الموت على الأسر ، وإقباله على فداء وطنه بروحه . قيل لنا إن الجنود اليابانيين أقاموا أمام حصن بورآرثر جسرا من جثثهم ليرقى عليه إخوانهم الأحياء . سمعنا بعد ذلك عن الهاراكيرى والجيشا والحمالة اليابانى .

ولم يكن انتصار اليابان على روسيا قاصرا فى نظرنا على ضرب المثل لهزيمة الغرب أمام الشرق ، بل كانت له دلالة أخرى بالغة الأهمية تعلقت بها قلوبنا بفرح شديد وظننا أننا وجدنا فيها مخرجا من حيرة عظيمة فقد علمنا أن اليابان انتصرت لأنها اقتبست من الغرب علمه وصناعته وفنون حربه وآلاته ، مدافعه وأساطيله ، ولكنها وهى تقتبس هذا كله وتجارى الغرب فى ملبسه الخارجى لم تتخل قط عن تقاليدها وشعائرها القديمة واستطاعت أن توفق بين القديم والجديد فهذا الضابط أو العامل أو رئيس الوزراء يلبسون كأهل الغرب فى مكاتبهم ، فإذا فرغوا من عملهم عادوا إلى بيوت من البامبو ولبسوا الكيمونو وجلسوا على الأرض يأكلون بزوج من العصى الرفيعة . لم تمس تقاليد الحكم ولا تقاليد الأسرة . وكنا حينئذ نحن فى الشرق العربى نعانى حيرة شديدة وخوفا عظيما من أن يكون شرط اقتباسنا لعلوم الغرب وأدواته أن نتنازل عن كل تقاليدنا ؛ بل كان يقال لنا بإصرار إن لا مفر لنا من ذلك إن أردنا أن نكون شعبا متحضرا فجاءت اليابان وكذبت هذه المزاعم كلها .

شهد أبناء الجيل الذى سبقنى كما شهدت أنا فيما بعد فى أوروبا تلاميذ صفر الوجوه أقرب إلى الأقزام يجوسون خلال ممرات الجامعات كالفيران ، مسرعين لا يلوون على شىء صامتين صمت القبور ، فى عيونهم عزم شديد

وصبر أشد ، يقتلون أنفسهم فى الدراسة وجمع المعلومات . إنهم أبناء اليابان ، ليس همهم حفظ العلم من الكتب ، بل نقل أساليب الصناعة الحديثة . كل منهم كأنه ملسوع يتحرق للعودة إلى وطنه ليقوم بواجبه : فليسمع هذا الكلام علماؤنا الأجلاء المتخلفون فى أوروبا لأن مرتبهم فى مصر سيكون ٥٠ جنيهاً فقط .

ثم ما لبثت اليابان أن أغرقت الأسواق بساعات تباع بالرطل ، ولعب أطفال بالقنطار ، والحرير بسعر التراب . فكادت أوروبا تشد شعر رأسها من الغيظ . وتزعم غليوم الثانى امبراطور ألمانيا حملة تبصر بالخطر الأصفر . لما زرت قصره فى برلين سنة ١٩٣٩ وجدت أغلب الكتب فى مكتبته تدور حول هذا الموضوع . هذا هو شأن ألمانيا تزعم أنها القلعة التى تحمى المدنية الأوروبية من الشعوب الآسيوية وهذا هو الذى يفسر موقفها الحالى من الاتحاد السوفيتى .

ولكن اهتمامنا باليابان تضاءل سريعا لم نتتبع خطواتها التالية ، لعل السبب أنها بعيدة جداً ومختلفة جدا عنا . ولعل السبب أيضا أننا أصبنا بخيبة أمل حين رأيناها كما تقتبس من الغرب علمه وصناعته تقتبس أيضا تفكيره العدوانى ، فراحت تغزو أرض جارتها الصين زاعمة أن لها مصالح حيوية ، نفس الكلام الذى يقوله الاستعمار الغربى حتى كدنا نصدق الجغرافيين الذين يرون أن اليابان صورة طبق الأصل لإنجلترا فى أقصى الشرق .

(« المساء » ، ١٩٦٢/١/٨ ، ص ٨)

كَبْش نطاح !

كانت اليابان أول دولة شرقية كسرت احتكار الغرب زمنا طويلا للغلبة والسلطان والعلوم الحديثة . هللنا فى مصر لهذا الانتصار وفرحنا به بالرغم من أن اليابان كانت حليفة لإنجلترا ، وبالرغم من البعد الشاسع بيننا وبينها فى المكان والألوان والتاريخ والعادات . وأشهد أن لم يكن فى قلوبنا كثيرا أو قليلا من التشفى فى روسيا القيصرية ، وقد أصبح أنفها فى الرغام مع أن أسبابا عديدة كانت تشفع لنا لو أننا تشفينا . ذلك أن اهتمامنا تركز على بلاد الشمس المشرقة التى بددت ولو قليلا من اليأس المخيم على قلوبنا ، أشعلت لنا مصباحا رأيناه ــ وإن خفت ضوؤه ــ فى نهاية طريق طويل طويل .

ولم يكن سبب فرحنا قاصرا على أن دولة شرقية نجحت فى اقتباس علوم الغرب وسلاحه ، وانتصرت عليه ، ووقفت منه موقف الند للند لا العبد للسيد ، بل ــ قبل كل شىء ــ لأنها وهى تفعل ذلك لم تتحرر من تقاليدها ، ولم يكن الثمن الذى دفعته هو ذبحها لقوميتها وانمحاؤها فى

الغرب . ذلك أن أصواتا كانت قد بدأت ترتفع فى مصر تزعم أن لا مناص لنا من التحرر من ماضينا كله بحسنه ورديئه إن أردنا اقتباس حضارة الغرب ، بل تضيف أن لا مفر لنا ونحن نقتبس هذه الحضارة من أن نقتبسها بحسنها ورديئها لأنها كل لا يتجزأ .

وكنا فى أشد الخوف من دفع هذا الثمن ، وطال بحثنا عن حلول تتيح لنا التوفيق بين قوميتنا وحضارة الغرب . إن هذا البحث هو سمة مطلع القرن العشرين فى بلادنا ومحور تاريخه الوجدانى .

ولكن اهتمامنا باليابان ذاب سريعا . (أقول هذا وأنا رافض اتهام المتنبى لبلدنا بأن كل شىء فيه ينسى بعد حين) فقد كانت هناك أسباب قوية عديدة تحملنا على نسيان اليابان ، وأول الأسباب أننا وقفنا إزاء انتصارها عند حد الهزة العاطفية ولم نتجاوزها . لم تكن لنا حينئذ قدرة أو يقظة وعى ، تمكننا من متابعة أخبار اليابان ودراسة الوسائل التى حققت بها الجمع بين انتصارها واحتفاظها بتقاليدها ، ومن شأن الهزة العاطفية ــ إذا لم يسندها الفكر ــ أن تزول سريعا .

ولأننا ــ ثانيا ــ رأيناها لا تكاد تنتصر حتى أمعنت فى السطو على الصين ــ جارتها وقريبتها ــ وغزو أراضيها . قلنا : هل خرجنا من عهد استعمار غربى لنقع فى عهد استعمار شرقى ؟

بدأت اليابان تتكلم بلغة الاستعمار الغربى وتقول إن لها مصالح حيوية فى الصين . أفلا تنتهى حكاية المصالح الحيوية ؟!

وأخذنا ـ فى امتعاضنا ـ ننصت قليلا لاتهام الغرب بأن سر رخص بضائع اليابان هو استعبادها للعامل استعبادا وحشيا .

ثم لأننا ـ أخيرا ـ كنا مشغولين بمعركتنا ، وكان مسرح هذه المعركة محليا وضيقا جدا ، وازدحم عليه رغم ضيقه رجال كان يكفى واحد منهم لأن يشغل أمتنا ، فما بالك بصراع بعضهم لبعض : كرومر الداهية ، قنصل يقوم بدور الملك المتوج ، وعباس الداهية ، الأمير المتوج ، يجمع بين دور رئيس أكبر جهاز للمخابرات ودور البهلوان ، ودور « الفتوة » المستعار من حى آخر ، يهمه أن يكون الغنم له قبل غيره من أهل «الحتة» . فإذا تعرض هو للأذى خضع واستكان .

ومصطفى كامل يتكلم من فم السياسى بلسان الشاعر ، والداهية الشيخ محمد عبده ، هو سياسى بطبعه يختنق مكرها فى دور يقتضيه أن يلبس جبة دينية وعمامة أزهرية ، والداهية الشيخ على يوسف الصحفى الصعيدى يقوم بدور ساحر كيميائى فيخلط للشعب بين لذة الأحلام وحرارة الواقع فى كأس يسهل شربها .

نسينا اليابان والشرق الأقصى كله . لم يفلح فى إثارة اهتمامنا من جديد حروب أهلية عديدة فى الصين ، بل كنا نقرأ أخبارها بابتسام لأنها كانت على مر السنين الطوال لا تخرج عن الصورة التالية « تؤكد الأنباء انتصار الجنرال (شو ـ صان ـ لى) على الجنرال (لو ـ سى ـ وان) ولكن الجنرال (فو ـ شان ـ سى) قد قام بثورة فى الشمال» . كيف تتطلب منا بعد ذلك أن نفهم شيئا ؟

ولكننا كنا ندرك بإحساس خفى أن الدماء الغزيرة التى تراق فى هذه الحروب إنما هى زيق رفيع من الدم بقى تحت ظفر عملاق يحك جلده وهو يتقلب فى نومه على فراش ملىء بالبق والبراغيث . سيستيقظ يوما ، وحينئذ لن يعلم إلا الله وحده ماذا سيكون من شأنه ، وماذا سيكون من شأن الدنيا معه .

* * *

كان ينبغى أن نقفز عشرين سنة لنشهد مرة أخرى كيف تنتصر على الغرب أمة شرقية ، هى هذه المرة قريبة منا وتعد من منطقتنا ، حقا لنا منها ذكريات مريرة ، ولكن يقينا لا ننسى لها أنها دولة الخلافة وأن ديننا واحد . . خرجت تركيا من الحرب العالمية الأولى وهى محطمة جاثية على الأرض ، ارتفع فى عاصمتها أعلام ثلاث دول كبرى (كانت بروفة لبرلين اليوم) . احتلت اليونان أعتى مناطق الأناضول وأوغلت فيه حتى كادت تبلغ قلبه فتطعنه طعنة مميتة . لم يكن احتلال أرض فحسب ، بل إبدال سكان بسكان .

وتقاسمت إيطاليا وفرنسا بقية من أراضيها . الخزانة مفلسة ، والجيش التركى مهزوم مبدد ليس عنده سلاح ، والأسطول صفر . والأدهى من ذلك كله أن الساسة القدماء وأغلب المثقفين الذين يعيشون فى ظلال الأجانب فى الصالونات وحفلات السفارات بدأوا يفقدون الثقة فى أمتهم ، وآمنوا جميعا أن لا مفر من قبول حماية دولة كبيرة ، ثم اختلفوا فيما بينهم أيهما الأفضل ؛ إنجلترا أم أمريكا .

ولو كانت الأرض المنتزعة هى من ولاياتها العربية السابقة لقالت تركيا

«مع السلامة ، فى ستين داهية» ، ولكنها أرض الأناضول ، موطن الأتراك ، ليس لهم من بيت غيرها . ويالها من أرض تحس حين تراها أن زلازل وبراكين العصور الجيولوجية الأولى لم تكن قد خمدت إلا بالأمس .

فإذا بنا نرى قائدا تركيا اسمه مصطفى كمال ، أعزب ، مشدودا كالقوس ، عنيدا كالتيس ، ماكرا كالثعلب ، يعيش لا صديق له ولا نوم . . ينجح بفضل مجهود شعبى رائع اشترك فيه الفلاح المعدم مع الجندى ، والمرأة العجوز مع الفتى الشاب ، فى إنزال أعلام الدول الكبرى وإجلاء الفرنسيين والإيطاليين ، وفى دحر جيوش اليونان (ومن ورائهم إنجلترا) ومطاردتها جريا فى قلب الأناضول حتى أغرقها فى البحر ، وطهر بلاده كلها من جميع الأجانب الدخلاء . لم يتورع أن يكون سلاحه أشد أنواع العنف .

ورأيناه ــ كما ينتصر فى ميدان الحرب ــ ينتصر فى ميدان السياسة ، ويعرف كيف يضرب الدول الكبرى بعضها ببعض .

وقفت مصر كلها على قدم واحدة تهلل لمصطفى كمال من أجل انتصار الشرق ، من أجل انتصار الإسلام هذه المرة .

كنت حينئذ فى مدينة الإسكندرية ، وكانت تصدر بها صحيفة اسمها «وادى النيل» تهتم بنشر أنباء الحرب فى تركيا ، فرأيت بعينى كيف يتخاطف الجمهور أعدادها وحبرها لا يزال طازجا اختطاف الناس لألواح الثلج فى يوم من شهر أغسطس .

أين «شوقى» الشاعر ؟ ها هو ذا ــ كعادته ــ يخرج علينا بقصيدة تسجل اهتزاز قلوبنا عنوانها «انتصار الترك فى الحرب والسياسة» ، ومطلعها :

«الله أكبر كم فى الفتح من عجب
يا خالد الترك جدِّد خالد العرب» .

ولكن إذا كانت هزتنا العاطفية لانتصار اليابان قد ماتت ميتة طبيعية على فراش النسيان ، فإن هزتنا العاطفية لانتصار تركيا ماتت غيلة وبطعنة خنجر من يد هذا الذى كنا نهلل له . لم يكد مصطفى كمال ينتصر حتى تنكر لجميع وعوده ، وأصبح كالثور الهائج فى مصنع الخزف . حطم كل شيء وجده فى طريق أمته ، دينها ، لغتها ، خطها ، عاداتها ، تقاليدها . . ألغى الخلافة ، وطرد الخليفة وكل أسرته شر طردة .

فهمنا حينئذ ــ ونحن فى شدة الحزن ــ أن الثمن الذى دفعه هو ارتماؤه فى أحضان الغرب ، فأسقطناه من حسابنا ولينا له ظهورنا . طالما رأيت صوره أثناء المعركة وهو جالس بين مشايخ الإسلام فى الأناضول ، على رأسه القبعة ، وعلى رؤوسهم العمائم ، يده فى يدهم يحلفون على القرآن . فلما انتصر مزَّق القرآن ولبس البرنيطة وشنقهم جميعا دون أن تطرف له عين .

لا تسل عن حزننا فى مصر . بكينا مع «شوقى» على مطلع قصيدته النائحة التى يرثى بها الخلافة :

« عادت أغانى العرس رجع نواح
ونعيت بين معالم الأفراح »

ثم يقول لمصطفى كمال :

«مالى أطوقه الملام وطالما
قلدته المأثور من أمداحى
هو ركن مملكة وحائط دولة
وقريع شهباء وكبش نطاح
الحق أولى من وليك حرمة
وأحق منه نصرة وكفاح

وكنت فى مدينة جدة بالحجاز يوم إلغاء الخلافة ، فرأيت جميع قناصل الدول الاستعمارية (وكلهم من رجال وزارة المستعمرات لا الخارجية) يقيمون الحفلات ويسكرون ابتهاجا بهذا الإلغاء .

ما تفسير مسلك مصطفى كمال . إن تاريخه السياسى لا يزال غامضا . لابد أن أسرارا كثيرة دفنت معه . لامرشد لنا للانضمام إلى قول المعجبين به بأن كل الذى فعله هو من إرادته وحده ، أو إلى قول خصومه بأن مؤامرة دبرت بليل بينه وبين دول أجنبية يهمها هدم الخلافة وفصل تركيا عن الشرق ، ولو ضحت من أجل ذلك باليونان .

الله أعلم . . ولكن ما انكشف من سيرته الخاصة بعد ذلك قد يعيننا على فهم مزاجه ، إن فاتنا الإلمام بسر سياسته ، فقد روت أخته «مقبولة هانم» بعد موته أنه كان ـ كبقية الأطفال ـ يدرس اللغة العربية فى المدارس ، وكان معلم الفصل رجلا معمما بدينا فظا غليظ القلب قاسيا ، طلب إلى مصطفى كمال ذات يوم أن يخرج إلى التختة ، ويردد أشكال

تصريف الفعل العربى الثلاثى المسند للمتكلم والغائب والمخاطب ، مذكرا ومؤنثا ، مفردا وجمعا ، ماضيا ومضارعا ومستقبلا . ما أشق حروف القاف والضاد والعين على الأتراك ! تلعثم الصبى لأنه كان بليدا جدا فى اللغة العربية ، فصفعه أستاذه وضربه أمام رفقائه ، وهو المغرور منذ طفولته بنفسه ، المعتد بكبريائه إلى حد الهوس والجنون .

فمنذ ذلك اليوم البعيد قرر مصطفى كمال إعدام اللغة العربية وكل لابس عمامة .

وروت أخته أيضا كيف حضر وهو ضابط مطربش مناورات الجيش الألمانى فى برلين قبل الحرب ، وجلس بين ضباط ألمان كل منهم يحسب نفسه المارشال مولتكه الكبير ، فأبدى مصطفى كمال رأيه . . نظر إليه رفقاؤه شزرا ، ولم يعنوا بالرد عليه . مثلك يقف موقف المتفرج ولا يتكلم . وفى اليوم التالى تبين أن مصطفى كمال وحده هو الذى أدلى وحده بالرأى الصواب . فجاءوا إليه يعتذرون قائلين : لم نحسب أن رأسا عليه مثل هذا الطربوش المضحك قادرة على أن تنبت منها فكرة ذكية .

فمنذ ذلك اليوم البعيد قرر إعدام الطربوش وكل شخص يلبسه .

وخبر مصطفى كمال البلاد العربية مرتين : الأولى وهو فى طريقه إلى ليبيا للاشتراك فى الحرب ضد إيطاليا سنة ١٩١٢ . جلس فى قهوة جراسيمو متاتيا (قهوة الشيخ محمد عبده) ، ودخن النرجيلة ، والثانية وهو على رأس جيش تركى فى سوريا فى الحرب العالمية الأولى . وإلى هاتين الرحلتين يرجع عزمه على نفض يديه من كل من هو ، بل من كل ما هو عربى .

كان عهد الهزات العاطفية وتسجيلها فى قصائد عاطفية قد انتهى . لا نعيش الآن على العواطف وحدها . أنظارنا المتلهفة للخارج ــ تعود تارة بفرح وتارة بحسرة ــ بدأنا نصوبها للداخل . خلصنا من هذه التجارب ونحن نتلمس قدرتنا العقلية والروحية على اللحاق بالغرب والوقوف منه موقف الند للند . لم ينبهم علينا أن لا اعتماد لنا إلا على أنفسنا ، وأن الطريق شاق ، وكان إنشاء الجامعة الأهلية أول نفخ فى البوق لتستيقظ أمتنا .

ولكننا لم نملك ولم نثبت تمام ثقتنا فى أنفسنا إلا يوم تأميم قناة السويس . طوى التاريخ فى ذلك اليوم آخر صفحة لاستعلاء الغرب على الشرق بفضل احتكاره للسلاح والعلم . إفريقيا كلها فهمت معنى هذا الدرس وتحررت من الخوف . أصبح الطريق أمامها واضحا مفتوحا مأمونا .

ولم يكن غضب المستعمرين من مصر لما فعلته فى بلادها ، بل لهذا التأثير الذى أحدثته فى إفريقيا . وستظل القاهرة هى التى تضرب الأمثال دائما لإفريقيا .

ومع تملك الثقة بالنفس توالت خطواتنا بسرعة مذهلة . إننا لا نحس بها الآن لأننا نعيش داخلها .

(« المساء » ، ١٩٦٢/١/٢٢ ، ص ٨)

« شخصيات ومراحل عمالية »

جاء أوان الاعتراف ــ لحسن الحظ فالاعتراف مطهر للنفس ومنفذ لها إلى نعيم الصراحة وشرفها ــ بأننى ما كتبت هنا يوماً إلا ساءلت نفسى بشىء من القلق يتجدد كل مرة : هل هذا المقال يخدم الذين تصدر لهم « التعاون » لتعبر عنهم وتعنى بمشاكلهم . . أعنى إخواننا العمال ؟ . هل يتوقعون منى أن لا أحدثهم إلا بعد أن أزور مصنعاً ، أو أقابل واحداً منهم ، أو أقرأ قانوناً جديداً يمس أوضاعهم . هل يكربهم أننى لا أفعل ذلك إلا نادراً ؟ . . فيكون جزائى العادل إعراضهم عنى أو إن كانت لهم قراءة لما أكتب فباستخفاف أو من وراء القلب . فيقولون : نحن فى البحر وهو ــ حضرته ــ لائذ بالبر ، يدنا فى الشغل وهو ــ سيادته ــ عاطل اليد يتنزه كما شاء له الهوى ، لا فرق عنده بين ما نراه نحن ضرورياً وما نراه نحن غير ضرورى ، بل لعل أول شىء يهمه هو آخر شىء يهمنا . هل باله معنا أم هو شارد ؟ . . هل نظرته من عينيه المفتوحتين تبصرنا أم تتخطانا لأنها مستغرقة فى أحلام اليقظة ، لم تهزه بعد يد أو حادثة تقول له استفق ! . صح النوم ، ثم ما يلبث قلقى أن يزول أو على الأقل أن يخف حين أتمتم فى

سرى من باب التشفع والتبرير ـ من باب العشم ـ إننى أحدثهم عن الحياة ووجوهها المتعددة ، عن مفارقاتها ودروسها . . عن خميرتها وعجينتها ، وما جدوى أن يشغلنى : ما هى مهنتك إذا لم يشغلنى قبل ذلك من أنت ، أو كيف تعمل قبل كيف تحيا . . إننى أحدثهم عن وإلى « الإنسان » الذى هو كامن أولا فى نفس « العامل » ، إننى أبحث عن الصلات التى تجمع بين الناس جميعاً متخطية فروق الطوائف ، إننى أفسح لهم مجال تصاريف اللغة ليبين منها اشتقاق مصطلحات كل مهنة ، إذا سرحت بهم شرقاً وغرباً ، فى الحاضر وعبر الماضى فلأن هذه هى وسيلتى للالتحام بنفوسهم ، من داخل الداخل ، نجتمع أولاً اجتماع إنسان بإنسان ثم تفرقنا مطالب العيش يميناً ويساراً . . لكل منا مهنته .

اليوم زال منى القلق وإن لم أفارق منهجى ، إننى مستقر كالفنجان على صحنه المصنوع له ، سأبقى فى الدنيا الواسعة ولكنى سأنفذ إليها من خلال باب يهم كل عامل ـ فى تقديرى ـ أن يعرف ما وراءه ، سأتحدث عن كتاب يعالج تاريخ الجهاد الطويل المرير من أجل انتزاع الاعتراف بحقوق العمال . ومن هو أشد جدارة منهم بمعرفة تاريخ هذا الجهاد ، بتقدير الذين حملوا أعباءه ، بالاعتراف بجميلهم ، بالترحم عليهم ، قلائل هم . . لماذا لا يكون لكل واحد منهم صورة فى بيت كل عامل ، يلفت إليها نظر أبنائه لاتخاذها مثالاً يحتذى .

كتاب دسم وسهل الهضم معاً ، فيه تثقيف وترويح للنفس معاً ، قرأته بمتعة كبيرة وعلمت منه أشياء كنت أجهلها وعشت كالبهيم ، طور الله فى برسيمه . . أفلا تنقضى الحسرات إلا بانقضاء العمر ، رضيت بهذا

الكتاب كما هو وتراجعت كل تحفظاتى عليه ، سيأتى دورها . . هذا هو الكتاب الذى أصدره أخيراً الأستاذ أمين عز الدين ــ لا أدرى كيف أشكره ــ بعنوان « شخصيات ومراحل عمالية » ، (كتاب الجمهورية ــ عدد ١٦) . . أتمنى أن يقرأه كل عامل ، بل أن يقرأه مرة وأخرى ، لا لمجرد الإلمام . . بل لاستذكاره كأنه ورد السحر ، أن يقرأه لنفسه ، سراً مرة وجهراً مرة ليسمعه الذين هم من حوله . .

كتاب دسم وسهل الهضم معاً لأنه عصر لك تاريخ الحركة العمالية فى جرعة واحدة . . ولأنه ــ وهذا هو الأهم ــ نفذ إلى تعريفك « بالمجاهد » من خلال تعريفك أولاً « بالإنسان » ، فهو لم يجعل التاريخ مادة جافة ترهقك بأبحاث نظرية مجردة فلسفية عن نشأة المذاهب وتعارضها ، عن دعائمها الفكرية وصراعاتها ، بل جعله مادة تنبض بالحياة من خلال استعراضه لسيرة « الإنسان » الذى كان أداة فى يد التاريخ ، عاملاً على انطاق مراميه إن لم نشأ أن نقول عاملاً على صنعه أو تطويره .

فعمدة القسم الأول من الكتاب سيرة أربعة أشخاص هم محمد فريد ، ومحجوب ثابت ، وسيد درويش ، وعزيز ميرهم ، منزوون هم فى هوة الماضى مع أن زمنهم غير بعيد عنا ، ومع ذلك عادوا بفضل قلم المؤلف أحياء ، كما نرى قسمات وجوههم تلم بخوالج ضمائرهم . . سيرة كل منهم قصة درامية ، لها قدرة شديدة على جذبك والاستحواذ عليك حتى كأن القصة هى قصتك أنت عشتها بنفسك وكأن كل جراحات أبطالها هى جراحات قلبك أنت . . قدمهم لنا المؤلف لا لنعرفهم فحسب ، بل لنحبهم لأنهم جديرون بالحب . وإفساح مجال الحب وتهيئة

كل فرصة له هي وظيفة الأديب والفنان ، ينبغى أن تكـون مطمـح كل إنسان ، فإن يوماً ينقضى بغير هذا الغنم لا يعد من أيامك البيض . .

هذه تصبيرة ــ وإن طال الكلام ــ أردت بها تشويقك لهذا الكتاب ، توطئة لأن أحدثك عنه فى المقال التالى .

(« التعاون » ، العدد ٣٧٧ ، ١٠/٥/١٩٧٠ ، ص ١٠ ، بعنوان « زال القلق »)

* * *

الكتاب صغير (١٥٣ صفحة من القطع المتوسط وليس غير) والقسم الأول منه بعنوان « شخصيات » ــ ٦٧ صفحة ــ يغطى من تاريخ الحركة العمالية عندنا مراحلها المتتالية منذ مولـدها فى ظـل رياسـة محمد فـريد للحزب الوطنى (١٤ فبراير سنة ١٩٠٨) إلى سنة ١٩٣٧ حينما تولى عزيز ميرهم رياسة المجلس الأعلى للاتحاد العام لنقابات العمال .

حقاً إنها أعجوبة ــ كان لها فى قلبى صدمة لذيذة ــ أن لا يقع هذا الكتـاب بسبب صغر حجمـه فى خطر « كلفتـة » عمادهـا القفز وعـدم الترابط ، ثم لا يقع أيضاً بسبب امتداد مساره فى خطر كلفتة ، تأخذ هذه المرة صورة ثرثرة تـزعم أنها تصلح وحدهـا للتعميم دون التخصيص ، ونجاة هذا الكتاب من هذين الخطرين شفت غليلى من تزايد ميل الكتابات عندنا إلى الكلفتة والثرثرة ، ولا تظنن أن الثرثرة تجىء من رغبة الكاتب فى زيادة الشرح ، هى فى الحقيقة أفضل وسيلة عنـده للكلفتة ، فـالثرثـرة والكلفتة وجهان لعملة واحدة رديئة جداً .

القصد والاتجاه فوراً إلى المعالم الرئيسية وأمهات المسائل والانتصار عليها هي من سمات هذا الكتاب التي لا تجعله أيضاً إما ينحبس في سرد الوقائع والظواهر المادية فتظل على أرض تتصف بالجفاف وإما ينحبس في تتبع التيارات الفكرية والمذهبية الكامنة تحت الوقائع والظواهر المادية فتحلق معه في سماء التجريد بعيداً عن الواقع .

عرف هذا الكتاب كيف يمزج مزجاً جميلاً بين سرد الوقائع المادية وتتبع الأفكار الكامنة تحتها ، عرف كيف يقدم لنا كل شخص تحدث عنه : إنساناً ومفكراً في صورة واحدة ، تتجمع فيها الخيوط دون أن يتبين العين كيف تم نسيجها بحكمة ولغاية مقصودة . .

وواضح أن المؤلف شديد الإعجاب بمحمد فريد ويقول إن مصطفى كامل لم يعن بإقامة حزب منظم إلا بعد سنوات طويلة من جهاده الوطني . فقد تألف الحزب الوطني في ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ ، أي قبل شهرين اثنين من وفاة اللواء ، محمد فريد سارع حين خلفه إلى رسم اتجاه الحزب في طريقين رئيسيين : الطريق الأول هو تنظيم الحزب الوطني بتنظيم قواعده الشعبية العريضة ، والطريق الثاني هو احتواء الطبقة العاملة والصناع الحرفيين للدفاع عنهم والمطالبة بحقوقهم ، فأنشأ الحزب للعمال نقابة الصنائع اليدوية ، وللفلاحين أنشأ النقابات الزراعية والتعاونية ، وأنشأ للمثقفين مدارس الشعب ونادى بالمدارس العليا .

من فرط إعجاب المؤلف بمحمد فريد ــ وله الحق ــ نسب إليه نشأة الحركة العمالية وأغفل ــ وله العذر ــ لأنه لم يقصد بكتابه هذا وضع تاريخ

شامل جامع مانع لهذه الحركة ـ فعل ذلك فى كتاب آخر له من جزءين ـ أغفل تتبع النشأة إلى الجناح الذى يمثله عبد الله النديم فى الثورة العرابية ، كان اتجاهه إلى التنظيمات الشعبية واضحاً وملموساً ، كما أن المؤلف جار قليلاً ـ بسبب هذا الإعجاب ـ على حق مصطفى كامل الذى وصفه بأنه أقرب إلى الزعماء الرومانتيكيين منه إلى المناضلين الثوريين . .

ربما لم يعمد اللواء إلى تنظيم الحزب الوطنى لأنه أراد أن يحصل على عون كل مواطن ينجذب له مع إبقائه فى الوقت نفسه ـ وبخاصة إذا كان من موظفى الحكومة ـ بمنأى عن عسف السلطات ، انتظاراً ليوم تتجمع فيه فى الحزب قوى تستطيع أن تصد هذا العسف . .

ولماذا لا نقول أيضاً إن اللواء كان يسعى لنوال تأييد الجيش دون أن يتخذ التأييد صورة الانتماء لحزب قائم منظم ، وفى ذاكرتى رواية عن حفلة أقيمت ليلقى فيها اللواء إحدى خطبه ، فشاهد بين الحاضرين ضابطاً بزيه العسكرى . بدا عليه القلق : وطلب إلى أحد أعوانه أن ينصح الضابط بالانصراف ، إذا أراد أن يحضر فليكن بزى مدنى لا عسكرى .

الحزب الوطنى برياسة محمد فريد هو إذن صاحب الفضل فى التبشير بالحركة العمالية والسعى لتنظيم تجمعات العمال ، دفاعاً عن حقوقهم . . وقد اعترف المؤلف بصراحة وشجاعة أن سندة هذا الحزب تمثلت فى أبناء الطبقة الوسطى من التجار والمثقفين . . كان لابد أن ننتظر طويلاً حتى يطلع من داخل العمال قادتهم . . طويلاً ، ليس فحسب لأن النقابات لم تكد تقام حتى أصبحت ورقة تتلاعب بها الأحزاب السياسية فى تطاحنها من

أجل الوثوب إلى مناصب الحكم ، بل لأن الخلفية الثقافية فى المجتمع المصرى حينئذ كانت بسبب فقرها ـ لا تتيح حركة الانبثاق الداخلى فى نقابات العمال ، فالأمية فاشية ، وأبواب التعليم المجانى موصدة . . ووسائل توصيل الثقافة قليلة وغالية . .

تعود لذاكرتى هنا سيرة مستر موريسون وزير الداخلية فى وزارة الحرب بإنجلترا تحت رياسة تشرشل ، أمه خادمة تمسح البلاط على ركبتيها . . ولما وضعته وقعت فى يد قابلة جاهلة ـ لأنها رخيصة الأجر ـ ففقأت إحدى عينيه وهى تنزعه من بطن أمه . هل هناك أسوأ من هذه الظروف لنشأة طفل يصبح فيما بعد وزيراً جليلاً . . روى لنا فى سيرته كيف علم نفسه بفضل كتب زهيدة الثمن لا يزيد عن بنس واحد ، وبفضل تردده على مكتبات عامة تيسر له وهو مرتاح تحصيل الثقافة التى كانت تنقصه ، وكذلك إرنست بيفان ـ زميله ووزير الخارجية ـ كان سائق عربة يجرها حصانان لتوزيع زجاجات البيرة . . يقول لنا فى سيرته إنه كان يسوق العربة ، فارشاً فوق رأسه غطاء من المكانتوش ليقيه المطر والبرد وهو فى مقعد مكشوف ، وواضعاً فى الوقت ذاته كتاباً على اليد التى لا تمسك اللجام ، ليقرأ ، وليتعلم . .

كلاهما دخل نقابة منظمة مستتبة ، اندعك فى مراكزها الثانوية ثم ارتقى قليلاً قليلاً وهو يثبت كل مرة قدرته على الفهم والتنظيم والمعالجة ، قدرته على القيادة وعلى المفاوضة ، وعلى قياس المستطاع الذى لابد من الحصول عليه بغير المستطاع الذى لا بأس من تأجيله بغير إهماله ، ولأن

النقابات من شعارها التفانى والإخلاص للمبدأ ، فإن العيون ترقبه والأيدى تدفعه إلى الأمام لأن كسب زملائه ببلوغه هو مرتبة القيادة لا يقل عن كسبه هو للمنصب الذى ينتظره .

إن سيرة موريسون وبيفان وكير هاردى وغيرهم من العمال زعماء الحركة العمالية هى من الكتب التى ينبغى لنقابات العمال عندنا أن تتولى الإنفاق على ترجمتها ، إذ ينبغى لكل عامل أن يقرأها ، لتكون حافزاً له على الوعى بنفسه ، وبما حوله . . على الوعى بأنه لا على شىء إلا على جهده الذاتى يتوقف تدرجه إلى الصفوف القيادية .

كثير من الدراسات التى كتبت عن محمد فريد تجعلك تعلم من هو ، أما هذا الفصل الصغير من كتاب الأستاذ أمين عز الدين فيجعلك تحبه . قد خلطنا به ، واصطحبنا معه فى رحلاته إلى أوروبا لعقد المؤتمرات ولقاء زعماء الحركة العمالية هناك . . لقد نشرت أخيراً أجزاء كبيرة من مذكرات محمد فريد فإذا بها تكشف عن جراح قلبه وامتعاضه من أناس كثيرين راشهم بسهام غضبه ، تكشف عن مرارة من عجب أنها لم تثبط همته . وكان آخر كأس شربه تجاهل الوفد المصرى له ، وصد يده التى مدها بالعون .

وفى صورة تنبض بالحياة قدم لنا المؤلف بعد ذلك محجوب ثابت ، وعزيز ميرهم الذى انفرد من بين رتل القادة بتراجع اسمه وذكراه عند الجيل الصاعد ، كيف لا نشكر المؤلف أنه أعاد إليه حقه وأخرجه من أكفانه . . يبقى بعد ذلك الفصل المخصص لسيد درويش ، وهو فى

اعتقادى من أفضل ما كتب عن هذا الملحن العظيم ، لأنه بالتفاتة بارعة ربط بين فنه والطبقات الكادحة .

وأخيراً يقدم لنا المؤلف لوحة جميلة لما عاناه الشعب المصرى فيما يسمى « الشغل فى السلطة » أيام الحرب العالمية الأولى . . ولم يتورع المؤلف من أن يدين ــ تلميحاً لا صراحة ــ من رضى من أبناء الشعب ــ وهم كثيرون ــ بأن يكونوا أداة فى يد المستعمر الباطش ، بل إن بطش ابن البلد بابن البلد أشد قسوة وفجاجة من بطش المستعمر به . . انظر إلى هذه الصورة المؤلمة التى رواها سلامة موسى عن نفسه :

« قصدت ذات يوم إلى مأمور فى الزقازيق أطلب منه إطلاق اثنين من الفلاحين ، فتأملنى ثم قال : أنا عايز أرحلك أنت لفلسطين ! » .

وقد شعرت باعتزاز كبير حين تحدث المؤلف فى هذا الفصل عن أحمد خيرى سعيد ، ناظر مدرستنا المسماة فى تاريخ أدبنا بالمدرسة الحديثة . . فقد كان يصاحب جموع العمال المسخرين للعمل مع السلطة الإنجليزية فى فلسطين ، وكتب قصة نشرها فى صحيفة « الفجر » تروى مأساتهم ومداهنة الأطباء المصريين لرؤسائهم الإنجليز . . ترحمت عليه من جديد وقرأت على روحه الفاتحة . .

(« التعاون » ، العدد ٣٧٨ ، ١٩٧٠/٥/١٧ ، ص ١٠ ، ٩)

معليهش . . والولد المدلل !

والولد المدلل هو جان كوكتو الأديب الفنان الفرنسى الـذى نشرت الصحف نعيه أخيرا . لزمه هذا الوصف طول حياته حتى إذ هو شيخ قد بلغ من الكبر عتيا.

أما الأم التى دللته فهى باريس . لو كانت غانية تتزين لكان هو عطرها الذى خلطت عناصـره ضربـة معلم ، طيف مبهم من متعه وشبهـة من خدر ، أو مأدبة لكان هو فيها كأس الشمبانيا أو كل حبب هذه الشمبانيا ، أو فترينة لكان هو فيها آخر تقليعة فى مودة قبعات المانيكان . غفرت له نزواته ـ وما كان أكثرها ، من أجل مواهبه ، وما كـان أكثرهـا ، يؤلف المسرحية ويخرجها ويصنع لها الديكور والملابس ويضيف الإضاءة . حشر أنفه فى الباليه والموسيقى فكانت أصدق حساً من أنف أرباب المهنة . دخل السينما على كبر (أورفيه ـ الجميلة والبهيم) فإذا بالدخيل يبز الأصيل . وكان موضع إعجاب وموضع تنـدر واستخفاف . كنت وأنـا فى باريس (١٩٥٠) أقرأ شتائم موجهة ضده مكتوبة على جدران المترو ، يرد فيها

اسم جان ماريه الممثل الفرنسى ، إذ لم يخجل كوكتو من إشهار عشقه له ، والبركة فى أندريه جيد .

ولعل الذين شتموه ازدحموا ليلتهم على باب مسرحيته لينعموا بالذكاء الذى يغنى عن علم الفقيه ـ وكان مع ذلك فقيها عالما ، وبالتألق الذى يسحر الأبصار ، وبالتعبير بالهمسة واللمسة . . كان هو الذى يقول الذوق والظرف . للذين فصلتهم عن الكادحين لوثة الفن أو قرصة السأم أو فرط الترف أو حياة الليل . . كان له جذب مغناطيسى خفى . ما يهل على باب الصالون المزدحم كعلبة السردين (ومع ذلك لا يدوس أحد على قدم أحد أو يحتك كتف بكتف) حتى يشعر من هو أصم مكفوف البصر فى الركن القصى أن كوكتو قد وصل . ليس فى عالم الأدب أو الفنون الجميلة شخص موهوب مشهور أو مغمور إلا عرفه كوكتو وارتفعت بينهما الكلفة.إنه يصعد سلما حلزونيا ضيقا مظلما ستة أدوار فى بيت عتيق ليدخل حجرة أجزم أنها أقذر حجرة عرفها تاريخ الفنون ليزور وسط القمامة والأبخرة العفنة صديقه الديكوريست النابغة ـ العزبانى كريستيان بيرار ، فلما مات صديقه رثاه قائلا : قد فقدت الدنيا عطرها.ولعل باريس أمعنت فى تدليل ولدها المدلل لأنه آخر العنقود ، فلا أظن أن هذا الجنس من الفنانين ستتجدد له ذرية فى فرنسا من قادم ، فقد خف فيها كبت عامة الناس لغرائزهم الجنسية وحين يخف هذا الكبت تبوخ نزوة الفنان . لم تعد المسألة من الكاتب ؟ بقدر ما هى ماذا كتب ؟ سيتخذ الفنان سمة أستاذ الجامعة الذى يمقق عينيه فى الدرس والتحصيل أو سمة الموظف الروتينى فى دار نشر قومية أو غير قومية .

ومصيبة كوكتو أن مؤلفاته لا تدل عليه بقدر ما تدل عليه حياته ، فقد كانت حياته أروع أعماله . وما أظن أن مؤلفاته ستعمر من بعده طويلا .

الذنب ذنبه ، إنها حبب الشمبانيا ، يفور بأزيز لذيذ ـ ولكن لهنيهة ـ كأنه لحن موسيقى ، ما أجمله ، ولكن ما أقصر عمره . .

رثيت لكوكتو المفطور على البوهيمية ، الدائم الشباب فى عز شيبه يوم أن دخل الأكاديمية وانسلك بين الخالدين وكأنهم حطام أو أصنام . وضع على صدره الوسام والتزم الوقار ، ولكن طمأنتنى عليه تلك القبعة المضحكة التى يلبسها عضو الأكاديمية فى الجلسة الرسمية فقد خيل إليها أنه وضعها على رأسه وهو يقهقه فى سره طويلا . . هى أيضا غفرت له سخريته بها . .

ولم يشأ أهل باريس إلا أن يجعلوا من موته خاتمة مطابقة لحياته فزعموا أنه بعد أن شيع جنازة المغنية إديث بياف ـ صديقته الروح بالروح ـ عاد إلى بيته حزينا عليها مكسور القلب فمات بسكتة قلبية . . وإديث بياف كانت من قطط دخانيق الحوارى ، ثم ارتقت إلى سطح الشهرة فى إنشاد الأغانى العاطفية الخفيفة وأبت أن تموت إلا وهى بين أحضان زوج فى سن حفيدها لو كان لها حفيد . . هل تصدقه أو لا تصدقه وهو يقسم بأغلظ الأيمان أنه متيم فى هواها . . ولو صدق لقال . . وفى مالها .

من الإنصاف لكوكتو أن أقول عنه إنه حقا لم يعرض فى مؤلفاته لمشكلة اجتماعية عويصة ، لا هى ولا علاجها مما يهم ولكن همه كان الكشف عن هذا التركيب المعقد لعواطف الإنسان . أن تسيل من النفوس ولو بالرمز حديثها الصامت عن أحلامها وأوجاعها ، أن يستنقذ الجمال من بين أكوام

الدمامة ، فيهصر قلبك حين يريك أن الدمامة عرضية وخلل طارىء وهو يريك أن الجمال زائل أو أن قبضه على الأقل قبض الريح .

هذه هى المأساة الجديدة فى المسرح الحديث ، حلت محل صراع البطل ، أن يكشف لك برفق عن ضعف الإنسان ليدفعك لا إلى مقته واحتقاره ، بل إلى العطف عليه والرثاء له ، فغايته هى **المصالحة** لا بينك وبين الحياة فحسب بل بينك وبين نفسك ، فإنكارك لضعفك إنما هو نوع من المقاومة . . .

زار كوكتنو مصر فى مطلع عام **١٩٤٩** على رأس فرقة تمثيلية (الفتى الأول فيها هو جان ماريه) وقدمت فى دار الأوبرا ثم فى الإسكندرية عدة مسرحيات من بينها مسرحية لكوكتو . وقد حضرت هذا الموسم لحسن الحظ ، ودعيت إلى المأدبة التى أقامتها السيدة قوت القلوب (ولها مؤلفات بالفرنسية ـ هكذا زعمت) تكريما لهذه الفرقة . كان كوكتو يجول بيننا كأنه فرقع لوز ، وضع يديه خلف ذيل جاكتته وأخذ يروح بهذا الذيل . . لعل الصالون كان شديد الحر ، ولعل كوكتو كان له وجهان : أمامى وخلفى . . ثم كتب عن رحلته لمصر وتركيا واليونان كتابا لم يشأ أن يسميه إلا بعنوان « معليهش » ، مكتوبا هكذا بالأحرف اللاتينية على الغلاف Maalesh فتعلم من هذا العنوان وحده أن مصر قد فازت من الكتاب بنصيب الأسد ، وأنه يماشى ويتملق فكرة ثابتة استقرت خطأ فى أذهان الغرب عن الشرق ، كأنه يقول من باب الدعابة لقرائه فى فرنسا : ما لزوم عنوان طويل عريض مثل « خواطر وانطباعات عن رحلة فرقة تمثيلية لمصر » ؟ أليس كلمة معليهش وحدها كافية . بل هى فوق ذلك ستثير

ابتسامتكم وتلهفكم للمزيد من العجائب والغرائب فى بلاد تركب الحمير والجمال وكل شيء فيها ماشى بالبركة ؟

إننى لا أحب التعليل السهل فأتهم كوكتو بأنه قدم إلينا وفى نيته أن يسبنا على طول الخط ، إنه بينه وبين نفسه يؤمن أنه وصف ما لدينا من جميل بكرم ومن قبيح بلا تحامل وإن نظرته الخاطفة فى رحلة سريعة كان أثناءها منشغلا ليلا ونهارا فى الإشراف على الفرقة هى مع ذلك أبرك وأصدق من البحث المستفيض الذى يستغرق أعواما طويلة ، فهو يقبل ويغتبط إذا اتهمته بالغرور ولكن لا يقبل أن نتهمه بسوء النية أو فساد النظرة . والمصيبة أن الذين يتهموننا بالتعصب إذا دافعنا عن أنفسنا هم أنفسهم من غلاة المتعصبين لأنهم لا يتزحزحون عن الفكرة الثابتة الخاطئة ، بل يرون كلامنا وهو قاصر على الدفاع هجوما عليهم ، وتجريحا لبراءتهم غير المنكورة . .

وقد صادرت الحكومة فى ذلك العهد هذا الكتاب لا لأنه يتضمن تزييفا على المصريين بل لكلام جاء فيه ـ لا طلع ولا نزل ـ عن الملك فاروق .

سأقدم لك فى المقال التالى مقتطفات من كتاب « معليهش » ولكنى محتاج قبل ذلك أن ألف وأدور قليلا حول هذه الفكرة الثابتة التى استقرت فى الغرب عن الشرق . . من أين جاءت ؟ من المسئول الأول عنها؟ . وأقول لك منذ الآن إن المسئول الأول عنها هو فى نظرى كتاب « ألف ليلة وليلة » .

(« المساء » ، ١٩٦٣/١٠/٢١ ، ص ٨)

معلبهش . . وألف ليلة وليلة . .

قال العقاد ـ أستاذنا الكبير ـ فى يومياته الأخيرة بصحيفة « الأخبار » إننا نجد فى لغة الإنجليز والفرنسيين مثيلا شائعا لمعنى كلمة « معليهش » عندنا ، فهى ليست وقفا علينا حتى نتهم بها وحدنا (يعنى : لا تعايرنى ولا أعايرك) .

وقول العقاد حق ـ كالعهد به دائما ـ إذا كان الكلام مقصورا على مقابلة قاموس بقاموس ، ولكن الحكم يختلف ـ فى نظرى الضعيف ـ إذا أخرجنا الكلمة من بطن القاموس إلى السير فى الطريق لنرى كيف ومتى يستخدمها الناطقون بها . فبهذا وحده نستطيع أن نفهم لماذا يعيرنا الغرب بأننا أهل « معليهش » وأنها هى الماركة المسجلة لبلادنا ، يكفى أن يضعها كوكتو عنوانا لكتاب له حتى يدرك القارىء الفرنسى أن الحديث هو عن مصر .

لا ينكر الفرنسى أن مقابل كلمة (معليهش) موجود فى لغته ، ولكن ما هى بعيب لأن الذى يستخدمها ليس هو المحقوق بل صاحب الحق ،

الذى له أن يستقضى حقه وله أن يصالح عليه وله إن شاء أن يتنازل عنه قائلا (معليهش) فهى ليست للهرب من المسئولية بل لقبول العذر أما عندنا فهى فى نظره عيب وتهمة لأن الذى يستخدمها عادة هو المحقوق لا صاحب الحق .

فالفرنسى يؤمن عن سماع أو عن تجربة فيها يؤكد أن النجار عندنا يقسم بأغلظ الأيمان ــ بعد أن قبض نصف الثمن عربونا ــ أنه سيسلمك الدولاب بعد أسبوع واحد ، فإذا حل الموعد تحجج قائلا إن الدهان لم يجف بعد ، وأضاف (معليهش) . . الحقيقة أن الدولاب ليس غير مدهون فحسب بل غير موجود إطلاقا ، إنه ينتظر قبض عربون جديد من زبون آخر على نياته ليشترى به الخشب اللازم لدولابك ، فحياته كلها تطبيق للمثل القائل (طاقية هذا لذاك) ليس له ضحية واحدة ، بل كل زبون ضحية تتكرر معه كلمة « معليهش » .

وقوله معليهش معناها : يعنى يا أخى الدنيا طارت ، هل حبكت أن يلزمك الدولاب اليوم لا بعد غد أو حتى بعد أسبوع ، هل ستقوم القيامة ؟ أليست ملابسك مستفة فى أمان الله فى دولابك القديم فلا أظن أنك تنشرها على حبل الغسيل فما الضير أن تبقى حيث هى إلى أن يحلها ربنا ؟ الصبر طيب . أتريد أن تذلنى لأنك دفعت لى عربونا ؟ يا أخى الأرزاق على الخلاق . . وربك كريم . . . إلخ إلخ .

أخذك فى مائة سرساب وسرداب فكيف يمكن لك مناقشة مثل هذا الرجل ؟ إنه يطلب منك أن تمزق الأجندة وتحطم ساعتك ومنطقك وأن

تكون حياتك سبهللة ، كل شىء فيها عائم غير مستقر . لا يقال الوعد لم يتحقق بل الطالع لم يصدق .

ويقول الفرنسى : أما عندنا فالنجار لا يبيع الدب قبل صيده ، حسب حسابه وأضاف يومين أو ثلاثة لزيادة التأكيد ، فهو لا يتخلف إلا لعذر قهرى خارج عن إرادته ، للزبون أن يشكوه للبوليس أو يرفع عليه دعوى مطالبا بالتعويض إذا كان عنيدا مشاكسا أو رد محاكم ، وله أن يقبل عذره ويقول له (معليهش) لا يفور دمه ، أما فوران الدم فهو حكر للزبون المصرى والبركة فى كلمة (معليهش) يقولها المحقوق لا صاحب الحق .

ومما زاد فى اعتقاد الغرب أن كلمة معليهش عملة شائعة التداول بيننا أننا نستخدمها أحيانا كثيرة للاعتذار عن خطأ مقربه ولتطييب الخاطر ، معناها : آسف ، لا مؤاخذة ، حقك على ، هات رأسك أبوسها ، إنها ترجمة أمينة لكلمة (بردون) المهذبة وهى فى هذه الحالة وليدة مفهوم الحياء عند المصرى ، وهو قد يختلف عن مفهومه عند الغرب ، فاختلطت عليه معليهش بنت الحلال بمعليهش بنت الحرام .

والاختلاف بين الشعوب فى مفهوم الحياء مبحث شائق ، والغربى يسى مرارا فهم الشرقى لا لشىء إلا لهذا الاختلاف فى مفهوم الحياء ، فهو يخطىء ويتهمنا كذلك بالكذب والنفاق حين يسمع منا على الفور كلمة (تفضل) إذا أبدى إعجابه بشىء فى يدنا ، (تفضل) عنده معناها (خذ) وعندنا معناها إننى خجل من أنى أملك دونك شيئا يروقك وتتمنى

أن لو كان للك ، فكلمة (تفضل) هى تعبير عن هذا الحياء لا أكثر ولا أقل .

وقد شاهدت سيدة فرنسية فاضلة حديثة العهد بمصر ، أبدت إعجابها بمسبحة فى يد صديق لزوجها فقال لها (تفضلى) فما كان منها إلا أن أخذتها ووضعتها فى حقيبتها - ولما عادت إلى البيت كاد زوجها يضربها علقة وقال لها هذه مجاملة لا تؤخذ أبدا مأخذ الجد عندنا ، فأجابته : هى عندى نفاق رخيص يحسن بكم أن تبرأوا منه .

انظر أيضا إلى كلمة (حبلى) - إنا نراها لا تخدش الحياء فنحن لا نحجم عن استخدامها فى قصصنا ، بل رأيت فى أحد الأفلام فتاة تضرب بطنها بكفها أمام عشيقها الذى غدر بها وتصيح (أتتركنى حبلى ، وماذا أفعل بهذا الولد الذى فى بطنى ؟) لم تكفها العبارة فأضافت إليها الإشارة ، أما الإنجليز فيرونها فجة بذيئة ينبغى اقصاؤها من حديث المهذبين ، وتحايلوا على أداء معناها بكنايات بعيدة ، فلو وجدوها فى قصة لنا مترجمة بلغتهم لحكموا علينا بقلة الحياء . ظلوا على هذه الحال إلى أن فاجأهم أخيرا مؤلف مسرحية ببطلته وهى تعلن أمام النظارة أنها حبلى

ونالت المسرحية نجاحا كبيرا لهذا السبب وحده ، ثم إذا بى فى أواخر عمرى أسمعها مرارا فى الأفلام الأوروبية الحديثة ، وهكذا أصبحنا فى الهما

فأنت ترى أن اتهامنا بكلمة معليهش حتى لئن صدق فى جانب فهو لا يخلو من الغلو الناجم عن سوء الفهم إن لم تشأ أن تقول وعن سوء النية والتعصب ، وقد دافع العقاد خير دفاع وأحب أن أضيف إلى دفاعه

شهادة المثل الشائع « لو فيها معليهش كان شنقوه ليه » دليل على أن الشعب المصرى لا يقبل منطق كلمة معليهش بنت الحرام .

* * *

لا سهولة المواصلات وسرعتها ولا مرور الزمن ولا احتمال وجود كثير من المنصفين بين من زاروا بلادنا ـ لا شيء من هذا استطاع أن يتعتع من أذهان الغرب تلك الصورة العجيبة التى يتخيلها للشرق والتى ورثها فى اعتقادى من ترجمة كتاب ألف ليلة وليلة إلى اللغات الأوروبية ـ ولست أريد أن أصدع رأسك ببحث عن أصل هذا الكتاب ومتى ترجم وعلى يد من ، ولكن يكفى أن تعرف أثر هذا الكتاب أن تسأل أى أوروبى وهو داخل ليشهد فيلما من إنتاج هوليود عن السندباد أو على بابا ، ماذا تنتظر أن ترى ؟ فإنه سيجيبك من فوره : الشعب فى الطريق يتألف كله من شحاذين ومشوهين فى أسمال بالية وفقر مدقع ، على قارعة الطريق جارية بيضاء تباع بالمزاد العلنى ، وعلى ربوة قصر للملك له مائة محظية على الأقل إنه شجاع وسط الحريم ، جبان أشد الجبن إذا تعرض للخطر ، ووزير دساس لئيم ، منافق يتظاهر بالصلاح والتقوى أمام الناس فإذا خلا لنفسه شرب الخمر وسكر وعربد ، غاية المهارة عنده هى الطعن بالخنجر فى الظهر ومن وراء ستار ، المرأة مجرد متاع للرجل ، غادرة لا يؤمن جانبها ، (ألم تذكر لنا ألف ليلة وليلة فى مطلعها أنها خانت خليلها لا مع رجل بل مع قرد). الشعب كله غارق فى البهيمية واللذة الحسية والتواكل ، الحلول غير متعلقة بالإرادة ، بل بالسحر والمعجزة . الكذب مباح ، لا دليل على الذكاء إلا الخيانة والغدر ، كل صديق جاسوس محتمل ، كل إنسان

مشغول بنفسه لا يهمه إلا أن يحقق أطماعه ولوداس على جثث منافسيه : سيحقق الفيلم كل ظنون هذا المشاهد الأوروبى ، ولن يحرمه أيضا من سماع صوت المؤذن . .

إننى واثق أن الصهيونية وراء هذه الأفلام ، تسعى جاهدة لتثبيت هذه الصورة فى أذهان الغرب .

وحين اختار كوكتو لكتابه عن مصر عنوان معليهش كان هو أيضا إلى حد ما متأثرا بهذه الصورة . . انتظرنى للمقال القادم حتى أقدم لك بعض فقرات من هذا الكتاب .

(« المساء » فى ٢٨/١٠/١٩٦٣ ص ٨)

* * *

معليهش يا كوكتو !

إليك فقرات من كتاب « معليهش » الذى وصف فيه كوكتو رحلته إلى مصر سنة **١٩٤٩** على رأس فرقة مسرحية ، وقد احتفى به « النبيل » (حينئذ) محمد وحيد الدين ابن الأميرة (وقتئذ) شويكار ، ووضع سيارته وسكرتيره الأجنبى تحت تصرفه طوال إقامته . فلا عجب أن أهدى إليه كوكتو كتابه بكلمة قال فى ختامها :

« تقبل هذا الكتاب الذى يروى يوميات فرقة مسرحية . واعذرنى إذا قلت فيه أشياء لا يقرها واجب الضيف نحو كرم مضيفه . أفمن المستطاع أن يلجم لسان ثرثار ؟ فلمنى علنا ولكن أحببنى سرا . » .

والجملة الأخيرة هى من خصائص كوكتو ومنطقه الذكى . رشاقة التعبير ، الابتسامة الذكية ، المتسامحة ، تكشف بطيف من السخرية عن قدرة النفس على الجمع بين المتناقضات : الكره فى العلن والحب فى السر ، لا لأن صاحب هذه النفس خبيث ، بل لأنه ضعيف ، لأنه إنسان . إنه لا يخضع لزيف الإجماع ، وينبرى متفردا لتبرير النفاق فى خضم العواطف كأنما يرد له كرامته المهدرة .

وهذه الجملة لا يستهلكها أداء وظيفتها فى هذا المقام وحده ، بل تدب فيها حياة مد يدة ، فتحمل قارئها على الانتباه لحالات أخرى من جنسها ، فما أكثر أشباه الرجل الذى يتعلق بامرأة يعلم أنها تخونه . إنه يكرهها بلسانه ويحبها فى قرارة قلبه .

يقول له : أحببنى سرا رغم سوء أدبى ، لأنى جرؤت دونك على الإفصاح عن عيوبك . أعفيتك وطهرتك من خجلين ، خجل كتمانها فى جبن ، وخجل الاعتراف بها جهرا فى شجاعة . إن كوكتو يحب أن يكون هو الطفل المزبلح الذى ينطق بكل نداء نيابة عن أهل البيت .

أمثال هذه الجملة منثورة كرش الملح فى أسلوب كوكتو . إنها تعتمد على الصدق فى الجمع بين المناقضات ، فى الكشف عن الزيف،الكريم الوجه فى الأخذ بيد المنبوذ ، فى احتضان غير المألوف ، فإذا به هو الأعم والأصدق . وهذه اللفتات هى التى تغنى اليوم أسلوب كتاب الغرب ، يحسن بزملائهم الناشئين عندنا ـ لا أقول تقليدها ، بل الانتباه إليها ، فهى التى تضفى على الكلام تموجه وحيويته وتقطع رتابته . ومع ذلك فالمصيبة أنك لا تدرى أهى فطنة أم مجرد بهلوانية .

ولعل مذهب كوكتو هو القول بأن رأس الحكمة هو التلاعب بالألفاظ . . هو دليل ذكائه وسر افتتانه بنفسه .

كيف يعمل روميو

بدأت تجارب المسرحية فى باريس قبل السفر . يقول كوكتو : « يشترك جان ماريه فى تمثيل فيلم « مايرلنج » ، فهو بالنهار يقف أمام الكاميرا . وبالليل يعمل فى تجارب أدواره فى ست مسرحيات . إنه لا يطيق البطالة أبدا ، فهو كلما استطاع لا يتأخر عن العمل بيديه فى تفصيل ملابس مسرحية « بريتانيكوس » . ينبغى للفتيات اللائى يلاحقنه ويتصورن ولا ريب أن حياة نجوم الفن ما هى إلا راحة متصلة وسلسلة من الأحلام أن يشهدنه يعمل لكى يفهمنه . »

فى جمرك مطار القاهرة

الجمرك صراخ وزحام وتدافع بالمناكب وهرج ومرج تختص بها شعوب البحر الأبيض . الحقائب لا تنفك تضيع وتظهر وتتقاذفها الأيدى فى الهواء . وأحسسنا أننا فى رعاية ملائكة يسهرون علينا . فإجراءات الجمرك

فى مصر لا تنتهى ولكننا فرغنا منها فى دقائق قليلة ـ والتأم ركبنا بربطة المعلم من جديد على باب المطار تحت أشعة الشمس نتفرق ونضيع ثم نتجمع ، لكى نفترق ونضيع ثم نتجمع مرة أخرى . . إلى أن حملتنا إحدى سيارات محمد وحيد الدين ، يقودها كاروللو سكرتيره الخاص ..

(ملحوظة : إذا قرأت رحلة ابن جبير وجدته لا يقل عن كوكتو تشنيعا على الجمرك فى مصر . فأنت ترى أن شهرته عريقة .)

المنظر من نافذة السيارة

سيارات مصر ذات فخامة واقتدار ، أو هى على الأقل مجرد مظهر لهذا الاقتدار لأن مصر لا تستطيع استخدام هذه السيارات ، فإذا استثنيت طريق الهرم ، والأوتوستراد الذى يربط القاهرة بالإسكندرية ، والذى رصفته شركة شل ، فإنك تجد مصر محرومة من الطرق .

وأول شىء يستلفت نظر راكب السيارة هو هذا الخلط بين فرط الترف وفرط الفاقة ، وإذا كان هذا الترف يبطن أحيانا سقم الذوق ، فإن الفاقة تكشف عن وجهها للناظرين على الأرصفة ، فى مشارف أحياء مبنية بالطين . . وعلى الكبارى ، وفوق عربات الكارو (وهى بمقام التاكسى فى مصر) حشد من النسوة بملايات لف سوداء . الجلاليب الطويلة القذرة . الكوفيات الملتفة

على الرؤوس ، هيئة مشية الناس ، القفا الطويل الأسمر ـ كل ذلك ينطق بنبل ووفرة هيهات أن تجد لهما مثيلا فى أى ديكور مسرحى .

هذا الشعب الذى يتسكع فى الطرقات ، وينام على التراب ، يؤثر بحكم مطابقة البيئة ألوانا هيهات تقليدها ، ألوان الرمل والسماد وماء النيل ، إنه مخلوق للكسل والموت . إنه يفوق الزمان طولا ودواما ـ هذا الشعب الذى تهيج أعصابه القهوة والحشيش والشاى الأسود . . إنه توزع بين اضطراب التلاميذ فى حوش المدرسة وبين غيبوبة هى أشبه بدبيب الموت . إن زعيق الكلاكسون لا ينتهى . كل سائق يستخدمه بلا مبرر ، كأنه طفل يلهو ببوق .

٥٠ أسرة

زمام مصر فى يد ٥٠ أسرة ، فليس بها طبقة متوسطة ، بقية الشعب تتسكع وتتخمر ، فإذا ثارت فثورتها متميعة . الملك مهدد على الدوام بالقتل . إنه لا يحب إلا السرمحة . يطب فجأة على النوادى واحدا بعد الآخر فى حراسة شديدة من البوليس ، ولكن كراهية الشعب للأجانب قد خفت .

« يانطرة رخى رخى . . على قرعة بنت أختى . . » .

أكتب هذه السطور والجنود العائدون من فلسطين يتجهون إلى حيث

يتجمعون فى استعراض كبير أمام الملك . الميدان أمام الفندق يشيع فيه الاستعراض . اشتدت برودة الجو . إن البرد لم ينقطع منذ وصولنا إلى القاهرة ، وبرد شهر مارس يسمى هنا برد العجوز .

الدبابات وفرق الموسيقى والفرسان تمر فى فوضى وسط زحمة تصفق لهم وتزعق . المتفرجون يعتلى بعضهم أكتاف بعض ، وتحت نافذتى كاميون مملوء برجال البوليس ليشرف على هذا المشهد الذى يشبه عجينة البطاطس . السماء تمطر ، ما هى إلا قطرات قليلة متفرقة ، فمصر لا تعرف المطر ــ ومع ذلك فإن التنديعة كانت بمثابة طوفان الإعصار .

رجال البوليس يغطون رؤوسهم بأذيال معاطفهم ينشرون « تندة » فوق الكاميون . أصحاب الجلاليب يهربون يمنة ويسرة ، غطوا رؤوسهم بورق الصحف . أصحاب الطرابيش غطوها بالمناديل . ثار الحشد ، جلجل الكلاكسون . من السهل تصور ثورة هذا الشعب الذى ليس له قصد سياسى إلا السلب والنهب إذا عمت الاضطرابات .

فورا . . معناها ٣ أيام

كففت عن الكتابة لأن خادم الفندق دق على الباب ودخل ليعيد إلى الولاعة التى أعطيتها له منذ ثلاثة أيام ليملأها بالبنزين وقلت له : « هاتها فورا »

نكتة تصبح تشنيعا

قال لى فليكس روللو : سائق التاكسى يطلق الكلاكسون لأنه يتصور أن زعيقه يطفىء النور الأحمر . قلت لسائق مرة : لماذا تطلق الكلاكسون ؟ فأجاب : ليطفىء النور الأحمر . فشرحت له أن إشارة المرور جهاز ميكانيكى لا يخضع لأوامره . ولم أكد أفرغ من شرحى حتى أضاء النور الأخضر ، فالتفت إلىَّ السائق وقال : أرأيت صدق كلامى ؟

المكيِّفات

جميع المكيفات فى مصر تعمل على شد الأعصاب وإهاجتها ، أما المكيف الوحيد الذى يهدىء الأعصاب ، الأفيون الوحيد هو الدين . تسير عربات النقل بالليل فى طريق الإسكندرية كما تشاء ، على يمين الطريق أو يساره ، وماذا يهم ؟ خليها على الله ، فحوادث المرور فى القاهرة تفوق الحصر . إن الدين هو الأمل الوحيد لشعب مستسلم لقدره ، فهو يسرع بلا تردد إلى بناء مسجد بدلا من بناء مستشفى تملأ العين".

لا تعلموا ابن البواب

إن مشهد هذا الشعب يكاد يبرر رأى القائلين بأنه شعب ينبغى ألا

يقرب العلم ، لأنه إذا لم يصب من العلم إلا بعضه لا كله تشوش فكره ونشأ يحسد الغير على ما يملكه . والطبقة المتعلمة لم تعد طبقة الفراعنة والكهنة . وإذا استثنينا عددا لا بأس به من أصحاب العقول الممتازة فإن الذكاء لا يشع فى نظرات أفراد الطبقة التى تعرف القراءة والكتابة . الفن هنا فى انحدار ، والفقر فى انحدار . وأصحاب الحرف اليدوية الداخلة فى الفنون الجميلة يختفون باختفاء أولئك الذين كانوا يحشون مواهبهم على الإبداع .

على العين والراس

يحدث لى كثيرا أن ألقى قلبى ينصهر وأنا أرقب الشعب المصرى . ماذا به ؟ خضم لا ينتهى من الأسمال البالية . تناقض شنيع بين فرط الترف وعربات الكارو والأقدام الحافية . ولكن يبرد قلبى وأنا أحس أن هذا الكرب فى مصر يختلف عن مثيله إذا منيت به فرنسا . فهناك يأخذ الشعب الأمور بشىء من السهولة ، بشىء من تقبل المرتاح . أكاد أقول بشىء من النعيم والأبهة . قد نبهنى أندريه جيد إلى هذه الخصلة التى تجمع المتناقضات . إنه لا يطيقها .

الفن العربى

زرت متحف الآثار العربية ، وفيه هالنى تحول التعبير الدال على

صاحبه وعصره إلى قوالب جامدة . تحول الفن الإنسانى إلى زخارف هندسية وفن غير إنسانى . والواقع أن الجمال قد انتهى بصلاح الدين .

ملحوظة : لا أدرى ما دخل صلاح الدين هنا . كل ما فى الأمر أنه باق فى ذهن كوكتو من أيام الحروب الصليبية . وهذه جهالة كبرى من كوكتو .

وله فى الكتاب سقطة أخرى شنيعة ، فقد زار معبد الكرنك ، فرأى على أحد جدرانه نقشا باسم رامبو ، وهو اسم الشاعر الفرنسى الفذ الذى لم تنقطع فضائحه أيام صحبته لزميله الشاعر الماجن المسكين فيرلين ، فكاد كوكتو يجثو أمام النقش ويصلى ركعتين . ظن أنه التقى بأثر شاعر يأتم به ، ومع ذلك فمن الثابت ثبوتا قاطعا أن رامبو – وإن مر بمصر وهو فى طريقه إلى الحبشة – لم يزر أبدا معبد الكرنك ، وإنما النقش لسائح لا فى العير ولا فى النفير يحمل الاسم ذاته .

هذه عينة من كلام كوكتو عنا . لا حاجة لنا اليوم للرد عليه ، لأن مصر كلها تكفلت بهذا الرد يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .

(« المساء » ، ١٩٦٣/١١/٤ ، ص ٨)

تهيئة الجو

« سلّم على زملائك » ــ هذه هى التعليمات الوحيدة التى كان يتلقاها رجال السلك الدبلوماسى من وكيل وزارة الخارجية وهم يقابلونه للاستئذان منه فى السفر إلى مقر أعمالهم فى أى بلد من بلاد العالم . . وحتى هذه التعليمات الوحيدة كانت تهمل ولا تنفذ . أصبحت لتكرارها وسخافتها موضع استهانة وتندر ، فلم أشهد فى كل المناصب التى شغلتها فى ذلك العهد زميلا وفد إلينا من القاهرة فقال لنا : تنفيذا لتعليمات وكيل الوزارة أبلغكم أنه يسلم عليكم . ليس المطلوب منهم القيام بأى نشاط سياسى ، كل المطلوب منهم أن لا يندفعوا بحماقة إلى وضع إصبعهم فى عش ما ، فقد تخرج منه حفنة من الزنابير تسبب للوزارة وجع الدماغ .

ومع ذلك فمن الإنصاف أن نحمد لوكيل الوزارة صراحته وواقعيته . فقد كان السلك الدبلوماسى منذ نشأته فى أعقاب تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ مجرد حلية يتزين بها الجالس على العرش بعد حصوله على لقب

« ملك » . فلم تكن عصر سياسة خارجية مستقلة بالمعنى المتعارف عليه دوليا . إنما هى علاقة ثنائية بين مصر وإنجلترا . واستمر الحال على هذا الوضع حتى بعد عقد معاهدة سنة ١٩٣٦ . تستطيع أن تقول إن أول انبعاث لسياستنا الخارجية جاء على خفر واستحياء بعد قيام الجامعة العربية بعد أن باركها المستر إيدن بتصريحه المشهور . وتستطيع أن تقول أيضا إن الجامعة كانت أول محاولة لإنجلترا لضم الشرق العربي كله فى حلف واحد تحت جناحها .

ورغم هذا الانبعاث الضئيل ظلت تعليمات وكيل وزارة الخارجية لرجال السلك الدبلوماسى عند سفرهم : سلّم لى على زملائك . والسبب الآن مزدوج : أزمة ثقة ورغبة فى الاستئثار لاكتساب الشعور بالأهمية ! السراى لاتثق بكفاءة وزارة الخارجية وتستأثر بالسياسة الخارجية لها أعوانها واتصالاتها . . ووزارة الخارجية لا تثق بكفاءة رجال السلك الدبلوماسى ويسعدها أن تستأثر بما بقى لها من فتات عن طريق اتصالاتها بسفراء الدول الأجنبية فى القاهرة . ولم تكن اللعبة فى الحقيقة ثنائية : السراى ووزارة الخارجية ، بل كانت ثلاثية ، لأن رئيس الوزراء فى ذلك العهد ـ حين لا يكون وزيرا للخارجية ـ كان له أيضا اتصالاته بهؤلاء السفراء على خلاف العرف المتبع فى كل بلاد العالم . وربما علمت السراى أشياء لا يعلمها رئيس الوزراء ، وربما علم رئيس الوزراء أشياء لا يعلمها وزير الخارجية ، وكل هذا العلم لا يعلمه رجال السلك الدبلوماسى : باب السراى ورئيس الوزراء ووزير الخارجية مفتوح على مصراعيه لكل رجال السلك الدبلوماسى الأجنبى فى حين أن سفير مصر فى الخارج ـ على جلالة

قـدره ــ قلما يقابـل وزير الخـارجية فى البلد الـذى يقيم فيه ، وتقتصـر اتصالاته على موظف صغير هو وكيل القسم المختص بالمنطقة التى تقع فيها مصر . لا عجب أن كان رجال السلك الدبلوماسى إذا قدمـوا للقاهـرة لم يجدوا فى السراى أو رياسة الوزارة أو ديوان وزارة الخارجية إنساناً واحدا يسألهم عن شىء ، وكان يقال عن سفير كبير لنا فى الخارج إنه كالساعة المضبوطة . . لا يقدم ولا يؤخر .

من بين رجال السلك الدبلوماسى من قنع بهذا الوضع راضيا مسرورا وحمد ربه أن الدولة تتيح له السياحة فى الأرض والتمتع بمباهجها بالمجان ، وأنها إذا لم تكلفه بعمل فقد حطت عنه كل مسئولية وكل تعرض للخطأ المفضى إلى المجازاة .

ومنهم من لم يخمد فى قلبه حبه لوطنه وإحساسه بكرامته فرأى أنه إذا لم يستطع أن يكتسب ثقة الوزارة فتفضى إليه بطرف من أسرارها وتكلفه بمسعى سياسى ولو كان ضئيلا ، فإنه على الأقل قادر على أن يخدمها ، أن يكون ذا نفع بأن يكون لها بمثابة العين التى ترى والأذن التى تسمع ، فينقل إليها بصدق وأمانة صورة للواقع الذى يعيش فيه ، حتى تكون على بينة منه ، حتى تقارنها ــ على الأقل ــ ببقية الصور التى تحملها إليها مصادر أخرى قد تكون جاهلة أو مغرضة أو متآمرة . وكان هؤلاء هم المعذبون فى أرض وزارة الخارجية . ما أشبههم بوكيل يتحرق على مصلحة مـوكله ، فيسارع إلى الاتصال به بالتليفون ليبلغه نبأ هاما ، ويطلب منه المشورة فيما يفعل إزاءه وبعده ، فإذا به يسمع صوتا مجهولا له يقول له : خليك على التليفون سأنادى لك على موكلك ، ثم يمضى دهر طويل دون أن يصله

رد ، فيضع السماعة مكانها وهو يضرب كفا بكف من شدة الحسرة ومن دهشته وعجبه لحماقة موكله وإهماله . كانت وزارة الخارجية قلما ترد على رسالة لمبعوث لها فى الخارج .

فما بالك بهذا العذاب إذا كان الوكيل رجلا يتأجج فى قلبه حبه لوطنه وثقته بنفسه وإخلاصه . قد قذفت به الأقدار فى أخطر معركة تخوضها الأمة العربية فى العصر الحديث : معركة فلسطين ، ولمس الفرق الشاسع بين الواقع والوهم فى أذهان ساسة بلده ، جهلا أو تجاهلا ، ما بين صدق الحوادث وكذب المزاعم المضللة . وأحس بمقدار الخطر الذى يشهده قادما على أمته قدوم الليل ، فنسى الراحة والسلامة وأبى إلا أن يرشد وينبه ويحذر . ولكنه بقى كمن يؤذن فى مالطة ، بل علم أن وزير الخارجية لا يقرأ رسائله ، وتجرع غصة أشد حين زار القاهرة فرأى هذا الوزير يتجاهله ، ويأبى أن يصحبه فى رحلة سياسية هامة كان ينبغى أن يكون له فيها نعم الناصح الأمين ، لأنه بالموقف أشد خبرة منه .

ووزير الخارجية يسوغ لنفسه حماقته وسوء أدبه باعتقاده ــ وهو واهم ، وهو الأزعر بجانب ذيل السراى وذيل رئيس الوزراء ــ أن الخيوط كلها تتجمع فى يده ، أتته من كل صوب ، وأن هذا المتحمس اللحوح ما هو إلا من نسل « كاسندرا » لا ينذر إلا بشؤم ، وما هو إلا خيط واحد من بين آلاف الخيوط ، يظن أنه لا يرى منها إلا جانبا ضئيلا ، ليس هو الذى تقوم به كفة الميزان أو تقعد ، ليست الدبلوماسية هى كتابة تقارير ، بل اتصالات فى الكواليس . . . وكان وزير الخارجية يؤمن أنه يجيد

التمثيل أمام الستار ، أما وراء الستار فلا يضارعه ممثل آخر فى البراعة والحيلة .

صدّقت المصائب كل ما حذر به الوكيل الأمين الذى ظل صوته يؤذن فى مالطة.ياله من عذاب ، يالها من حسرة ، يالها من مرارة . ولم ينفع مرور عشرين عاما فى طمس حدتها وتخفيف أوارها وها هوذا صاحبها يعصرها لنا أخيرا فى كتاب يقدمه لأهل وطنه ، للأمة العربية كلها ، لا لتندب وتبكى ، بعد فوات الأوان ، ولا لأن تشكره على جهده وإخلاصه وصدق نظرته ، بل لتتعظ بالتجارب الماضية وهى ترسم طريق المستقبل .

إنه أول من جسر ـ فى مبلغ علمى ـ على أن يلاحق كل مسئول عن نكبة فلسطين بنصيبه من الذنب ، وأعجب أنه استطاع ـ رغم الحسرة والمرارة ـ أن يكتب عن هؤلاء المذنبين بأسلوب علمى هادىء مؤدب ، ولكنه خلع على القارىء كل هذا الغيظ الذى تكتمه ، فأصبح غيظى من المؤلف لهدوء أسلوبه أشد من غيظى على المذنبين . .

قد أطلت فى وصف حسرته ومرارته لأنهما مفتاح الكتاب وتفسير الآراء والنصائح التى وردت به ، ولنا عليها كلام آخر .

أما الكتاب فعنوانه « صفحات مطوية عن فلسطين » ، وأما مؤلفه فهو أستاذى وزميلى القديم وصديقى العزيز أحمد فراج طايع وزير الخارجية سابقا . إنه شهد عن كثب نكبة فلسطين حين كان قنصلا عاما لمصر بالقدس من يوليو ١٩٤٧ إلى أكتوبر سنة ١٩٤٨ .

وبعد هذه المقدمة التى أردت بها أن أصف الجو الذى كان يعمل فيه رجال وزارة الخارجية ، سأقدم لك المؤلف والكتاب فى المقال التالى .

(« المساء » ، ١٩٦٦/٦/١٣ ، ص ٦)

صورة بشعة . .

حين انتصرت ثورة ٢٣ يوليـو وأقبلت على تـطهير أداة الحكم كـان واضحا أن السلك الدبلوماسى ـ بل وزارة الخارجية كلها فى حاجة أشد إلى انقلاب جذرى ليكون تمثيل مصر فى الخارج معبرا عن وجهها الثورى الجديد وجديرا بـالاعتماد عليـه ، وينبغى الاعتراف أن رجـال السلك الدبلوماسى كانت تلاحقهم إشاعة بلغت حد الخبر اليقين بأنهم شـرابة خرج ـ والخرج هو السراى . وكان السؤال هو : هل يمكن أن نستخلص منه نواة طيبة تصلح لتجميع عناصر جديدة حولها ؟ من هو من بينهم من صان نفسه عن الجرى الذليل فى ركاب السراى ؟ .

فى الإجابة على هذا السؤال برز اسم الأستاذ أحمد فراج طايع على رأس القائمة فقد عرف بالرجولة والاستقامة والشجاعة فى إبداء الرأى وأجره على الله . كان قنصلا عاما فى مرسيليا تمر عليه أفراد الأسرة المالكة ذهابا وإيابا ، فلم يحن لأحد منهم رأسه ، أو وقف بين يديه وقفة التابع

الذليل الذى يتطوع لحمل الحقائب . إنه مثال بديع للرجل الصعيدى فى رجولته وإبائه واعتزازه بكرامته . وقد تجلت هذه الفضائل كلها فى كتابه الأول الذى أصدره أخيرا بعنوان « صفحات مطوية عن فلسطين » ، فقد شاء له القدر أن يشهد النكبة عن قرب حين شغل منصب القنصل العام لمصر فى القدس من يوليو ١٩٤٧ إلى أكتوبر سنة ١٩٤٨ .

وتجلت فى الكتاب أيضا آثار المرارة التى عاناها حين رأى تقاريره التى يضمنها الصدق الذى شهده بعينه يضرب بها عرض الحائط ثم توضع على الرف فى أرشيف فى بدروم بوزارة الخارجية ، ولا تتفضل بالرد عليه بكلمة واحدة . وقد مهد لكتابه بكلمة قال فيها :

« وإنى إذ أكتب هذا الكتاب ومن بين ما يتضمنه بعض صفحات مطوية كانت سرية وقت كتابتها قبل ١٥ عاما ، وفقدت سريتها الآن ، فإنما أبغى من ذلك أمرين :

١ - أن أبين أخطاء الماضى فنتجنب الوقوع فى مثلها فى المستقبل .

٢ - أن أضع أمام المهتمين بفلسطين الحقائق التى شهدتها مجردة من الغرض خالية من أى زيف .»

وتجد فى الفصل الأول « أهداف اليهود وخططهم فى تحقيقها وحججهم فى تبريرها » تلخيصا بارعا مفيدا للمراحل التى مرت بها قضية فلسطين : نص وعد بلفور فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ ، الكتاب الأبيض « تشرشل » فى أول يوليو سنة ١٩٢٢ الذى يقول « ليس فى تصريح بلفور ما يدعو إلى تحويل فلسطين كلها إلى وطن قومى لليهود ، ولكن يجب إنشاء

مثل هذا الوطن فى فلسطين » . تقرير لجنه شو سنة ١٩٢٩ . تقرير لجنة الانتداب الدولية سنة ١٩٣٠ . الكتاب الأبيض الثانى سنة ١٩٣٥ . تقرير لجنة بيل ١٩٣٧ ، وقد ظهرت فيه فكرة التقسيم لأول مرة ، دولة يهودية فى الشمال والغرب ، وعربية فى الشرق والجنوب . تقرير لجنة وودهيد سنة ١٩٣٧ التى هزأت بفكرة التقسيم ، مؤتمر لندن سنة ١٩٣٩ الكتاب الأبيض الثالث سنة ١٩٣٩ الذى أوصى بإقامة دولة موحدة تجمع بين العرب واليهود ، لجنة الانتداب فى عصبة الأمم رفضت هذا الكتاب « ٤ ضد ٣ » . تقرير اللجنة الإنجليزية الأمريكية ١٩٤٦ الذى أشار أيضا بإنشاء دولة موحدة مع السماح بهجرة اليهود وإعطاء رخصة لدخول ١٠٠ ألف فورا . مؤتمر لندن سنه ١٩٤٦ - ١٩٤٧ . لجنة تحقيق من الأمم المتحدة بعد عرض القضية على دورة استثنائية للجمعية العمومية ، وبرزت فى تقريرها فكرة التقسيم من جديد وتدويل القدس ، وأعطت النقب لليهود مع نظام فدرالى . اقتراح أمريكا وضع فلسطين كلها تحت الوصاية فى ١٩ مارس سنة ١٩٤٨ .

انسحاب إنجلترا وبدء الحرب ووساطة برنادوت الذى أوصى بإعطاء النقب للعرب فقتله اليهود . ويستمر تلخيص المراحل إلى أن يبلغ قيام دولة إسرائيل والاعتراف بها بعد ٢٤ ساعة من إنشائها من أمريكا وروسيا على السواء .

تلخيص بديع ينبغى أن لا يغيب عن نظر كل مواطن عربى لا يتسع وقته للتخصص ومراجعة المطولات ، ولكن الجانب التاريخى العام فى هذه الفترة قد جاء مبسطا إلى درجه لا نحمدها للمؤلف . فهو مثلا (فى

ص ١٣) يستشهد بفقرة من كتاب محمد على علوبة منقـولة عن كتـاب وايزمان. وكتاب وايزمان بين أيدينا وكان ينبغى الرجوع للأصل لا إلى الناقل عنه ، كما أنه يعتمد كثيراً على الصحف وبرقياتها فى وصف الحالة الداخلية فى إسرائيل وهو معذور فليس لديه مراجع أخرى . إن كتاب الأستاذ أحمد فراج طايع دليل على النقص الكبير لدينا فى تسجيلنا لأحوال العدو وتتبعها فى كل الميادين . لابـد فى اعتقادى من إنشـاء معهد متخصص لـدراسة إسرائيل تجمع فيه كل وثائقها .

ويمضى المؤلف بعد ذلك فى تعليق مسئولية النكبة فى أعناق محمد أمين الحسينى ، وعبد الرحمن عزام ،والمرحوم الملك عبد الله . وبالنسبة لدور مصـر المرحـوم محمود فهى النقـراشى . ورياض الصلح والسيـد مزاحم الباجهجى وحكومة عموم فلسطين .

وبالرغم من الأسلوب الهـادىء المؤدب الذى كتب بـه المؤلف عن هؤلاء المسئولين عن النكبة فإن القارىء العربى سيتملكه شعور شـديد بالغيظ والخجل حين يرى أمـامه أبشـع صورة متصـورة لتخاذل الـدول العربية ومعاداة بعضها لبعض وكلها جميعا على الشعوب العربية . ولولا هذه الصورة البشعة لما رأينا المؤلف ينعى على العـرب رفضهم للكتاب الأبيض سنه ١٩٣٩ الذى دعا إلى إنشاء دولة موحدة ، ثم طالبوا بعد ٨ سنوات بتنفيذ توصياته ، كما نعى على العرب أيضا رفض فكرة الوصاية . (راجع التلخيص) . ولكنى أسأل المؤلف : لو قبل العرب الأخذ برأيه أكان قيام دولة إسرائيل قد امتنع أو تأخر ؟ إنه لو راجع مقدمته التى كتبها هو بنفسه لأدرك معى عظمة هذه المؤامرة الكبرى التى هدفت إلى قيام دولة

إسرائيل قصدت بها تحقيق أحلامها وقصد الغرب شل المنطقة العربية الغنية بالبترول إذا شملتها النهضة وتشتت مواردها فى التسلح ، وحقق الاثنان بنجاح المؤامرة لأن بلاد العرب كانت فى نظرهما منطقة خلاء حضارى .

والذى يهمنا فى المحل الأول فى هذا الكتاب هو موقف مصر فى حرب فلسطين ، والسؤال هو : لماذا دخلت الحرب وهى غير مستعدة عسكريا ؟ كيف أمنت للإنجليز وهم يحتلون أرضها ؟ كيف أمنت بتسليم القيادة إلى ملك يرضع من ثدى إنجلترا ؟ يشهد لنا المؤلف بأن محمود فهمى النقراشى لم يكن يريد الحرب ، فقد سمعه بأذنه يقول لعبد الرحمن عزام « كفاية لوترية يا عزام ، أنا لست مستعدا للحرب وكل ما أستطيع أن أقدمه هو المال » ولكنه عدل عن رأيه ودخل الحرب . فما هو السر ؟ لا يلقى المؤلف ضوءا يكشف لنا ولو جانبا ضئيلا من السر . إننى أعتقد أن الإنجليز لا الملك فاروق هم الذين أضاءوا الضوء الأخضر وقالوا للنقراشى : تقدم ونحن معك .

وكانوا يريدون منه أن يحقق بالفعل وفى الميدان خطة يتكتمونها ، وهى أن تنتهى الجولة الأولى باحتلال كل من الطرفين للقسم الذى دبرته إنجلترا له فى مشروع التقسيم الذى تتكتمه . وغلطة النقراشى ــ فيما أعتقد لم تكن فى أنه دخل الحرب ، بل فى أنه لم يفهم خطة إنجلترا . كانت تريد استخدامه كاستخدام القرد ليد القط فى احتلال النقب لتنفى إنجلترا مسئوليتها عن ضياعه من يد اليهود ، فهى كانت فى تلك المرحلة راضية بإنشاء دولة يهودية على الساحل ، ولكنها كانت تريدها دولة ضعيفة تخضع

لها ثم تقوى شيئا فشيئا وفقا للمصالح البريطانية . وأرادت باحتلال العرب للنقب أن تظل المنطقة العربية متصلة وهى واثقة أنها ستظل فى منطقة نفوذها فتكون ورقة لعب فى يدها ضد إسرائيل إذا هددت مصالح إنجلترا . لم يفهم النقراش خطة إنجلترا ، وبدلا من البقاء فى النقب جرى إلى تل أبيب وهى أبعد عليه من لبن العصفور فكانت النكبة .

لقد سمعت بأذنى من وزير الخارجية فى ذلك العهد « المرحوم أحمد محمد خشبه » أن المستر شايمان أندروز هو الذى بارك قرار مجلس الوزراء بدخول الحرب . إن ضياع النقب لم يكن هزيمة للعرب وحدهم بل كان انتصارا لإسرائيل على إنجلترا . وصلب نكبة فلسطين هى قطع اتصال الرقعة العربية ومد أنابيب من حيفا إلى إيلات ـ ربط البحر الأبيض بالأحمر ـ ولكنى أقول دائما إن نكبة فلسطين كان لابد من حدوثها لأجل أن تستيقظ الأمة العربية ـ ولا شك أنه من أجل حوادث العصر الحاضر اعتناق مصر للقومية العربية واتصال الجناح الغربى بالجناح الشرقى فى التصدى لإسرائيل . وفوق ذلك فإن الله سبحانه وتعالى لم يظلم العرب ، فحين شاءت إرادته أن تقوم إسرائيل دولة وضع فى يد العرب أقوى سلاح ينتصرون به فى المعركة سلاح البترول . فإذا أضاعوه من يدهم فهم الملومون وحدهم .

(« المساء » ، ١٩٦٦/٦/٢٠ ، ص ٦)

« أضواء على الدبلوماسية »

من حق الأستاذ أحمد عبد المجيد أن تكون وزارة الخارجية عندنا فى مقدمة الشاكرين له على تأليفه لكتاب صدر له أخيرا بعنوان « أضواء على الدبلوماسية » فهو ــ أولا ــ يثبت للناس ــ وإن لم تفتح هى فمها ــ أن فى رحابها يتهيأ العيش للأدب والفن ، تستطيع أن تستشهد بنفر من أبنائها مثل ناجى وطاهر العمرى فى التصوير وأحمد راسم وحسن مظهر « وإن كان جل إنتاجها بالفرنسية وعبد الشافى اللبان فى الأدب ، وأحمد عبد المجيد الذى عمل بالسلك الدبلوماسى ثلاثين سنة حتى ارتقى من أول درجات السلم إلى مرتبة السفير هو من هذا الركب ، إنه شاعر رقيق له ديوانان ، أولهما « همسات » وثانيهما « أوراق الخريف » يتمثل فيهما الشعر وهو يتخلص من الذوق الكلاسى إلى الذوق الحديث ، وهذا النغم الشعرى الذى يخفق به قلبه هو الذى جعله أيضا من مؤلفى نصوص الأغانى وكم دارت على ألسن الشعب ــ لا فى مصر وحدها بل فى العالم العربى كله ــ كلمات له ألفها لعبد الوهاب فغنى بها مثل « كلنا نحب القمر » و« مريت

على بيت الحبايب ، من اشتياقى . . » ، أمامى أمثلة ، فى ذهنى للأستاذ عثمان عسل سفيرنا فى أكرا الذى ترجم لنا بعض قصائد بودلير ، تشير بأن هـذا التقليد ــ ازدهـار الأدب والفن فى حمى وزارة الخارجيـة ، سيظل متصلا إن شاء الله . إن نسيت أسماء أخرى فالذنب ذنب الـذاكرة فى السن التى بلغت ، ليس جحودا لفضل او إنكارا لجميل . ولا أحب أن أنتقل الى بقية الكلام دون أن أذكر أيضا للأستاذ أحمد عبد المجيد صفة تجعله فى المحل الأول فى أصدقائه ــ وهم كثر ــ تكاد تبلغ صداقتهم له بسببها حد العشق ! . . صفة تسلكه فى هذا الرتل الذى هو زينة الحياة وبهجتها الممتد من البابلى والبشرى وحافظ إلخ إلخ الى حسـين الترزى ورامى وأم كلثوم ، أعنى رتل أئمة الدعابة وفن التنكيت ، أرجو أن أقدم لك فى فرصة أخرى أمثلة من نكات أحمد عبد المجيد التى يطلقها عفـو الخاطر ، وليدة اللحظة ، لا لبراعتها فى الفكاهة ، بل لأنها تمت إلى الأدب الرفيع أيضا من حيث حسن الذوق وقوة الخيال وتمام العناق بـين اللفظ والمعنى .

وثـانيا لأن هـذا الكتاب « أضـواء عـلى الـدبلومـاسيـة » يثبت للنـاس ـ إن لم تفتح وزارة الخارجية فمها ــ خلاف ما يظنه الناس من أن تطور السياسة والتقدم الهائل فى طرق المواصلات قد سحبا البساط من تحت أقدام العمل الدبلوماسى حتى ليبدو للأعين أنه أصبح ترفا لامسوغ له ، يثبت الكتاب أن العمل الدبلوماسى له أهميته وجدارتـه بالبقـاء . يقول (ص ٢٦١) « وظيفة السفير لا تزال تحمل عبء جس النبض ، وتهيئة الجو المناسب وإزالة العوائق والعقبات والإعداد والتمهيد لكل محادثة ذات خطر يقوم بها

وزير خارجيته ، وإلى جانب كل ذلك تحمله لكل صدمة عند وقوع نزاع بين بلده والبلد المعتمد لـديه . » وبعـد أن ذكر الكتـاب سعى السفراء لتدعيم الروابط الاقتصادية والعلمية والثقافية بين بلدهم والبلاد الأخرى قال : « لقد أصبحت دور السفارات فى عصرنا الحديث بمثابة الـواجهة الخارجية التى تعرض فيها خير النماذج المشرفة للدولة من كل جـانب »

وهكذا فإن أحمد عبد المجيد ، على خلاف مارك أنطوان ــ لم يشأ فى هذا الكتاب أن يقبر السلك الدبلوماسى بل أن ينفخ فى روحه ، ولكنى لم أر مدافعا فاقه فى التزام الاعتدال والتريث والاعتراف بالحقائق التى له والتى عليه ، وقد وصل أحمد عبد المجيد إلى خاتمة البحث بعد أن طاف بنا عبر التاريخ فيبدأ بتعريف الدبلوماسية ثم يشرح تطورها فى مختلف العصور ثم يتطرق إلى الحرفة ذاتها فيشرح أدواتها ومصطلحاتها إلخ إلخ ، ولكن هذا الجانب المنهجى الدراسى فى الكتاب لا يهمنى (لأنى أجد مثيلا له فى مـراجع أخـرى) قدر مـا يهمنى الجانب الآخـر فى الكتاب الـذى جمع فيـه أحمد عبدالمجيد خلاصة قراءاته المستفيضـة عن تجارب سفـراء عديـدين وهم يصارعون مشاكل منـاصبهم فى أدق الأوقات وأشـدها ضعفـا عليهم ،

تجارب سفيرى فرنسا فى إنجلترا وروما « وهما إخوان كامبدن » قبل الحرب العالمية الأولى وتجارب سفيرى ألمانيا فى موسكو وإنجلترا « كونت فيرنر فون دير شولزبرج وهربرت فون ديركسن » ، وكذلك سفيرى الولايات المتحدة فى لنـدن وباريس « مسـتر كندى ومسـتر بوليت » قبـل الحرب العـالمية الثانية ، يضاف إلى ذلك هذه الصورة الحية الممتعة التى قـدمها المؤلف لسكرتير وزارة الخارجية الفرنسية « فيليب بـرتلو » قبل الحـرب العالميـة

الثانية ، هذا هو الجانب النابض فى الكتاب ، تقرأه كأنك تقرأ ، قصة درامية تهتز بما تتضمنه من لحظات الصراع العنيف بين قوى جبارة ، قوى مادية ومعنوية ، فليس ينبغى لكل عضو فى وزارة الخارجية عندنا أن يقرأ هذا الكتاب بل إننى واثق أن كل مثقف سيجد فيه فائدة ومتعة ، وينتهى الكتاب بعرض ينصف سياستنا الخارجية كل الإنصاف ، قد شعرت باعتزاز كبير ببلدى وأنا أقرأه ، فقد أثبت المؤلف أن سياستنا الخارجية تعتمد على المثل العليا التى تهفو إليها الإنسانية ، من الاعتراف لجميع الشعوب بحقها فى تقرير المصير ، من مقاومتها لكل أنواع العدوان ، من وقوفها ضد الاستعمار ، حتى كأنك لتحسب أن لا مصلحة لنا إلا الدفاع عن هذه المبادىء والتمسك بها . .

حقا إن مكتبتنا لم تثرها كتب عديدة مؤلفة لا مترجمة — عن الدبلوماسية وتجارب كبار سفرائنا ولابد أن نشيد هنا بأعمال أستاذنا أحمد فراج طايع الذى قدم لنا جوانب من تجاربه فى الأمم المتحدة وفى فلسطين ، أما عبدالمجيد فلم يشأ فى كتابه أن يحدثنا عن شىء من تجاربه ، لعله يختزنها لكتاب آخر نرجو ألا يغيب علينا ، ولكنه لحسن الحظ لم ينس وهو يؤلف « أضواء على الدبلوماسية » حتى وهو يتحدث عن الجانب الحرفى أنه أديب ، صاحب أسلوب ، فالتزم فى الكتاب كله رشاقة اللفظ والعبارة ، فهو أيضا نص أدبى . . انظر كيف يعرف البروتوكول :

« ومعنى البروتوكول أو المراسم فى عالمنا الحديث هو قدرتنا على فهمنا للحياة وكيفية استقبالنا لها والإحاطة بتفاصيلها ودقائقها والعناية بمعرفة ما

يحيط بجوها من مظاهر الاستقبال والاجتماع والاحتفاء والتصرف الصحيح فى مختلف المناسبات ، والعلم بما ينبغى أن يترك وما يتعين أن يكون ، هو فى كلمة جامعة « فن الحياة » . »

(« المساء » ٢٦/١/١٩٧٠ ص ٦ ، ٥)

التنبؤ بالماضى !

يوم ٢٣ يوليـو سنة ١٩٥٢ كـانت السفارة الملكيـة المصريـة بتركيـا تصطاف ــ وأنا معها ــ فى قصر ببلدة على البسفور . هربنا من حر أنقرة ولكننا لم نهرب من النكد . مجلة هزلية تركية تصدر فى إستانبول نشرت على صفحتين بالكاريكاتير رسما للملك فاروق يعوم كأنه الدرفيل يلبس نظارة سوداء ، وعلى بطنه العارية المنتفخة تتواثب حوريات البحر .

سمعت بأذنى فى مسرحية لفرقة ناشد الهزلية ــ مثيلة فرقة الريحـانى عندنا ــ كلمة بذيئة نابية موجهة إلى حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم ، ضحك الجمهور لها وأنا أنكس رأسى لا أدرى أين أتوارى المفروض ــ حتى ولو لم تصلنـا تعليمات ــ أن نـذهب لوزارة الخـارجية لنحتج ، ولو تحليلا للمرتب الكبير الذى نقبضه كل شهر سفلقة ، فكنا نقابل بابتسامات ساخرة ، حديثنا ليس برطمة بغضب ، بل استجـداء بأدب كأننا نقول لهم :

ــ ولو إكراما لخاطرنا ، ومنعا لكسوفنا بين الناس . نحن نعلم قبلكم أن الإهانة فى محلها .

وكان رجال وزارة الخارجية التركية يتهموننا فى وجوهنا ــ حين نلقاهم لعمل ــ بأننا « أولا » جماعة عواطفجية سياستنا هوائية ، أما هم فالمصلحة عندهم تأتى قبل العاطفة والحقائق المرة قبل الآمال الحلوة ، هكذا يزعمون .

وبأننا ــ ثانيا ــ أعجز من أن نحسن إنشاء وزارة للخارجية عريقة التقاليد ، تفهم مهمتها وتؤديها على أحسن وجه . فالعمل الذى ذهبت من أجله يتعلق بتصويت مرتقب فى الأمم المتحدة . فإذا بى أجد محدثى يعلم عن موقف وفدنا فى تلك الهيئة ما أجهله أنا . معلوماتنا عن سياسة بلدنا وعن سياسة تركيا مستقاة كلها من الصحف ، وشتان بين ما يجرى فى السر وبين أقوال الصحف . بعض سفرائنا العظام كانوا يرسلون بالشفرة النص الكامل لمقال منشور فى إحدى الصحف ، لا يغفلون حروف الجر وأداة التعريف . لو كان ذكاؤهم من قماش لما كفى لتفصيل بنطلون شورت لعصفور كناريا ، فهم علاوة على سخفهم الشديد وتبذيرهم بسفاهة لأموال الدولة ، لا يدركون أنهم بعملهم هذا يكشفون بحماقة عن مفتاح الشفرة ، فلا شك أن وزارة الخارجية فى البلد الذى يقيمون فيه ، وربما السفارة الإنجليزية أيضا ، قادرة على أن تعرف فيم أرسلت البرقية ، فما عليها إلا أن تقارن بين النص الواضح والنص الملغز حتى تهتدى بسهولة إلى مفتاح الشفرة

كانت سمعتنا قد هبطت إلى الحضيض . أحاط بنا جو من الذل

والمهانة ، وغلبنا شعور بأن أكلنا حرام لاحلال ، كأكل القوادين . وكنت ألحظ بوضوح ووجل كيف يؤدى هذا الشعور إلى الانزلاق لصور بشعة كثيرة لحطة النفس ، وقديما قالوا : « من يهن يسهل الهوان عليه » .

وكان بيننا من يشبه الغريق فى بحر يأس شديد يفضى إلى التبلد والبلاهة وعدم المبالاة ، وإلى شلل الإحساس والقدرة على الاستجابة السريعة ويقظة الذهن . ومع ذلك لا ينفك يقب على السطح داعيا ربه أن يزيل الغمة . بقى أمله معلقا بالجيش المصرى بعد أن احترقت كل الأحزاب السياسية .

من الطبيعى أن يمنعه تمزقه هذا من أن يدرك حق الإدراك معنى الخبر الذى دهمه يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ بتحرك الجيش المصرى للعمل كما كان يؤمل ، بل أصيب بذهول . أخذ يتتبع الأخبار بلهفة لمجرد حب الاستطلاع ، غير قادر على أن يفهم مغزى الذى حدث ، ثم انجلت بصيرته يوم ٢٦ يوليو حينما أذيع خبر طرد الملك . تملكه وبقية زملائه يقين أن الأمر جدلا هزل ، وأن مصر قد طوت عهدا لتبدأ عهدا جديدا يتمخض بأحداث جسام وبآمال كبار . وغمرت النفوس راحة شديدة وهى تتبين أن الثورة بحمد الله ثورة بيضاء . فقد كان الجيش قادرا على أن يقبض على الملك ويحاكمه ويعدمه ، ولكنه لم يفعل بل اكتفى بطرده ، وأحسسنا أن الثورة تعكس لحسن الحظ طبع الشعب المصرى فى كرهه لسفك الدماء فى المعترك السياسى .

يوم ٢٣ يوليو مقرون فى الذاكرة بالذهول رغم أن الذى حدث كان

مأمولا ؛ إذا لم أشأ أن أقول : وكان متوقعا . أما يوم ٢٦ يوليو فمقرون بشهقة الخلاص ويقظة الذهن واستنارة الفهم . شدت فيه جميع الأوتار المرخية فى الآلات الموسيقية داخل أرواحنا استعدادا لعزف لحن عظيم .

وأحسسنا بوعى أو بغير وعى أننا أصبحنا مطالبين ببذل جهد كبير من أجل المشاركة فى تحريك العربة المغروزة فى الوحل . ولعل هذا الإحساس لم يخل من شىء من التهيب لماران على النفس طويلا من يأس عميم مفض إلى التشكك فى القدرات الكامنة .

ومن حسن الحظ أن ٢٣ يوليو لم يصبر طويلا حتى يصبح ٢٦ يوليو ، فما هى إلا ثلاثة أيام وليس غير . فلا أحد يدرى ماذا كان يحدث للثورة لو تأخر طرد الملك أسبوعا أو شهرا . فقد اغتر الناس أول الأمر بقبوله للمطالب التى قدمت إليه . ولا أقصد الاحتمالات السياسية ، بل أقصد قدرة الثورة على شعللة إحساس الشعب وحشد كل قواه الروحية لتبلغ الذروة فى لحظة واحدة فلا تتعرض بعد ذلك للتميع .

ولحظ الناس بابتسام ماكر ، أو مكر مبتسم ، أن الثورة من عمل إنسان بارع فى التخطيط والتوقيت . وأدركوا أن طرد الملك كان مقررا حتى فى يوم ٢٣ يوليو رغم قبوله للمطالب المقدمة إليه . ولعل وجود الملك فى الإسكندرية لا فى القاهرة هو الذى فصل بين التاريخين العظيمين بثلاثة أيام .

ولكن لا بأس ، أصبح لنا للثورة عيدان لا عيد واحد . . عيد فى القاهرة ، وعيد فى الاسكندرية التى فازت جامعتها بشرف المبادرة إلى مساندة الثورة وتأييدها ، ولا زلت أغبطها على هذا الحظ العظيم

لا عجب بعد ذلك أن صدرت من الإسكندرية لا من القاهرة جميع القرارات الثورية ، كتأميم القناة والتحول الاشتراكى .

بقى علينا عبء ثقيل : كيف نعامل أفراد أسرة محمد على المقيمين باستانبول ، فيهم الأمير والنبيل ـ كماركات السجائر ـ تكأكأوا علينا يسألوننا عن الأخبار ، ويستفسرون عن مغزاها . زال احترامهم المخادع للملك فاروق زعيم الأسرة ، وانهالوا عليه بألسنة حداد . إنه فى نظرهم سبب مصيبتهم . عجيب أمرهم ؛ فى القاهرة يزعمون أنهم أتراك لهم الشموخ على أهل مصر . فى تركيا يزعمون أنهم مصريون منهم ، لأن انتسابهم لمصر يكسبهم قدرا من الحصانة الدبلوماسية . وكان من هؤلاء الأمراء من يطلب منا أن نستورد له السيجار الفاخر الذى يدخنه عن طريق السفارة حتى لا يدفع الرسم الجمركى رغم ضآلته بالنسبة إلى ثرواتهم الطائلة . هم فى مصر مصابون بداء العظمة والاستعلاء ، كأن البلد ملك أبيهم ، وهم فى تركيا مصابون بمركب النقص ، فالخديو عندهم أفندينا ، ولكن أفندينا هنا يقف وقفة التابع الخاشع أمام عظمة السلطان الملقب أيضا بخليفة المسلمين وخازن لواء النبى .

جميع المسئولين ـ حتى أفراد الشعب ـ يضعون أسرة محمد على ـ رغم أصلها التركى ـ موضع التابع الذى يقَبل العتبات . وجزاء المتعاظم أن يجد من يتعاظم عليه ، ولكن المصيبة أن يكون هذا الأخير باطه والنجم . . فقر و عنطزة .

لهذا كان أفراد بيت محمد على يبلعون بسهولة فى تركيا شعورهم بمركب النقص ، ويعوضونه باستعراض ثرائهم الفاحش والطنطنة به . لم يكن

صعبا عليهم أن يصبح كل واحد منهم مليونيرا فى تركيا ، فالجنيه المصرى كان يساوى ١٠ ليرات تركية . حتى العشرونير مثلى كان فى تركيا محترما . وكان يكفيك أن تقول إنك مصرى حتى ينحنى لك الناس انحناءهم لمهراجا كشمير فى سابق العصر والأوان .

وأريد أن أشهد للتاريخ أنى وجدت جميع أفراد أسرة محمد على المقيمين باستانبول ــ وبصفة خاصة النساء ــ قد تنفسوا الصعداء ، وهدأت هواجسهم ، لا لأنهم رأوا العرش يئول لابن فاروق ، بل لإسناد الوزارة إلى على ماهر . وقد سمعت بأذنى إحدى الأميرات تطمئن حاشيتها بأنه ما دام على ماهر فى الحكم فلا خوف علينا . إنهم يعرفونه وكيلا لدائرة سيف الدين . لم آسف على ضعف ذكائى قدر أسفى عليه ذلك اليوم . كان ينبغى أن أتوقع خروجه من الحكم بعد قليل .

وكانت هذه الأميرة قد تقدمت بها السن ، ومع ذلك فإن صورتها الفوتغرافية فى جواز سفرها الدبلوماسى تمثلها وهى فى سن السادسة عشرة . . إن لم تكن صورتها هذه هى منتهى الغرور فهى على الأقل غاية البخل .

(« المساء » ، ١٩٦٤/٧/٢٧ ، ص ٨)

السفير

المستشار أديناور ــ مدَّ الله فى أجلك حتى تبلغ عمره وأنت فى أرقى المناصب ــ توحى إلىَّ صوره بأنه رجل صارم لا يعرف الهزل ولا يعجبه الحال المائل . حين ذكرت بعض الأنباء أن سفيره فى موسكو ــ الهرهنزكرول قد دخل من وراء ظهره فى مباحثات مع خروشوف حول مسألة برلين ، لم يتردد لحظة واستدعاه على ملاوجهه ليغسل له رأسه . وقد يقال إن مما أغاظه من سفيره أن هذا النبأ ينشر وهو معتزم السفر إلى واشنجتون لمقابلة الرئيس كنيدى ، فالرحلة إلى أمريكا عنده فركة كعب .

هذ هو ما روته الصحف ، وأحب أن أنبهك أن هناك دائما هوة ــ تتسع وتضيق ولكنها موجودة ــ بين الواقع وأقوال الصحف فى السياسة الخارجية فى جميع الأزمان وكافة الدول

فقد يكون هذا الخبر مكذوبا من اساسه ، لأن وزارة الخارجية الألمانية لها تقاليدها العتيقة وليس من المعقول أن يكون الهركرول مغفلا أو مغرورا

إلى هذا الحد ، وقد يكون هذا النبأ أيضا مما يوصف فى عرف الدبلوماسية القديمة التى لم تنته بعد مع الأسف بأنه « بالون تجربة » ، أى اختراع إشاعة كاذبة تطلق فى الجو لا لشىء إلا لتدل على اتجاه الريح ، فلا يستبعد أن يكون أديناور نفسه هو الذى أطلق هذا البالون ـ رغم زعمه أنه غاضب من سفيره ـ ليثبت للرئيس كنيدى مرة أخرى أنه مخلص فى مفاوضاته معه ، أو تكون موسكو هى التى أطلقت هذا البالون ، لا فى صحافتها ، بل فى صحافة دولة أخرى ذرا للرماد فى العيون محاولة منها إما لتحطيم هذه المفاوضات وإما لتنبيه أديناور أنه إذا أولى ظهره لأصدقائه المختلفين الذين يدورون بين عواصم المعسكر الغربى كأنهم يركبون مرجيحة لفافة ، ثم اتصل وحده بموسكو رأسا فقد يكسب أكثر مما يظن . ومما يعين على الظن بأن الخبر مكذوب أننا سمعنا بعد ذلك بعودة السفير مكرما معززا إلى موسكو .

لكن النبأ إذا صح ليس بمستغرب أيضا ، فمن عادة بعض السفراء ترديد الشكوى بأنهم فى واد ووزارة خارجيتهم فى واد ، وأن تقاريره لا تلقى العناية الكافية ، وأنه باعتباره عين هذه الوزارة أقدر على رؤية المشكلات فى أماكنها وأقدر على حلها من هؤلاء السادة النجباء المتربعين على مكاتبهم فى العاصمة البعيدة . وقد يحمل الغرور بعضهم على التطوع بعمل يصفه بأنه جس نبض لا أكثر ولا أقل ، ليس فيه خروج عن التعليمات ، وإذا لم يكن لسفير أن يجس النبض فماذا بقى له بعد ذلك ؟ (إذا رأيت جميع السفراء يحملون ساعات فاعلم أنها لقياس هذا النبض) . .

وهناك عوامل كثيرة تسحب الأرض شيئا فشيئا من تحت قدم السفير حتى تزل وهو لا يدرى . إنه يصل إلى مقر عمله وهو متحفظ متحمس لقضية وطنه ، فإذا به يجد نفسه يذوب قليلا قليلا وسط أناس يبتسمون له ، ويدعونه للمآدب ، وتجلس إلى جواره من بنات البلد ساحرات ، حديثهن شهى ، فإذا بصورة هذا الشعب الغول فى نظر حكومته تشحب على مهل فى نظره حتى يقول لنفسه : « إنهم أناس طيبون مثلنا » ، وقد يزيد فيقول : « إنهم والله مظلومون » . فيرى أن الحق كل الحق ليس ملكا خالصا لبلده ، بل إن للبلد الذى يقيم فيه بعض الحق ، لا ينكره إلا أحمق ، فيميل إلى المصالحة ، وقد يذهب به التضعضع إلى حد ضيقه بسياسة حكومته ويصفها بأنها عمياء أو متعصبة .

سمعت مرة سيدة جريئة تقول لسفير لنا فى فرنسا قبل الثورة :

ـ « يا إكسلانس ، لست أدرى هل أنت سفير مصر فى باريس أم سفير فرنسا فى القاهرة » .

هذا بسبب فرط حماسته ـ لطول إقامته بباريس ـ لوجهة النظر الفرنسية . وهذا الموقف لا يتناقض مع ما شهدته فى تجاربى من أن رجال السلك الدبلوماسى بصفة عامة يميلون إلى إطلاق ألسنتهم بالانتقاص من البلد الذى يقيمون فيه أيا كان هذا البلد ، إما لمناخه أو لبعده أو لتأخره وخلوه من المدارس اللائقة لأبنائهم ، أو لاتصاف أهله ـ فى زعمهم ـ بالنفاق أو الخداع أو شحهم فى فتح بيوتهم للغرباء ، ولكنه كلام فك مجالس من قبيل حب التشكى ولإظهار النفس فى مظهر البطولة وقبول الفداء دون مثوبة مع أنهم غارقون فى النعيم .

ولعلك رأيت مثالا من هذه العقلية فى خبر هذه الفتاة الأمريكية التى التحقت بجيش الخدمة فى الخارج الذى يجنده الرئيس كنيدى ليبعث به إلى البلاد المختلفة ليعين أهلها فيما يزعم ــ ولوجه الله فحسب ــ على التقدم والرقى . لم تكد تصل إلى بلد إفريقى حتى أرسلت لصديق لها بطاقة مفتوحة ضمنتها أفحش سب لهذا البلد وأهله ، فسحبتها وشنجتون أيضا على ملا وجهها لقاء حماقتها وإن زعمت أنها لم تقل إلا الحق وأن الحق ينبغى أن لا يجرح .

وقد ذكرتنى حادثة السفير هانز كرول بزميل عملت معه فى السلك الدبلوماسى ، تلقى درسا فى مطلع حياته كاديودى به . كنا نقيم فى بلد شرقى بينه وبين مصر فى ذلك العهد البعيد شىء يشبه القطيعة . وكان صاحبنا قد ذاب وسط الابتسامات والمآدب فتطوع حضرته وأفهم وزير خارجية هذا البلد أن مصر لو وصلتها رسالة رقيقة منه تسيح بدفئها الثلج فإنها مستعدة لأن تنسى الماضى وتفتح صفحة جديدة .

لا شك أن الوزير ظن أنه يحمل إليه تبليغا رسميا ، ولم ير مانعا من أن يحمله الرسالة المطلوبة فطار بها إلى القاهرة . ظن أنهم سيقابلونه بالأحضان ويقولون له « عفارم عليك » ، وقد يمنحونه نيشانا أو ترقية يسيل لها لعابه ، فإذا به يتلقى قلما على قفاه وقلما على صدغه ، آمن بعدهما بأن الله حق وأن الحماقة أعيت من يداويها .

لذلك كان من تقاليد كافة وزارات الخارجية أن لا تطيل من إقامة السفير فى منصبه إلا للضرورة القصوى وطلبا لمنفعة محققة من أجل أن

تصونه من زلـة القدم ، وتتيـح لخلفه نـظرة جديـدة مستقلة من روابط الصداقات والارتباطات .

فإذا التزمت هذه الحدود فإنها لا تفرط فى سفيرها بسهولة ، وتعتبر كرامته من كرامتها . فقد يجلب هذا السفير على نفسه امتعاض الحكومة التى يمثل بلاده عندها . وربما كان المنطق والمصلحة يقضيان بأن تسحبه دولته ، ولكنها لا تسارع عادة بتلبية أول إشارة بالانقضاض ، وإلا فقدت حرية التصرف ، وخضعت لإملاء الغير ، حتى ولو كان هذا الغـير من الأصدقاء . ولا يمنعها هذا التريث من دراسة موقف السفير لترى إلى أى حد هو مظلوم .

حين ذهب ريمون بواناكاريه رئيس جمهورية فرنسا قبل الحرب العالمية الأولى إلى موسكو لتوثيق الصلة استعدادا للحرب القادمة مع ألمانيا ، مال وزير خارجية روسيا على أذنه وقال له : سفيركم عندنا المسيو لويس ، نعم نعم رجل طيب ، ولكن من طراز عتيق . إنه يحبس نفسه فى السفارة ولا يخالطنا ونحن فى هذه المرحلة فى علاقاتنا نحتاج إلى سفير لا نجد مشقة فى الاتصال به .

وكتب بوانكاريه فى مذكراته يقول إنه حين سمع هذا الكلام ، ومع علمه بحاجته إلى إرضاء موسكو ، أصر فى نفسه على ألا يستجيب لهذا الطلب . لا شك عنده أن التهمة صادقة ولكنه أبقى سفيره حيث هو ، لا لشىء إلا ليحفظ لفرنسا حرية اختيار سفرائها . وربما أضاف فى نفسه أيضا : لا بأس من أن أنقله بعد ستة أشهر أو سنة مثلا عند إجراء حركة تنقلات دبلوماسية شاملة لئلا يظهر منها أنه مقصود بالنقل وحده .

ولكن بعض الدول ، فى لهفتها على استبقاء علاقتها الحسنة بدولة أخرى فى ظروف دقيقة حساسة ، تفرط أحيانا فى سفيرها وتسحبه إذا لقى امتعاض البلد الذى به منصبه هذا السفير هو وحظه ، إن كان له سجل مشرف فلربما نقلته إلى منصب أرقى على حد تعبير قول الإنجليز « ركلة بالقدم إلى أعلى » ، وإلا أودعته وزارة الخارجية فى حجرة اصطلح الدبلوماسيون على وصفها بأنها « ثلاجة » يتجمد فيها الموظف إلى أن يأتى الله بالفرج .

ومن ذكرياتى أن دولة يشبهونها بأنها دار فى الشرق لها شرفة تطل على الغرب كان لها فى وقت مضى سفير فى القاهرة جاء ذكره فى قضية ضبط مخدرات فى سيارة السفارة . والتصقت التهمة ، أو ألصقت ، بالسائق . ولكن السيارة على كل حال تحمل علم بلادها . والظاهر أن حكومته لم تر مفرا من نقله من منصبه . (أروى لك هذه الحكاية لأعطيك مثلا من الألاعيب الصغيرة والبراعات التافهة التى كانت تهيم بها الدبلوماسية العتيقة) وكانت كذلك تعلم أن حكومة القاهرة لا تحب هذا السفير كل الحب . فانظر ماذا فعل وزير خارجية تلك الدولة ؟

فرش أمامه خريطة الميدان وصف جنود الطرفين كما يفعل الطفل حين يلعب بجنوده من حجم عقلة الإصبع ، لحمها من رصاص ، وقال لنفسه : البراعة كل البراعة أن تصيد عصفورين بحجر واحد . إننى أريد نقل هذا السفير ولكنى سأتصرف بحيث يأتينى طلب نقله من القاهرة فأحملها جميلا قد ينفعنى فى المستقبل . ولما رأى سفيرنا فى أول حفلة مال على أذنه وقال له :

ـ سمعت أنكم لا تحبون سفيرنا عندكم ، فإذا كان هذا صحيحا فأنارهن إشارتكم . أخبرونى برغبتكم فسأنفذها لكم إثباتا لصداقاتنا الأخوية .

لعل سفيرنا خرج من الحفلة مسرعا ليبرق إلى القاهرة بهذا النبأ الخطير وقد وهم أنه فاز بفضل مجهود لم يبذله فى تحقيق رغبة حكومته على أهون سبيل . ولكن وزير خارجية مصر كان ـ لحسن الحظ ـ مدقدقا أيضا فى هذه البراعات الصغيرة ، فشمر ساعديه وكتب لسفيرنا يقول : يا لك من أبله . . تريد أن تحملنا جميلا نحن فى غنى عنه . إنه يسرنا نقل هذا السفير ، ونحن نعلم أن حكومته ستنقله ، فلم نتبرع بطلب نقله ؟ تعليماتى إليك أن تقابل وزير الخارجية فى حفلة كما قابلك فى حفلة (انظر إلى براعة التكتيك) وكما همس فى أذنك فاهمس له فى أذنه . (ولم يحدد له هل هى أذنه اليمين أم الشمال . ترك هذه المسألة لبراعة السفير) . وقل له إن مسألة السفير تخصهم هم وحدهم ، إن شاءوا شالوه وإن شاءوا حطوه ، ونحن فى الحالين شاكرون راضون .

ولما وقّع على هذا الخطاب « السرى الهام جدا » أحس ولا شك أن نابه أزرق . ولكن حين علمت نبأه لم أتمالك من الابتسام لهذه البراعات الصبيانية التافهة .

ولكن الابتسام يختفى حين أقرأ فى المعاهدات التى كانت إنجلترا تعقدها مع دول شرقية خاضعة لاحتلالها ، غلبانة لا تملك طائرة واحدة ، وجيشها يعد على الأصابع ، مدرب على ضرب السلام فى الاستعراضات ، فيضمن ساسة إنجلترا تلك المعاهدات بالمواد التالية :

المادة كذا : يكون لكل من الطرفين الساميين المتعاقدين الحق فى مرور طائراته فى المجال الجوى للطرف الآخر وذلك فى سبيل المعاملة بالمثل وعلى قدم المساواة التامة بينهما .

مادة أخرى : يكون لكل من الطرفين الساميين المتعاقدين الحق فى تدريب جنوده فى أراضى الطرف الآخر ، وذلك من سبيل المعاملة بالمثل وعلى قدم المساواة التامة بينهما .

على من كانوا يكذبون ؟

كانت هذه البراعات التافهة تكسب أبطالها النياشين الضخمة على صدورهم ، ساسة إنجلترا لأنهم جاءوا بالذئب من ذيله ، وساسة البلد الشرقى لأنهم ــ فى زعمهم ــ صانوا الكرامة ولم يفرطوا فى حق إلا مقابل حق . . وابق قابلنى .

ولكن مثل هذه البراعات التافهة لا تستحق منا اليوم إلا الاحتقار الشديد لساسة الطرفين الساميين المتعاقدين . ولو كنت من أهل إنجلترا لخجلت من ساستها ، ولو كنت من ساستها لفضلت اليوم أن أخفى وجهى من العار عن أعين الناس .

(« المساء » ، ١٩٦١/١٢/٤ ، ص ٨)

مقال بلا صواميل يخر منه الماء

كرمال تذروها الرياح ، تشبيه حفظناه كالببغاء ، تراكمت عبر النهر العفى الغويط فإذا هى سد منيع لا يقل عن الخراسانة . ما من ضعيف إلا فيه طاقة مخبوءة . ثغرة فى السد الرملى لا بد لها من الديناميت لا الفؤوس . لحظة مترقبة بلفهة . إجماع لا فرق فيه بين شاهد وغائب . حل الموعد . طرقعت أصابع نوبل . دوى الانفجار . انتقلت اللحظة المرتقبة من المستقبل إلى الحاضر ، ومن الحاضر إلى الماضى . الماضى لص يخطف من الحاضر ويجرى إلى أزقة خلفية . ولكنه لم يستطع أن يهرب سريعا بهذه اللحظة المرتقبة . ظلت تتلكأ فى خطوها ، فما أكثر الحبال التى شدت بها إلينا .

نفذت المياه لفورها من الثغرة . . كأنما كانت تعلم من قبل أين باب القفص . لم ينقطع تحسس كفوفها لجدار السد ، جربت أن تميل عليه فوجدت كتفه أقوى من كتفها ، لم يتزحزح أمامها ، لاترفض دخول باب يفتح لها حتى ولو كان اتساعه لايزيد عن عنق زجاجة . رويدا رويدا أول

الأمر ، ثم إذا بها تتدفق وتندفع وتعلو وتتقدم نحو الآفاق تطلب استواء السطح أمام الثغرة ووراءها .

المهم أن تنحدر المياه من مكان مرتفع ولو بمقدار شبر حينئذ تنطلق من عقالها قوة هائلة ، سلاحها هو ثقلها الضاغط على الموانع . إن أردت أن تعرفه فحاول أن ترفع صفيحة مملوءة بالماء ، أو اذكر مشية السقاء فى حوارى القاهرة وانحناء ظهره وليس فوقه إلا ملء جلد عجل رضيع ، لاغرو أن يكون دعاؤه « يعوض الله » - تعويض عن هد الحيل تحت عبء كأنه الحديد ، أوقارن بين حجم الحجر الكبير فى طرف الشادوف وحجم الدلو الصغير فى الطرف الآخر .

ليس فى الطبيعة منظر أروع من هبوط الشلالات الشاهقة ، لجمع الحال حينئذ بين رقة الاسم وجبروت الفعل . هذا الهدير الصاخب يقابله صمت القبور فى أعماق المحيطات ، حيث الظلام الدامس وبرودة الموت . مياه تكاد تتجمد كالصلب من شدة الثقل والضغط فوقها ، ومع ذلك تعيش فيها مخلوقات من حيوان ونبات . إن هبوط الإنسان إلى هذه الأعماق لايقل عجبا عن ارتفاعه إلى الفضاء . أفكر الآن فى صيادى اللؤلؤ الذين يرتزقون بتمزيق الماء لدمائهم لأنهم لايملكون ثمن جهاز الغوص .

نحن نحب أن نعرف الماء وهو رقراق فوق حصباء الجداول ، له خرير بديع النغم ، وهوقطرات ندى معلقة بأجفان الزهور ، له لمعان الجوهر . . فى قمم الجبال الشاهقة وهو منعقد فى ثلوج ظاهرة . . فى جريانه على الترع

والقنوات بين حقول تلهث من العطش . . على الأنهار العظيمة المباركة وهى تحمل الحياة . خط التقاء الرمال والطين فى أرض مصر تشهده من الطائرة فتحسبه مرسوما بالقلم الرصاص فوق ورقة ، قاطع فى الفصل والتحديد بين دمار وعمار ، كل من الخصمين يسعى لعبور هذا الخط ليطغى على الآخر ، بالخطف جهارا أو الاختلاس سرا ، ولا هدنة بين الاثنين . تصورت الرمال دائما فى هيئة أنياب ، والطين فى هيئة أصابع .

نحب أن نعرف الماء وهو قطرات عطر رحيم بأرض لاتشقها أنهار . لاتتمثل حرقة الابتهالات فى صلاة كصلاة الاستسقاء . وآخر زاد للإنسان قبل أن يموت هو فى أغلب الأمر جرعة من الماء . العيش بجانب الماء ، هذه هى أول مادة فى باب الالتزامات فى قانون الحياة منذ نشأتها ، سواء فى ذلك الإنسان والحيوان . بحث الإنسان عن الماء لاينتهى ، يشق إليه الآبار ويغوص بها ولو إلى ضمير الأرض . رأيت فى الصحراء رجلا يسحب حبل دلو فى بئر ويمشى كأنه مسافر ، يكاد يغيب عن الأبصار من قبل أن يخرج الدلو . تمنيت أن لوظهر على وجه الرجل أيضا بعض آثار العجب الذى ظهر على وجهى ، ولكنه لم يسأل عنى .

يستهوينى دائما أن أطل فى الآبار العميقة وأحس فى كل مرة برجفة . من بحث الإنسان عن الماء الحلو أنه استخرجه من البحر المالح ، ولكن النفقة باهظة . حلم العصر الحديث . . عصر الذرة ، هو خفض هذه النفقة بحيث يجزى الرى بها ، حينئذ يتغير وجه الأرض ، وربما اختفت الصحراء .

أحب وصف القرآن الكريم للماء . جاء ذكره فى ٦٦ موضعاً ، الماء فى

القرآن الكريم هو الرزق ، هو النشور ، هو الرحمة والطهر ، هو سر الحياة وإذا تأملت وجدت آيات كثيرة تشير إلى أن المولى - سبحانه وتعالى - يهب الماء للإنسان بمقدار ، كأن فى ذلك إشارة من بعيد إلى قدرتها على الدمار لو انفلت عيارها . . كما حدث فى الطوفان فى عهد سيدنا نوح - عليه السلام . . « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر » . . إن لفظ « منهمر » فى هذه الآية الشريفة يوحى وحده بالكارثة . .

وفى الأنشودة التى نظمها القديس فرانسيز من مدينة ألسيز بإيطاليا ليمجد مخلوقات الله جميعا ويؤكد الأخوة بينها جاء ذكر الماء أيضا :

« تباركت يارب أن خلقت لنا أختنا الماء ، أم الخير الطاهرة ، الكنز المتواضع » .

* * *

تتابعت هذه الأفكار فى رأسى بلا رابط وأنا أقرأ وصف تدفق المياه من ثغرة السد الرملى نحو الآفاق وأتأمل الصور الفوتغرافية البديعة التى رسمها محمد يوسف . أحب أن أشيد هنا بموهبته ، وانبعثت من قلبى صلاة كلها حمد وشكر للمولى - سبحانه وتعالى - أن هيأ للإنسان هذه القدرة الخارقة التى حولت النهر العظيم من مجرى قديم إلى جديد يمر بأنفاق داخل الجبل . وكلما حمدنا الله تعالى زدنا قدرة خشوع واعتزاز . . ما ألذ اجتماع هاتين العاطفتين فى القلب ، لعل سر شقاء الإنسان أنه لم يعد يفلح فى الجمع بينهما دائما فى قلبه

ثم ابتسمت وأنا أتأمل النيل يمر لأول مرة بتجربة جديدة لم يسبق له بمثلها عهد منذ مولده . . المرور داخل أنفاق تحت الجبل . افتقاد الشاطئين

ورؤ ية السماء . هل هذا ممكن ؟ تصورته ارتد جنينا يدخل حديقة الملاهى لأول مرة ويجد نفسه فى قماط ممرات قصر التيه أو بيت جحا . . لعل النيل يقول لنفسه ـ وهو يمر فى ظلام هذه الأنفاق ـ هذه هى آخر المتمة ! لن أستغرب بعد اليوم أى شىء يحدث لى .

ومع ذلك فما أكثر تجارب النيل . . وكيف لا تكون له تجارب وليس كمثله نهر فى طول قامته وامتداده من قلب قارة عظيمة حتى يبلغ البحر البعيد . ياله من نهر ! والقارة هى إفريقيا . ويالها من قارة !! عرف الانحدار من أعلى الجبال وهو لا يزال معصوراً من مطر غزير ، وعبور البحيرات الكبيرة والصغيرة فلا تأسره ، والنفاذ من خلال ثغرة بين الصخور لا يزيد عرضها عن ثمانية أمتار فلا تخنقه ، وعرف كيف يعترضه بحر عظيم من الشجيرات والنباتات الطفيلية فلا يغص بها حلقه ، لا يكاد يخرج من أولى بحيراته حتى يجد الإنسان قد أقام له سداً منيعاً . سيقابل أمثالا له على طول طريقه . عرف أيضا كيف يخوض وسط مآزق عديدة بين صخور تقلقل طريقه .

هذه التجارب الشداد ينساها جميعا من أجل تجربة حلوة لا يعرفها نهر آخر . تجربة لقاء اللونين فى مدينة الخرطوم ــ الأبيض والأزرق . هذا لقاء أخوين بعد غربة ، أو لقاء عاشقين بعد فراق . جمال هذا اللقاء لا يفسده انفصال النيل بعد مسافة شاسعة إلى فرعين شمال القاهرة فما المصب إلا على بعد فركة كعب ، ولعل النيل نهر مغرم بالسخرية .

* * *

قرأت الوصف وتأملت الصور وعادت إلى ذهنى ذكريات إقامتى فى الصعيد . كنت حديث عهد به وبالجسور والحيطان ، لم أتصور قط وأنا فى القاهرة أن أشرب ماء عكراً ، أو أن الشرب ـ حتى لهذا الماء العكر ـ مشكلة قائمة معظم شهور السنة . فى ضمير الشعب أن تسبيل الماء للعطاش ثواب ليس فوقه ثواب . وإذا كان السبيل قد اختفى فإن جميع قهاوى القاهرة لا تجرؤ أن تصد إنسانا يدخلها لالشىء إلا ليشرب ماء ، ومثلج أيضا ، ولو طلب هذا العطشان لقمة باردة واحدة بالمجان لأكل بدلها علقة ساخنة . فإذا بى لشدة عجبى أرى بعض القرى فى الصعيد حين حللته ـ وهى القرى الهائمة وسط الحيضان ـ لا تجد بعد الفيضان ماء تشربه إلا هذا الماء الآسن المتخلف فى حفر صغيرة من الفيضان السابق . ماء ثقيل غليظ تشعر بمجرد رؤيته أنه وعاء جراثيم لا حد لها .

وكنت أعجب كيف يحدث فى أرض النيل أن يصبح شرب الماء مشكلة عويصة ؟ ولا تزال هذه المشكلة قائمة إلى اليوم لا فى أرض الحياض فحسب ، بل فى بعض مناطق البرارى فى شمال الدلتا حيث لا تمتلئ الترع إلا مرة كل ٢٠ أو ٢٥ يوما . الشرب هنا أيضا من الماء العكر المتخلف ــ فى الحفر منذ آخر زيارة الماءللترعة .

إن ارتسمت فى ذهنى وأنا أقرأ وصف دخول النيل إلى الأنفاق صورة أراضى قاحلة موحشة شاسعة تكسى بثوب أخضر بهيج ، فقد ارتسمت قبلها صورة الفلاح ــ أينما كان ــ يشرب بكوب ماء صافيا على مدار السنة .

(« المساء » ، ١٨/٥/١٩٦٤ ، ص ٨)

سلام اللقاء . . سلام الوداع

يخيل إلىّ أن النوبة تقول الآن فى سرها لئلا يشتبه العتاب عند الأحبة باللوم والتقريع . . أين كنتم ؟ كيف أرضى منكم أن يكون سلام اللقاء هو سلام الوداع . أكان ينبغى أن يرتفع الماء إلى فمى وأُشرف على الغرق لكى أفوز منكم بلفتة وابتسامة يختلط فيها الإعزاز بالتحسر ، والفهم بالاعتذار ؟

أحتم أن لا ينطلق وجه الأمومة بسر جمالها إلا وهى تحتضر ، وأن لا يقدر الإنسان ملكه حق قدره إلا إذا فقده ، وأن لا ترقى المتعة المطمئنة بالقريب الذى هو فى اليد إلى سحر اللهفة على الغريب البعيد المنال ؟

عاشت النوبة أعواما طويلة وراء ستر من النسيان ، القناع على وجهها . لم يقصدها اختيارا إلا قلة قليلة منا . أول محطة بعد أسوان هى أبو سنبل ، فالهدف هو زيارة أصنام الموتى الغابرين لا منازل الأحياء

حتى تلك السفينة الصغيرة التى لها موعد معلوم تلم فيه بقرى النوبة

وهى آتية من الشمال ومن الجنوب فتوصل بينها ــ كالحبل السرى ــ وبين بقية الأرض والناس ، حتى هذه السفينة ليست من عندنا ، بل من عند السودان شقيقنا فى الجنوب .

ولعل هذا النسيان كان مما يوافق طبع النوبة ومزاجها ، هى عالم ينطوى على نفسه ، تتشبث منازله بسفوح جبال جرداء لأنها مسقط الرأس والموطن وإليها المآب . غرق بعضها مرة فنجت بالقفز كالماعز ، لا إلى الشمال أو الجنوب ، بل إلى قمة أعلى فى سفح الجبل ذاته ، لا يضيرها الارتفاع لأن النيل يلاحقها ، يظل عند موطىء أقدامها .

لم تكد تستقر حتى تهددها الغرق من جديد . قفزت مرة أخرى إلى قمة أعلى . فتات هذه المنازل المبرقشة خالط طمى النيل وحمل معه إلى الوادى هدية الخصب والإنبات . واليوم سيعم الماء الجبل كله . لن تبقى فيه قمة ناجية ، فلا مفر من القفز هذه المرة إلى الشمال . . ما أشبه النوبة بذلك الطائر الذى تحكى الأسطورة أنه حين يرى زاد صغيره قد انقطع يشق بمنقاره صدره ويكشف عن قلبه ويهبه طعاما له .

* * *

ولعل النوبة لم تستيقظ على دوى الدينا ميت فى السد العالى ، أو على دبيب تحول مركز الثقل فى الوادى نحو الجنوب . وبقيت قرى النوبة راقدة فى سباتها ، منطوية على نفسها . وجدت سعادتها فى عزلتها وفى هذا التلاؤم العجيب بين المعمار والبيئة والسكان . كل منزل قائم بذاته منفصل عن جيرانه . أهم شىء فيه هو البوابة ــ والبوابة والنوبى كالعاشق

والمشوق ـ تزينها زخرفة كالدنتلا ، ورسوم ساذجة ولكن تناسب ألوانها يدل على ذوق فطرى سليم .

وهذه الرسوم تكون فى أغلب الأحوال من عمل سكان المنزل ، حتى الصبية الصغيرة عندها ما تريد أن تعبر عنه . وكل صاحب منزل ألصق على واجهته بعض الأطباق ـ دلالة على أنه كريم يحسن لقاء الضيف . ولكن النوبة من طبعها دائما أن تحترس من الضيوف ـ أما الذى يأتى إليهم ليقيم بينهم فأهلا وسهلا به ، بشرط أن يعتنق كل عاداتها وتقاليدها . فيشارك فى أفراحها ، ويعرف كيف يؤدى واجب العزاء فى مآتمها .

النيل والشمس هما العنصران الثابتان فى حياة النوبة ، حتى الأطفال حين تلعب بالحجارة ترسم صورة قارب صغير . أما الشمس فإلى مشرقها تتجه أبواب جميع الحجرات فى كل المنازل ، ولا بأس أن تكون واجهة البيت ذاته إلى الشمال أو إلى الجنوب . ويقول أهل النوبة اليوم فى تعليل هذا التعلق بالشرق إنه أيضا اتجاه إلى الكعبة .

والقرية مبنية لسكان يتراوح عددهم بين ٣٠٠ أو ٤٠٠ ولكن عدد من يقطنها لا يزيد عن السبعين أو الثمانين ـ أغلبهم شيوخ وعجائز وصبيان . أما الشبان فقد هاجروا لطلب الرزق إلى الشمال . ولكن لابد لهم أن يعودوا إلى بيوتهم عند كبر السن ، ما أعجب هذا الشيخ الذى قابلته فى إحدى القرى ، رأيته يلبس البيريه لا العمامة الملفوفة ، وفوق صدره « سويتر » من الصوف . إنه عمل فى الاسكندرية سائقا للأوتوبيس مدى ٣٥ عاما . فلما تقاعد عاد بالبيريه والسويتر إلى النوبة ليعيش وراء البوابة المرقشة التى لم تفارقه ذكراها فى نهاره وليله .

واليوم الموعود هو يوم وصول سفينة البريد ، لا لأنها تحمل فحسب أنباء الغائبين ، بل لأنها تأتى بحوالات البريد التى تكفل للمتخلفين من نساء الأسرة وصبيانها رزقهم . رأيت المرأة وبنتها تعيشان على جنيهين ونصف كل شهر .

لا شك أن البريد يغيب أحيانا ، فهذه المرأة العجوز المبتسمة لم تنقطع عن قولها لى طول إقامتى بقريتها :

- ابنى عباس فى الزمالك ، هل تعرفه ؟ . . طبعا تعرفه . سلم لى عليه . . إنه ابنى . . ثم أبت إلا أن تجعلنى أزور داره . لها أيضا بوابة مزخرفة عليها أطباق كثيرة ، وحجرة نومه تتدلى من سقفها أسباط من الودع والصدف كأنها أفخر الثريات ، والجدران كلها مغطاة بصور ، من بينها صورة على ظهر علبة بسكويت ، وصورة لفريد الأطرش . هذا منزل مستعد لاستقبال صاحبه الغائب منذ زمن طويل حتى ولو طب فى أية لحظة .

وأهل النوبة ــ بسبب هجرة الرجال ــ أشد من بقية أهل الوادى قسوة على نسائهم ، فختان البنت عندهم «فرعونى» ، أى لا يبقى ولا يذر . . وقال لى محدثى :

- لنضمن للمرأة عفافها حتى ولو غاب زوجها أكثر من ٣٥ يوما .

وقد دُهشت لتحديد طاقة العفاف بخمسة وثلاثين يوما فسألت عن السبب ، فأجاب :

- لأن إجازة الجنود فى الجيش حق لهم لا مجال لرفضه إذا طلبوها كل ٣٥ يوما . فأنت ترى أن رقم ٣٥ هو درجة الحمى فى ترمومتر العفاف عند أهل النوبة .

وبقيت النوبة راقدة فى سباتها راضية بعيشتها التى هى عين الشظف والحرمان ، وإنما جاءت يقظتها عندما رأى العمدة ذات يوم سفينة تقف بالقرية وينزل منها جماعة من الأفندية فيحيطون به إحاطة السوار بالمعصم وينهالون عليه بالأسئلة :

- هل عندكم رقص وأغان ؟
- فى الأفراح . . عندنا واحد ينفخ فى مزمار وآخر ينشد .
- وفى أى سن تتزوج البنت عندكم ؟
- فى سن الثامنة عشرة . (فأنت ترى أن العمدة لا يجهل القانون) .
- وهل تأكلون البصل مثل الفلاحين ؟
- لو وجدناه لأكلناه . .
- وما هى هذه الأطباق على بوابات بيوتكم ؟
- هذه زينة .

وحار العمدة فى تفسير هذا الهجوم المفاجىء ، وفهم هدفه ، فسألهم :

- ومن يكون حضراتكم ؟

فأجابوه :

- نحن من مركز الفنون الشعبية .

ثم تفرق الأعضاء ليسألوا سكان القرية فردا فردا عين الأسئلة . . والله مع الصابرين .

ثم رحلوا ، وجاءت بعد قليل سفينة أخرى تحمل طاقما جديدا معه آلات غريبة لم تشهدها القرية من قبل . . فبادرهم العمدة بالسؤال هذه المرة :

- من يكون حضراتكم ؟
- نحن من مؤسسة دعم السينما . سنعمل فيلما ملونا عن قريتكم . . هل عندكم رقص وأغان . . . إلى آخر الموال .

ثم رجعوا ، وجاء فى أثرهم جماعة تمت إلى الحى اللاتينى بنسب وثيق . . وقالوا للعمدة :

- نحن أعضاء التفرغ . . وشيخ طريقتنا هو حامد سعيد . . هل عندكم رقص وأغان ؟ ثم انتشروا فى القرية كالجراد ، لا يرسمون المنازل فحسب بل كل من يلقاهم من الرجال والصبيان ، أما النساء فيجدون من العيب أن تؤخذ لهن صورة .

ثم رحلوا ، وجاء بعدهم وفد الأدباء ، وفى أثرهم طلبة كلية الفنون الجميلة ، ومن ورائهم وفد معهد المعلمات . . وكان آخر متمة الوفود من وزارة الداخلية لملء استمارات الهجرة وتحديد المنازل الجديدة فى كوم امبو .

ولا يزال المولد قائما . . ولا يزال السؤال الأول لأهل النوبة : هل عندكم رقص وأغان ؟ . . وكان بودى أن أسأل هذا السؤال أيضا ، ولكن

لأننى ذهبت إليها فى ركاب هذا المولد فقد خجلت أن أسأل العمدة أيضا :

- هل عندكم رقص وأغان ؟

سينزل أهل النوبة فى مساكن جديدة أقيمت لهم فى كوم امبو ، وستعطى لكل أسرة قطعة من الأرض لتزرعها . . ولكنى واثق أن عزلتهم ستنقضى ، لابد أنهم سيذوبون بين بقية سكان الصعيد . . فينبغى بعد أن يتم السد ويعم خيره الوادى ألا ننسى وجه هذه الأم الجميلة التى غرقت تحت الماء وقدمت لنا ـ كطائر الأساطير ـ قلبها طعاما لنا . .

(« المساء » ، ١٩٦٣/٢/٤ ، ص ٨)

تمثـــال

ى عيد الثورة سألت نفسى : ترى لو أردنا ــ أخيرا : ــ أن نقيم تمثالا يرمـز لها ، يقف شـاهدا عـلى الدوافـع والأهداف ، عـلى الجهد والتحديات ، يؤججها ويحث مسيرتهـا ، يكون مـألوفـا ومفاجـأة فى آن واحد ، يصطاد العيون فلا مهرب منه ، ثم لا تستطيع الوجوه أن تشيح عنه ، يقع معناه فى النفوس بقوة فيهزها يتغلغل فى الضمائر ، يقلقها ، يوقظ الساهى واللاهى ، والناسى والمتناسى ، يصطدم بالجاحد والكافر، يضعنا إزاء المسئولية وجها لوجه ، بأى تمثال يكون ياترى ؟

وجدته ، أحلم به الآن ، أتمنى أن أراه منصوبا على القاعدة الخالية فى ميدان التحرير ، لا لأنه قلب العـاصمة فحسب ، ولا للدلالـة على أن القاعدة التى كانت قد أعدت للغاصب الظالم قد أطيـح به فـأورثها الله لصاحبها الشرعى سبحان المعز المذل بـل للارتبـاط بين التمثـال ومعنى التحرير ، التحرير من القهر ، واسترداد الكرامة .

أريده تمثالا كبيرا ، ولكن بغير غلو ، كفى أن يظل عاشقان يتواعدان تحت جناحيه وأن تكمن كل براعة الفنان الذى يصنعه فى صدق تعبيره . إننى أتململ للبراعة ، وأحيانا أمجها إذا كانت على حساب البساطة والعرق .

حينئذ تكون البراعة هى عين الخيابة والغشومية،لا لأنه سيكون لرجل بسيط ، ولكن لأن التماثيل لاتقام إلا للأبطال فهو بطل أيضا ، بل لا مراء فى بطولته ، بسيط إلى حد أنه أصبح غفلا مقصيا على حافة المجتمع . هو الذى وقع حقا من قعر القفة ، التدافع به إلى حافة المجتمع مزق جلبابه الوحيد فهو هلاهيل ، جرده من سترته ، من إنسانيته ، هو الحلقة المفقودة بين الحيوان والإنسان مثلت أمامنا مهينة . لا يصيب من الطعام إلا خسيسه ، لابد أن يحمل مع وزره زاده وزواده ، زكيبة متربة بها بتاو ، لا ينكسر إلا على الركبة ، لا بأس فالأسنان أقوى من حجر الطاحون ، وكيس متهرىء مغبر به فحول بصل يخشخش قشرها ، تفشش ــ على الأرض بضربة من كلوة يد كأنها يد الهون ، تغلى فى المعدة وتليس الفم ويبقى فحيحها لا ينطفىء ويشتد ويبقى مع الجوع ، التنفس صهد فرن موقد بروث الجاموسة . السعيد من حمل معه ــ شركة ــ بلاصى عسل أسود ، له ريم حامض مقاسه شبر يغلى هو أيضا . ينام على الأرض ، ملتحفا بالسماء ، دعك أن أحدا لا يسأله كيف يعيش ، فلا أحد يسأله من أنت ، ماذا تأكل ، أين تنام ، ما مرضك . الدودة تقاسمه منذ مولده أمعاءه ودماءه وبرازه ، إنه مجرد رقم فى كشف حساب ، مزور أيضا ، يبصم عليه فلا تكون بصمته إلا غفلا هى الأخرى ، بين بصمات غفل ،

لا فرق بينها ، رغم الزعم أنها تختلف فتدل على أصحابها هي كحياته بقعة سودة مشلفطة بلا تحديد يفرز له كيانه . هو مجرد كوم لحم مكدس بين أكوام من اللحم ثم تدلق الكتلة على الأرض ، فى القرية ، ساعة القيظ أو أن الليل ينتصف .

قياده ليس بيده ، ومع ذلك فهو البطل ، عطاؤه لا يعوقه عطاء فى صمت ، بلا حسرة بلا تشك ، بلا من ، المن يتطلب الاستعلاء ، أما هو ففى القعر ، فى الحضيض ، يكفيه أن له الجنة ، إن كان إيمان قد بقى له فهو إيمانه بأن الله سينظر إليه يوم القيامة ويشمله برحمته ، تستطيع أن تكيل عرقه ، يقول ماء النيل لعرقه يا أخى ، فهو يروى الأرض مثله ، منه الخصب والثمار ، هو الذى ينثر العمار ، الأرض البور والجدباء يفلحها ، الجسر يقيمه ، الغور يردمه ، البئر يفحته، الترعة يشقها ، المصرف ينحته . الفأس التى فى يده جرباء مقشفة كجلده ، ولكنه حين يهوى بها إلى الأرض بحزقة تتجسس فى حلقه ، تحس أن اليد جبارة ، من أى معين تنبع قوتها ، من جدود الجدود بناة الأهرام ولا شىء يبرق فى حياته إلا حد هذه الفأس .

أريد أن يقام فى قلب ميدان التحرير تمثال لعامل التراحيل كما كان قبل الثورة ، هو أصدق رمز لها هو الشاهد على الدوافع والأهداف ، على الجهد والتحديات .

بل أزعم أنه لولا عامل التراحيل لما فهمنا التركيب النفسى للرئيس جمال عبد الناصر ، هذا الفتى الناشىء فى بنى مر ، لاشك أن بذرة الثورة غرزت فى ضميره حين شاهد لأول مرة مظالم الإقطاع وانتبه لها ، حين رأى

الفلاح الأجير عبدا مستذلا لأنه لأجل أن يعيش ينبغى أن يزرع ، ولكى يزرع ينبغى أن يجد الأرض ، إنه جائع للأرض ، ولكى يجد الأرض ينبغى أن يتنازل قهرا عن كل حرية وكل ضمان ، مورد الرزق عنده غل وذل ، وذل لمن ، لا لخالقه بل لمخلوق مثله ، إنما ولد وفى فمه ملعقة من ذهب وفى صدره قلب من حجر .

أتخيله شابا قد طر شاربه منذ يومين ، منفلتا عن قريته يجوب الغيطان استئناسا بالطبيعة فهى التى ترطب قلبه الذى بدأت دقاته تصبح دقات جرس منبه ، وطلبا للخلوة شأن كل الرعاة ، فإذا بكميون يقبل وهو يترنح ، ينبعث من داخله ضجيج كأنه لمساجين وإن بقيت معاصمهم بلا كلبشات ، وإذا بالكميون يقف ويدلق على الجسر أمامه كوم اللحم ، هاله هذا الامتهان لكرامة الإنسان ولكن هاله أكثر أنه رأى الوجوه تبتسم . لأصحابها زئيط كالعيال يوم الفرح . هاله وشاقه معا هذا التدافع الصبيانى لإعداد إبريق الشاى ، وهذا الموال الذى انطلق من فم المنشد بينهم ، موال فيه غرام وحرقة وشكوى من الغربة ولهفة على العودة للأهل والبلدة ، فيه رضى وعجب للقدر ، امتلأ قلبه بالتصميم على الثورة ، على أنها ستكون شغله الشاغل ، ستؤرقه ليلا وتلجم لسانه نهارا ، يصرف كل دقيقة فى حياته يفكر كيف يعد لها ويفجرها ، علم عنها إن لم يحقق عزمه فلن يهنأ له نوم ولن يطيب طعام ، ولن يأنس لأهل ، بل أزعم أنه حين رأى هذا الفرق الهائل والتضاد المذهل بين البطولة والبساطة ، بين القهر والرضى أحس أيضا بمعنى الفن ، وليد الكشف والرغبة الملحة فى التعبير .

وكما أتطلع إلى اليوم الذى نقيم فيه هذا التمثال أتطلع بوثوق إلى اليوم

الذى سنهدمه فيه ، حين يكون الرمز قد فقد جدوا، وحين يصبح عامل الترا‌حيل فى ذمة الماضى أثرا لاتعيه ذاكرتنا ، ولو قال لنا قائل إنه كان موجودا لما صدقناه

(« المساء » ، ١٩٧٠/٧/٢٧ ، ص ٦)

حمارة زرقاء

قرأت وصفها مرارا قبل أن أتشرف بمعرفتها وألقاها وجها لوجه : ولو أن وجهها هو مقاس وجهى مضروبا ـ المقاس لا وجهى ـ من حيث العرض فى اثنين ، ومن حيث الطول فى أربعة . إنه وصف موجز من خمس كلمات « حمارة زرقاء سن عشر سنوات » وأحيانا كثيرة يكون من ست كلمات فيصبح : « حمارة زرقاء عرجاء سن عشر سنوات » . أنت ترى أنها من المخاليق التى لا يمكن التزود فى وصفها إلا بالسب ، يرد هذا الوصف فى إعلان فى الصحف وفى الوقائع الرسمية ونصه كالآتى :

« إنه بناء على طلب دايرة فلان باشا الفلانى وفى سوق بلدة . . . مركز . . . الساعة التاسعة صباحا من يوم كذا كذا كذا ، سيباع بالمزاد العلنى حمارة زرقاء عرجاء سن عشر سنوات ، وثلاث كيلات ذرة ، وطشت صفيح ملك محمد عبد الله عبد الله محمد وذلك سدادا لمبلغ ٢٥ . مليما و١٢ جنيها « خذ بالك من رقم الملاليم ! » فعلى راغب الشراء إلخ إلخ . »

وأقسم لك أن هذا النص كان يبدأ أحيانا هكذا :

« إنه بناء على طلب الخاصة الخديوية ، أو الخاصة السلطانية . . »
وقد تسامعنا فى عهد السلطان حسين الذى كان يسمى نفسه أبا الفلاحين أن رئيس وزرائه حسين رشدى باشا الذى كان قائما على العرش بعد سفر عباس الثانى إلى تركيا قبل الحرب العالمية الأولى ثم مد يده ليعين العم على الجلوس مكان ابن الأخ ، فكان بين الرجلين ـ وبين قرينتيهما أيضا ـ صداقة ومودة ، تسامعنا أنه دخل على السلطان وهو غاضب أشد الغضب وفرد له صحيفة فيها إعلان ورد به اسم الخاصة السلطانية وضربه مرارا بسبابته وهو يقول بشارب مرتعش : ـ عيب يا مولانا !

ما هو العيب ؟ الحجز والبيع بالمزاد العلنى ؟ لا . العيب هو النشر . . أن يقرأ الناس جميعا أن الخاصة السلطانية ـ من أجل مبلغ زهيد ـ تجرد فلاحا مسكينا من كل ما يملك من متاع ومؤونة ، تلاحقه ملاحقة الكلاب السلوقية حتى تصرعه فى سوق بلدة . مركز . . لا لزوم للنشر . . فنترك للإدارة أن تبذل فى السر كل ما لديها من وسائل الضبط والإكراه لتحصيل مبلغ ١٢ جنيها وفوقه خمسة وعشرون مليما . . وقد بلغ نشاط الإدارة فى خدمة أرض الجالس على العرش ذروته فى عهد فؤاد وفاروق . وسألت مرة فلاحا عن أعز أمنية له ، فقال لشدة دهشتى : أن لا تشترى الخاصة الملكية أرضا فى بلدنا .

وحين عملت معاونا للإدارة وقابلت وجها لوجه هذه الحمارة الزرقاء العرجاء أيام المزاد فى السوق عتبت فى قلبى على المحضرين . كنت أريد منهم أن يفوا بحقها فيكون وصفهم : حمارة واطئة ، مطأطئة الرأس ،

مدلدلة الاذنين ، على مصب قناة الـدموع فى العينـين عناقيـد من ذباب لايرتوى ، الركب مخلخلة ، العمود الفقرى فيه مطبات ، الجلد مسلخ ومجروح والجروح مكتومة بالرماد وبالحناء .

بقى سؤال : هل الـ ١٢ جنيها و٢٥ مليما هى دين تخلف عن السنة الزراعية المنتهية ؟ الله أعلم . من الجائز جدا أن يكون عمر هذا الدين خمس سنوات أو ست سنوات أو أكثر ، فالديون مقيدة فى دفاتر حسابات الدواير ، يحتفظ بها حضرة الناظر ليستبقى سيطرته على الفلاح ، يشهرها فى وجهه وقتما يريد ، إذا لعب بذيله ــ كما يقول . فإذا انكسر فلاح فى دين علم من يومه أن يده على كل ما يملك فى الحاضر والمستقبل مهددة بالقطع ، فى أى وقت . كانت نظرة هؤلاء الفلاحين تقول لى حين عاشرتهم : يا أخى ! إننا لا نملك شيئاً ، والأدهى أننا لن نستطيع أيضا مهما فعلنا أن نملك شيئا .

وأنت تعلم أن سعر قنطار القطن هبط فى سنة من ٢٠٠ ريال الى أقل من ٥٠ ، وبعد هذه المصيبة بعشر سنوات رأيت بعينى أوامر حجز وبيع تنفذ على المدينين . . وقل هذا عن السنوات التى تهجم فيها الدودة .

طبعا كان هناك كثير من الفلاحين يضرب المثل الأعلى فى البلطجة ، منطقه : يا ليتنى كنت على بلاطة فحسب ، بل أنا البلاطة ذاتها . فماذا تأخذ منى الريح ، كان همه الأوحد أن يضع يـده على قـطعة أرض وأن يخطف منها كل ما يستطيعه ، بحركة اللص أو المختلس،ويوم الحساب . . ابقى حاسبنى . ماذا ستأخذ منى ؟ فقدان الثقة بين مالك الأرض والفلاح

حلقة مفرغة لعينة ، هى التى عرقلت وقضت على نمو نظام أصيل فى بلدنا . . تعرفه الشريعة الإسلامية وتحبذه بسبب كراهيتها لكل أنواع المضاربة وأعنى به نظام المزارعة الذى يقتسم فيه المالك والفلاح محصول الأرض بعد خصم المصاريف . . نظام عادل لا يهدد الفلاح بديون هو غير مسئول عنها . . .

وفيما عدا الفدادين التى كان يزرعها بأنفسهم هواة الفلاحة من كبار الإقطاعيين كانت بقية الأرض فقيرة مريضة ، مهملة ، تزرع بطرق بدائية كأنها لا تزال فى العصر الحجرى ، لا يفترق حالها عن جاموسة الفلاح العجفاء ، ولا عن هذه الحمارة الزرقاء العرجاء .

(« التعاون » ، العدد ١٧٩ ، ١٩٦٦/٧/٢٤ ، ص٨)

تراب السفر

بعض الألفاظ وطرق التعبير فى لغتنا الفصحى الموروثة قتلها بلا رحمة تقدم العلم ، قتله لكثير من الخرافات . مثالها عبارة عزيزة عندى ، تربى عليها لحم أكتافى ، رثيت أخيرا لمصرعها ، تلك هى قولهم فى وصف الراجع من رحلة إلى بيته : « نفض عنه تراب السفر » .

فبفضل تقدم العلم وإكرام المولى ـ سبحانه وتعالى ـ لعبده فى أواخر أيامه ، أتيح لى أن أعود من أسوان فى عربة سكة حديد مكيفة الهواء لا يتسلل إليها التراب ، تجرها قاطرة ديزل لا تنفث الدخان عمودا إثر عمود وسحابة وراء سحابة .

ولكن تقدم العلم بحرمانه لى من نفض تراب السفر عن ثيابى أضاع علىَّ قدرا من لذة الرحلة ، فقد كنت أتمنى أن أدخل دارى وأنا معفر من ساسى لراسى ، ولا بأس أن أكونَ مكحل العينين ، أجش الصوت ، وفى أذنى طنين لأنها مسدودة .

نقص طعم الرحلة قليل من الملح ، حين دخلت دارى فلم أجد ترابا عالقا بثيابى ، هو وحده الذى كان يجعلنى أشم رائحة الطريق الذى قطعته ، وأسترجع صدى كل صوت طرق سمعى ، وأحسُّ بهذا الخدر اللذيذ من أثر التعب الذى لولاه لكانت الرحلة فى عز الراحة ، ماسخة المذاق . وقديما قالوا بقدر المشقة يكون الثواب. ماذا سيحدث للإنسان حين تقوم الآلة بدلا عنه بكل عمل يستلزم منه بذل شىء من الجهد وتحمل قليل من التعب الجسمانى .

كنت أحب أن يظل عالقا بثيابى ولو أثر ضئيل من تراب قرية القرنة الجديدة التى بناها بجوار الأقصر المهندس النابغة الشاعر الحالم حسن فتحى ، فطار صيتها فى الأرض ، ورسمتها أشهر مجلات العمارة ، وتحدثت عن هذا المثل الرائع لمطابقة فن العمارة للبيئة ، فلا تناقض أو فروق شاسعة بين المسكن وساكنه . إنها تجمع بين الصدق والنفع والجمال ، لا تهدد كرامة الإنسان ، لا بتقديمها منزلا حقيرا ، بل ببنائها له مسكنا زائفا ــ ولو كان فخما ــ هيهات له أن يألفه ولو طال مكثه فيه ، لأنه غريب عنه ، لا يعبر عن شخصيته ، ولا يعكس شيئا من مزاجه . سيجد فيه التعب بدل الراحة ، والقلق بدل الاطمئنان .

وتجست خلال القرية بقلب حزين . إنها قرية كاملة مهجورة ، يكاد يصفر فيها الريح . جدران بعض المنازل قد تشققت ، وما أظن من العسير إصلاحها ، ووقفت ذاهلا أمام مسجدها الجميل أمتع عينى وروحى برشاقته وابتسامته الرقيقة . إنه يكاد يكون نغما مشكلا من حجارة وطوب . وفتحت الباب فإذا بى أدخل على حديقة صغيرة . هكذا ينبغى

أن تكون المساجد ، ثم وصلت إلى الساحة فوجدتنى فى مسجد السلطان حسن وقد لبس ثياب القروى ، وغمرتنى أضواء لا أدرى من أين تنبعث ، لا تبهظ العين من فرط رقتها . إنها لا تكتفى بأن تغمرك بل تنفذ إلى قلبك . ولم أر شيئا يماثل فى الرشاقة هذا السلم الخارجى ، السور الصاعد إلى المئذنة ، ولا شيئا يماثل فى الصدق هذه المئذنة ذاتها فى محيطها .

وجست خلال السوق ، ومررت تحت البواكى ، ودخلت المنازل ، فكأننى أمر فى طرقات متحف اللوفر ، ولولا الحياء للثمت الجدران والأرض من فرط إعزازى لها .

فقد أبى سكان القرنة القديمة الانتقال إليها ، ولست أريد أن أدخل فى هذا الجدل القائم بينهم وبين السلطات الرسمية ، ولا أن أبحث عن مبلغ الصدق فى قولهم إن المنازل فى القرية الجديدة معرضة للسقوط على رؤوسهم إذا سكنوها ، ولا فى قول من يرد عليهم بأنهم لا يريدون ترك قريتهم القديمة لأنهم ينبشون أرضها بحثا عن الآثار الفرعونية . كل الذى يهمنى أن أسأل عن مصير هذا العمل الفنى الفذ ، هل نتركه يتهدم ، نقبل أن ينمحى بعد أن أنفقت فيه الأموال الطائلة ، وبعد أن نطق بكل ما يقدر عليه بناء من جمال ؟

إننى ألح على وزارة البلديات أو إدارات الإسكان ــ فلست أدرى أيهما صاحبة الاختصاص ــ أن تحرص على سلامة هذه القرية النموذجية من التهدم والتلف ، فتسارع بترميم الجدران . وينبغى أن لا تبتئس إذا لم تف القرية بالغرض الذى أنشئت من أجله ، وأنها باقية إلى اليوم مهجورة .

فلتنظر إليها نظرتها إلى متحف لفن العمارة القروية فى مصر ، يشاد بذكره ويحث السياح على زيارته ، وتوفد إليه طلبة المدارس للتملى برؤيته ، والاستماع إلى شرح لأسراره ودوافعه. وإذا سألنا غريب لماذا بقيت القرية مهجورة فلا نخجل ونجيب :

ــ لأنها سبقت الزمن . . وأننا سندركها عن قريب .

لم يكن الذى شد أعصابى أثناء الرحلة معبدا أو قبرا فرعونيا ، بل منظر الوادى وأنا أشقه من الجنوب إلى الشمال ، فقد رأيت رأى العين جميع المشاكل التى نواجهها ، وأحسست بالجهد الجبار المبذول للتغلب عليها . .

هذا الوادى الضيق المحصور بين جبلين والذى يمثل حين يتسع هذا الصراع المخيف بين طمى النيل ورمال الصحراء ، يكاد الحد الفاصل يكون مرسوما بالقلم . أناس كثيرون وحيوان قليل، منظر الحقول والمحاصيل لم يتغير كثيرا منذ طفولتى . الآلات الحديثة للزراعة تكاد تكون معدمة . وينبغى ونحن نتحدث عن الصناعة أن لا ننسى الزراعة ، وستظل المشكلة التى تواجهنا هى كيف نوفق بين إدخال الآلات الحديثة وبين قيام الأرض بتوفير الرزق لأكبر عدد من السكان يعيشون عليها ، فلن يتأتى إدخال الآلات الحديثة إلا إذا فتحت مجالات للرزق تمتص أفواج الفلاحين المتعطلين بسبب هذه الآلات .

ينبغى من اليوم أن نقوم بدراسة النسبة المثلى بين رقعة الأرض وعدد فالحيها وحساب مقدار الفائض سواء فى الإنتاج الزراعى أو الأيدى العاملة :

ومنازل أغلب القرى تكاد هى الأخرى لم تتغير كثيرا منذ طفولتى ، ثم تتوالى علىَّ والقطار يمرق بى أبنية عالية حديثة ضخمة ، مدارس ومستشفيات ومجمعات . . هذه هى بشائر المستقبل ونماذج من دعائمه ، ولكنى أعترف أن التناقض بينها وبين منازل القرى المجاورة كان يذهلنى عن أن أحكم من فورى أى الشعورين يغلب علىَّ ، الشعور بالضيق من تخلف المنازل أم الشعور بالأمل المرتقب من هذه الأبنية الحديثة . ولم يوقظنى من الذهول إلا إحساسى بجسامة الجهد الواجب علينا بذله لبناء أمتنا بناء جديدا جديرا بها .

نعم ، سنبنى منازل القرية ، وسيأتى عن قريب ذلك اليوم الذى إن لم تنعدم فستقل فيه الفروق بين هذه المنازل وأبنية المستشفيات والمدارس والمجمعات . فإن لم ير جيلنا هذا اليوم فإن جيل أبنائنا سيرونه ولا ريب .

وكان واضحا أيضا كل الوضوح أن مركز الثقل فى الوادى لم يعد فى العاصمة وحدها ، فمنطقة أسوان تنمو بسرعة ملحوظة لتكون عاصمتنا الصناعية ، ولكن التدفق على الصعيد لا يزال يأتى إليه من الشمال لا من الجنوب . هذا ما أحسست به أيضا والقطار يمرق بى خلال الوادى . ولا تسل عن فرحتى حين رأيت فى أقصى الجنوب فى الصعيد حشودا ضخمة من العمال منتشرة كالنمل على مسافة طويلة تعمل فى تمهيد الأرض لبناء طريق يحاذى شريط السكة الحديدية .

لقد بدأ جنوب الصعيد يستيقظ بدفع من الشمال . شتان بينه اليوم وبينه فى الماضى أيام صباى وشبابى حين كان فى نظر الحكومة والموظفين

منفى كريها محروماً من العمران ، متروكا لسباته العميق . وسيتغير جنوب الصعيد من حال إلى حال حين يتم بناء السد العالى ، إذ ستتدفق عليه الخيرات من الشمال ومن الجنوب . . وسيكون أول أرض فى مصر تضاء بكهرباء السد .

وكل أحاديث جلسائى فى القطار توحى بالأمل الكبير فى المستقبل . إنهم جميعا مؤمنون بأن نظام الحكم المحلى قد نجح وبدأ يؤتى ثماره . فهذا مدير المستشفيات فى أسيوط يحدثنى عن الاجتماعات التى تعقدها الهيئة الصحية بكامل فروعها مع مجالس المدن والقرى لمناقشة الاحتياجات ووسائل تنفيذها ويبشرنا بقرب بناء مستشفى جامعة أسيوط (لا أدرى كم مليونا من الجنيهات) ، وأن العمل جار لتوسيع أحد المستشفيات لتنتفع به الجامعة انتظارا لبناء مستشفاها . سألته عن مدى انتشار مرض القراع بين أولاد الفلاحين ، لأن هذا المرض هو مقياس التأخر ، فاعترف بأنه لا يزال يتفشى أحيانا فى بعض المدارس القروية ، ولكنهم يعالجونه بدواء حديث لم أكن قد سمعت به ، أقراص عن طريق الفم يقاس مقدارها بوزن المريض .

وجارى الآخر الأستاذ بإحدى مدارس الصعيد يحدثنى عن السرعة التى تتم بها موافاة مدرسته بالآلات التى تطلبها لتعليم التلاميذ فن الخزف وعن إقبال هؤلاء التلاميذ على تعلم هذا الفن وبراعتهم فيه . أستمع لحديثه فأذكر مدرستى الابتدائية (والدة عباس باشا الأول بالصليبة) — إنها لم تكن تعرف الخزف والرسم والأشغال اليدوية — حتى سماعا .

الحديث كله يوحى بأننا أصبحنا لا نرهب الآمال الكبار، بل نحس أننا أكبر منها . حتى شعرت أن الحاجة لم تعد الكفكفة من اليأس وقيام الوثوق بالنفس ، بل أن نقول للشعب : حيلك ، حيلك ، اللى جاى أكثر من الرايح . .

(« المساء » ، ١١/٢/١٩٦٣ ، ص ٨)

لئلا . . ننسى

من حسن الحظ أن نوبتى فى يوميات «مع الناس» تصادف هذه المرة أعياد الثورة ، فالكلام الكثير المنحبس فى قلبى يحتاج إلى هزة عاطفية من أجل أن ينطلق ، لا تلحقنى هذه الهزة من رأى مهما كان جميلا أقرأه أو أسمعه ولا من حدث مهما كان جليلا أشهده ، بل لابدلها أن تكون من وحى إنسان حىّ ، له جذب المغناطيس ، وإشعاع الجوهر ، أستطيع أن أتطلع إلى عينيه فأحس وأحب ، وأن أتأمل جبهته فأفهم وأطمئن ، وأن أرقب انطباق شفتيه فأحدس وأشفق ، وأن أستمع إلى نبرة صوته فأسلم لها مع هواى قيادى ، واليوم تتقد فى قلبى صورة بطل عاشرتها عن قرب ــ رغم البعد ــ تسع سنوات يوما بيوم ، كانت عندى أول الأمر غامضة ، ثم لم تلبث أن استبانت ، ثم تألقت حتى حسبنا من فرط لمعانها أنها بلغت حدودها فإذا بها لا تكف عن الاتساع والانطلاق والتجدد . العزم واحد والخطى نحو الهدف متتابعة ، منطقية متوقعة ، مذهلة مفاجئة معا ، قفل على نفسه بابه ، تكفيه راحة القرب إلى أهله وعياله يصد عنه مناهج الدنيا

ما أقوى سحرها ولكن ما أرخص عطرها فى نظره ليفرغ إلى حمل عبء يصرع العمالقة فتنهض به كتفاه العريضان ، غير معتمد إلا على إيمانه بربه وقومه ، أودع آماله مغاليق قلبه . لا يستأمن عليها أحدا ، وهو يرى رأى العين كمن كشف عنه الغطاء يوما آتيا عن قريب ، هو من صنع حبه ينزاح فيه عن قومه بلاء الإنقسام ووصمة الجوع والفقر والمرض والجهل ؛ ويتحقق فيه ــ من صنع انتقامه ــ انتصارنا على أخبث عدو ، نكبنا به وحدنا ظلما ، كأنما لنكفر عن خطايا بقية الشعوب التى حاقها سرطانه من قديم فغفلت أو تغافلت عن تغلغله وسريانه.أما الحب فمن طبع هذا البطل ، وأما الانتقام فمفروض عليه قسرا يتحمله كرها ، لا حيلة له فيه ، لأنه رد عدوان مجرم لئيم من شيمته الغدر ، والسلب والنهب وذبح الشيوخ والأطفال ، ولا أعرف مأساة إنسانية تهز النفس مثل اجتماع حلاوة الحب ومرارة الانتقام فى قلب رجل حر شريف يريد أن تسود أخوة الشرفاء الأحرار لا بين الأفراد وحدهم بل بين الأمم أيضا .

فى هذا العيد تعود لذاكرتى أصداء سنى عملى بالسلك الدبلوماسى من ١٩٢٩ إلى ١٩٥٤ وأستطيع أن أشهدلك أننى عاصرت فيها ارتفاع سياستنا الخارجية من سخرية الحضيض إلى كرامة القمة التى بلغناها بفضل جمال عبد الناصر . أنت تعلم ــ ومؤتمر بلغراد على الأبواب ــ مكانتنا اليوم فى الميدان الدولى فدعنى أصف لك ــ لكى تقارن ولئلا تنسى ــ نتفا من العمل داخل سفارة مصرية قبل الثورة فهى تدلك على نوع سياستنا الخارجية حينئذ .

كان موظفو السلك الدبلوماسى من أول السفير ونازل ــ لا يسمعون من الوزير أو وكيل الوزارة عند استئذان فى السفر للخارج إلا قوله للواحد منهم : « ابق سلم لى على زملائك » وإذا زاد شيئا قال له « كل الذى نرجوه منكم أن تتجنبوا الفضائح » هذه هى كل توصياته وتعليماته ، وقد بلغ حسن الظن ببعض الوزراء المفوضين أن يسألوا الوزير أو الوكيل : «ما هى سياستنا نحو البلد الذى سأعمل فيه ؟»فكانت الإجابة دائما « هذا متروك لحسن تصرفك » هل هو ضارب رمل .. أم يدير عزبته الخاصة ؟وكنت أخرج من عند الوزير أو الوكيل وأنا فخور كل الفخر بأننى مختار لحمل تحياته إلى زملائى وإن كنت طبعا لا أبلغهم إياها عند وصولى لأنها تكون من سخافتها قد ذابت فى السكة . . . وحينما أصل أجد قوما ليس فى عملهم شىء ينطبق على وصفه بأنه عمل دبلوماسى،وكم ضحكنا ملء أشداقنا حين وصلنا زميل جديد قادم رأسا من إحدى جامعات أوربا فما كاد يجلس على مكتبه حتى سألنا«ما هى المعاهدة التى تريدون منى أن أدخل فى مفاوضتها مع وزراة الخارجية هنا ؟»قلنا له « حيلك حيلك ! أول ما تشطح تنطح ».كانت أيامنا تتوالى متشابهة فارغة ، أستغفر الله ، أستثنى يومين عظيمين ، نستعد لهما قبل حلولهما بزمن طويل استعدادا مضنيا للنفس قبل البدن : عيد الجلوس الملكى السعيد ، وعيد الميلاد الملكى السعيد ، لابد من إقامة حفلة تسير بذكرها الركبان تطبع لها البطاقات وتوزع ويتنابنا القلق فى تخمين عدد القادمين ، فى ذلك اليوم ، نجتمع كلنا لنتعاون أول شىء فى الصباح فى عمل عظيم جدا ، هو تحرير برقية نحفظ نصها عن ظهر قلب ومع ذلك نعرق كل مرة ونحن نكتبها ، هى موجهة

إلى كبير الأمناء نصها كالآتى : « بمناسبة العيد السعيد ألتمس أن ترفعوا إلى عتبات العرش المفدى باسمى واسم زملائى والجالية المصرية . . إلخ إلخ » وأحيانا لا يكون فى البلد جنس مصرى واحد ، ومع ذلك يبقى النص على حاله ، فهذه هى الأصول . . أهم شخص نهتم به يومئذ هو مراسل « الأهرام » فى بلدنا ، نتملقه ونمسح له الجوخ وقد ندفع له أيضا حلوانا من المصاريف السرية . . كل هذا ليتفضل ويرسل إلى جريدته برقية تصف فخامة الحفلة ونجاحها وعدد حاضريها ، البرقية كذب فى كذب لأنه يرسلها دائما قبل الحفلة . . عدد الحاضرين لا يزيد عن مائة ، أما قراء « الأهرام » فيعلمون أنهم جاوزوا الألف . . بعض الوزراء المفوضين يرسلون إلى القصر الملكى من وراء ظهر وزارة الخارجية صورا فوتوغرافية عديدة للحفلة العتيدة وبعضهم يرسل أيضا بيانا بأصناف المأكولات التى قدمها لضيوفه . وبعد إرسال البرقية نجلس فى قلق ننتظر الرد،ومع أننا نعلم أن هذا الرد محفوظ أيضا عن ظهر قلب يحرره سكرتير صغير فى الديوان الملكى فإننا نفرح به أشد الفرح ونقرأه مثنى وثلاث ، ونقتنع بأننا نتمتع بالرضا السامى بعض الوزراء المفوضين لا ينامون الليل إذا تأخر الرد يوما . . يضربون أخماسا فى أسداس ، حذر أن يكون التأخير علامة على الغضب السامى .

ولكن ما الذى حدث فى الحفلة ؟ سفراء أمريكا وإنجلترا وفرنسا انتهزوها فرصة لتبادل الآراء والمعلومات ، فانتحوا فى ركن يؤلفون حلقة مهابة ، سفير روسيا يقتحمها أحيانا وينضم إليها بلا دعوة ، وسفير تركيا يتلصص ويتشقلب ويفعل المستحيل ويريق ماء وجهه لأجل أن يقف

ولو على هامشهم ، أما جميع سفراء الدول العربيـة ففى ركن آخر ، إذا كلمهم إنسان فليسألهم عن الصحة والحال والجو . . لماذا وجع الدمـاغ معهم ؟ ليس عندهم أنباء أو معلومات تصلح للتبادل .

كان أصغر سكرتير فى سفارة أجنبية فى بلدنا يعتبرها إهانة كبيرة ، إذا كان له عمل فى وزارة الخارجية المصرية فلم يستقبله وكيل الـوزارة على الأقل أما فى الخارج فكان سفيرنا أو وزيرنا يعتبر أنه نال نصرا كبيرا إذا قابله وكيل الوزارة ، لذلك فإنه يتهرب من المقابلة ويوفد مستشاره أو سكرتيره ، فلا يقابله فى وزارة الخارجية إلا موظف صغير يرأس الفرع الصغير الذى يدخل فى اختصاصه علاقات بلدنا ببلده .

كنا لا نعلم شيئا عما يجرى فى مصر ، ونعتمد على الجرائد ، وكنت أجد أحيانا من أكلمه فى وزارة الخارجية فى البلد الذى أقيم فيه أكثر اطلاعا منى على موقف وفدنا فى الأمم المتحدة من المسألة التى نتحدث عنها معا .

وقد انتهى هذا الفراغ المخيف ببعض رجال السلك الدبلوماسى أن تحول هواه عن بلده إلى البلد الذى يقيم فيه ، يعطفون على وجهة نظره ويصفونها بالاعتدال والحكمة .

وقد بلغنا الحضيض قبل الثورة حين اختار الملك فاروق مقره المختار فى كازينوهات القمار وسط حاشية من الساقطات نستقيظ فى الصباح على صحف يجرب فيها كل مصور كاريكاتورى مبتدىء مدى نبوغه فى رسم كرش ملك مصر ، وكل كاتب هزلى ناشىء مدى خفة دمـه فى التنكيت

عليه .. أصبح اسم مصر مسبة ومدعاة للضحك والسخرية ، والمصيبة أنه كان مطلوبا منا أن نذهب ونسعى لوقف هذه المقالات أو الاحتجاج عليها ، فكان موقفنا عند هذا السعى أشد مرارة على النفس من رؤ ية المقالات ذاتها ... هبطت سمعتنا إلى الأرض ونزل رجال سلكنا الدبلوماسى فى نظر الناس من مقام تنابلة السلطان إلى مقام أغوات السلطان ، يسدلون الستر على باب حريم يرتع من ورائه سيدهم مع مائة جارية .

أقول لك هذا وعندى كثير غيره يضيق عنه المقام ، أقوله لالشىء إلا لكى تقارن .. ولئلا تنسى .

(« المساء » ، ١٩٦١/٧/٢٤ ، ص٨)

سباق مع الزمن

سباق واحد ينفرد دون كل سباق بأن لا غش فيه ولا تحايل ، لا رحمة فيه ولا شفاعة ، التخلف فيه لا يعتبر وصمة فحسب ، يمكن بلعها ولو على مضض ، قد يزول خزيها بالانتصار فى تجربة قادمة ، بل حكما قاطعا بعجز لا علاج له ، ينحى فيه صاحبه بدون أن تتاح له فرصة أخرى،يعزل كالمصاب بمرض خبيث ، كل ما بقى له من حيلة أن يختار إما أن يستسلم فيتعفن سريعاً وإما أن يجاهد فيتخبط ويتعفن على مهل ، وسيرى بعين مندهشة لو وعت كيف تزداد رذائله بشاعة مع غروب حياته ، بل كيف — وهذا هو الأعجب — تفقد جميع فضائله كل معناها وتصبح أضاحيك يتلهى بها صبيان الركب المبتعد إلى الأمام،هو على الحالين هالك لا محالة ..

— هذا هو السباق مع الزمن .

حقيقة معنى التشريعات الاشتراكية الأخيرة عندنا هى أننا لا نريد أن

نتخلف فى هذا السباق مع الزمن وإلا حقت علينا النتائج التى رأيت .

أصبحنا بفضل العلم الحديث نرى بالعين دون أن ننتقل من مكاننا ودون حاجة إلى شهادة شاهد كيف تتقدمنا بمراحل شاسعة شعوب أخرى كثيرة فى هذا السباق مع الزمن ، انعقد إجماعها على أن عهد نفض الفرد ليديه من مسئولية تضامنه مع البشر جميعا لا مع أفراد قومه فحسب قد ولّى وانتهى إلى غير رجعة ـ هذا هو سير الزمن ، والويل للمتخلف . .

أصبح همجية لا تعقل اليوم بل تروى كعجائب قبائل أوغلت فى الهلاك أن يجلس فى بيته إنسان عاطل لا عمل له أمام مائدة دسمة تمنحه المرض قبل الصحة ليرمى من النافذة الفتات والعظام العارية فيتلقفها رهط جياع . . أتعرف من هم ؟ هم ـ يا للعجب ـ الفلاحون الذين أعدوا له بجهدهم وعرق جبينهم أطايب مائدته . أصبح من الخرافات البالية أن يضم الفرد بيت يليق بكرامة الإنسان وعلى مرمى حجر منه أخ له فى الوطن يضمه جحر لا يليق بكرامة الحيوان . . بل أوشكنا أن نعتبر من أجناس الأحياء التى انقرضت لأنها غلطة فى سلسلة النشوء والارتقاء مستشفى بها درجة أولى وثانية وثالثة ، فالإنسان فى الصحة قد يختلف ، ولكنه فى المرض واحد ، والعناية بالمرض فرض إنسانى إما أن يؤدى أو لا يؤدى ولا يمكن تقسيمه إلى درجة أولى ودرجة ثانية ودرجة ثالثة . أصبح من رسوم كهوف العهد الحجرى مدرسة تفتح بابها على مصراعيه لأولاد كل فضيلتهم أن أباهم غنى ، ثم قفله بالضبة والمفتاح فى وجه أولاد كل ذنبهم أن أباهم فقير . أصبح من محتويات متاحف العصر الحجرى مومياء عامل يضمن

بجهده نجاح المصنع ولا يضمن له أحد شيئا . . حتى ولو دوام لقمه العيش .

لا أنسى الأيام التى كنت أسكن فيها وأنا صبى منزلا أمام مصنع كازوزة ، رأيت بعينى أكثر من مرة كيف تنفجر زجاجة فتفقع عين العامل أو تبتر بعض أصابعه . أتعرف ماذا كان جزاؤه ؟ الرفت فوراً . . وشاهدت وأنا فتى يافع كيف كان مالك الأرض يحصل من الفلاح على بصمة ختمه أو إبهامه فوق عقد إيجار من نسخة واحدة يحتفظ بها هذا المالك ويدون كاتب الدائرة فى دفتره كما يشاء ودون رقيب ديون هذا الفلاح ، فإذا لم يف بها محصول أصابته آفة سماوية لا دخل للفلاح فيها ، كالدودة أو الصقيع أو الفيضان الداهم ــ أو نكب بهبوط بليغ فى الثمن ، بقيت هذه الديون معلقة فى رقبة الفلاح تلحقه طول حياته لا يملك معها أن يصبح فى يوم صاحب حلة من النحاس أو حمارة عرجاء . ولو فعل لوقع عليها الحجز فوراً : كم من مرة قرأت عينى إعلانا عن مزاد علنى لبيع حمارة سدادا لدين للخاصة الملكية . رأيت فلاحين يجلسون عرايا فوق الفرن إلى أن تفرغ الشمس من تجفيف جلبابهم الوحيد بعد أن غسلته زوجاتهم فى ترعة عكرة ، رأيت الأكل على مدار العام خبز شعير وبصل أو خبز ذرة وفص ملح ، والعيد الأكبر يوم أن تنطس جاموسة أو يدهس القطار جملا ، ويحز القصاب الرقبة قبل طلوع الروح بغمضة عين . رأيت الفلاح المفلس وقد احتاج لمبلغ قليل من المال لجنى القطن لايجده إلا عند مراب (أحيانا هو أجنبى وأحيانا كثيرة هو من أهله وقومه) فيبيعه على الورق قنطارا بمبلغ لا يزيد على ربع الثمن وتسديده فى أقل من عشرة أيام . كان كل رجل شريف

يغص بلقمته ، ويصيبها فى حياء مغيظ ، كالدجاجة المحتالة ، تلقط حبة الأذرة من الأرض خطفا وتلصصا . لم يكن المحرومون سعداء ولا الشرفاء سعداء . والحرمان من السعادة داء تتردى عليه بقية النعم والفضائل ، وتنزلق القدم بسهولة إلى مهاوى الغلظة والجحود وبلادة الحس .

يجب أن لا ننسى هذا كله ؛ فبه وحده نفهم حقيقة معنى القوانين التى صدرت أخيرا ، مهما تكن جذرية جريئة فإنها قبل كل شىء عادلة ، إنها تعالج جروحا طال عليها النسيان .

بل أذهب إلى أبعد من هذا كله وأوجه كلامى إليك يا من وجدت فى هذه القوانين حدا من ملكتيك الكبيرة أو إيرادك الضخم ، وأقول لك إن القصد الأول من هذه القوانين أن لا نتخلف فى السباق مع الزمن ، هى فى حقيقة الأمر وقاية لك من علاج لولا هذه القوانين لما ضمن لك أحد أن لا يوغل هذا العلاج ويصادر ولا يحد ، وينتزع ولا يعوض . لا تكن كالملك فاروق وحاشيته وأعوانه ، واتعظ بجزاء لقوه عن حق ورضيت أنت به وحمدته لأنه عدل ، عموا عن حركة الزمن وهو يسير وظنه يوما واحدا ثابتا ، يتكرر ، لم يدركوا أن الملكية عندنا أصبحت نظاما باليا عتيقا أفسح المجال للجمهورية ، هذا هو سير الزمن ، وأن الشعب كله أصبح يؤمن بضرورة الإصلاح ، وأول إصلاح هو إعادة النظر فى توزيع الثروة العقارية ــ لأننا فى بلد فلاحين ــ وأن الشعب كله يؤمن أن أرض الفلاح قد سرقت منه ، وأن الأسرة المالكة هى رأس قائمة اللصوص . كان الأعمى يرى أن الشعب كله أصبح لا يطيق السكوت على هذا الظلم وأنه يؤمن أن « محضر التحقيق » فى حادثة السرقة هذه لم يقفل بعد ، وأنه ينتظر

قرار وكيل نيابة بوضع اللصوص فى السجن ورد المال لأهله . عموا عن كل هذه النذر ، بل صدروا فى غيهم وذادت قبضتهم على المال الحرام شدة ، ثم استشرى جشعهم ، وأصبح تعديا ، فلما دقت بابهم بليل يد صاحب المال المسروق تهاووا كالحطام الخاوية شأن اللصوص إذا جلسوا لاقتسام النهيبة فسمعوا دق كعب بندقية الشرطى على بابهم.وأقول لك إن لا شىء يهدد كرامتك وإنسانيتك وآدميتك مثل أن ترضى أن يكون جزاء أخيك الفلاح على صبره ــ وصبره سلبة طويلة ــ تأييد حرمانه بدلا من إنصافه ، حق الشكر ــ وهو ينال منك إسعافه ــ أن يوجه هذا الشكر منك إليه لا منه إليك ، وأن تحمد أخيرا للناطق بلسانهم أن أخذت بالعدل والحسنى والمحبة فحد ، ولم يصادر ، ولما انتزع عوض.ما هو الوصف عندك ــ خبرنى ــ لإنسان غير محروم ييئس إذا عم الخير ؟

(« المساء » ، ١٩٦١/٨/٧ ، ص٨)

من وحى بطل شهيد

ومع العلم بكراهية أهلنا للهجرة فإن من ساح منا فى بلاد الله الواسعة كان لا يعدم حيث لا يتوقع أفرادا قلائل من شعبنا قد ألقوا مراسيهم فى أرض غريبة يدهش حين يعلم أن ملك الملاهى فى برلين مثلا رجل مصرى لعله من كوم الدكة ، أو أن صاحب الضياع الواسعة والعمارات الكبيرة فى فرنسا هو مسيو حافظ من أطسا ، أو أن أكبر شيب شافر (متعهد البواخر) فى استانبول هو سيد بك حظر تارى من بور سعيد .

منهم من تكسبه الزوجة الأجنبية فتطبعه هو وأولاده بطباعها ، ومنهم من يستعصى عليها ويظل بيته فى لغته وعاداته ومأكله وصيامه مقتطعا من جو أحياء تجاور مسجدا فى القاهرة .

وكنت إذا لقيت واحدا منهم أستجيب لدافع خفى يجعلنى أدور حولهم وأتشمم أخبارهم. كل واحد منهم هو عندى قصة مثيرة ساحرة مليئة ولا ريب بالمغامرات والدراما والفكاهة .

أتمنى أن يوجد بين أيدى شبابنا كتاب ولو من خمسين صفحة يجمع فيه أديب قصص أخبار هؤلاء المواطنين الذين هاجروا ونجحوا أو بقوا على إخلاصهم لوطنهم . فلا شيء أدعى لتبصير شبابنا بفضائل العزم والإرادة من المثل الحى . وليس أشهى لنفوسهم من قراءة السيرة التى تشبه قصص المغامرات .

وكان أول شيء أود أن أعرفه هو حال الولد الهجين : أب مصرى وأم أجنبية . هؤلاء الذين قدر عليهم أن يولدوا فى مهد تشده يد إلى اليمين ويد إلى اليسار ، هم الممزقون بين ولائين ولغتين ونمطين من الحياة ، بين المسجد والكنيسة ، بين الديك الرومى فى الكريسماس والحمصية والسمسمية فى مولد النبى . هم المطلوب منهم دون غيرهم أن يصنعوا شيئا جد عسير ، قد يكون مستحيلا ، هو عقد الصلح بين النقيضين . منهم من ينجح فيجمع من الأفضلين ، ومنهم من يخفق فيجمع بين الأسوأين فهذه تربة من شأنها أن تنبت فى بعض الحالات أمر العذاب والحيرة ونفض اليدين من التركتين معا ، والشعور بالضياع وخلخلة الجذور ومن شأنها أيضا أن تثبت فى حالات أخرى نزعة تغليب ولاء على الولاء الآخر لأن المسألة ليست مسألة وراثة قدرية بل مسألة اختيار إرادى بين أبوين يتبادلان الجذب إما جهرا وإما سرا . فالهجين قد يكون أشد حماسا لوطن أمه من بنى قومها ، أو أشد حماسا لوطن أبيه من بنى وطنه ، لأن الاندفاع تعبير عن الرغبة الملحة فى نفى التهمة بأن المعدن خليط وليس بأصيل . لم أقابل هجينا فى مصر أو فى الخارج إلا تأملت عينيه طويلا فيمتلىء قلبى بالحنان الباسم لمن يتسحب إلينا وبالحنان الأسيف لمن يتسحب منا . والسؤال

الذى أوجهه إليه على استحياء وألفة وسط الحديث هو : بأى لغة من اللغتين يفكر ، فإن الإجابة على هذا السؤال تدلنى وحدها رغم كل المظاهر أى الطريقين سلك ضميره .

* * *

وفى قلب كل هجين خوف لا يعرفه غيره أن تقع الحرب بين قوم أبيه وقوم أمه فيطلب إليه أن يقف فى الجيش بين أعمامه ليقتل أخواله ، بطولة زملائه سهلة أما بطولته هو فتتطلب منه بذلا يفوق طاقة البشر . فليس من الغريب أن يكون أكثر منهم فهما لخسة العدوان وأشدهم ثورة عليه وليس من الغريب أن يتقدم هو أولا ليفديهم بنفسه .

فكيف لا أحنى رأسى لذكرى هذا الشاب الهجين الذى كنت أعرفه . أبوه مصرى ليس له صبى غيره . لو كان للنبل والشهامة وعزة النفس وجه لكان هو وجهه . كان ضئيل الجسم ولكن إرادته من حديد. لم يرث من قوم أبيه وقوم أمه إلا فضائلهم فهو كريم ودود بحبوح لا يمتنع عليه إذا ضحك أن يقهقه فيهتز جسده ويضرب ركبته بكفيه ويفحص الأرض بقدميه . فإذا جد الحديث ثبتت نظراته وأدركت أنت أنه يعمل فكره ويحسب حسابه فلا تصدر منه حركة إلا وهى منتظمة فى موضعها وأداتها ويخيل إليك أنها لم تتطلب منه إلا أكبر الجهد . وتعجب أنه قضى غرضه من أول محاولة ، وكنت لا تدرى أنه أعد لها فى ذهنه من قبل أن يقدم عليها امتحانا صبورا شاقا . كانت له روح شرقية لا يكربها التساهل والاستجابة السريعة

للعاطفة وعقل عربى له منطق عمل صارم يستطيع فى غمضة عين أن يفصل بين القشور واللباب ، وأن ينفذ إلى الصميم ولو وسط ضباب شديد «عشان خاطرى» ورقة تكسبه بها إذا كان فى الإجابة إرضاء لك فيه الخير ولو استثقلك وأنت تزعجه ، ولكن هيهات أن تكسبه بها إذا كان فيها ضير أو سخف يثير الخصم ولو كنت من أعز أحبابه . ولكنه كان قلقا شأن الذى لا يجد إنسانا أمينا كريما على مستواه عقلا وروحا ليفضى إليه بالسر حين لا يطاق كبته . وكان فى قلبه مع الأسرار كنوز يود لو عرضها على من يفهم قيمتها . لم ألقه إلا تخيلت جوادا من جياد السباق وهى هجين أيضا تئز بقدرات هائلة على الانطلاق وهى محبوسة فى الحظيرة . فى عيونها عطش للرياح وفى خياشيمها جوع لنفحة العشب وزفير الرمال وفى حوافرها شحنة متوثبة من كهرباء.إنه ينطلق فى المدرسة فهو الأول فى الفصل وفى الألعاب الرياضية ، ولكنه غير راض . إن الانطلاق الذى يهواه لا علاقة له بهذه الدنيا بل هو انطلاق فى عالم بطولى تكشف فيه روحه عن معدنها الحر .

ووقع عدوان الإنجليز على بور سعيد فانقلب قلقه إلى اضطراب ، وغلب صمته على كلامه وانزواؤه على مخالطته لأهله . وكان يعود من المدرسة بوجه يحاول أن يفسر الحزن بأنه تعب وإرهاق . لعله دار بنظرته على زملائه يستفسر مكنون ضميرهم هل يرون أن التكليف ساقط عنه ، فهو حر أن يقبله أولا يقبله . هل يمتحنون فى سرهم مقدار حبه لوطنه ؟ هل فى قلوبهم شك ؟ وهل يرتفع الشك بسبب حماسهم إلى حد التهمة مع علمهم به ؟ ألا يدرون ما الذى يقدر عليه وما الذى ينوى عمله ؟ لم يكن

حزنه لأنه تعرض ولو لشبهة الامتحان بل لخشيته عن أن يفسر تطوعه بأنه استفزاز .

وقام فى موعده ولبس ثيابه كما يفعل كل يوم . يده لا تعرق ولا ترتعش . ريقه لا يجف وعينه لا تبوح بالسر . وسلَّم على أهله كما يفعل عند خروجه . حسبوه ذاهبا للمدرسة ولو تأملوه لرأوا أن ظهره زاد استقامة وصدره استعراضا ورأسه ارتفاعا . لا أحسبه تلفت وراءه لعله يلمح للمرة الأخيرة وجها حبيبا يطل عليه ويدعو له بالسلامة . إنه واثق أن جميع من فى البيت حين يعلمون خبره لن يندهشوا فهو فى مأمن من العتاب . حينئذ انتبه ـ ولم يكن بالغافل لفيض حبه لأهله وإعزازه وتقديره لهم ، وحمد ربه وشكره أن كان ابنا لهذه الأسرة .

وفى بور سعيد وقف أمام العدو وقفة جيش كامل لأنه كان على حق ، ويحارب بإيمان . كان واثقاً أن الوطن كله قد تمثل فيه ، وأن جميع فضائل هذا الوطن قد انبرت للدفاع عن سلامته وكرامته ، وعن شرف أهله وأعراضهم وتحمل أفظع الآلام وهو جلد لا يئن ولم يجئه الموت خطفا فلا يمتحن شجاعته بل وقف منه على بعد بوجهه البشع ، وظل يتقدم منه خطوة خطوة وهو واثق أنه بالغه ليس فى الأرض قوة تصده عنه فلم يزغ من البطل البصر ، ولم يختلج هدب ، وبلغ من نسيانه لجسده أنه حين رأى دمه ينزف من جروحه قطرة قطرة حسبه دم فتى غيره لأن هذه الجروح لم تلحق بروحه ، ولم يكن بالموت حاجة لأن يقهره وينتزع روحه قسراً لأنه هو نفسه الذى بذلها فداء لبلده . ولو كان عنده شىء آخر منها لوهبه أيضا بنفس راضية . ولما أدرك أنه سيولى طاب له أن يتمتع بالدلال على وطنه ولو مرة

دلال المحب على الحبيب فكتب على الجدران بإصبع مغموسة فى دمه رسالة غرام سطورها القليلة المرتعشة من صوغ الحنان،ألفاظها البسيطة قالت كل شىء وإن أسقط من بينها كلمة لا ينسى بها الوفى المخلص ، والباقى على العهد هى كلمة « الوداع » .

وهذا المستعمر الذى قهره البطل الشهيد[1] فى بور سعيد قد ارتكب هو وقرناؤه أبشع جرم عرفته الإنسانية حين زيَّف وزوَّر ، ولقَّب بالزواج تسرى أبنائه بنساء فى شعوب بكر فى أواسط إفريقيا وآسيا . فقد نتج عن هذه العلاقة الكاذبة جيل كبير من البشر يحسبون أن لهم أبا ينتمون إليه ، ولهم العذر إذا حاولوا تقليده والانتماء إليه ، وإذ يرونه محتقرا لأقوام أمهاتهم صنعوا صنعه ، بل ربما زادوا عليه ، ثم ينتبهون فإذا هذا الأب يهجرهم ويهرب إلى بلده ويتركهم لا جنسية ولا وطن لهم ، بل قل لا كرامة لهم . الأوربى يحتقرهم والوطنى يحتقرهم فهم جيل محطم تفترسه بسهولة كل الرذائل والأمراض الخلقية . كيف يزعم إنسان أن يكون من حقه وفى طاقته أن يذيق بنفس راضية وبلا خجل أو وازع من ضمير إنسانا مثله كل هذه المهانة وهذا العذاب الروحى . هذا ما كانت تفعله هولاندا فى أندونيسيا ، وكانت لا تسمح لهؤلاء الأبناء بحمل الجنسية الهولاندية أو بالسفر للالتحاق بآبائهم الجبناء الفارين ، وهذا ما كانت تفعله إيطاليا فى إريتريا والصومال . . وهذا ما كانت تفعله إنجلترا فى الهند وإن سترته بأقنعة من نفاق أصبح لصيقا باسمها وطبعها . . إن أوروبا قارة لها وجهان ، أحدهما فى غاية الدمامة .

---

(١) هو الشاب جواد على حسنى واحد من شهداء المقاومة الشعبية أثناء العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ م .

(« المساء » ، ١٩٦٣/١/٢١ ، ص ٨)

الست الطاهرة

منذ النكسة لا أهم بكتابة رسالتى الأسبوعية للمساء إلا عادت لذاكرتى ــ كرجع الحمى ــ حكاية قرأتها منذ زمن طويل رواها أناتول فرانس فى أحد مؤلفاته لعلها حكاية قديمة تلقفها هو فصاغها من جديد بأسلوبه الساحر فبدت كأنها من ابتكاره . كل نص لها قديم منحول أو فج أو تأتأة قبل الإفصاح . وقد قال جوته : ما الفن إلا صب خمر جديد فى قنينات عتيقة.هيهات لى أن أرويها لك من الذاكرة كما رواها هو ، ولا شك أنها ستخرج من يدى متهتهة أو ممسوخة .

إنها عن بهلوان فقير يعيش متوحدا شريدا هائما على وجهه كأنما بينه وبين الأسرة والمسكن والمستقر نفور شديد متبادل . ومع ذلك فهو سعيد يحب الحياة ، أنيابها إذا أطبقت عليه هى عنده أنياب القطة على جلد رقبة رضيعها تنقله من خوف إلى أمن ، ليس هو الذى يلعنها ويحب الناس حب راكب القطار لمناظر الطبيعة التى تمر بها ، فالعمر عنده رحلة سريعة.إذا أصابه من إنسان أذى أو سمع عن دناءات البشر مد نظره إلى الأمام لا إلى

الخلف ، وإذا كل الأذى والدنايا تتراجع هى الأخرى بسرعة القطار الذى يركبه . يكفيه أنه يطل من النافذة فيلفح الهواء وجهه ويتشمم أنفه أريج الحقول فيتمتم قلبه بصلاة خافتة .

أروج أيامه حين يقبله سيرك متجول ضمن لاعبيه ، كلا الطرفين يعلم بالخبرة أن العشرة قصيرة الأجل،وظيفته حينئذ أن يعرض على الجمهور ألعابا هى خرق لكل قوانين الجسد بعضلاته وعظامه ، أن يمشى على كفيه ، أن يدير جسده فى الهواء بسرعة كأنه عجلة مغزل ، أن يرفع قدمه وراء ظهره حتى تعلو هامته ، أن يجعل من بطنه قبة مستندة على ذراعيه وقدميه ويهبط إلى الأرض ويدس رأسه بين ساقيه ويمدها ويرفع وجهه للجمهور كأنه ساكن فى بدروم والأدوار العليا هى بقية جسده ، أهو أخطبوط أم ضفدعة أسطورية ارتد نظامها إلى فوضى كأن عظامه من مطاط ومفاصله كعود اللبلاب . والعجيب أنه إذا وقف ليحيى الجمهور وجده سويا كإنسان صحيح .

نحن نراه اليوم متعطلا لا يسأل هل هو الذى هجر السيرك أم أن السيرك هو الذى لفظه ليسير بين الحقول هائما على وجهه . لن يخطئه - فالرزق فى يد الله تعالى - سوق فى قرية فيعرض فيه ألعابه ويجود عليه أهل الخير بما وسعه كرمهم ، ثم ينام ما أحلاها نومة على كوم من القش فى الهواء الطلق تحت النجوم ، أو فى أجمل صحبة فى اصطبل بين الخيول أو الأبقار فيحس بنبض الحياة وضراعة الضعفاء إحساسا قويا .

فإذا به يمر أمام تمثال للسيدة العذراء . يقيم الفلاحون تماثيلها وسط

الحقول تبركا ، مرفأ سلام يطل منه رمز لقلب رؤ وف على كرمهم وآثامهم الصغيرة فيمسحها عن ضمائرهم . وكان الهواء قد رق إذ مالت الشمس إلى المغيب واكتست السماء بأجمل أثوابها ، فى يد من هـذه الفرشـاة التى رسمت هذه اللوحة البديعة بضـربتين أو ثـلاث . وكلما مالت الشمس تموجت على وجه العذراء ظلال وكأنها نطق نجوى فى ضميرها . أسبلت جفونها ! ولكن هيهات أن تنام . ثق أنها حين هلّ عليها فتحت عينيهـا وهمست له :

ــ مرحبا . . . سلام عليك ، كنت أنتـظرك منذ زمن طـويل أين كنت ؟ كيف حالك ؟ استرح إلى جانبى من عنائك ولو قليلا .

ركع أمامها ورسم علامة الصليب على صدره وقال لها كأنـه يكلم إنسانا يسمعه :

ــ يا ست يا طاهرة يفى بعض الفلاحين بنذره إليك فيشتري لك عقدا يحلى به جيدك أو باقة من زهر أنيق يضعه تحت قدميك . وأنت أعلم بحالى . ليس عندى ما أشترى به لأجلك عقوداً أو زهوراً ، ولكن عندى هدية لك هى كل ما أملك ، فتكرمى بقبولها .

رمى كيسه بعيدا عنه وانتصب أمام التمثال ثم انحنى محييا له كما يحيى الجمهور عادة وقال لها : ـ انظرى هذه هى اللعبة الأولى (مشى برهبـة أمامها على كفيه) انظرى هذه هى اللعبة الثانية (أقام من بطنه قبة وسكن وجهه بدروم منزله) . انظرى هذه اللعبة الثالثة إلخ إلخ .

لم تشهد عين ألعابه إلا عين ساهمة لتمثال منفرد بين الحقول الشاسعة . . .

* * *

منذ النكسة هكذا أنا أيضا هذا البهلوان أقول لأمتى فى محنتها . ياست ياطاهرة ليس فى العمر الذى بلغت يد تحمل السلاح فلم يبق لى إلا أن أظل أكتب كما كنت أفعل ـ متجلدا صابرا لا يتطرق اليأس إلى قلبى لأن وثوقى فى صلابتك وخلودك لا يتزعزع .

هذه هى هدية واحد من أبنائك هى كل ما يملك ، ردت محنتك كل عمله إلى نوع من شقلبة هذا البهلوان وسط الحقول . هو وهى ولا ثالث معهما .

(« المساء » ، ١٩٦٧/١٠/٢ ، ص ٤)

العودة من زيارة للجبهة

الكلام الطويل الذى كنت قبل اللقاء أريد أن أقوله لهم ، والكلام الذى كانوا ــ فيما أتوقع ــ يريدون قوله لى إذا التقينا ، تحول حينما تم اللقاء من اللسان إلى القلب ؛ أصبحت العين أو اليد هى المتكفلة بالتعبير عنه ، بحديث غير منطوق لا يقبل إذن وصفه بأنه طويل أو مختصر ، أو أنه حوار يجرى بترتيب الأجوبة على الأسئلة لأنه وليد التحام شعورى ، اتحد الضميران « أنتم » و « أنا » لقاء هو بين غرباء فإذا به منذ اللحظة الأولى لقاء بين متعارفين من قديم ، الود ليس خلفة اليوم بل شقيق عمره مساو لعمرهم ، تكلمت اليد ، اليد التى صافحتها متينة . قوية . صلبة . كأنها رفعت لتوها عن فأس عزق الأرض من مطلع الشمس إلى مغربها منذ الصبى ، صابرة ؛ صامدة ؛ مالكة لإرادتها . وإرادتها من حديد .

والعشم باق بعد ذلك فى وجه الكريم ؛ تعطى كل ما عندها . كرما وسخاء وصراحة . فليس فيها مواربة ولا شبهة . أو احتجاز لرصيد ولو طفيف من الحذر ورغبة امتحان اليد التى تصافحها احتياطا للمستقبل .

الكاشف للطبائع من تحت الأقنعة . المؤيد للظن . بالخير أو الشر . بالصدق أو الخداع . لا امتحان لأن الحكم غير مؤجل . بل سبق صدوره . تقول لى هذه اليد : ثق بنا . شدة هذه اليد هى شدة الإيمان . لن تبقى بها ذرة جهد أو عزم إلا بذلته .

واليد التى يصافحونها تقول لهم إنها صك وديعة. النفس والشرف والوطن والمستقبل فى يدكم . كذلك هى . لن تبقى عندها ذرة من تصديق وثقة إلا منحتها لكم . عن جدارة . كل قول يدعم هذه الجدارة تقبله . وكل قول مناف لها ترفضه . إنها خجلى كما تحسون من نبضها لأنها لا تحمل من العبء ما تحملون ، وأن فداء الوطن بالروح من نصيبكم أولا . إنها محاذرة أن ينفضح حدبها عليكم لئلا يشتبه بالشفقة التى يكرهها الأقوياء . وعهدها لكم دعاء متصل . وثبات . وصمود . وحب إلى أن يأتى الله بالنصر على يدكم هذه . المتينة . الصلبة . القوية .

وتقول لهم العين التى تطالع عيونهم ــ وهى تغض من بصرها ــ لا تحكموا علينا من لهو القاهرة وأضواء لياليها ، فلتشق عينكم قلوبنا لتروا الأرق الذى يماثل أرقكم ، واللهفة على النصر التى تضارع لهفتكم . جهادنا إدراك كل إنسان أن ثباته فى موقعه . أن أداءه بإحسان لعمله هو نصيبه من المعركة ، إدراكه أنه يبنى هذا السد الذى يحول دون الاستسلام أو قبول الأمر الواقع ، حتى إذا طغى من ورائه سيل التصميم على النصر تدفق فاكتسح العدو وأزاحه عن أرض الوطن .

وكان آخر نجوى العين واليد لهم : المعركة القادمة فاصلة ، لمئات السنين ، لا معركة بعدها . .

راعنى من قواتنا المحاربة ــ من جميع الرتب ــ صحة الروح والبدن ، الوجه مشرق بالإيمان ، والوثوق ، والإصرار على حمل التبعة ، على تقبل الفداء بنفس رضية . على مواجهة الخطر بشجاعة لا تتزلزل . مهما كان جسيما . والبدن مشدود . ممشوق . لا أكراش ولا أرداف ، ولا خلقة مكعبرة ؛ هى قامة الشاب الرياضى المدرب خير تدريب ؛ الملابس ــ ونحن فى وسط الصحراء ــ كلها نظيفة ، وكل بناء دخلته كبيرا أو صغيرا ، مقاما على الأرض أو غائصا فيها ؛ من حجر أو خشب ؛ يشع بالنظافة وحسن الترتيب .

راعنى ما وجدته من ألفة بين الرؤساء ومن يعملون تحت إمرتهم ؛ علاقة أخ بأخ أو أب بأبنائه ، ورأيت الطاعة والمحبة يتعانقان .

إن كنت قد فزت من هذه الزيارة الخاطفة للجبهة بكنز ثمين فهو بدء صداقتى بضابط رأيته فذا فى خلقه وعلمه وكفاءته ، درس فى أمريكا وإنجلترا وروسيا ، وجدته فى قلب الصحراء له هيبة الأسد ، وإشراق منار ، ووداعة ناسك وصبر أيوب ، رأيت جميع من يعملون معه تحت إمرته يتدفق من عيونهم نحوه تيار من الحب والتوقير ، تكاد تلمسه بيدك . هذا هو نمط الضابط فى جيشنا الجديد .

ولابد لى أن أحدثك عن رئيسة وفدنا ، وعن الشاعر الذى صحبنا أو ــ من باب الأدب ــ الذى كنا فى صحبته وبقية رفقاء الرحلة . . .

(« التعاون » ، العدد ٢٣٤ ، ١٩٦٩/٧/١٣ ، ص ١٠)

الشاعر فى الجبهة . .

فى يدنا تذكرة « ذهاب وإياب) صالحة لنهار واحد : كنا ذاهبين لزيارة الجبهة لأول مرة ؛ ثم نكر عائدين إلى العاصمة : إلى بيوتنا : نستأنف حياتنا : ومشاغلنا يارب كم هى تافهة . كنا بالنسبة للجنود من الطوارىء : لقاء عابر : قصير : ما نكاد نأتلف حتى نفترق ؛ ربما على أن لا نعود ؛ لا شك أن ذكرى وجوهنا ستبهت سريعا ؛ كان كل ما نراه جديدا علينا : نحن طقم من الغشم ؛ أسئلتنا أسئلة تلميذ فى ابتدائى ؛ أما هو ــ الشاعر ــ وإن كان معنا ؛ حاله كحالنا ؛ فقد بدا عليه أن فى يده هو وحده نصف التذكرة المخصص للإياب ؛ كأنما كان وهو من اللابدين فى العاصمة فى زيارة خاطفة لها ؛ يتعجل وهو فى عز الراحة والفسحة لحظة العودة : للجبهة : فحين وصلنا نطقت عيناه دون عيوننا بأنه وجد قديمه ؛ عاد من جديد إلى خنه ؛ التحم بتعشيقته ؛ لا شىء جديد عليه ؛ استقبله الجنود كأنه رفيق لم يحسوا أنه غطس إلا حين قب ؛ الفراغ الذى تركه عند اختفائه بقى مملوءا بأنفاسه ؛ بإشعاعه : والعجيب أنه كان يزور هذا القطاع من الجبهة لأول مرة ؛ مثلنا ؛ وهذا كله بسبب التحام له شعورى من سابق بالجنود ؛ أينما كانوا فى الجبهة ؛ من لم يره منهم وصل صيته إليه ؛ وتمثل شبحه كأنه حاضر بشخصه معه ؛ وكأنه هو ــ وهو نزيل العاصمة ــ يعيش معهم ؛ نعم ؛ بذهنه ؛ بقلبه ؛ وما قيمة الجسد هنا .

هو شاب أسمر نحيل ــ مفتول مشدود كالوتر ؛ مبتسم مع ذلك فى حياء كالبنت البكر ؛ ليس بيننا من ينطق مثله بأنه قطعة من عجينة

الجنود ؛ اليد التي فركت جوانب الماجور بعد تقريصه فتلت اللواصق بالكفين حتى تشكل له قوامه ؛ الفرق أن الأرغفة فى زى عسكرى أما هو فقد ألبسته هذه اليد بنطلونا وفوقه « بول أوفر » أسود ؛ مزقته من (حرام) قديم ؛ الجميع من نبت أرض واحدة ؛ التراب الذى يعلق بالوجوه كلها من طمى ترعة واحدة ؛ جف فى وقدة الشمس وتطاير بعد أن دعكت به القدور وغسلت الملابس ؛ ففيه بقية من رائحة عرق أهل البيت وطبيخ عشائهم على قد الحال ؛ فيه دفء الحياة بجانب مصطبة الفرن ؛ فوق مصطبة الفرن .

لازمنا الشاعر خلال الزيارة : ولكن أين هو ؟ ما أراه يهبط إلى خندق حتى أراه يعتلى دبابة ؛ هو فى خلوة مع فرد ؛ فإذا به نواة حلقة تلتف حوله وتحجبه عن الأبصار : يمرق فيبعد والخيط الخفى الذى يمسكه هو من مطاط ؛ كلما تفاقم شده إلى أمام تفاقمت سرعة ردته إلى الوراء ؛ ولكن هيهات أن يتمزق ؛ لأنه رباط روحى لا ينفصم ؛ ما هذه النار التى قددت للشاعر جسده وقلقلت حركته ؟ خيل إلى أن قلبه قنبلة زمنية تريد أن تنطلق ؛ وجاءت لحظة الانفجار ؛ وقف على شرف من الأرض ؛ وتجمع الجنود من حوله وأمامه ؛ ثبتوا عليه عيونهم وآذانهم ؛ مال برأسه وصدره قليلا إلى الأمام ؛ كأنه يهم بهجوم ؛ وتدفق الشعر من فمه ؛ حارا ؛ متقدا ؛ متصلا ؛ كأنه لم يلتقط خلال القصيدة الطويلة أنفاسه ؛ واللغة من صميم لغة الشعب ؛ الشعب الكادح ؛ غير المترف ؛ الشرب فى هذا الشعر من قلة لا من فريجيدير ؛ والزهرة فلة لا كاميليا أو أوركيديه ؛ ولكن عجبا ؛ هذه القلة أصبحت فى هذا الشعر لا رى إلا منها ؛ ماؤها ماء كل

نبع صاف انحدر من غمام طاهر ؛ هى رمز لجمع الشمل تحت السقف ؛ والسكينة بعد الشقاء ؛ لبل الريق بعد العطش ؛ للغوث بعد الكرب ؛ وللشكر للمولى على نعمه ؛ أتفهها وأشدها ابتذالا هو أجلها قيمة ؛ هى التى توحى فوق ذلك بالأمن والسلام ؛ والزهرة رمز لكل حديقة يانعة نسقتها يد فنان مسرف فى أطماعه ؛ رمز لكل خضرة اكتست بها الأرض من نسيج الطبيعة الخام وحدها ؛ وكدت أرى رأى العين أن صوته لا يذوب فى الهواء بل يرتسم عليه ليبقى ؛ ارتسام حروف على صفحة بيضاء ؛ سيدور حول الأرض ؛ لا يتبدد ولا يبلى ؛ حدثهم عن مصر وخلودها ؛ عن العمار الذى ستزدهر به المدائن المهجورة الآن ؛ عن الغد المشرق الذى سيمسح بكفه فترة الوجوه اليوم ، حدثهم عن شعب مصر ؛ بانى الحضارة ؛ عن أصالته وطيب معدنه ؛ عن حبه للسلام ؛ ورقى الإنسان ؛ حدثهم عن غدر العدو وخسته ؛ معوله طائش ولا ريب لأنه يدق على صخرة ولأن قانون الحياة هو البناء لا الهدم ؛ المعول الذى فى يدنا ليس للتحطيم بل للحرث .

هل فهم كل الجنود كل كلامه ؟ هل انتبهوا لجمال استعارته وكنايته ، ورموزه . . جاءت متدفقة من قلبه ،لا من صنعة متكلفة ؛ لست أدرى ؛ ولكنى رأيتهم يشربون كلامه ؛ الهزة المقصودة منه سرت فى أبدانهم ؛ تغلغلت فيهم روح القصيدة ؛ ما قيمة تفاصيلها ؟ عبر الألفاظ وصل إليهم المعنى ؛ إذا أحببت إنسانا فحدثه بأى لغة شئت ــ حتى باللاوندى ــ وثق أنه سيفهمك .

ولما فرغ الشاعر من إنشاده تقدم له أحد الجنود على التو ؛ يريد أن

يقول له شيئا ؛ ربما يحمله سلاما لإنسان ؛ فمنحه وجها مشرقا بالسكينة والاطمئنان ؛ والراحة ؛ ورد عليه بصوت هامس حنون ليس فيه أثر لإجهاد أو بحة ؛ كأنما هذا الوجه لم يكن منذ لحظة فى قمة التوتر والانفعال ؛ وهذا الصوت لم يكن من فرط حرارته يشرخ حنجرته ؛ تلقفته طبيعته الحلوة من يد شيطان شعره الذى كان ينفضه نفض المنجد للقطن على قوسه .

هذا هو الشاعر عبد الرحمن الأبنودى الذى سعدت بزيارة الجبهة فى صحبته ؛ وبقى لى كلام عن رئيسة الركب وعن رفقائنا من نجوم السينما والتلفزيون والصحافة .

(« التعاون » ، العدد ٣٣٥ ، ١٩٦٩/٧/٢٠ ، ص ١٠)

* * *

نجمة السينما فى الجبهة

من أقسى العذاب الذى اختص به الإنسان أن يجد نفسه ــ بسبب شهرته ــ نهبا للأنظار أينما حل ؛ أينما ذهب ؛ تلاحقه العيون وتتركز عليه ؛ ترقب ملفظه ؛ وملبسه ؛ وقسمات وجهه ؛ وأقل حركاته ؛ أن يجد حياته الشخصية المكنونة مفتشة ؛ مفتضحة ؛ تندلق أخبارها فى الصحف ؛ على الألسن ؛ بالحق مرة ؛ بالباطل مرارا ؛ حتى تخدعه لا يسلم من أن تصوب عليه من بعيد كاميرا (زوم) قمة السفور لا تصبح الحد الأقصى لوجود الشخصية وتبينها ؛ بل الحد الأقصى لتحللها المؤدى

إلى انعدامها ؛ لأنها لم تعد فيها ذرة ملكا لصاحبها ؛ ولعل من أصحاب الشهرة من لا يبتئس إذا فقدها ؛ فخلا إلى نفسه ؛ وهى تكفيه ؛ أما نجوم السينما فيتصاعد عذابهم درجة أخرى مخيفة ؛ لا أقول مجدهم بل حياتهم مستمدة من هذه الشهرة ؛ وقف عليها ؛ فهم حائرون لا يعرفون هل يهربون من الشهرة أم يجرون وراءها ؛ يفعلون الاثنين معا ؛ لزاما عليهم ؛ الجمهور حبيب وجلاد معا ؛ وهذا نوع من التمزق ؛ تنفك معه قواعد المنطق وحساب الليل من النهار وحدود السلوك ؛ وضوابط الغرائز ؛ القلق ؛ والأرق والخوف من انحدار الأضواء ؛ يخفف الملق ؛ يهصر القلب ؛ يلبد فى الركبتين ؛ يكلبش فى فم المعدة ؛ يجثم على الصدر ؛ يبرجل النبض ؛ هذا هو خبزهم اليومى ؛ وشرط مع ذلك أن لا يتصدى النجم السينمائى للجمهور إلا وهو مبتسم ؛ كأنه فى غاية الاطمئنان ؛ والراحة ؛ والسعادة ؛ والرى من النوم ؛ وأدهى من أن تكذب على الناس أن تكذب على نفسك .

لست مغفلا ؛ الوفد المسافر للجبهة ؛ وفيه شاعر شاب ؛ وكاتب كهل ؛ وفتيات حسان من مذيعات التليفزيون ؛ وعدد من رجال الصحافة ؛ وأهم من هذا فان رئيسته سيدة أين منها أفذاذ الرجال ؛ جليلة القدر ؛ قوية الإشعاع ؛ كبيرة القلب ؛ ما هو إلا حلقة الخاتم العاطلة ؛ جعلت لأن يركب فيها درة ثمينة ؛ هى التى تعطيه وحدها قيمته ؛ درتنا نجمة سينمائية ؛ هى سعاد حسنى ؛ سنكون جميعا فى ركابها ؛ هى هديتنا للجنود فى الجبهة .

التأم الشمل فى ردهة الانتظار ؛ لا ينقصنا إلا حضور سعاد حسنى .

لو كان الذى غاب إنسانا غيرها لقمنا وسافرنا ؛ ولكننا انتظرناها بطيب خاطر ؛ نلتمس لها المعاذير ؛ لم تنبس شفة بلوم أو عتاب ؛ كسد سوق التنكيت السخيف ؛ وحين قمنا لنركب الأوتوبيس لم نكن نقصد بدء السفر ؛ بل مد الوقت عساها تحضر ؛ حتى صوت «الموطور» كان ينطق أن نية السفر غير صادقة ؛ فهو يبرطم ولا يهدر ؛ وأخيرا هلت سعاد حسنى ؛ فتاة يتمثل فيها الجمال المصرى بوداعته وسمسمته وخفة ظله ودمه ؛ قليلة الحجم ؛ نحيفة ؛ لينة ؛ تصر فى منديل ؛ وكأننا تصالحنا جميعا على أن لا نرهقها بنظراتنا ؛ أن نعاملها معاملتنا لفتاة لا شهرة لها بين الناس ؛ فلم تكد تستقر فى الأوتوبيس تدور عيناها علينا ـ ولعلها وجدت بيننا كثيرا من معارفها وأصدقائها ـ حتى ملكت اطمئنانها ؛ رمت كل الأقنعة من النافذة ؛ سفرت طبيعتها التى جبلها الله عليها ؛ ملكت شخصيتها ورضيت بها ؛ بدت لى حينئذ تلميذة اختطفت فى وسط اللعب من حوش المدرسة ؛ كل مناها أن تعود إليه لتستأنف لعبها . كانت فى ثوب أسود ؛ حدادا على أبيها ؛ طبعا استبقى من بقية أثوابها الملونة فتحة الديكولتيه ـ وكما زاد الحداد من جمالها زاد من توفيق الألفة بيننا ؛ ولم يكن عزاؤنا لها بذكر المصاب ؛ بل الإحساس به وكتمانه ؛ ولم يسألها أحد منا متى تخلع الحداد . وفتحت لنا قلبها واعترفت بأنها لم تنم ليلتها إلا غرارا ؛ وعلى وش الفجر ؛ البطولة التى تتباهى بها التلميذة الآن هى حضورها للمدرسة والجرس يدق . .

كل الذى تصورته توجسا عن لقاء الجنود بالنجمة السينمائية كان وهما ؛ دهشت حين وجدتهم يستقبلونها استقبالهم لشقيقة لهم ؛ أوفدتها

الأسرة لزيارتهم ؛ هي من لحمهم ودمهم ؛ انعدمت فيها ــ في نظرهم ــ الأنثى وبقى الإنسان ؛ الأخت القادمة من وسط اللعب فى حوش المدرسة ؛ التبادل بينهما هو لحنان الأقرباء ؛ الأحباء.نثرت هذه الأخت على الجميع سعادة بريئة خالصة ؛ نطقت بها الوجوه والعيون ؛ الأخت . . لا أعرف شعبا يعلى من معزتها كشعب مصر ؛ وتركنا لسعاد حسنى التعبير ببساطتها ووداعتها عن كل ما تكنه قلوبنا من عواطف نحو إخواننا الجنود ؛ لو لم نكن فى ركابها لكان نطقنا تلعثما إذ لو أفصح لما بلغ فصاحتها . وكانت سعاد حسنى وهى تقدم بحياء إلى الجندى هديته من الحلوى ترخى جفنها لئلا يرى الدموع التى تترقرق فى عينيها ؛ إنها دموع ليست من الجليسرين .

(« التعاون » ، العدد ٣٣٦ ، ١٩٦٩/٧/٢٧ ، ص ١٠)

من رسم قدر بصير ودود . .

يحق لوزارة الخارجية أن تفخر بأنها ـ لأول مرة فى عمرها غير القصير ـ قدمت للأمة رئيسا للوزارة ، وفى أى وقت ؟ فى وقت تمر فيه الأمة بمرحلة خطيرة حاسمة فى تاريخها ، وفاة الرئيس وظن الأعداء أن هذا البلد سيتمزق بددا ، الفرق بين الحل السلمى والحل العسكرى لرد العدوان وتحرير الأرض لا يزيد عن شعرة (تعود إلى ذهنى الآن كلمة معاوية) فإذا برئيس الوزراء الذى وقع عليه الاختيار بتوفيق بارع يفرض الاحترام بالإجماع فى الداخل والخارج ، وتعلق عليه الآمال باطمئنان .

فمحمود فوزى هو ابن وزارة الخارجية ، ونجمها اللامع ، ويحق لى أن أتكلم عنه لأننى كنت زهاء ربع قرن فردا فى الأسرة التى ينتمى إليها ، أسرة السلك الدبلوماسى ، وشغلت منصبا أتاح لى أن أكون أول من يتلقى تقاريره ويحل رموز برقياته التى كان يرسلها إلى وزارة الخارجية ورؤساء الوزارات المتعاقبة وأعرضها عليهم ، عن جهده فى الأمم المتحدة فأتبين

وفى هذا أبلهد على نفوسهم وتقديرهم له ، ولم يسلم هؤلاء السادة من حكة شهوة التغيير والتبديل ، والإسراع بنسبة الفرق بين الأمل والواقع إلى تصرفات الرسول الموفد ، لا إلى غموض فكر الراسل وتردده ، وأشهد أنهم بعد تقليب الأسماء كانوا ينتهون دائما إلى الإعتراف بأنه « ليس لدينا من هو أفضل من فوزى » تمسكوا به جميعا رغم تباين شخصياتهم وأمزجتهم .

ولكن لا بد أن أبدأ من البداية ، كنا نقسم رجال وزارة الخارجية إلى فئتين ، فئة – وهى الغالبية – نسميها أولاد الأعيان ، مظهر ولا مخبر ، ربما يجيدون الكلام بلغة أجنبية لأنهم تربوا فى مدارس أجنبية ، ولكن ثقافتهم ضحلة ومحدودة ، وقدرتهم على العمل صفر ، صناعتهم التمسح بالسراى والتزلف لها ، وفئة أخرى نسميها « العتاولة » الآخذين عملهم مهما هان مأخذ الجد ، هم التروس الصلبة التى تدور بها عجلة الوزارة البراقة ، وكان محمود فوزى من هذه الفئة ، التى لا يسعى بها قدم إلى السراى دوسا على الكرامة رغم الإغراء الشديد ، وقد شاء قدر بصير ودود أن يرسم له – كأنما عن عمد ووعى – مسار حياته ، فكان أول منصب شغله فى مدينة روما ، منبع الحضارة الغربية وفنونها ، ولما غادر هذه المدينة كان قد تعلم الإيطالية ، لأنه يعرف كيف يقضى الوقت الذى يصرفه غيره فى اللهو ساهرا أمام مكتبه ليدرس ويتثقف ، لا يقوى من الشباب على مثل هذا الضبط للنفس إلا أولو العزم منهم ، ثم قاده القدر إلى نيويورك – ثم إلى نيوأورليانز ، (كلمة نيو ومعناها جديد موجودة فى الاسمين) فوجد نفسه فى قلب العالم الجديد ووضع إصبعه على نبض ديناميكيته وعلى شواهد علله

أيضا ، صقل فى هذه الفترة نطقه بالإنجليزية ، كأنما يقول لـه القدر ، ستقف عما قريب فى المحافل الدولية تخطب بالإنجليزية ، فلا أريد منك رطانة الدخلاء عليها ، تصرف السامع بشذوذها عن تتبع المعنى أو عن احترام المتكلم .

ثم ساقه القدر البصير الودود إلى اليابـان ليعرف عن قـرب ما هى خصال شعبها العجيب التى أتـاحت له أن يلحق فى الشـرق بأرقى أمم الحضارة فى الغرب ،لقد تركت اليابان أثرا عميقا على محمود فوزى ، وقد رأيته وهو عائد منها فكدت أقول له : حتى ملامحك أصبحت الآن تذكرنا باليابان : وكما تعلم الإيطالية فى روما تعلم اليابانية فى اليابان ، وأنت تعلم كم هى عسيرة هذه اللغة ، اكتسب من اليابان أيضا هواية الرسم بالرمل الملون داخل الزجاجات ، هواية تجمع بين الذوق والصبر ، هذا لا شك شعاره الذى لصق به بعد ذلك : الذوق والصبر .

حينئذ قال له القدر البصير الودود : انتهت الجولة التدريبية ، عدالآن إلى القدس ، لتنغرز فى هذه القضية الخطيرة التى ستتعرض لها أمتك . والقدس فوق ذلك بؤرة الخصومات الدوليـة والطائفيـة ، والعقدة التى اشتبك فيها التاريخ القديم والحديث ، وكأنما لا فكاك لها ، إنها طـريق ملىء بالألغام ، لا يجتازه إلا من يمشى بحذر شديد ، وهو عالم بمعنى كل حجر ، وكل حفرة ، وكل إيماءة من جفن ، أو عدلة لغطاء رأس ، أو لون لثوب ،أو طول للحية ، فكانت القدس أفضل مهـد لولادة دبلومـاسى محنك .

تم التدريب والصقل ، إذن هيا إلى الأمم المتحدة ، لتكون ممثل مصر ، رأسك برأس كبار الساسة ودهاتهم ، هنا مجال عقد صداقات نافعة ، كذلك طريقك عند التفاوض ، وقت أوانه .

وعند قيام الثورة كان محمود فوزى سفيرنا فى لندن ،ولكنه استدعى ليكون وزيرا للخارجية ، وكانت الثورةتتلمس طريقها للعثور على وزير للخارجية يكون حسن السمعة ، مخلصا لبلده ، كفؤا لمنصبه ، وبعد تجربة لم تطل لم تجد أمامها إلا محمود فوزى . وهكذا ظل يعمل إلى جانب الرئيس وثيق الصلة به ، منذ مطلع الثورة .

وشاء القدر البصير الودود وهو يعده لرياسة الوزارة أن يخرجه من الأبواب المغلقة التى يؤدى وراءها عمله ليبرزه إلى عيون الشعب ،فرآه على الشاشة الصغيرة وهو يقدم تقريره فى أول اجتماع للمؤتمر القومى يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٦٨ ، فرأى الشعب كله هدوءه ورزانته واتزانه وحكمته وسيطرته على جو الجلسة ، بحزم دون أن تفارق الابتسامة شفتيه . . فى حديثه إلى الأمة فى ذلك اليوم تكررت كلمة العقل ، (إننا نعلم جميعا أنناقادرون إذا عقلنا .) سعة الخيال وامتداد الأمل مع التمسك بالعقلانية فى آن واحد ، هذه هى (الوصفة) التى نجد فيها حلول مشاكلنا السياسية والاجتماعية معا .

وقد شاقنى أيضا أن أجد الكلمة المتكررة فى أول بيان لانعقاد مجلس الوزراء تحت رياسته هى كلمة « النظافة » ، فنظافة المظهر رمز أو قل قرين لا بد منه لنظافة اليد ، والضمير ، والعقل .

(« التعاون » العدد ٤٠١ ، ١٩٧٠/١٠/٢٥ ، ص ١٠)

كومبارس

الكومبارس من ألزم اللوازم ، لا يتم المشهد أو ينجح إلا بفضلهم ، تدفعهم يد المخرج على خشبه المسرح وشاشة السينما ليتمكن « النجم » من تمثيل دور البطولة . هم أهل البلد يحملون نعش « هاملت » ، أو يزدحمون على المحطة فى انتظار السيدة العجوز ، أو يزعقون زعقة عظيمة حين يقتل « أورست » أمه كلتيمنسترا . وقد يقول واحد من الكومبارس عن البطل « أناو الله مثلت دورى أحسن منه » ولكن لن يذكره ناقد ، بل لن يحس به مشاهد واحد . لن يرد اسمه ولو فى الهامش وببنط ٦ فى كتاب عن تاريخ المسرح من عشرين مجلداً . ذنبه على جنبه ، إنه ارتضى لنفسه أن يقوم بدور الكومبارس . أما إذا قنع به طول حياته فهذه هى الخيبة التى ليس وراءها خيبة .

تستطيع أن تلخص ناريخ القرون الأخيرة بأنه مسـرحية يقـوم فيها استعمار أوروبا بدور البطل ويقوم فيها الشرق كله بدور الكومبارس ، مع

أن الكومبارس هم أهل البلد ولولاهم لما نجحت المسرحية . . .

تعال نُقلِّب صور هذا الألبوم :

فرانكو يدخل مدريد وسط كوكبة من فرسان مراكش ، هل تجد لهم ذكرا فى سجل أمجاد أسبانيا ؟ طبعا لا . لأنهم كومبارس . .

فرنسا حاربت دائما بجموع غفيرة من مراكش وتونس والجزائر والسنغال إلخ إلخ وانتصرت . هل تجد لهم ذكرا فى سجل فرنسا ؟ طبعا لا لأنهم كومبارس .

إيطاليا تسوق أهل الصومال لتحارب فى ليبيا وتسوق أهل ليبيا لتحارب فى الصومال والحبشة . هل تجد إيطاليا واحدا يرجع إليهم ولو ذرة من الفضل ؟ طبعا لا لأنهم كومبارس .

من أجلِّ أعمال محمد عاكف شاعر تركيا الأكبر قصيدة يصف فيها جيش إنجلترا الذى هاجم الدردنيل . قال إنه خليط من الهنود والزنوج وقبائل أستراليا البدائية . وكان هذا أيضاً حال جيشها فى الحرب العالمية الثانية . هل تجد لهم ذكرا فى سجل أمجاد إنجلترا . طبعا لا لأنهم كومبارس .

بعد الحروب تعال نقلب صفحات أخرى من الألبوم .

قطع سان جون فلبى الربع الخالى وألف كتابا عظيما عن رحلته . قلب صفحاته كما شئت ، لن تجد فيها كلمة واحدة تشير إلى الأدلاء العرب

الذين صحبوه وقادوا خطاه وأمسكوا بزمام بعيره وأرشدوه إلى الطريق. لا يذكرهم .

ــ طبعا ــ لأنهم كومبارس .

اكتشفت البنت الحلوة روزينا فوربس ــ فيما تزعم ــ واحة الكفرة فى بلادنا ، وكتبت كتابا عظيما وصفت فيه أحمد حسنين بأنه كان سكرتيرها الخاص ، ولو قلّت أدبها لقالت إنه خادمها الأمين ، مع أنه هو الذى قاد خطاها . لماذا أنزلته هذه المنزلة ؟ طبعا لأنه كومبارس .

هذا الفيلم التسجيلى الذى يرقد الآن فى أرشيف الجمعية الجغرافية فى إنجلترا شهدته فى باريس سنة ١٩٥٠ فلم يغب قط عن ذاكرتى . إنه رحلة بعض الإنجليز إلى قمة الهمالايا فى دفء ملابس ثقيلة ، على عيونهم نظارات شمس ، أحذيتهم ثقيلة لا يتسرب منها الثلج . أما الحمالون الهنود فقد لقوا عذاباً شديداً من الزمهرير لأنهم حفاة تجرح الشمس عيونهم كأنها طعنة سكين . هم الذين حملوا الأمتعة فوق البيعة ، وسندوا الأوروبيين بالكف حتى طلعوا معا إلى القمة . ولكن ليس فى الفيلم ذكر لاسم واحد منهم . لماذا ؟ طبعا لأنهم كومبارس .

آخر صفحة فى الألبوم :

صحراء قاحلة يعيش أهلها على الكفاف يأتى إليهم أوروبى ويقول لهم وقعوا بأختامكم على هذه الورقة . اتركونى أحفر هنا وسأعطيكم مالا كثيرا .

وينفجر البترول ويسيل إلى أوروباليبنى مصانع وينشىء حضارة وأهل الصحراء فى يدهم مال لا يعرفون شيئاً يشترونه به إلا السيارات الفخمة . لماذا ؟ لأنهم كومبارس .

وكذلك لم تجرؤ إسرائيل على إقامة دولتها إلا بعد إيمانها أشد الايمان ومعها أوروبا وأمريكا أن المنطقة كلها هى منطقة كومبارس .

لماذا ؟ لماذا ؟ لأن النجم الذى يلعب دور البطل يظهر على المسرح وفى جيبه مفتاح مهم جدا . مفتاح اسمه العلم والتكنيك راقد داخل علبة قطيفة مكتوب عليها « حضارة » .

هذا العلم هو الذى يقف وراء الخريطة الدقيقة والمكيروسكوب ومعامل التحليل وآلات الرصد وأدوات الحفر والتكرير وسفن النقل . وهذه الحضارة هى التى تقيم الجامعة والمعاهد والجمعيات الجغرافية . .

لقد رضى الشرق طويلا أن يقوم بدور الكومبارس ولكن التفسير الصحيح للنهضة الحديثة هو أنه لم يعد يقنع بأن يظل طول عمره من الكومبارس .

(« التعاون » ، العدد ١٧٣ ، ١٢/٦/١٩٦٦ ، ص ٨)

للحضارة العربية فى هذا الجزء من الأرض ، المهددة بالانسحاق والزوال ، من أجل إنقاذ هذه الحضارة كان لابد أن تتحول مصر سريعا الى دولة عصرية ، كان لابد من تجربة الوحدة مع سوريا ، من الذهاب إلى اليمن ، لا طلبا لبسط نفوذ ، كما توهم المسارعون إلى الريبة ولو من أخ شقيق ، بل لتجميع الأمة العربية صفا واحدا متحدا فى مواجهة العدو ، كم تحملت مصر من أعباء تهد الجبال ، فى الداخل والخارج ، من أجل صيانة هذه الحضارة وتحريكها ودفعها إلى الأمام ، جهاد رمزه عيد الثورة في كل عام ، وهو فى هذا العام ــ على دوى المدافع المطالبة بالثأر المبشرة بقرب النصر ــ أعظم جلالا وأفصح نطقا . . .

(مجلة « المجلة » ، العدد ١٥١ ، يوليو ١٩٦٩ ، ص ، ٢ ، ٣)

فى البال والخاطر

قلبى مع صديق عزيز مغترب ، عسى أن يبلغه صوتى فيعلم كم نحبه ونجله وندعو له . انه فى البال والخاطر ، لا ننساه . وحبة حنان وافدة مع النسائم من أرض الوطن سيجدها شجرة باسقة وارفة الظلال ، وتقريب كأس من الود إلى فمه عبر الأثير هو عنده اغتراف من نهرها العظيم . فتى لو لم ينبغ فى فنه لبقى نابغا فى آدميته . نعم الإنسان هو للناس جميعا سمح بشوش ودود ، فما بالك بـه إن كنت صديقـه . هيا ، تمتـع ماشئت من كنوزه ، هيهات أن يغتالها نزيف .

كم أشفق عليه ، إنه يدفع الآن ضريبة منحة جليلة اختص بها ، ذكاء مفرط حاد خارق ، أبى أن يسايره ببساطه كما يفعـل الأذكياء من عـامة الناس فى أخذهم للحياة من أيسر جوانبها ، فى قناعتهم بالنصيب والحسن أن عز لأحسن ، أما هو ، فلأنه فذ ، نـابغة ، أنفتـه لا تحطم ، وهمتـه ملحاحة ، يأخذ الدنيا غلابا ومن عتى قرونها ، طموحه لا حد له ، حتى

الكمال لا يرضيه تمام الرضى ، لأن لذته فى السعى لا فى الوصول فقد شد وراض ذكاءه قسرا على الاتقاد فى كل لحظة كالجمرة ، لم يصغ لعطوف يقول له : هذا الذكاء من فرط الاتقـاد قد ينسحق رمـادا قبل الأوان ، الجمرة قد تضىء ولكنها تحرق أيضا ، ينم عن هذا الذكاء عينان واسعتان فى خضرة البرسيم والندى ، عسير على جفن كل عين مهما تطاول وانشد أن يسترها كأنما لابد أن تستبقى ولو شقا ضئيلا كحز السكين تطالع منه الدنيا نورا وظلاما . هى أيضا كعين بصيرته ، عدسة بلا غطاء تنبعث من هذه العين ، لا ، بل تثب منها نظرة فى قمة اليقظة ، لا ، بل فى قمة الانتباه ، لا بل فى قمة التحفز ، لا ، بل فى قمة الافتراس ، مصوبة فى وقت واحد إلى الأمام ، إلى الجنب ، إلى الأعلى إلى أسفل ، ثم لا تستطيع أن تقول إنها زائغة تائهة ، ستؤمن أنها تلاحق مقصدها وهى به عليمة متيقنة ، إنها شص مصنوع لصيد الحيتان والدود ، لها سكون مستفيض تماثل به نظرة النسر على قمة شاهقة يرقب بصبر قطاة تتخفى فى دغل ببطن الوادى ، لها وميض خاطف تماثل به نظرة القطة : برق وشرر وكهـرباء وتسد يد . . بشرط من لهيب يموج عليه قوس قزح .

وقد تقول عن نظرته لأنها تنتح من أغوار سحيقة مجللة بالأسرار أن لها من نظرة ساهرة الليل بين الأطلال جمالها وسلامها إذ هى ساهمة فى وضح النهار ، ونظرة هذا الفتى فوق ذلك جوابة ، كالمصباح الكشاف ، لا تقنع بحد الأفق ، بل تصر أن تتخطاه وكنت أحس تلك النظرة تنفذ من خلال ثيابى وجسدى ، لحما وعظما أحس بها ، أنها ترفعنى من الأرض .

تطوح بى معها على مدار الأفق . على حافة هوة مخيفة مجهولة أصبحت

ريشة فى جناحها ، يالها من رجة تنفضنى . لم يستمع لعطوف يقول له : لك رفق بالناس فارفق بنظرتك . لا تبقها عطشى إلى الخشوع ، دعها ترتخى بعد شد ، دعها تلملم سهامها المتناثرة إلى محجرك ، كالعصفور إلى عشه لتتنفس قليلا وهى هادئة مطمئنة .

إنه يدفع الآن ضريبة نهمه المسعور للمعرفة ، لا لتحصيلها لذاتها ، بل لشهادة قدرها على قدر كرامته وهو يريدها فى القمة ، منتصرة على كل تحد ، غير خائبة فى امتحان ينقب عن المعرفة لا بفأس الأثرى بل بمبضع الجراح ، فما وقع على شعرة إلا شقها نصفين ليرى خلقتها ، على أخفى عاطفة إلا تغلغل فى أحشائها ليفض سرها ، وصم أذنيه عن عطوف يقول له : حذار من أن تتكشف لك من تحت المسائل مشاكل يستعصى على عقلك فحصها وبالأولى فهمها ، ستتجمع هذه المشاكل وتطبق على عقلك كالقيد ، ستجثم فوقه كالكابوس ، حذار من أن تتفتت فى قبضتها ، لا تلبث مشكلة داهية أن تقودك إلى مشكلة أدهى إلى أن يواجه عقلك مشكلة الكون ، كأنه يصطدم بجدار أصم،حذار من مثل هذه الصدمة إنها مزلزلة له ، مؤذنة باختلاطه،تعدل مأساة كونية ومهزلة أرضية فى نفس واحد ، لك حد أعرفه لكى تقف عنده ، حتى الرسول وقف عند سدرة المنتهى .

إنه يدفع الآن ضريبة إيمانه بأن له رسالة ينبغى أن يؤديها ، يتفزز لأن العمر مهما طال أقصر من أن يكفيها . فهو فى عجلته محموم أبدا . رسالته أن يكشف الحقيقة للناس . أن يحط عنهم بهذا الكشف أغلالهم . فتتطهر نفوسهم من الدمامة والقسوة والظلم . إنه يحلم بجمهورية من الملائكة

على الأرض . فإذا الأرض جنة . وكان لابد له أن يحتضن كل إنسان ، وأن ينفذ تحت جلده ليعرف همه . . لم يمنح سمعه لعطوف يقول له : حذار : . إذا عرفت هذا الهم أصبح كأنه همك . ستتجمع هموم الناس فى نفسك فإذا هى حامض متلف لها.سترى أنك شيئا فشيئا ستحيل الهموم من تشخيص إلى تجريد فإذا بك فى بيداء ليس بها معالم ، ذاب أنين كل حبة رمل فى صمتها الرهيب ، وهذا هو نطقها بالغناء سيضل بها عقلك ، حذار أن لا يكون رقى نفسك إلا رقيا للصليب ، فتستشهد وأنت فاتح ذراعيك للقطيع .

ياولداه . لأنه نابغة فقد سبق الركب،والذى يسبق الركب كالذى يتخلف عنه ، لابد له أن يشعر بالوحدة ، لها صقيع كالنار تتقدد عليه روحه ، ربما خيل له من فرط لهفته على المشاركة أن هذا السبق هروب ، فإذا فوزه لا يطيب نفسه ويرضيها ، بل يبتليها بوجع أليم.كنت لا أراه إلا أحسست أنه يتكتم عذابا يضنيه .

لعل الذى جره من قياده فاستبسلم كالذبيحة هو تحقق حدسه الصادق بأن سحابة مطرها دموع ستظلل حبيبته ، أمه ، أم الصابرين وأنها ستصاب بجرح بليغ . وحين لم يدر كيف يفديها خر صوابه ، وجثا على الركبتين ، هكذا كانت صلاته لها .

سحب يده الرقيقة من يدنا العاجزة وابتعد قليلا قليلا ليخامرنا بأنه غير ماض بلا مقصد فى رحلة طويلة ، لئلا يقول وداعا ، عين الوقت الذى هو فيه ملء السمع والبصر ، يعتز به وطنه ، ما من أحد عرف شخصه

أو قلمه إلا أنزله فى قلبه منزلة الإعزاز والإعجاب . أدبه يتدارسه قومه وأقوام أخرى عديدة من وراء البحار تترجم له،وإذا كتبوا القائمة وضعوا اسمه على رأسها ثم من تحته بمسافة كبيرة يأتى اسم آخر سدادا للخانة . . . ولكن هيهات لغيابه أن ينسينا ذكره ، إنه لا ينفك فى البال والخاطر . إننى واثق من رحمة ربه ، فما محنته إلا تجربة عابرة وإن تكن قاسية ، ما إن تقوم أمته عن قريب من كبوتها حتى يقوم هو من كبوته ، سنظل نقف فى المحطة فى انتظار عودته مبتسما ، سليما معافىً .

(« المساء » ، ١٩٧٢/١/١٧ ، ص ٤)

يصف المؤلف فى هذا المقال الأديب الكبير « ى . إ . »

سجل هذا الشعب

أى عجب ! . لم يترك غير هذا الشعب سجلا كـاملا ، بـاقيا عـلى الـدهر ، مستـوعبا لكـافة معيشتـه ومعتقداتـه ، علومه وفنـونه ، عمله ولهوه . . ما من ساعة من عمره إلا قلنا كيف كان يقضيها ، وما من مهنة مهما هانت إلا كان لها نصيب فى هذا السجل ، يشرح التدرب عليها ، ثم أداءهـا خطوة خـطوة ، بحشد من قـوى البدن تنـطق بالصبـر والتجلد والصمود ، تتبين فى الحركة ، وبحشد من قوى الـروح تضىء ، وتهلل وفرح على ملامح الوجه ، هيهات أن ترى وجها عابسا أو محنقا أو مجهدا .

لا يدانيه شعب آخر فى هيامه بالخلود ، ولأن الحياة على الأرض مرحلة عابرة مؤدية لعالم الحق فإنها اتقدت بين يديه وتفجرت ، حياته بلغت ذروة الحياة .

أتأمل صورته وهو عارى الرأس ، غير متشح إلا بإزار قصير ، لم يشأ إلا أن يقدم لنا شبابه ، لأن الشباب هو الصلابة والنضارة معا ، عدة اليوم

وأمل المستقبل . فلم أر فى هـذا السجل شيخـا أو عجوزا ، شبـاب فى عز الفتوة . الجسم ممشوق . . إذا عمل فبجد . . وإذا خطا فبعـزم . . الرأس مرفوع ، والنظرة دائما الى أمام . . جسور غير منكسرة ، لم أر من هو بدين أو أكرش . . تكريما لكرامة الجسد وسيـطرة الارادة والريـاضة عليـه . . شعب يهيم بالمثـل العليا والحـدود القصـوى ، يـأنف القليـل والدنىء . . إن مقبرة فهى الهرم الأكبر ، إن معبد فهو الذى تراه فى الأقصر بمساحته الشـاسعة وأعمـدته الضخمـة . . إن تمثال فـالذى تـراه فى أبى سنبـل . . لم يتضخم رأس إنسان ألف مـرة إلا عنده ، كـما تراه فى أبى الهول .

هذه الخصلة لصقت بطبعه ، هيهات أن يبليها كر الأيام ، تغمض العين ثم تفتحها عليه بعد أن أشرق فى سمائه نور الإسلام ، فنرى مسجد ابن طولون كأنه معد لمن أراد أن يصلى الجمعة من أهل العاصمة جميعا ، ومسجد السلطان حسن بقوسه العظيم ومئذنته التى علت جميع مآذن العالم الإسلامى .

وقبل الوداع رأيت أكبر سد وأكبر بحيرة من صنع الإنسان .

لم يعش شعب كما عاش هذا الشعب منذ فجر الوجود والضمير ، فى أرضه . حددتها له الطبيعة . لا قلم إنسان فى معاهدة او اتفاق ، متصل تاريخه بلا انقطاع . . غذته دماء متتالية ، زكت بها وإن لم تتبدل أرومته .

شعب حمال لأعباء المسئولية مهما ثقلت ، حفاظا على استقلاله وحرمة وطنه . . غير عامل حسابا فى أنانية إلا لنفسـه . . مصلحة بقيـة الأسرة

والعشيرة والجيرة هى مصلحته ، كما صد الغزاة عن أرضه صدهم عن أرضهم ، من هكسوس ومغول وتتر ، والآن جاء دور الصهاينة ، لا يغمض عينيه عن الخطر حتى ولو لم يبلغ واديه . . بل يسارع للنجدة ، غير منتظر أن يأتيه من يستصرخه . . بل أكاد أحس وأنا أتأمل تاريخه أنه يهيم بحمل الأثقال الجسام ، متطوعا ، بقى له الغرم ونسى الغرام ، من غيره يحمل اليوم مثله أعباء مكافحة الاستعمار فى قارته ، بل فى كل مكان يسترق فيه الإنسان ، أعباء مكافحة العنصرية البغيضة ، أعباء القومية العربية وهى تمر بمرحلة المخاض بأوجاعه نحو ولادة الوحدة الحتمية . . لا يطلب لنفسه استعلاء ولا فرض سيطرة ، ولا حتى اعترافا بصنيعه . . لا يطلب إلا الوفاق والمناصرة . . ويطلب ـ لأنه عواطفى ـ صدق الود والريق الحلو . .

هذا الكلام من إملاء اليوم الذى كتبته فيه . . يوم ٥ يونيو . .

(جريدة « التعاون » ، العدد ٣٨١ ، ١٩٧٠/٦/٧ ، ص ٨)

هذا الشعب

بعض الأحداث ، لأنه مولود على قمة الحدة ، شديد التضخم ، عنيف الأثر ، يحمل على الظن ــ بسبب أن مقدماته كانت قد أزمنت فبدت أقل خطرا ــ فى الظاهر المتلبس بالتغرير ــ إنه مفاجأة لم تكن متوقعة ، أو بداية تفتح صفحة جديدة من التاريخ ، أو تستحدث موقفا طارئا تتطلب معالجة مبتكرة ، وما هو فى الحقيقة إلا حلقة فى سلسلة من طبيعة واحدة أفضى بعضها الى بعض ، المنطق لم ينكسر ، فإذا رددنا الحلقات ــ سوابقها وآخرها ــ إلى مقياس المدى الطويل تساوت حكما ، وكثير من الناس فى يوم ٥ يونيو ــ نظراً لحدته وجسامته وعنفه ــ خضعوا لهذه المظنة فى لحظة الجزع فى حضن الذهول ، ثم ردهم وعيهم الغريزى سريعا إلى إدراك حقيقته فكانت استجابتهم مبادرة ثورية .. تلقائية لرفض الهزيمة ، عقد العزم على الصمود ، على تحمل الآلام ، على الوقوف فوق القدمين مهما أثخن الجسد بالجراح واصطبغ بالدم . والسند هو الصبر ، لأن له فى ثرى بلادهم الضاربة فيه جذورهم معينا متراكما لا ينضب ، كم صبرت

مصر . فكان الصبر أقوى أسلحتها للانتصار على العدو ، على الظلم ، وكانت التوقعات الحكيمة . والبصيرة تؤكد كلها أن هذا الشعب سيخر على الأرض .. سينهدم فى وهدة اليأس سيستسلم بلا قيد أو شرط أو إن بقيت له ذرة من قدرة فسيقول لننقذ ما يمكن إنقاذه ، نساوم ، نصطلح ونحن صاغرون .

وليست هذه أول مرة يحار فيها الأعداء ــ بل الأصدقاء أيضا ــ فى فهم مسلك هذا الشعب وقت الأزمة وعند الشدة ، يخدعهم انبساط أرضه ، ولين طبعه ، كراهيته للعنف، تحرره كل التحرر من التعصب ، حتى لنفسه ، فيظنوه هشا ، مفككا ، لاهيا ، قانعا بيومه أيا كان ، حاملا وزره على محمل القدر ، إباؤه مزعزع وغضبه كغضب الأطفال ــ سريع الاشتعال ، سريع الانطفاء ، لأنهم لم يروا منه ــ هذا الجبل الغارق فى غيابات التاريخ ــ إلا قمته المخروطية الطافية ، براءتها تخفى نذيرها ، وغابت عنهم صلابة هذا الشعب وعراقته ، وقدراته الكامنة ، نسوا أن مصر ملكت شخصيتها واتصلت حضارتها منذ فجر التاريخ . . فليس حسابها كحساب أى بلد آخر .

فإن كان يوم ٥ يونيو نكبة فإن هزيمة حرب سنة **١٩٤٨** كانت نكبة ، والهدنة نكبة ، ونقض الهدنة نكبة ، واحتلال النقب نكبة ، بل إنشاء أول مستعمرة صهيونية فى فلسطين سنة ١٨٨٢ كان نكبة ، هذه هى الحلقات التى أفضت الى ٥ يونيو ، تنفرد من بينها نكبة الهزيمة فى حرب سنة ١٩٤٨ ، بأنها هى التى حددت مسار مصر من بعد ، ففى الرماد المتخلف عن هذه الحرب نبتت بذرة ثورة ٢٣ يوليو ، لأن مصر هى العمود الفقرى

للحضارة العربية فى هذا الجزء من الأرض ، المهددة بالأنسحاق والزوال ، من أجل انقاذ هذه الحضارة كان لابد أن تتحول مصر سريعا الى دولة عصرية ، كان لابد من تجربة الوحدة مع سوريا ، من الذهاب الى اليمين ، لا طلبا لبسط نفوذ ، كما توهم المسارعون الى الريبة ولو من أخ شقيق ، بل لتجميع الأمة العربية صفا واحدا متحدا فى مواجهة العدو ، كم تحملت مصر من أعباء تهد الجبال ، فى الداخل والخارج ، من أجل صيانة هذه الحضارة وتحريكها ودفعها الى الأمام ، جهاد رمزه عيد الثورة فى كل عام ، وهو فى هذا العام ــ على دوى المدافع المطالبة بالثأر المبشرة بقرب النصر ــ أعظم جلالا وأفصح نطقا . . .

(مجلة « المجلة » ، العدد ١٥١ ، يوليو ١٩٦٩ ، ص ٢ ، ٣)

مؤلفات يحيى حقى

١ ـ قنديل أم هاشم ـ مع سيرة ذاتية للمؤلف
٢ ـ فجر القصة المصرية ـ مع ٦ دراسات من نفس المرحلة
٣ ـ فكرة فابتسامة
٤ ـ صح النوم
٥ ـ خطوات فى النقد
٦ ـ دمعة فابتسامة ـ مع الدعابة فى المجتمع المصرى
٧ ـ دماء وطين ـ مع قصص أخرى من الصعيد
٨ ـ تعال معى إلى الكونسير ـ مع الكاريكاتير فى موسيقى سيد درويش
٩ ـ ناس فى الظل ـ مع شخصيات أخرى
١٠ ـ أم العواجز
١١ ـ حقيبة فى يد مسافر ـ ورحلات أخرى
١٢ ـ عطر الأحباب ـ مع ٢٠ دراسة أخرى
١٣ ـ عنتر وجوليت ـ مع ١٠ لوحات أخرى
١٤ ـ ياليل ياعين ، سهراية مع الفنون الشعبية ـ مع مقالات السيرك والمولد
١٥ ـ أنشودة للبساطة ـ مقالات فى فن القصة
١٦ ـ خليها على الله
١٧ ـ صفحات من تاريخ مصر

١٨ ــ من فيض الكريم
١٩ ــ الفراش الشاغر وقصص أخرى
٢٠ ــ مدرسة المسرح
٢١ ــ هموم ثقافية
٢٢ ــ تراب الميرى
٢٣ ــ عشق الكلمة
٢٤ ــ من باب العشم
٢٥ ــ فى السينما
٢٦ ــ هذا الشعر

تحت الطبع

٢٧ ــ فى محراب الفن (موسيقى ـ تشكيل ـ عمارة)
٢٨ ــ كناسة الدكان

الفهـــرس

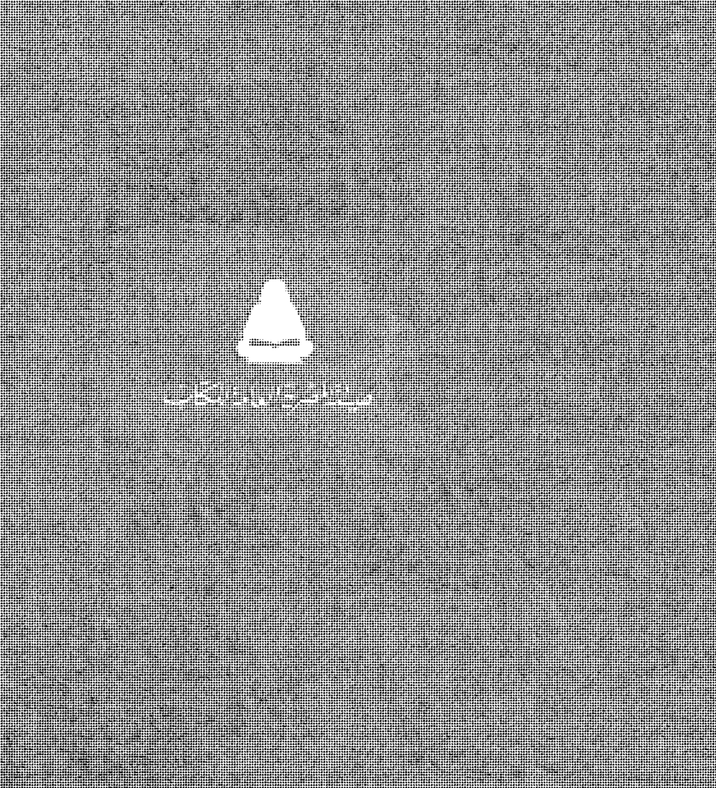
صفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للـكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٤٤٢/١٩٨٩

ISBN ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ٢١٦٢ ـ ٢





« . . لم يعش شعب كما عاش هذا الشعب منذ فجر الوجود والضمير . . شعب حمال لأعباء المسئولية مهما ثقلت حفاظا على استقلاله وحرمة وطنه غير عامل حسابا فى أنانية إلا لنفسه . . مصلحة بقية الأسرة والعشيرة والجيرة هى مصلحته ، كما صد الغزاة عن أرضه صدهم عن أرضهم ، من هكسوس ومغول وتتر ، والآن جاء دور الصهاينة . . » .

بمثل هذه الكلمات عبر يحيى حقى عن فهمه لروح شعبه فى هذا الكتاب الذى يضم العديد من تأملاته فى تاريخ مصر . . بعضها نتيجة قراءات عميقة ، وبعضها الآخر ذكريات لمواقف عاشها بنفسه وأحداث عاصرها ، سجلها بأسلوبه الأدبى الفذ فتحولت إلى متعة فنية نادرة . . إن أضاءت مراحل هامة من تاريخ مصر ، فهى تكشف فى الوقت نفسه عن جوانب من وجدان الكاتب الكبير وطبيعة فهمه لتاريخ بلاده وتأثره به